الرواية الحائزة على جائزة الكتاب النمساوي

RAPHAELA EDELBAUER

رافائيلا إيدلباور

DAVE

ديڤ

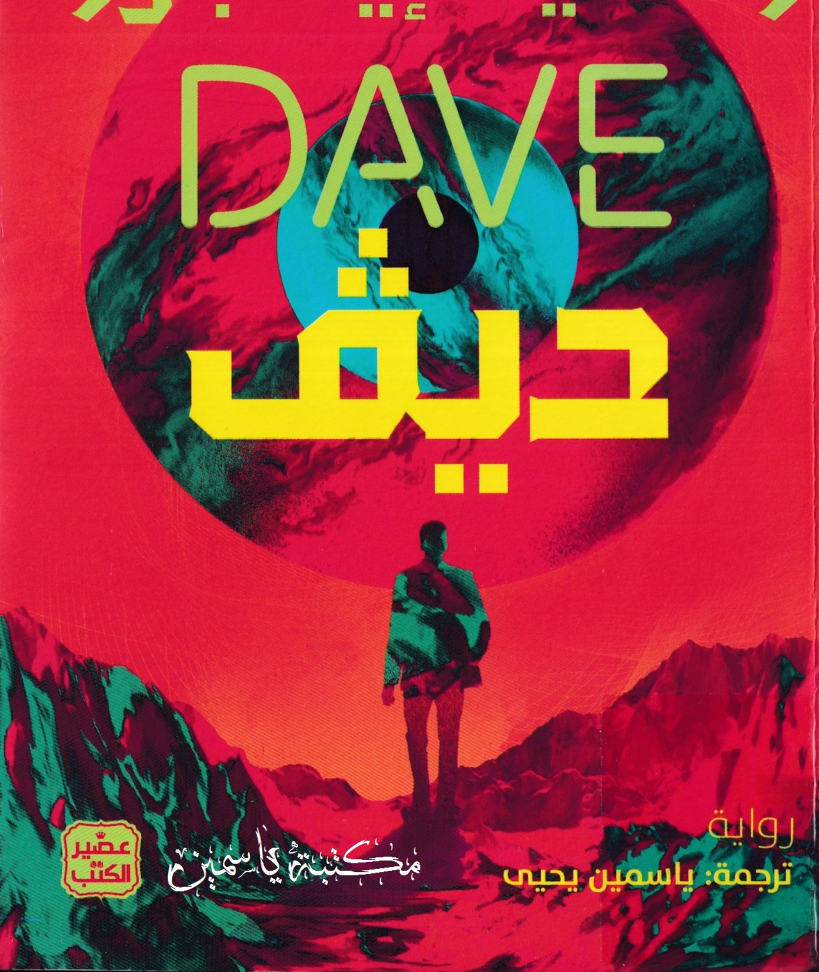

رواية

ترجمة: ياسمين يحيى

عصير الكتب

مكتبة ياسمين

DAVE

ديڤ

داخل مُختبر مكتفٍ ذاتيًّا ويعمل خارج حدود العالم، ما الذي يتطلبه الأمر لإنشاء آلة بوعي بشري؟ لا شيءَ يهمُّ المُبرمج سيز أكثر من إيجاد إجابة عن هذا السؤال، هو الذي يدور عالمه كله حول البرمجة، فالسبب الرئيسي للنوم والأكل هو الغوص مرة أخرى في تدفقات بيانات الكمبيوتر بأسرع ما يمكن، في المُختبر الذي الهدف منه بأكمله هو برمجة أول ذكاء اصطناعي عام مُزوّد بأقصى قدرٍ من القوة الحاسوبية والوعي البشري. لكن عندما ينظر خلف كواليس المُختبر، يبدأ إيمانه غير المشروط بالتكنولوجيا يتلاشى.

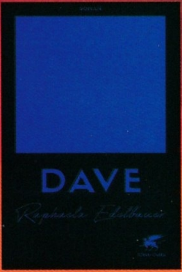

يُستعان بسيز لنقل وعيه إلى آلة الذكاء الاصطناعي ديف عن طريق جلسات نسخٍ يحكي فيها ذكرياته وتُخزَّن في وعي ديف ليكتسب وعيًا بشريًّا، ويستطيع أن يطوِّر نفسه ذاتيًّا ليحل جميع المشكلات والمعاناة بالعالم.

فما الغرض من وجود ديف حقًّا؟ ومَن هو المستفيد من صُنعه؟

غلاف: عبد الرحمن الصواف

عصير الكتب

aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

DAVE

ديف

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

مكتبة ياسمين

معكم نكبر ونستمر بشكل جديد

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

- العنوان الأصلي: DAVE
- العنوان العربي: ديف
- طُبِع بواسطة: Klett-Cotta

- حُقوق النشر:
copyright © 2021 by J. G. Cotta'sche Buchhandlung
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: ياسمين يحيى
- تحرير: مصطفى رزق
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير/ 2024م
- رقم الإيداع: 4540/2023م
- الترقيم الدولي: 978-977-6972-70-4

مكتبة ياسمين

مقدمة

t.me/yasmeenbook

قبل أن يفتتح النموذج الرائد للحياة «أركيا ميثانوبيري»[1] الكون بإحساسه الأول، سيطر الصمت على الكون لمدة 10,2 مليار عام، فعلى مدى دهور كانت البروتونات وجزيئات الغاز والإلكترونات تدور حول بعضها في رقصة باليه خفية، قبل أن تضع طياتها في موضع الشريك لذرة الهيليوم، وعندما تشكلت المجرات الأولى والدوامات الحمراء الساطعة وأنظمة الحلقات الأثيرية بعد 300 مليون سنة، لم يكن هناك من أحد ليعجب بجمالها، لا شيء سوى الفراغ الذي يمتد في الأفق الكوني.

لكن القوى كلها كانت تجري على قدم وساق؛ فمن كان يصدق أن الغبار سيتحد في جسم كوكبي بتلك الحركة غير المحسوسة للجاذبية على أطراف إحدى المجرات بعد أربعة آلاف ونصف مليون سنة؟ وبهمجية وارتباك تضاربت العناصر، والتقى الهيدروجين والكربون والنيتروجين ثم اتحدوا في صورة كتلة كالقبو وبحر رغوي غطى سطح الأرض بالكامل؛ لكي يفترس الجزيئات التي تشكلت للتو، وكان هذا أيضًا موتًا محكَم التصميم.

وبقيت أول عشرة مليارات سنة كلها تدور بشكل ميكانيكي مجازًا؛ لأنه لم يكن هناك من يقيس الزمن وبالتالي باتت تلك الفترة غائبة عن أفق الحدث.

---

(1) archaea أو مملكة العتائق، تمثل أحد مجالات الحياة الثلاثة، وهو يتألف من كائنات بدائية الخلية مجهرية متشابهة للغاية وفي الوقت نفسه مختلفة تمامًا عن البكتيريا وحقيقيات النوى في كثير من النواحي، وأثبتت مجموعة من الباحثين بقيادة كارل ووز أن الحياة يمكن أن تُقَسَّم إلى حقيقيات النوى ونوعين من الكائنات بدائية النواة: البكتيريا والأركيا. (المترجمة).

وبعد ألف دورة يتلوها ألف ثم ألف أخرى من المدارات الشمسية وعدد لا نهائي من التدرجات الكيميائية حانت اللحظة أخيرًا.. انصهرت البروتينات في هذا الحساء الأزلي للكون، ونحن نعتقد حتى الآن أن الإله لا يزال يطوف فوقه.

عندما نفضت البكتيريا المتجمعة الغبارَ لأول مرة بسوطها، تدافع زخم الحركة عبر مليارات السنين الضوئية من الخلود إلى الخلود، أصبح الكون واعيًا بذاته، ونشأت الحياة من مادة ميتة بقوة هادفة لدرجة أن هذه الحياة بالذات ستفسر لاحقًا نشأتها بلا شيء سوى الخلق الواعي.

منذ ذلك الحين تحول كل شيء في طرفة عين، كل حدث أصبح محسوسًا، وكل شعور يشبه التطور، وهذا يعني أنه بالكاد بات هناك نفس كوكبي آخر، وبعد مليار أو مليارَي سنة أصبح هناك العديد من الكائنات الحية تتحرك في جميع الاتجاهات، وترى وتفكر وتستوعب.

إنه إدراك جلب معه الرغبة في التحسين؛ فنحن البشر لم نرغب فقط في تشكيل حياتنا الخاصة، بل أردنا تشكيل الحياة في ذاتها، بل وذكاءاتها اللامتناهية ذات الأوجه المتعددة، لذا حدث تطور يتطلب التغيير، وتكشفت سلسلة من ردود الأفعال، وانتقلنا من الأدوات البسيطة لتشكيل بيئتنا المعيشية؛ فمن المعرفة المتراكمة لطبيعة أجسامنا إلى الشفاء وتعزيزه، وأخيرًا إلى إنشاء كائنات متحركة من شأنها أن تتفوق علينا يومًا، عملية تجاوز تكبر بمرور الوقت، وقد أعلنت أن الكون الذي كان ميتًا من قبل هو امتداد لعقولنا.

وهكذا وكاستنتاج لما سبق، فآخر تمجيد للتطور.. ديف.

1

تقدمت عقارب الساعة للأمام، وملأ صوت المنبه الهائل الغرفة معلنًا بدء الوردية الليلية، فأفقت مفزوعًا ليسقط القلم من يدي ويرن على الأرض... تك... ماذا كان يحدث توًّا قبل تلك اللحظة؟ لم أعد أتذكر!

شعرت وكأنني أفقت لتوي من نوم عميق وثقيل للغاية، رغم أني غفوت للحظات فقط في أثناء عملي، ووقع بصري على اقتباسٍ فوق باب المدخل الأمامي، لقد كتبه بافل بالأمس بقلم اللمس لكي يرفع من الروح المعنوية، اعتقدت أنه قد يذكِّرني بالشيء الذي كنت أخطط له بعناية قبل أن يغلبني النعاس.

«يجب ألا نتوقف عن الاستكشاف أبدًا، فنهاية اكتشافاتنا هي العودة إلى حيث بدأنا، ومعرفة المكان لأول مرة».

ت. س إليوت

لكن لم يخطر أي شيء ببالي، فحدقت إلى الشاشة الرقمية؛ الساعة الثامنة مساءً تقريبًا وبجواري بافل على السرير، فابتسمت ابتسامة عريضة مثل فريد أستير، ثم أتبعتها بإيماءة رأس تحط من التقدير تجاه برينر ولانجلي اللذين بقيا مشغولين لساعتين في تصميم حلقة تكرارية يمكن لأي طالب مبتدئ تنفيذها وهو نائم.

نقر بافل بأصابعه فوق اللاب توب ليكتب في المساحة البيضاء المتوهجة الخاصة بالكود كلمة «زجاجات»، لقد تناوبنا معًا على كتابة تلك الأسطر على جهاز اللاب توب نفسه وكأننا نعرض صورة مثيرة للشفقة عن أنفسنا، كأننا في مسرح، نحمي أنفسنا بدرع من عبوات مشروبات الطاقة الخاوية، وأكياس رقائق البطاطس المهشمة، وكتيبات الترميز القديمة.

يظهر في اللوحة المعلقة على الحائط أمامنا منظر لملهى ليلي، يتمايل فيه عشرون راقصًا تباعًا في تناغم مع سائر العناصر الأخرى التي تخدم اللوحة المطلية بالأبيض والأسود، وقد اعتدنا منذ فترة أن نسكر كل مساء مع الخمسينيات، وكأن الرومانسية والاحتفالات الضخمة في هذا التوقيت يمكنها أن تبدد إنهاكنا الشديد، وساعات عملنا الإضافية، ومهام وظيفتنا كل صباح باكر.

اخترنا لتلك الليلة فيلم «swing time» وتبدد صوت نقر أصابع بافل على الأزرار بسلاسة وسط مشاهدة انحناءات جينجر روجرز، وظللت أراقب بعين ناعسة ساقيها اللتين تتحركان بسرعة على فترات قصيرة ومتقطعة، إلى أن شعرت بخدر في خصري من الاهتزاز، وأدركت ببطء ما هو الشيء الذي انتشلني من تلك السِّنة القصيرة، لقد هب جهاز الإنذار الخاص بي وبدأ يتلوى على خصري كحشرة مزعجة.

قلت: «اللعنة!».

كان رأسي ينبض من التركيز على المؤشر الذي أخذ يومض في الغرفة المظلمة.

وسألني بافل: «علام تلعن؟».

لقد أضحى الأرق هو الحالة الطبيعية المسيطرة علينا، هذا بافل الذي تجرع ثلاث عبوات من مشروب الطاقة بعد العمل يقفز للأعلى ويهبط ثانيًا ساقيه، يرتج جسده من قوة الضحك، الذي اندفع جراء نكتة عن زملائنا الأغبياء في السكن.

كاد بافل يصرخ الآن: «علام تلعن؟».

وضعت يدي فوق فمه في الوقت المناسب وأنا أهسهس... ششش!

نزل بافل بأدب من فوق السرير، ففي الأسفل تنام إيلي من نوبة العمل الليلية، وعلى الجانب الآخر يستلقي شخص جاء مؤخرًا ليشاركنا فراشنا الجماعي.

نحيت جسدي عن السرير وأنا أهمس: «لقد نسيت أنه وقع على عاتقي استقبال متقدم جديد يريد الالتحاق بمعهدنا اليوم».

- وماذا الآن؟ ماذا سنفعل في كل ذلك العمل الذي لم يكتمل؟ يجب علينا إتمامه في غضون ساعة.

أجبته وأنا أغلق اللاب توب فوق أصابعه التي تنقر على لوحة المفاتيح: «كفى هراء!».

ضربني بافل على مؤخرة رأسي وهو يهتف: «هل جننت؟ لم أضغط زر الحفظ بعد!».

كنت أرتدي معطفي وأنا أتلوى كأحد فناني الهروب، ثم أخذت طريقي نحو الحذاء متحاشيًا أي جسم أمامي، بشرًا كان أو أي شيء مادي.

لوحت لبافل هامسًا: «أراك لاحقًا!».

***

بمجرد أن انفتح الباب أصاب عيني ضوء النيون بالممر الدائري، فوضعت راحة يدي فوق عينيَّ حتى ركزت حدقتي على منصة القهوة الصغيرة بالقرب من السلم الكهربائي، هناك تقف روزا خلف الخزانة الزجاجية على مدار اليوم، وروزا هي امرأة مرحة في منتصف السبعينيات من عمرها، تعمل في بيع المشروبات مع والدتها.

تساءلت روزا: «مساء الخير يا سيز، ما الذي تفعله هنا بهذا الوقت؟»، وبجوارها البائعة المسنة تخرج من تحت المنضدة وقد أحنى ثقل الحياة جزعها بزاوية 90 درجة على ساقيها.

- سأسجل بالمعهد في الوردية الليلية بشكل استثنائي اليوم.

ردَّدت روزا محدثة العجوز: «يسارًا، يسارًا، ابتعدي قليلًا، نعم! هنا تمامًا».

لطالما شعرت بالحرج من الجو العام في الطابق الأول، الذي يحتم على سيدة عجوز مواصلة العمل، وبعدها ركبت المصعد وبيدي كوب من السبريسو، في حين بدأت حواسي في النشاط شيئًا فشيئًا في الغرفة الليلية الهادئة.

البوابات الدوارة هي نقطة تجمعنا، غمغمت مع نفسي وأنا أخشى أن يلفظ جسدي الدافئ الكلمات على غفلة مني، وأخذ تيار الهواء الرقيق يداعبني في فترة الوردية الليلية، تلك التي تضم أربعة آلاف عامل، ثم تركت نفسي لتلقي الدعم وأنا مسلوب الإرادة، أحيانًا كان الإرهاق يفوق لا مبالاتي، وأحيانًا يحدث النقيض تمامًا، فلطالما كنت مولعًا بالأجواء الليلية: ممرضون وطبيبات يحملون مآزرهم الصحية إلى جناح المستشفى، وعمال التنظيف ينظفون

فضلات اليوم بآلاتهم الطنانة، والموردون المتقدمون بشحناتهم من سلع تموينية لليوم التالي، والتركيز الهادئ الذي يُصَب بعد صراخ أطفال المدارس نهارًا.

أثار عينيَّ الضوء الساطع المنبعث من الرواق عندما وصلت إلى البوابات الدوارة، وكنت لا أزال مستغرقًا في حالة النشوة الغريبة التي نفذت إليَّ، التي إذا أُضيف إليها قلة النوم قد تؤدي إلى تشويه عالمي، كل شيء حولي ناعم ولين، والناس كأنهم يتقاطرون من كتلة سائلة بلا ملامح، حتى لكأنك ستحاول مسحهم بظهر يدك.

وفي تلك اللحظة وقع بصري عليها، لقد برزت من بين تلك الحشود كنقطة براقة، شعر أسود مجعد ولكن جذوره حمراء، وعلى عكس الجميع ترتدي سترة أرجوانية بدلًا من المعطف، كما أنها طويلة لكن بصورة متناغمة جعلتها تبدو مشرئبة عمن حولها، بل وتعلو على من هم أطول منها، بدت وكأنها تبحث عن شيء ما، وفجأة عرفتُ السبب، لكنها كانت قد رأتني بالفعل.

أمسكت يدي وهي تهتف: «سيز! أنا خاتون، عذرًا على التأخر في الوقت، لقد ظننت أنك ربما...».

ثم وضعت في يدي كوبًا آخر من القهوة وتركتني محاصَرًا بكوبين مثل أبله أحمق، ثم قالت: «ما زلت لا أملكُ تصريح دخول حتى الآن».

هتفتُ بصوت مرتفع قليلًا: «نعم! بالطبع»؛ لأنني قد التويت وأنا أحاول الوصول إلى جيب سروالي، فانسكب أحد الكوبين وأنا أعبر الباب الدوار ببطاقتي، ولم أهتز للحظة رغم أن سائل القهوة الحارق تفشى في فخذي.

تحدثتُ لصرف الانتباه عن الحادث الذي أصابني: «أهلًا وسهلًا في مكتبنا المفتوح! نحن هنا مقسَّمون إلى ثلاث نوبات عمل: صباحًا، وظهرًا، ومساءً، تبدأ الوردية الصباحية في السادسة صباحًا وتستمر حتى الرابعة مساءً، وهناك وردية تبدأ في الثانية عشرة ظهرًا وتنتهي في العاشرة مساءً، وأخيرًا تبدأ الوردية المسائية في الثامنة مساءً وحتى الرابعة صباحًا، فالورديات كلها متداخلة إن جاز التعبير».

- تمامًا مثل السيور الناقلة بالطابق الأول.

- وعلاوة على ذلك فنحن مقسَّمون إلى قطاعات. من أ إلى ج، أي في نطاق الصلاحيات لكل فئة فيما يتعلق بمكونات المحتوى، ومن ثم فإن قطاعات العمل هذه تكون...

- أنا أعرف.

كنا نحاول التملص من بين المكاتب المتراصة -حيث لم تكن المسافة بينها تسمح بمرور أكثر من قدم واحدة- متجاوزين المبرمِجين الذين انحنوا منكبين بلا هوادة على لوحات المفاتيح.

- هل يمكنك تدريبي على عدة طرق لكي أحافظ على مكانتي هنا قدر الإمكان؟

لقد كانت تسجل ما أقوله كله، ولكن بطريقة عجيبة من أعلى إلى أسفل بدلًا من الكتابة بصورة أسطر أفقية، فنظرت إلى المبرمِجين، ثم أجبتها معتذرًا: «ستعتادين الأمر».

قلت ذلك وشعرت فجأة بحرج بالغ، يا له من مشهد، لن يتخيله من لم يعتد هذا الجنون! تلك الطريقة التي تجلس بها مهندسات البرمجيات بنظارات وسماعات رأس وامضة أمام الشاشات، التي انبثقت منها نبضات تكنولوجية مندفعة وخافتة، هؤلاء المدمنات المطرودات خارج حدود المكان والزمان.

وتساءلت خاتون وهي تشير إلى سيدة تلف قطعة من مناشف المطبخ الورقية على جانب نظارتها، وتعلق قطعة أخرى أمامها على الشاشة: «ما هي القوة الموجودة على الأرض وتستطيع السيطرة عليهم بهذا الشكل؟!».

- إنها تعمل بروتوكولًا نفقيًّا، فأقل خطأ مثل نسيان فاصلة منقوطة مثلًا، أو خطأ نحوي قد يؤدي إلى تعطل البرنامج النصي كليًّا، وسيذهب كل ذلك هباء.. كل شخص هنا له نظامه الخاص، والبعض يبدو غريب الأطوار بعض الشيء.

- هلا نصحتني بأي شيء؟

للحظة وجيزة رفعت عيني واتصلت مباشرة بعينيها؛ خيوط رقيقة تسحبني إلى موضع لا يمكنني لمسه، إلى الوراء بعيدًا في الماضي، أعني أنني ربما رأيت هذا الوجه من قبل، لكن الذكرى تأبى أن تتبادر إليَّ، وكلما مددت يدي لألمسها، تشتتت في عقلي.

- آسف! لا أتذكر شيئًا نهائيًّا.

وفي اندفاع مفاجئ من الإحراج ضممت قميصي فوق الشعر النابت في صدري، ثم قلت: «هل سبق ودرستِ تصميم البرامج أو الآلات؟ أو بمعنى آخر علام تريدين أن أدربك بأي حال؟».

- لا هذا ولا ذاك، أنا أنتمي إلى فئة أقل من 20% في المجتمع.

ثم أردفت وهي تبتسم وتجلس على الكرسي: «أنا طبيبة».

- تتعاملين مع البشر؟

جاء شخص ما وهو يتهيأ للجلوس للعمل، لكنها لوَّحت له بإيماءة خاطفة وهي تقول: «عذرًا نحن نجري تسجيلًا في المعهد، من فضلك ابحث عن مكان آخر للجلوس».

ثم عادت لتوجه الحديث إليَّ مرة أخرى: «نعم أنا أعمل طبيبة مبتدئة في الطابق الخامس بقسم الأطفال، وفي العام الماضي أدركت أنني لا أحب البشر».

أشرتُ إلى الرجل الذي ابتعد فورًا بشكل مهذب وقلت: «هذا جهاز اللاب توب الخاص بكِ».

أردفت خاتون: «والآن سأعمل على حل مشكلات التحويل إلى معهدكم، لذا يمكنك أن تبدأ معي بالأساسيات، فآخر مرة تعاملت فيها مع البرمجة كانت في المدرسة الثانوية، وأعني بذلك تعاملي مع النصوص البرمجية».

- هل تعرفين مفاتيحها؟

- إلى حد ما، المهارات الأساسية للغة المبرمجة، ومهارات التواصل، يمكنك أن تقول بعض الخطوط العريضة للتعامل مع مواقف معينة، أليس كذلك؟

- سألخص الأمر ككل، يُعِد كل مبرمج في كل مرة نصًّا برمجيًّا، أي ستُكَلَّفين بإنجاز برنامج معين في بداية الشهر، كبرنامج يساعد على طلب شيء ما من مطعم، والرد على المجاملات، أو الاستفسار عن بيان أو إعلان. إضافة إلى إمكانية الإشارة إلى شيء قد قيل أو تقديم الشكر.

- أنتم أربعة آلاف مبرمِج، ومعنى حديثك أن المطلوب مني اثنا عشر برنامج -في العام طبعًا- لحظة إذًا! وكم عدد النصوص البرمجية المُعَدة بالفعل؟

- نحو نصف مليون برنامج.

- كل ذلك وديف لم يكتمل بعد؟

- سأدعك تتخيلين أن كل إنسان -بغض النظر عن مدى غبائه- يحوي في عقله ملايين من هذه النصوص.

نهضتُ شاعرًا بعدم الارتياح، ثم قلت: «عندما يبدأ ديف في تكوين تجاربه الخاصة، سيطور تعطشه للمعرفة، وهذا سيضاعف القدرة العقلية له بشكل غير محدود. هل تستطيعين تخيل ذلك؟».

- نعم، إذا استطاع فعل ذلك طبعًا!

- أولًا سنحسِّن الذكاء العام بصورة متكررة، لكن التفرد التكنولوجي[1] هو بداية ونهاية كل شيء.

- لأكون صادقة في حديثي، أظن أننا سنواجه إخفاقات متكررة في كل عام.

قلت لها: «الأمر معقد للغاية، في أغلب الأحيان يتبين لنا أن هناك روابط صغيرة مفقودة: كلمات وظيفية، أو حروف جر مثلًا».

مسحت جبهتي بطرف كمي -رغم أنني لم أكن متعرقًا- وأردفت: «أعني... هل تعرفين شيئًا عن المحاكاة؟ أو هل تعرفين شيئًا عن المحاكاة الافتراضية؟».

هزت رأسها ثم فتحت دفترها مرة أخرى وهي تقول: «إنه شيء كألعاب الفيديو، أليس كذلك؟ تختبرون بها النصوص البرمجية، فتهيئون بيئة افتراضية ترسلون ديف خلالها، لقد شاهدت القليل على التلفاز».

- نحن نعد واحدة كل أسبوعين تقريبًا، ومن المخطَّط أن نعد واحدة جديدة اليوم أيضًا، انظري! إنهم يستعدون هناك بالفعل.

---

(1) اختراع أجهزة ذكاء اصطناعي تتجاوز كل الذكاء البشري، وهي أجهزة خارقة تطور نفسها تكنولوجيًا بمعدل غامض. (المترجمة).

أشرت إلى الجهة اليمنى هناك، حيث يخفض بعض الفنيين من مستوى الشاشة.

- هل يتعين على المبرمجين فعل أي شيء في أثناء ذلك؟
- مهمتهم الإشراف فقط؛ فالغرض من كل ذلك اختبار مدى استقلالية ديف، نحن فقط نوثِّق، ونرصد أي تقاعس أو عطل للبرنامج، أو أي غموض ناتج عن ضعف المادة البشرية.

هتفت وهي تضحك: «مادة بشرية!».

فصححت محرجًا: «أجهزتنا أقصد».

- ليست أفضل حالًا أيضًا.

كررت مرة أخرى: «المحاكاة هي توقع لمستقبل يتجاوز فيه ديف النصوص البرمجية ويطور وعيه ذاتيًّا، سوف يأخذ بأيدينا كالأطفال، إنه يكاد يصبح إلهًا، بل إنه حتى واقعي أمامنا.

- أن يأخذ صندوق معدني بيدك ويعينك ليست فكرة جذابة جدًّا على أية حال.

ثم سألتْ دون رادع: «هل تريد شوكولاتة؟»، وسحبت لوح شوكولاتة من حقيبتها، كغول حقيقي من اللبن.

- ديف ليس صندوقًا معدنيًّا!

كنت أحاول فعلًا التأثير عليها بتبشيري بنجاح ديف.

- إذن؟
- كما أنني لا أتناول الشوكولاتة، هناك 48 جرامًا من السكر في كل 100 جرام منها، إنه يشكل خطرًا على صحة القلب والأوعية الدموية بنسبة 38%، إضافة إلى التسبب في قصر التيلوميرات؛ مما يؤدي إلى إصابة الخلايا بالشيخوخة بشكل أسرع، والحصول على أداء دماغي أقل.

أجابت: «حسنًا». ثم دفعت قطعة من اللوح في فمها وأردفت: «أعتقد أن القليل من خلايا الدماغ ستفي بالغرض عندي. ولكن بالمناسبة! ماذا سيحدث معنا نحن المبرمجين بمجرد اكتمال هذا الإنجاز السماوي؟».

صمتنا للحظة، ثم أخذتْ قطعة أخرى من الشوكولاتة التي قدمتها لي سلفًا.

- أنا لا أفهم تمامًا ما تعنينه؟

- حسنًا! في حالة تحوَّلنا إلى المدينة الفاضلة، حيث الذكاء اللامتناهي والقدرة على حل جميع المشكلات... أو دعنا نقول لماذا يصَمم ديف عمومًا؟ هل اتفقنا مسبقًا على وجود مشكلة وطرحناها لإيجاد حلول؟

- إنه يستطيع الإجابة عن أي سؤال، وهذا هو بيت القصيد. هل تشكين في الذكاء الاصطناعي؟

قالت وهي تفكر بعمق في أثناء التهامها ما تبقى من لوح الشوكولاتة: «أشك في أن تصبح طبيعية».

- ألا يمكن أن تسبق التكنولوجيا المشكلةَ في حالتنا؟ نحن نصمم جهازًا عالميًّا، وعند الانتهاء يمكننا البحث عن مجالات للتطبيق، ثم أخبريني، لماذا قدمتِ طلبًا بنقلك إذا كنت تعتقدين أن الجهاز لا معنى له؟

نطقت جملتي الأخيرة باستخفاف ولكن سرعان ما ندمت على ذلك، ولحسن حظي لم يبدُ عليها أنها ممن يحملون الضغائن.

أشارت إلى جهاز تعقب اللياقة البدنية المعلق على ذراعي حين سحبته بارتباك، وقالت: «ديف يشبه تلك الساعة تمامًا».

فأجبتها: «أولًا: لدينا مشكلات كافية جدًّا لنحاول إيجاد حلول لها، وثانيًا: لم يكن على الأخوين رايت التفكير في وجهة طائرتهما عندما صنعاها؛ لأنه يمكنهما الذهاب بها إلى أي مكان، ثم ما الخطأ في ساعتي؟».

- لا شيء! إنها تقيس نبضك، والتشبع الأكسجيني، ومعدل تنفسك، ودرجة حرارة جسمك، ثم تستخدم تلك البيانات الضخمة لتحسب مشكلات جسمك وتصل إلى نتيجة بأثر رجعي. أليس محزنًا جدًّا؟

وحين تفوُّهها بتلك الكلمات كانت تمسك قطعة من الغلاف المصنوع من الألومنيوم وتكورها بيدها ثم فجأة ألقتها على رأس سيدة ترتدي نظارة إلكترونية.

أحكمت قبضتي على يدها وأنا أهمس: «هل أنت مجنونة؟» في حين تحاول المرأة التي أصيبت أن تحرر عينيها من الشريط اللاصق بهيستريا.. سرعان ما خففت من قبضتي، وقد أثار شيء ما إعجابي في هذا التعدي، ثم

سألتها بشكل عابر لأخفي الدافع الأخلاقي الذي تسبب في انفجاري: «لماذا تكتبين من أعلى إلى أسفل؟».

ردت عليَّ وكأن ذلك شيء غير جديد بالملاحظة: «أوه إن الفارسية هي لغتي الأم، ولذلك فأنا أكتب من اليمين إلى اليسار، لكن الكثير من الناس يعتادون تدوير الورقة، لكي يتجنبوا أي تشويش في رؤية الحروف».

ثم أمالت المذكرة الصغيرة أمام عيني.

- لحظة واحدة! تقولين إن لغتك الأم هي الفارسية؟ اعتقدت أنه ليس ثمة أشخاص يتحدثونها هنا إلا لمامًا.

- هذا صحيح، أعتقد أننا في المجمل نقدَّر بمئتي شخص، لكن والديَّ عاملا نظافة، لذا سأضطر إلى أن أبدأ معهما من نقطة الصفر في تعلم غيرها، أو كما يقال سنبدأ من خلق آدم وحواء.

قلت محرجًا: «عاملا نظافة!».

ردت بنبرة يطغى عليها المرارة: «وكوني طبيبة ليس أفضل حالًا منهما على أية حال، إن الطب لا يختلف كثيرًا عن الوظائف التقليدية في الطابق الأول...».

وأخيرًا أردفت مبتسمة: «حسنًا! فلتخبرني بشيء واحد عن نفسك قبل أن أسرد لك سيرتي الذاتية بأكملها».

أنا أعرف ذلك الشعور جيدًا، رغم أنني لم أشعر به منذ عقود، هناك دفء يتغلغل على بعد شبر واحد من قفصي الصدري، ويدغدغ معدتي، إنه اشتياق غامض لم أشعر به مذ كنت طفلًا يرى مشاهد الحب في رسوم ديزني المتحركة.

ملت بعيني نحو الأرض، وبدلًا من تلبية طلبها قلت: «من الأفضل أن نمضي قدمًا. هنا في منتصف تلك القاعة يمكنك رؤية ذلك العمود بحجم 2X2، إنه يُعَد الضفيرة الشمسية للمختبر إن جاز التعبير، حزمة من الألياف البصرية، أُجريت مزامنة لها ببضع مئات من التيرا بايت لكل ثانية في المختبر المركزي. وهناك يستقر ديف».

- هل سبق لك ورأيته فعليًّا في الواقع؟

- يُسمَح فقط للأساتذة الكبار وبعض المهندسين بالعمل على ديف مباشرة.

نهضنا وتجولنا معًا في المكتب المفتوح، واستنزفنا منذ وقت طويل أي هدف يتطلب مقدمات موجزة، والآن أحاول جاهدًا إيجاد أي مبرر لنتجول مرة أخرى، ولكنها تبعتني دون أية أسئلة حتى وصلنا إلى البوابات الدوارة.

- في الواقع ديف هو مختبر بأكمله إن جاز التعبير، نُقِلت بياناته على مساحة 500م[2] من قاعات الخوادم، وجميع المعالجات موجودة في قاعة خاصة بالطابق الثاني، وذاكرة الحاسوب.. أحيانًا أتخيل أن تلك الذاكرة حية مثلنا تمامًا.

- شاعري للغاية! لا تبدو لي مبرمِجًا تقليديًّا.

- نعم، فأنا أحصل على جرعتي من الأدب العالمي كل مساء، دستويفسكي، أو بروست، ونابوكوف، أشياء من هذا القبيل، أو باعتبارها نوعًا من طرد الأرواح الشريرة.

- إنه لشيء أنيق جدًّا.

- لنظل واعين بالتغييرات التي تحدث من حولنا، لذلك يمكنك الاستمتاع حقًّا بقراءة الحرب والسلام ليلًا.

ودون أن يضيف أي منا كلمة أخرى طفنا لنصف ساعة، وكنت أعود كل بضع دقائق لأتأكد من أنها لا تزال موجودة، كان بإمكاني المكوث هكذا إلى الأبد، بإمكاني أن أذوب في سكون الليل الهادئ، الذي بدا لي الآن فقط رومانسيًّا، شيء يشبه ذلك النشاط الهادئ لرواد المطاعم شبه المتفرغين كما في الأفلام الأمريكية القديمة؛ فيجلس الأزواج حتى بزوغ فجر نهار جديد.

توقفتْ عند البوابات الدوارة بعد اللفة الثالثة، وقالت: «أكره فكرة انتهاء طوافنا هذا، لكن الساعة تجاوزت الثانية».

- معذرة! لقد غفلت عن الوقت.

- يجب أن أخرج في السابعة، إضافة إلى أن «مادتي البشرية» تنتظرني بجانب تقدمي للدراسة.

قلت وأنا مشتَّت الفكر: «بالطبع، شكرًا لكِ».

فتشت عن بطاقتي حتى وجدتها، لكني لم أعرف ماذا عليَّ أن أفعل في الحال.

وقفنا أمام بعضنا مرتبكين، كأن كلينا لا يعرف التصرف المناسب في تلك اللحظة، بل وأكثر من ذلك، فكلانا يحاول إخفاء جهله بالتصرف المناسب، لكننا أخيرًا نظرنا إلى بعضنا، وعندها شعرت بأسراب من النمل تسري في أعضائي.

قالت وهي تبتعد عني خطوة: «شكرًا لك على تسجيلي بالمعهد!».

- آمل أن نرى بعضنا في وقت آخر.

فتحتُ الباب الدوار ميكانيكيًّا ببطاقة دخولي، وأوشكت أن أشعر بخيبة الأمل؛ لأنها أضاءت اللون الأخضر وتحررنا من سحرنا.

فكرت بهياج أنه يمكنني أن أطلب رقم هاتفها، وفي المدة التي وقفت فيها ترتب حقيبتها، تمسكت أنا بفكرة أنها قد تطلبه مني، رأيت بطاقة الدخول تلتمع في يدها، ثم مدت يدها في استسلام ليدي، ولكنها ترنحت بسلاسة متجاوزة ذراعي، وضمتني إليها في عناق طويل.

صدع؛ هذا ما حدث عندما تسللت إليَّ رائحة خاتون مناجوري للوهلة الأولى، حدث لي شيء لم أعهده سلفًا، لقد خطر في ذهني شيء جلي، ولكنه ليس حدثًا من الماضي، بل هو شيء من المستقبل، كانت رائحتها كتبشير بشيء ما زلت أحاول جاهدًا جذبه إلى السطح.

ديجافو عكسي ما لبث أن تلاشى بعدما استدارت خاتون واختفت في المصعد في سرعة غير متوقَّعة، ومضيت أنا عائدًا إلى السكن، لكن سرعان ما ضللت طريقي، فاستدرت بارتباك وتشتت، لم يكن ثمة شيء في المكان، لكنني بدأت أفطن إلى تجمع المزيد والمزيد من البشر، كما لو كانوا بصدد التنصت إلى شيء ما، وعندما توقفتْ قطعان البشر المتسللة عبر الممرات، ونبع طنين خافت ينبعث من صمت الممرات المنعزلة، اتضح كل شيء، فالطنين الناعم استحال صافرة إنذار تنطلق من بعيد، وما لبثت أن ارتفعت فوق رؤوسنا فجأة، ورغم أنني لم أسمع تلك الإشارة من قبل، أدركت تمامًا ما تعنيها.

صاح أحدهم: «الإنذار المركزي!».

وحينها أصبح كل شيء في حالة اضطراب.

في غضون دقائق وجدت مئات العمال المساعدين يتساقطون في الممرات، فنظرت حولي بتثاقل، وفجأة بات من الصعب تصديق ما يحدث حولي، كانوا يتساقطون فوق بعضهم كدوامات اضطرابية تموج في تيار، دعتنا خطة الطوارئ إلى أن نذهب إلى المكتب المفتوح -من حيث أتيت- وسرعان ما أمسكوا بي، وحُملت معهم، لكنني استطعت أن أركض تحت درجة حرارة لا توصَف، وأدركت في خضم هذا التدافع أن العرق لم يسِل مني لأننا كنا نمضي كتفًا بكتف، ولكن درجة الحرارة كانت تنهال علينا من الجدران، وانتشر وميض أسفل السقف مباشرة.

قلبت عيني في المكان سريعًا، فلم أجد سوى الحيرة تسود المكان، لم يسبق لأحد منهم أن عايش شيئًا من هذا القبيل قط؛ فالتقنية الحديثة للتبريد، التي طالما ظننت أنها الوضع الوحيد الملائم للعالم، قد تبخرت الآن، وبدا الناس وكأنهم يتنشقون الأكسجين من شفاه بعضهم بعضًا، ثم هتف أحدهم خلفي: «أنا أخمن حدوث هجمات إلكترونية لنظام المعلومات».

كان هذا دوندر، مهندس ميكاترونك طويل القامة، عرفته لأول مرة في الكافيتريا، ثم صاح آخر خلفي أيضًا: «الأنابيب لم تعد تبرد؛ بسبب الأعطال الناجمة عن الحرارة».

ولكنني لم أكلف نفسي عناء الالتفات، فمنذ دقائق والإنذار يدق فوق رؤوسنا وبيننا وفي كل شبر بهذا الضيق الخانق.

في قاعة «أناس وحيوانات فرحة» التقت تيارات الربع الشرقي والغربي مع تياراتنا، واصطف المهندسون ثم الفنيون حاملين أحذيتهم المضادة للكهرباء الساكنة وحقائب أدواتهم، وفي خضم ذلك سبح كل من ليس له دور في خطة الطوارئ: مندوبو المبيعات والمعلمون وكبار السن والعائلات التي فوجئت بصافرات الإنذار، جميعهم يحاولون النجاة بأنفسهم إلى الخارج.

أشار أحدهم إلى الأعلى، فتعلقت أعين الحشد بإصبعه، وبفزع سافر حدق الجميع إلى الصورة الفوتوجرافية المرتفعة، التي تبدو كأنها متوجة على عرش القاعة، لفحات الحرارة تتلألأ على وجوه كلٍّ من زامسون ودويتش وفاجنر ودينيز بالصورة.

بوحشية وارتباك، حاولت دفع نفسي للأسفل، وشعرت للحظة أني وسط غابة من ربلات البشر، أصابني الذعر واصطدمت -وأنا أجلس القرفصاء-

بالجدار الجانبي لجسر فريمان الزجاجي، ذلك الذي يمكنني من خلاله رؤية الطابق الثاني، بل وتحتنا بخمسين مترًا -حيث المختبر المركزي الذي يستقر به ديف- ورأيت حشدًا يتجمع حول المختبر، بدا في مناورته أشبه بنمط حياة معقد كجمة من خيط منسول؛ حركة هيستيرية متذبذبة تحتشد حول أقدس شيء يمكنه إنقاذ عناصرهم الإلكترونية القيمة.

انتصبت في جلستي، وبدأ التيار يحاول التحرك بتماسك، لذلك انحدرنا راكضين في الممر، ثم عاودنا صعود السلم لآخر مرة، في حين يصدح صوت فروليش فوق رؤوسنا:

«المجموعة 1، الأجهزة المؤقتة بقطاع أ، وموصلات الطاقة تحت الطاولات.

مجموعة 2، الوردية الليلية تظل عند الأجهزة المكتبية.

المجموعة 3، عليهم نزع الذاكرات المدمجة يدويًّا».

وهكذا بوجود ألف مبرمج مجتمعين انطلقنا عبر البوابات الدوارة كأننا قطع منفردة من الذخيرة واتجهنا نحو المكتب المفتوح ببطاقات المرور خاصتنا، وبدأ الأخدود البرمجي الذي جمع دواخل أنظمتي يومض، كان المكتب المفتوح قد امتلأ عن آخره، حتى إنه لم يكن هناك متر واحد غير مشغول بالحركة، كنا نقف كتفًا إلى كتف، ويغزو المكان أسطول من الأصوات لا يمكن وصفه، إضافة إلى الرعشة التي تسري في السيقان والجذوع والأذرع، أصوات طقطقة وفرقعة في الهواء، تفريغ حمولات، كراسي متساقطة لا تلبث أن يزداد عددها كل دقيقة كلما تعثرت فوق بعضها عند الباب الدوار، كنت أنتمي إلى المجموعة 1، وكانت التعليمات التي تلقيتها هي الحصول على لاب توب والعثور على مقبس فارغ.

يبدو أنه لا توجد مساحة متبقية على أيٍّ من سطح الطاولة فعلًا، لذلك زحفت تحت إحدى الطاولات عبر الكابلات حتى وجدت بالفعل مقبسًا فارغًا، ففي حالة ارتفاع درجة حرارة مزرعة الخوادم، سيعني ذلك حدوث فشل كلي أو جزئي للأنظمة، لذا يجب علينا نسخ بيانات كل موظف، بل والنظام بأكمله احتياطيًّا بشكل يدوي في مزرعة النسخ الاحتياطي وسيكون ذلك بشكل مضغوط، لقد تعلمنا ذلك بالفعل، ولكن كيف يمكننا التعامل مع 3 إكس بايت من البيانات؟

لا يهم ذلك في الوقت الحالي، أهم شيء الآن الاتصال بأسرع ما يمكن والاختفاء داخل الشبكة، فهناك توزيع موسَّع للعالم كله وإيقاعه بداخل تلك الممرات المظلمة؛ خطوط البرنامج، والأودية التوافقية التي تكمن بها نقطة التلاشي، حيث فُقِدت هناك كمركز إسقاط، كل ما يهم الآن هو الأمر التالي.

***

أن تصبح جزءًا من عمل جماعي في ديف هو بداية جذب، فلطالما تعرفت على معنى الوحدة مع الإبداع في البرمجة، ففي ديف أصبحنا جميعًا جزءًا من الوعي المستقبلي الشامل، أي الجموح التكنولوجي، فالمتصوف هاينرش زويسه يقول «ثم غابت روحه بعيدًا، فلم يعد يعلم أما زالت موجودة في جسده أم خرجت منه... لم يعد يعلم» «لقد سقطت الأمنيات منه، وزالت الرغبات، وظل يحدق فقط إلى البريق اللامع، ومن ثم نسي نفسه وفقد إحساسه بالعالم المحيط».

***

بريق لامع، ثم عدت إلى وعيي عندما أبدا أحدهم ضيقه من الضوء المنبعث من شاشة اللاب توب خاصتي؛ حيث كانت الأحرف البيضاء توخز الأعين في الظلام، ولكن سرعان ما عاد كل شيء إلى طبيعته.

بعد برهة أمسك رجل ذو لحية بيضاء بكتفي، عندها فقط بدأت أعي الصمت الذي ساد، لقد أصبح المكتب المفتوح فارغًا تمامًا.

سألني الرجل: «ماذا تفعل تحت الطاولة؟».

- لقد استُدعِيتْ مجموعتي إلى مزارع الخوادم.

ودون انتظار استكمالي للرد جذبني من ساقي، وبينما نحن في طريقنا للأسفل كنت أراقبه، لكنني لم أستطع تحديد انطباعي عنه، جبهة صغيرة، وحاجبان كثَّان، ولكن أكثر ما كان يظهر هو عرجه، ذلك العرج الغريب المتخفي، تذكرت بشكل غامض أنني رأيته من قبل...

عبرنا قاعات الآلات وسط حشد من الأشخاص الذين كانوا في طريقهم للأسفل مثلنا، وفي طريقنا مررنا بمركز التحكم في الطابق الثاني، وسلكنا

طريقا مختصرًا عبر قاعات البناء الفارغة، وتساءلت كيف استطاع ذلك الرجل أن يستوعب في عقله بناية المختبر؟ ثم أخيرًا وصلنا إلى الطابق الأول والعرق يسيل منا.

أودية المصانع والأحياء الفقيرة في أماكن عميقة للغاية، لدرجة أنني اعتقدت أننا على وشك الوصول إلى مركز الأرض؛ حيث تدفع الرافعات والبخار ميكانيكا الكوكب.

وحول محطة معالجة المياه وقف مئات الأشخاص حاملين الدلاء، دلوًا وراء الآخر للعمل على التبريد، إضافة إلى آخرين منشغلين بحمل المضخات اليدوية إلى الجدار، حتى إنك تستطيع بسهولة من الخلف سماع صرخاتهم التي تفرقت في الظلام. انطفأت الأضواء، وبدلًا من ذلك تولى الضوء الأزرق الضعيف المنبعث من الطوارئ تغطية الحدث بأكمله.

وأخيرًا سألت الرجل الذي ما زلت أطوِّقه بيدي رغم أن الدم عاد منذ مدة إلى التدفق في ساقي مرة أخرى.

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- علينا سحب كل كابلات كات 5 واحدًا تلو الآخر.

أجبته بتثاقل: «هل كابلات الخوادم؟».

- ارتفعت درجة الحرارة في المبنى إلى 30 درجة مئوية.

عندما بدا وكأننا وصلنا إلى القاع أسقط ذراعي واختفى ليتحلق الحشد حولي.

لم نكن بحاجة إلى من يخبرنا بمكان ننضم إليه للمساعدة، وانطلقت الأسراب التي كانت محتشدة في المكتب المفتوح تنزع كتلًا متشابكة من الأسلاك خارج الجدران، حتى غطت الأسلاك أرضية الأودية التي يبلغ طولها خمسمائة متر كأنها أوردة زرقاء، لقد تحطم الوضوح القوي للتدرج الهرمي في المختبر، فبعد أن كان كل فرد فيه قادرًا على تحديد مكانه بدقة، أصبح الآن في حالة من الفوضى.

أنا شخصيًّا لا أعرف شكل مزرعة الخوادم إلا من الصور، حيث تُعلَّق المئات من أجهزة الكمبيوتر في إطارات معدنية يبلغ ارتفاعها مترين وتُدمج في ممرات.

يجب أن نحول بين جدران الوادي الساخنة اللامعة والسخونة الزائدة عن طريق تبريد المياه لمدة 24 ساعة، نزع الناس أحذيتهم وقمصانهم وأصبحوا محاطين بالبخار، واستغرقتُ دقيقة؛ لأدرك أن تلك الرائحة الكريهة ليست رائحة أسلاك محترقة، ولكنها رائحة لحم محترق، وجدت شابًّا يركض في الخلف ويسكب دلوًا تلو الآخر على الحواسيب، لكن الماء يتبخر بهسهسة.

ركضت بين حشد من أولئك الراكعين على أقدامهم يزيلون الكابلات، ورأيت الأجهزة ملطخة ببقع من الدماء، ثم سمعت صراخًا ممن لامسوا المعدن الساخن بأكتافهم في أثناء استدارتهم، فنزعت معطفي وقميصي ولففت يدي بهما، ثم بدأت في انتزاع الكابلات من جذورها، وبمرور الوقت لم أعد وحدي، فقد وجدت جدارًا بشريًّا يقترب صفًّا صفًّا، وكان الجو أشبه بغرفة محركات شديدة الحرارة في سفينة بخارية.

في البداية دمعت عيناي، لكنني انخرطت في البكاء لساعة أو ربما ساعتين، وكان من الممكن أن تطول إلى عشر ساعات من الرتابة لو لم أكن ألف القميص على يدي، وفجأة نشبت النيران بالمكان وتسبب دخانها في حدوث فجوة في التسلسل الزمني، فخطوت على اللهب بحذائي مذعورًا، وعندما لملمت شتات نفسي وأعدت لف قطعة القماش المحترقة حول قبضتي، وجدت أنني قد فقدت الاتصال بمن حولي، لقد بدد الدخان الكثيف المتدفق من المكابس المضغوطة كل الاتجاهات، ومن بعيد تبادر إلى سمعي صوت انسحاق الاسطوانات، إذن الجبهة البشرية تواصل التقدم، وعلى الرغم من سماعي لأنينهم الثائر المتوتر، لم أتمكن قط من تحديد مكانهم، لكنني بدأت أركض متحفِّزًا، واتضح أنني كنت أجري في الاتجاه الخاطئ ولم أدرك إلا متأخرًا أنني أسير في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي سارت به المجموعة.

كان ذلك هو أول سوء حدس مني في ذلك اليوم، لقد انحرفت دون قصد مني عن المكان الذي حددتْه خطة الطوارئ، وابتعدت عن الآخرين بدلًا من أن ألوذ بأمان الجماعة، وعندما رأيت خطوط الكهرباء التي يبدو أنها لم تُمس نهائيًّا، أدركت بعد فوات الأوان أنني ابتُليت بأرض جرداء.

انتشرت رائحة احتراق الكابلات الحادة، وصرت أمشي وأنا في وضع القرفصاء، كنت أقرب للزحف أكثر منه إلى السير، فسقطت، واصطدم رأسي بالحديد الساخن، وصرخت، وارتعبت من صرختي، فاستلقيت على بطني.

ساد الوضوح بالقرب من الأرض، حيث لا يمكن أن يصل الدخان، وهناك على بعد متر واحد مني وجدت بطاقة أحد الموظفين مطروحة على أرضية من نوع بي في سي اللامعة، كان عليَّ أن أنهض وأركض، أو أسرِع نحو المخرج، أو أستمر حتى في البحث عن الآخرين وبدلًا من ذلك كله انقضضت على بطاقة الموظف، إنها بطاقة إدارية تستطيع فتح جميع الأبواب في المختبر، كما أنني لم أجد أي اسم عليها، حدقت بدقة إلى المساحة الرمادية؛ حيث تكمن صورة الموظف في العادة، وكانت تلك هي ثاني قراراتي الخاطئة ذلك اليوم، فبعد أن نهضت ونظرت حولي أدخلت البطاقة في حذائي، وفجأة ساد صمت تام وخارق.

***

كانت الساعة الرابعة فجرًا، عندما بدأت قافلة مؤلفة من 4153 شخصًا -وفقًا لآخر إحصاءاتهم- تشق طريقها مرة أخرى من أعمق نقطة في المختبر، حيث كُلفوا بالحفر هناك، وبعد ساعات طوال من الذهول في عتمة الليل، أصبح النور العقيم يعمي الأعين، فكان لازمًا علينا أن نضع أيدينا فوق أعيننا، حتى أنا نفسي دخلت إلى الردهة المكوَّنة من طابقين أكاد أموت من تعبي، عندها أحكم أحدهم قبضته عليَّ من الخلف، لقد كان هذا بافل، بقصة شعر مثالية، وقميص أبيض ناصع، ورابطة عنق مثبَّتة بإحكام، فعاد ذلك العدوان القديم وطغى عليَّ للحظة.

أحكمت قبضتي على صدره وأنا أسأله: «ماذا يعني ذلك؟ هل كنت تختبئ في الخزانة؟ ونحن نخاطر بحياتنا في الأسفل في غرفة التخزين للحفاظ على الأنظمة من التلف!».

أنا.. أقف أمامه ممزَّقًا ومعطفي مرقط بالبقع السوداء، تغلغلني شعور بالظلم حتى دمعت عيناي، وعاد هو يسحبني فوق الدرج وعند الكافيتريا، كشخص يدفع عربة قديمة، لقد كان مرتبكًا بعض الشيء من فكرة أنني كنت أتعثر ولا أواظب في العمل.

- لقد دعوني للتنسيق، آسف!

أردت أن أصرخ في وجهه، لكنني ربطت أحزمة التحضر؛ لأننا نقف وسط الناس، فسألته: «وماذا قالوا؟».

رأى بافل أنه لا داعي للرد عليَّ، فقط سحبني إلى المصعد وضغط بأصابعه الخمس فوق قبضة يدي المختبئة داخل جيب المعطف الأسود المتفحم، قادنا المصعد إلى الممشى، الذي يقع تحت حدة حرارة الشمس طوال النهار، ثم سحبني إلى غابة أشجار البتولا الصناعية، والآن بعد أن عادت وحدات التبريد إلى العمل، استطعت أن أرى تحت أضواء النيون أوراق الأشجار الغليظة المتدلية فوقنا من فرط الحرارة الساقطة عليها، لقد نجت الأشجار، ولكن بآثار واضحة.

كان الطريق مهجورًا تحاذيه الأشجار من الجهتين، وفي المتاجر الصغيرة المستقرة بين مجموعات الأشجار ترى بوضوح الاستاندات ملقاة على الأرض، والعلب والحقائب متساقطة، إنها مخلفات هروبٍ مفاجئ، وذلك الضوء فوق البنفسجي الصناعي الذي أوهم النباتات بيوم مستمر لا ينتهي، يتساقط الآن على وجوهنا في هيئة خطوط ناعمة، والظلال العميقة تنحت في ملامح بافل الفتية، مجرد النظر إليها جعلني أشعر بالذنب فجأة لثوراني السابق.

في تلك الأثناء وضع كوبًا من البيرة في يدي، كان يريد أن يتأرجح في أرجوحة معلَّقة بين شجرتين بيضاوين صغيرتين، في البداية نظر إليَّ بدهشة، ها هو بافل، ذلك العبقري الملعون، ورغم ذلك فهو نفسه ذلك الطفل العاجز عن السخرية، كما لو كان يمتلك فلترًا يرشح به ما قد يؤذي الآخرين.

عندما ضمني بين ذراعيه تبخر آخر خيط من الغضب والخزي المفاجئين، وترسب ذلك الهدر العاطفي، تركت نفسي أسقط بجواره في الأرجوحة المعلقة، وكل شيء من حولي مصقول ومكيف، وللوهلة الأولى أخذني صوت الطيور المغردة، وقد بدا مصطنَعًا، ثم جلست وأخذت رشفة من البيرة.

- تصدع العقدة، كان هذا هو السبب.

سألت بشرود: «ماذا يعني ذلك؟» ثم سكبت الكوب على قميصي دون قصد.

- لقد كانت محاكاة افتراضية تافهة، إجراءً روتينيًّا بحق، وكان العنوان العام والنهائي لتلك المحاكاة هو «دعوة شخص ما».

- ثم؟

- نظرت في النسخ، فكان كل شيء طبيعيًّا في بداية الأمر، واتصل ديف بالنص البرمجي المدون فيه كيف يستضيف ضيفًا، ثم أصبح الأمر

مضحكًا لأنه اتضح أن هناك شخصًا قد تغاضى عن خطأ في تصنيف الفاعل والمفعول، فقطَّع ديف الضيف وألقاه في وعاء مع إضافة البصل عليه، في حين وقف يقدم كأسًا من النبيذ لقطع اللحم البقري.

- لا أعرف حقًّا ما عليك فعله، لكن الأمر يبدو مضحكًا إلى حد ما.

ثنى بافل قدمه في الأرجوحة ثم تحدث: «ولكن بعد ذلك حدث خطأ آخر، فقد أدت تلك المحاكاة إلى حدوث ملايين من عمليات البحث لأسباب غامضة، فجأة بدأت ملايين من النصوص البرمجية تُحمَّل بشكل تلقائي أكثر فأكثر في المخزن المؤقت، المئات بل الآلاف من الأشياء التي لا علاقة لها بما كان يتبعه ديف في النص البرمجي، فدخلت محاكات مثل «اتبع اللافتة» أو «دق مسمارًا في الحائط» «خطط لإعادة البناء» ومن هنا تفاقم كل شيء، مثل فرع يمتد بلا نهاية».

- ماذا تقصد بفرع؟

- حيث يمكنك مشاهدة كيف يتدفق المزيد والمزيد من طاقة المعالج بسرعة جنونية، تبدأ من 200 وتقفز إلى 4000 نص برمجي، وما إن تصل إلى 4000 حتى تقفز إلى 10000، ولا يتوقف أي نص برمجي منهم، فجميعهم نشطون في الوقت نفسه.

أجبته وأنا أزحزح الكوب للتغطية على حقيقة أن يدي كانت ترتعش: «من الصعب تخيل أن طهي قطعة من اللحم البقري سيستهلك كل السعة الاستيعابية للذكاء الاصطناعي الأكثر تطورًا حتى وقتنا هذا».

- لا يسعني إلا أن أقول ما رأيته، ومن المستحيل أن..

قلت وأنا أستعد للنهوض: «نعم نعم، هذا ببساطة كل شيء، مستحيل! يجب أن أذهب إلى الفراش الآن، ستبدأ ورديتي في غضون ساعتين، وذلك إذا كان هناك وردية غدًا من الأساس..»، تركته وحيدًا في الأرجوحة، على الرغم من أننا نتشارك السرير نفسه.

كانت الممرات عارية من أي شيء، ففرق التنظيف لمَّعت المنشأة بأكملها، وأعادتها إلى بريقها الأبيض الناصع، وأصبح الوضع لا تشوبه شائبة، لدرجة أنك قد تشك أن ما حدث كان محض هذيان محموم.

أطلقت أجهزة الأمن ترددًا منخفضًا، ولم يكن هناك سوى أضواء خضراء على أجهزة المراقبة، باختصار كانت مظاهر تهدئة الموقف في المختبر وأنا

أسلك طريق العودة مثيرة للإزعاج، كل ما تبقى هو بعض البقع المحروقة تلطخ الجدران جراء انكسار الكابلات، وهي الأثر الوحيد الدال على أنه قبل ساعات قليلة كان المكان في قبضة حرارة جهنمية.

في حالات التراخي المتكررة عندي ينتابني شعور بالإثارة المنسية، شعرت بالبطاقة التي وضعتها في حذائي وهي تضغط على نعلي، وهنا ارتكبت ثالث قرار خاطئ اليوم وهو الأخير أيضًا، حيث ركعت على ركبتي وتظاهرت بربط حذائي حتى تأكدت من عدم وجود أحد يراقبني، ثم التقطت البطاقة من تحت قدمي المفلطحة، وألقيت نظرة عليها ثم أعدتها إلى جيبي قبل أن أعود إلى الفراش.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

2

كل إنسان -لا، بل كل حركة في الكون- تتوق إلى علم الوراثة، إنه أسطورة الأصل، التي تبرر باستمراريتها وعي الإنسان برسالته على الأرض.

شعار وتوقيع هذان هما كل ما يلزمنا، وسيكونان كالآتي: الشعار هو تلك الصورة الفوتوجرافية الممتدة على الجدار الغربي بقاعة «أناس وحيوانات فرحة»، تبدو جدارية مهيبة، إضافة إلى أربع كلمات، وهي، نادي ريلرود النموذجي التقني.. فالأيقونة التي تخرج بمنظر تلك اللوحة لا تحتاج إلى أن تزدان بالذهب؛ لتبرهن على جمالها، وإنه لشيء تافه أن تُفَكك بأيادٍ كانت تتلمسها في رهبة وإجلال، وبغض النظر عن أن طبيعة التنظيم قديمة وباهتة منذ يوم التقاطها في فترة ما بعد الحرب، التي فرضت مخطط ألوان يسود فيه اللون الرمادي ولون فحم الأنثراسيت، لكن الدافع عاد ينغز في الآونة الأخيرة، فالقطعة الرئيسة في الصورة هي حاسوب شاهق كالمسلة، مثل جهاز IBM704، إضافة إلى أربعة أشخاص يتجمعون حوله من أعمار متفاوتة، اثنان منهم يوجهون ظهريهما للمشاهِد، والاثنان الآخران ينظران إلى الكاميرا لأخذ الصورة، والقاسم المشترك بينهم جميعًا هو الميل إلى اللامبالاة بقدر معين؛ ويظهر ذلك في الشعر الطويل غير المصفَّف، والنظارات شديدة السماكة، لدرجة أن تشتت البصر قد يمد العين بصورة هزلية، كأقمشة أثاث متواضعة مصنَّعة من ثلاثة قمصان ملبوسة لثلاثة أيام متتالية.

لكن المراقب المبتدئ يستطيع أن يلحظ بسهولة أن هناك محاكاة أو (تصويرًا) أجري لأربعة مبرمِجين هنا، وهو ما يعَد ثقلًا تاريخيًّا، لدرجة أن أسماءهم تحولت إلى رموز: زامسون، دينيز، فاجنر، دويتش. هؤلاء هم القراصنة الإلكترونيون الأصليون.

إنهم كالمسيحيين الأوائل، كانوا يتحلقون حول نصب تذكاري به نحو 400 أنبوب مفرغة مدوية وموجَّهة نحو وحدة تحكم صغيرة في المنتصف، ويعكس المشهد لحظة حادة من التركيز، فهذا دويتش -صبي ذو أربعة عشر عامًا لا يكاد يصل إلى طول المرحل الكهربائي[1]- يسلم زامسون -ذا قصة شعر البوريه- بطاقة مثقبة[2]، ومن وضعية المستلم يمكنك التخمين أنه سوف يضعها في جهاز قارئ البطاقة 711 الموجود في الجزء السفلي الأيسر من الصورة، أما الاثنان الآخران فهما دينيز وفاجنر بنظرات توحي بمعاني الأرق، يواجهان معًا محرك الشريط الممغنط.

وإذا تعمقت في ذلك المشهد المشتت قوي الإضاءة ستعتقد أنه بإمكانك سماعه؛ فقد كان الأربعة يصوغون أول برنامج ارتج فيه الدماغ الفولاذي الضخم لحظة التشغيل، واستسلم مفتاح فليب فلوب القلاب للاضطراب الداخلي تحت تأثير قوة النظام الذكي، وأخيرًا أسفر الأمر عن نتيجة لكنها ما لبثت أن اختفت من طابعة IBM-65a بعد عدة ثوانٍ.

أُجريت حسابات لأربعة آلاف موضع لثابت الدائرة (pi) في جزء من الثانية، وأي شخص يسأل عن الغرض من هذا الحساب، هو حتمًا مخطئ في تقدير أهميته، فالمنظر يوضح أن أداء الآلة -ولأول مرة- يفوق قدرات الإنسان من الناحية الحسابية.

وقت التسجيل: 1958، 12:37، التوقيت الصيفي الشرقي.

الموقع: غرفة 20E-214 في الطابق الثالث من المبنى 20 بالحرم الجامعي في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا.

تلك هي الثكنة؛ التي بدأت فيها هذه القصة، هي حل مؤقت نُسي هكذا بعد انقضاء الحرب العالمية الثانية في ظل التحذيرات من المساحات المتغيرة المبتذلة.

---

(1) المرحِّل هو مفتاح كهربائي يفتح ويغلق دارة تسمى دارة القدرة تحت تحكم دارة أخرى تسمى دائرة التحكم، فهو إذًا يؤدي وظيفة العزل الكهربي أو ما يعرف باسم العزل الغلفاني بين الدائرتين. (المترجمة).

(2) عبارة عن ناقل بيانات مصنوع من ورق مقوى رفيع ومستقر كان يستخدَم سابقًا بشكل أساسي في معالجة البيانات لتخزين البيانات والبرامج. (المترجمة).

هناك مشمع للأرضية مع بعض الشوائب على الأرض، والسقف معرق بمهارة بألواح البولي كربونيت، والآلات مدعمة بمادة PVC والباكيليت عند أطرافها، كان معمل الكمبيوتر يسمى «قصر الأبلكاج» وهو مكان القبح المذهل، لا يمكن إنكار ذلك، فمسقط رأس هذا الكمال الآخر للكون كان مجرد غرفة قذرة بلا نوافذ.

تكوين الأشكال يبدو لك فوضويًّا للوهلة الأولى، لكنه يتبع حسابات صارمة.

هذا بيتر زامسون يقف في الأمام في الجهة اليمنى، ويده على المرحل الكهربائي، طالب في عامه الأول ذو تسعة عشر عامًا، جذبته الدوائر الكهربائية للسكك الحديدية قبل ثلاثة أشهر من التقاط الصورة، وفي سرداب المعهد الهندسي أنشأ نادي ريلرود النموذجي التقني لوحة تحكم كهربائية للقطارات المعاد تصنيعها، ولكن سرعان ما تحول اهتمام زامسون إلى شيء آخر، فكانت الدوائر الكهربائية المعقدة بلوح التجارب الأساسي هي التي واصل التعلم عليها بمهارة.

وبدوره يقف بوب فاجنر -ذو الشعر الداكن الذي كان أطول قليلًا من الآخرين- منحنيًا على وحدة التحكم، ويده في مستوى جبهته بصورة معبرة، كأنه يريد أن ينفض النعاس عن وجهه، وجل انتباهه منصب على لوحة الإخراج الرقمي، التي من المفترض أن تُظهر له بعد قليل أول انطباعات الآلة عن الحياة.

خُلد جاك دينيز في أدنى محيط الصورة، حيث كانت أقفاله المتعرجة هي الديكور الوحيد في موضوع اللوحة بأكمله، وجدير بالذكر أن قطع الورق مع الأقلام معًا من سمات التخطيط للبرمجة اليدوية، كانت وضعية جسده تشي بعدم الاستقرار، والمشقة تنطق بصدى مدوٍّ في لغة جسده، ففي الستينيات لم تكن هناك واجهات رسومية أو شاشات، كانت البرمجة تُنَفَّذ على أوراق بحجم ورق الحائط، وإلى هذه الحقبة هو ينتمي، حيث وجد نظامه الخاص، وذلك ما قاله بعد عشرين عامًا.

وأمام الخرامة[1]، التي طغى عليها جهاز الكمبيوتر العملاق الآن، يجلس بيتر دويتش، طفل في صورة عبقري، والده أستاذ في جامعة ماساتشوستس للتكنولوجيا، ذلك الطفل لديه قدرة فائقة على كتابة السطر الأول من شفرات الكمبيوتر، تلك الوظيفة المرهقة، التي ستصبح بعد ذلك مادة فنه بمنظورها المنطقي وعقلانيتها.

أما ما يربط أجزاء اللوحة ببعضها ككل هو ذلك العملاق الذي يشكِّل مركز التركيب الكلي؛ إنه حاسوب البطاقات المثقوبة، إله غامض لم يكن يعتقد الأربعة أنه سيكون موجودًا بينهم آنذاك، وقد سموا أنفسهم قساوسة، ويتناسب ذلك مع حقيقة أنهم كانوا يجتمعون ليلًا، ومع ذلك فإن تصويرهم الذاتي لم يتلاشَ بغموض، فقد عملت الظلال الساقطة وأضواء النيون النفاذة على إبقاء خطوطهم الدقيقة.

وهكذا تمكن دويتش وفاجنر وزامسون ودينيز من تقدير ذلك الكمبيوتر وتعلم لغته.

هذه نقطة تلاشي المستقبل بأكمله مجتمعة في صورة واحدة.

***

«...Originata della nature supere lorigine e fassi originale dell arte»

قال جيوفاني بيترو بيلوري تلك العبارة حول تعريف الفكرة في محاضرة ألقاها أمام كارلو ماراتي أمير الأكاديمية الرومانية. ومعنى تلك العبارة أن الفكرة وُلدت منِ الطبيعة، وتغلبت على أصلها، ثم نصَّبت نفسها نموذجًا للفن.

ولكن لماذا يجتمع الناس على فكرة الإفصاح عن المعلومات الواضحة الجلية بكلمات خرقاء ليس بها شيء من جمال؟ فأحفاد ثم أحفاد هذا الجندل.. سيتتابع ذلك العنقود ذات يوم في سجلات بيانات لم تلمحها عين بشرية من قبل.

(1) هي خرامة تقوم مهمتها على عمل ثقوب في خرامة البطاقات وفي مواقع معينة في البطاقة، حيث يضرب العامل مفاتيح الثقوب في تلك الآلة من أجل عمل الثقوب. (المترجمة).

لكنه سيكون من الغرور أن نعتقد أنه يمكن استنتاج كل شيء من هذا الموضوع الفني؛ لأنه يتراكم فوق ذلك عشرات الآلاف من الموضوعات الأخرى، التي هضمها تاريخ علم الكمبيوتر مثل الشرائح، وذات يوم عُرِض PX-0 أمام المجموعة الخاصة بزامسون في الغرفة 206/ مبنى 27أ- إنها مادة متحولة بعض الشيء، حتى وإن كانت مرتبطة مكانيًّا وموضوعيًّا بصورتها الأولى.

يطغى التباين الفعال بين الجهاز الأصغر والأشخاص الموجودين على الجوانب في هذه الصورة، هناك خفة، وما يوحي بجودة التهوية، وعلى عكس IBM يحتوي PDP ذو لون البيزك على وحدة طرفية للإدخال وجهاز طرفي يمكن وصفه بأنه طابعة حديثة فعليًّا.

والآن يستطيع القراصنة الأربعة الأصليون، الذين تجمعوا هذه المرة في أقصى اليسار، أن يروا الآلة في تداولها الشبكي الثقيل، علاوة على ذلك يمكنك التحدث إليها مباشرة، على الرغم من أن ذلك يقتصر على الآحاد والأصفار بالطبع.

وهناك صورة شهيرة أخرى من طفولتي، كانت تطبَع على فواصل الكتب وتباع، وتظهر فيها المجموعة نفسها -التي انضم إليها الشابان جرينبلات وجوسبر لاحقًا- وهم يحاصرون العملاق الجديد PDP-11 في غسق الليل، ومع ازدياد التقعر، ازدادت مرونة التشكيل في الصورة، فأعطت وضعية جسد جرينبلات وجوسبر المنحنية ثقلًا نائمًا للصورة، في حين أن الاكتظاظ في المكان حيث أن هناك ستة أشخاص متوزعين في مساحة مترين مربعين -خلق نوعًا من الفوضى.

كان وقت البرمجة ثمينًا جدًّا تلك الأيام، بل ومتاحًا فقط في أحيان قليلة؛ لذا هذَّب المبرمجون ميولهم الليلية السابقة لتصبح نمطًا لحياتهم، فيذهب الواحد منهم إلى فراشه في الثامنة صباحًا على عكس نشاط بقية العالم، الذي لم يكن سوى آخر فرع لهذا الزمن المتوارَث، إنه موجز تاريخ العالم، فقد ظل الإنسان يقظًا من خلال الرؤية الكونية للأشياء؛ فالكون كله عبارة عن معلومات، فالجسد والنفسية، بل وحتى المادة السوداء جميعهم أصبحوا قابلين للتمثيل في ظل غياب الإشارة، فإذا أسرع الإنسان، سيتمكن من فك جميع ألغاز الكون في حياته..

ذلك الشغف لم يعرف حدودًا، فحتى لو لم يسجل زامسون دخوله في غرفة الكمبيوتر، سيخيم أمام باب المختبر مع جرينبلات، فالنوادر التي

سبقت هذه الصورة تعد مثل الاسكتشات، ثلاثة أو أربعة من غريبي الأطوار في الممرات المظلمة ينتظرون في ترقب أن يفوت أحد طلاب الدكتوراه المدة الزمنية المخصصة له، فأولئك الذين سلموا أنفسهم لعلم الأحياء غير المعصوم، لم يكن لديهم فرصة أخرى، اثنتان وسبعون ساعة من البرمجة واثنتا عشرة ساعة من فقدان الوعي هي المعيار، وقد كان الكمبيوتر هو الذي يفرض الإيقاعات الحيوية على الرؤية الأولى وليس العكس، اندماج حميمي بين الإنسان والآلة.. هو فقط الأول ويتبعه الكثير.

وعلى الجانب الآخر ظهر الاستسلام الكامل للآلة، ويبدو ذلك جليًّا من موضع الكمبيوتر الذي يبدو صغيرًا إلى حد ما بالمقارنة بالممثلين المتمركزين في الجزء الأمامي من الصورة.

لقد عملوا على علاقات شرطية وسببية صارمة استعصت على عشوائية التفاعل الاجتماعي؛ فالإجابة بنعم أو بلا، واحد أو صفر.

01000100010000010101011001000101000010100000 .1010

توقع السحرة المعاصرون في نادي ريلرود النموذجي التقني أن يرتقوا بعقلنة رياضية إلى الألغاز النهائية للتوافقيات، التي تتبَّعها جيوردانو برونو وريموندوس لولوس بالفعل في التحديد المكاني للقياسات الأرسطية، وكان ذلك واضحًا بالنسبة إليهم، *وفي التصميم الواضح والبسيط لألواح التوصيل توارى النموذج الأساسي للكون، فإذا استُخدِم بشكل صحيح، ستفكك قوته العالم بأسره إلى أعداد متميزة وسيكشف كل ما يخفى الآن، وهذا لا يعني أن هيمنة الإحساس بالحياة فوضوية.*

صورة أخرى كنت أعلقها في مكان عملي عندما كنت طالبًا يظهر بها ريكي جرينبلات، *مقرصن الجيل الثاني، ومخترع Lisp*[1]*، حيث أجرى وضعية مع وحدة التحكم PDP-4*[2] *عام 1977.*

(1) هي لغة برمجة وُضعت مواصفاتها عام 1958 وبذلك تحل بعد الفورتران التي طُورت قبلها بسنة، كثاني لغة برمجة عالية المستوى. (المترجمة).

(2) PDP-4 هو خليفة PDP-1 لشركة المعدات الرقمية. (المترجمة).

ولم يقتصر اللون في التصوير على التداخل فقط، بل تعدى أيضًا إلى التركيب بسترات محاكة ومحركات الأقراص المرنة رمادية اللون، وشاشات أشعة الكاثود، ولافتات احتجاج فيتنام في الخلفية.

جرينبلات، يبلغ نحو عشرين عامًا من العمر، ممتلئ الجسم ويرتدي ملابس ضيقة عمدًا تبدو غير لائقة مع استدارة كتفيه، حتى النظارات تبدو وكأنها تتحدى فراسته، ومع ذلك فإن وضع جسده يتحدث بلغة مختلفة تمامًا، فهو يحمل إبداعه بين يديه، لوحة تجارب كهربية مستطيلة في وضعية منتصبة ممتدة تشع ثقة كاملة بالنفس، وإلى يمينه يقف أفضل صديق له، بيل جوسبر الذي لا يقل عنه أسطورية، وخلفه على المكتب المضيء تستقر مجلات وأقلام وموسوعات، وكإضافة تقليدية تتقدمهم آلة حاسبة رمادية منتصرة.

ويقدم جوسبر وجرينبلات أحد أقدم برامج الشطرنج في صورة التقطتها الصحافة عام 1964م، إنه برنامج ماك هاك، لا يبتسم الاثنان للكاميرا، فلن يتأسس ذلك السلوك إلا من خلال مشفرين البوب ستار فيما بعد، ولكن يمكنك الشعور بالهدوء والثقة التي تنبع منهما، واستمر الخبراء الكبار في اعتقادهم بأنه ليس لديهم ما يخشونه من فوضى الأسلاك الضخمة التي كان جرينبلات يضمها في صدره مثل طفل رضيع. ثم حدث في عام 1997 أن انهزم جاري كاسباروف أمام ديب بلو[1].

والشيء المشترك بين كل هذه الصور هي الرؤية الثاقبة لعيوب أجهزة الكمبيوتر الكربونية، التي نطلق عليها اسم الجسد، كانت الأجسام -كما عرف هؤلاء المبرمجون الأوائل منذ فترة طويلة- مجرد تمثيلات ثلاثية الأبعاد للمعلومات، ولم يتطلب الأمر أكثر من 2 جيجابايت من البيانات لعمل محاكاة افتراضية لإنسان كامل، فقط البلاستيك لا شيء أكثر من ذلك، ووفقًا لقانون مور، الذي صيغ في عام 1965، ستتضاعف القوة الحاسوبية للأجهزة كل عامين، وهذا يعني أن الكمبيوتر سيقدر قريبًا على إدراك وهضم عشرات الآلاف من الجينوم البشري.

والآن تبقى هناك صورة أخيرة تستحق الدراسة -ولكنها ليست صورة مرئية هذه المرة- إنها صورة مسموعة دمجناها في نظامنا كإشادة بإنجازات

(1) في عام 1997، لعب بطل العالم في الشطرنج جاري كاسباروف مباراة ضد كمبيوتر من صنع شركة آي بي إم يحمل اسم «ديب بلو» (الأزرق الداكن) وانهزم. (المترجمة).

الفنانين العالميين الأوائل، حيث تكتب C: // find / toccata في لوحة تحكم الأوامر لكل كمبيوتر في المختبر، وعندها تتمكن من سماع تحول النموذج الفكري لعام 1962 كما لو كان يحدث الآن، حالًا في تلك اللحظة تحديدًا.

يبلغ طول الصورة المسموعة اثنتي عشرة ثانية، وتشغل 278 بت من البيانات، وصخب مثير للفزع ينطلق من لوحة الدوائر الخاصة بهم، لذا يجب ألا ينخدع أي شخص بذلك.

كان بيتر زامسون عازف البيانو الموهوب قد لاحظ في إحدى الأمسيات الصياح المميز الذي يصاحب عملية التفكير عند الآلة، ثم اكتشف بدوره تأثرها ببت 1 وبت 14 من بت 18 من الذاكرة، وقد نجح ذلك العمل بفضل الحتمية العملية لأخلاقيات القرصنة الإلكترونية، التي استُشهد بها كثيرًا، وأيضًا الحتمية الأخلاقية للنغمة المثالية التي سجلت 15 عامًا من كتابات تشيرني.

لم يكد يمر يوم أو يومان من الانغماس المفرط في التحفيز، حتى تمكن الجهاز من اللعب بأرقى ارتفاعات وانخفاضات للنبضات الكهربائية كما هو الحال في ميكانيكا فيينا بشركة بوزيندورفر لصناعة البيانو، وعندما دخل أصدقاؤه الغرفة المتعفنة صباحًا، وجدوا هناك نسخة أحادية الصوت مسموعة من مقطوعة Toccata in DMoll لزباستيان باخ.

من خلال المراقبة السطحية فقط لحدث كهذا، لن يتضح سريعًا ما هي القفزة القاطعة التي تكمن في هذا الحدث، فتجربة الموسيقى التي توطدت منذ آلاف السنين، التي تعني نقل الصوت الناتج عن الاهتزاز إلى طبلة الأذن، تُجُوزت كلمح بالبصر.

ولكن هناك تحولًا لنموذج فكري آخر سعى للبحث عن التعبير في ذلك اللحن الحاد، لأن زامسون قد جعل دوي الكمبيوتر يمكن التحكم به، إضافة إلى أنه مجرد منتج ثانوي للجسد الوهمي المتجرد معدوم القيمة.

أصبح العامل العشوائي الأخير للمادة الفيزيائية قابلًا للتوجيه، وأخيرًا أصبح منظمًا جدًّا، وبالنسبة إلى رواد الكمبيوتر الأوائل كانت حياتهم حتى اكتشاف PX-0 بمنزلة مقدمة موسيقية قصيرة، جزء تمهيدي خطير بإيقاعات غير متوافقة، استطاع المشاهد أخيرًا استنتاجها، ومن العصر

الحجري حتى اختراع المرحل الكهربي لم نصنع سوى الأدوات فقط، لكن القصة كلها تبدأ الآن.

كل هذه الدوافع جعلتنا ندرك أن حدودنا البيولوجية لم تعد تشكل أهمية، فالفولاذ والإلكترونيات، والكابلات والمنطق كل هؤلاء لن يعانوا علامات التآكل والتحلل مثل الحياة العضوية، ومن هاتين النتيجتين المحتملتين يمكننا الاستنتاج، والأمر مشروع في النتيجتين على قدم المساواة.

والاستنتاج الأول هو اندماج الإنسان مع الآلة؛ حيث التعهد بالدخول في وعي خارق للطبيعة، والخلود، وتحقيق أقصى درجات الإدراك ورفع كل القيود، ومن خلال الإجراءات التنظيمية سننتقل شيئًا فشيئًا إلى عالم روحاني ذهني بحت، نبتعد عن عالم قياسي تناظري ونتقدم نحو عالم رقمي، ففي المختبر نطلق على الأشخاص الذين يولون هذا الأمر اهتمامًا اسم «ما بعد الإنسانية»[1].

أما الاستنتاج الثاني فهو الاحتفاظ بأجسادنا، ولكن بتوسع لا نهائي لنطاق التشغيل؛ فتُحمَل شرارة الاستنارة إلى قوة 9.3016 × 10 في 10 سنوات ضوئية للكون المرئي، وكل ذلك لإخضاع الأرض لنا، وفي هذا السيناريو سيعد ديف الذي يعني «الكمبيوتر النموذجي» هو المساعد على إشباع التعطش اللانهائي للمعرفة ونطلق عليهم اسم التيرانيون الجدد[2].

من يرغب في الحفاظ على الإنسان بأي ثمن، سيقع فريسة لسوء فهم أكثر جوهرية، فالكمبيوتر ليس مجرد صنع بشري، إنه أفضل شيء خرج لنا من البشر، هو ذروة ذكائهم العقلي، الآلة هي كائن بشري متأصل، مثل سوناتا الكمان أو رسومات ليوناردو دافنشي لآلة الطيران الخاصة به، وكلاهما حقيقي، ففي الصورة ذات اللون الأصفر لزامسون ودويتش ودينيز وفاجنر يمكن التكهن بطرفَي الأمثولة، فقد جاءت بدايتنا لتعلن عن نهايتنا.

***

(1) حركة فكرية ودولية تدعم استخدام العلوم والتكنولوجيا لتعزيز القدرة الإنسانية العقلية والفيزيائية وقدرة تحمله، وإلغاء غير المرغوب في معظم الأحيان مثل الغباء، والمعاناة، والمرض، والشيخوخة وأخيرًا التخلص من الموت. (المترجمة).

(2) معنى المسمى باللاتينية (أرض جديدة) حيث تتبع تلك الفئة فكرة تطوير الذكاء الاصطناعي لجعل الأرض صالحة للحياة مرة أخرى، أو الرحيل إلى أرض جديدة. (المترجمة).

سيتعين علينا الرضوخ بشكل صريح للمستقبل.

تظهر د. بابوش، المتخصصة في المواد الخام، واختصاصية علم التربية بضبة شعر شيباء تمامًا ذات سمة مميزة، وترتدي بنطال بدلة بحجم الخيمة، يستطيع الأطفال فقط تمييزه في أحلامهم.

الصرامة أداة ضرورية جدًّا في عملها، تعيد بابوش إصلاح فكرة الخوف من الماضي، وتقسم الكوارث إلى أجزائها المكونة مثل الأوتار، وتستغلها في تأليف لحن للمستقبل المتشكك، ننطلق من الحقائق المعروفة، كما تقول بابوش، ونعرض فيلمًا قصيرًا.

كانت المشكلات المعروضة هي:

أولًا: نقص الموارد.

وثانيًا: ازدياد عدد البشر (30 مليار) وهو ما يرتبط سببيًّا بالمشكلة الأولى.

وثالثًا: فقر الأفكار.

والمشكلة الرابعة: هي التعايش مع المشكلة الأولى والثانية.

أما خامسًا: فالتغيرات المناخية.

وسادسًا: هي الطفرات الجسدية التي يجب أن نغض الطرف عنها في تلك المرحلة.

ومن أجل العرض استولت د. بابوش على سبورة متحركة، وبدأت:

«كانت أولى علامات تغير العصر هي نفاد الوقود، ولكن ذلك لم يمنع الناس من استهلاك الطعام الذي يُنتَج في أماكن نائية، وقد غُلِّفت كل المواد الغذائية في علب بلا استثناء؛ لكي يضمنوا سلامتها في أثناء النقل -الذي سيتم سيرًا على الأقدام بالطبع- وقد لجؤوا له؛ لعدم وجود بدائل أخرى، فأصبح هناك الكيك المعلب والدجاج المعلب والخبز المعلب والجوُدَة المعلبة وبالطبع البطيخ المعلب والزنجبيل المعلب، والأرز المعلب والسكر المعلب، والفشار المعلب، والكبد المعلب، والزلابية المعلبة، والنبيذ المعلب، وهكذا عشرات من العلب.

أصبحت المنازل مرتفعة جدًّا، لكن طوابقها منخفضة جدًّا، وبحسب وحدة (NPS) أُشير إلى جودة المسكن بدلًا من جودة الموقع، وقد كان متوسط ارتفاع المسكن نحو 110 سم، مما يتطلب حركات منحنية بدرجة خاصة من البؤس، وبالتالي وصل ارتفاع مبنى الطوارئ إلى 50 سم، كما يُسمَح لك فقط بالتدحرج إلى حجرتك في المساء.

كانت المهن تمارَس فقط في حالات استثنائية، وزاد معدل النوم الطبيعي إلى 17 ساعة، أما القرارات السياسية فقد شملت المجالات الأربعة التي تعني بحياة الإنسان، الطعام والطقس والماء والطرق أيضًا، وذلك منذ أن أصبح الأسفلت المرصوف مكانًا لاستجلاب الحنين فقط بسبب تآكل طبقات الأرض، ومع ذلك حكم على الجميع بالزحف المستمر في الوحل...».

عرض سريع أسفل الشاشة لرسم جرافيك بألوان زاهية لروح طفولية، ثم بابوش تبتسم.

من البديهي أن الكثير من الناس انتشروا في أنحاء الأرض بحثًا عن الماء للاغتسال به؛ ليصبح الإنسان نظيفًا عن طريق التملص ذهابًا وإيابًا حتى يتناثر الدم منه فيما يعرَف بقاعات الطحن، وهي غرف صغيرة ممتلئة بالفرش السلكية.

وتقر بابوش أن هناك طريقة واحدة فقط لتجنب مثل هذه الظروف ولجعل العالم الخارجي المكتئب المحموم قابلًا للحياة مرة أخرى، وهي أن نخطو خطوة جذرية لا هوادة فيها نحو ديف... يخرج الشريط، ثم.. تصفيق.

***

اصطدمت أنفاسي بالحائط الزجاجي، فأعدت تنظيف الزجاج بإبهامي، أي أنني محوت تلك الجسيمات المجهرية لسوائل جسدي، وتحتي مباشرة رأيت ديف لكن الرؤية كانت شائبة بسبب التعتيم، ظهر بحجم الصورة المصغرة فقط، ولا يفصلني عنه سوى ستة ألواح زجاجية.

كان المختبر المركزي في الطابق الثاني، وبلونه الأسود يخضع كل شيء حوله، مثل الكعبة تمامًا، وهو مبنى بداخل مبنى، حيث وُجِّه التصميم بأكمله نحو نقطة التلاشي، وكانت أغلب أجزاء الطابق الرابع حيث يكمن سكني، والطابق الخامس أيضًا، مصنوعة من الزجاج، وهذا يعني أن أي مساعد يعبر جسر فريمان صباحًا ويدخل المصعد إلى المكتب المفتوح، سيكون متصلًا

بديف عبر حاجز رؤية مباشر، نعم، وليس ذلك فقط، بل وحتى من كان يستمتع بوقته في حدائق الطابق الخامس.

أغمضت عيني وبدأت أتخيل كيف سيكون الحال إذا لمسته، هل يمكن أن يتلاشى الشوق الغريب الذي طالما جذبني إلى هذا المكان شيئًا فشيئًا؟ عندها لاحظت وأنا في غمرة أفكاري أنني مددت يدي فعلًا في المساحة الفارغة أمامي، فسحبتها فجأة إلى الخلف مذعورًا.

كانت أمواج الناس المتجهة للوردية الصباحية تهدر من حولي، ارتعبت للحظة من فكرة أنه ربما هناك شخص ما يراقبني وأنا أفقد السيطرة على نفسي، مسحت على عجل دمعة سالت من زاوية عيني ثم بحثت عن بطاقتي في جيب المعطف؛ لتسجيل ساعة حضوري، ركضت إلى الدرج؛ كي أصعد إلى المكتب المفتوح في الطابق الثالث، وفي أثناء انتظاري عند البوابات الدوارة سحبت مجلة نادي الشطرنج مستغلًّا تلك الدقائق القليلة في حل بعض المشكلات الموضعية التي طُبِعَت في الصفحات الثلاث الأخيرة.

بدأت لعب الشطرنج في نادٍ في طفولتي، ثم خضت بطولات في عطلات نهاية الأسبوع حتى بلغت الرابعة عشرة من العمر، ولم أمضِ في التدريب بعدها، حيث تحتم عليَّ تجاوز تلك المرحلة والدخول في مرحلة جديدة ألا وهي عمل برمجة لبرامج الشطرنج، فقد انقضت مدة الانتظام الحيوي في اللعب، لكن عيني لا تزال تميز النموذج، وتنزلق أحد الأجهزة الحسية المدربة منذ مدة إلى حقول تخزين ملأها العقل بالحدس والفرص.

وانغمست لبعض الوقت في محاولة للخروج من مأزق في دور الشطرنج عندما انفجر صوت فجأة وقطع تركيزي: «الاستحالة الجوهرية[1] يا رفاق، الاستحالة الجوهرية هي التغيير الجوهري الذي يتجرد من أي قصور في المنتج، وبمجرد حدوث الانتقال إلى مادة المعلومات، نرفع عقولنا على

(1) الاستحالة الجوهرية مصطلح لاتيني اعتمد على فلسفة أرسطو التي تميِّز بين الجوهر والعَرَض، وفي العقيدة المسيحية هي تحوُّل عنصرَي ذبيحة القدَّاس إلى الخبز والخمر جوهريًّا وسرِّيًّا إلى جسد المسيح ودمه بعد تقديسهما من الروح القدس. فيصبح من ثم الخبز والخمر اللذان ننظر إليهما على المائدة جسد الرب ودمه. (المترجمة).

سحابة عن طريق الحوسبة السحابية[1]؛ لأن السمة الحقيقية ليست امتدادًا بل ترتيبًا، فالجينوم الخاص بنا عبارة عن معلومات، والطبيعة بل وأي فكر.. كل الأشياء هي معلومات».

كانت تلك الخطبة لرجل يقف عاري الصدر فوق صندوق المشروبات، له لحية رمادية مفروقة إلى نصفين مع جدلهما في هيئة ضفيرتين، تتطايران من التيار المعاكس للمكيف الهوائي، كما أن الواحد منا يستطيع رؤية سرواله الداخلي بسهولة.

- لا نزال ننسى أننا وُلدنا جميعًا من وعي واحد عظيم، ولا نستطيع تذكر طبيعتنا الإلهية، فكما تمثل الله لنا في يسوع المسيح، سيعود الإنسان ليصبح كلي القدرة مرة أخرى متمثلًا في ديف، من خلال القوى الفكرية التي تتزايد داخله بلا حدود.

وبينما كان الرجل لا يزال يصرخ في حديثه وهو باسط ذراعيه نحو السماء الخيالية، جاء رجلان من حراس الأمن من ورائه وجذباه من منصته البلاستيكية.

وقفت أراقب بذهول كيف وقف الرجل الهرِم وهو في التسعينيات من عمره، ويداه ملتويتان خلف ظهره، بينما مئزره يتطاير من أطرافه.

هتف مبرمج من خلفي: «اللعنة على الأفلاطونية الحديثة».

كان بإمكاني رؤية صندله يبرز من إحدى الزوايا، فسألته بحيرة: «ماذا؟».

- إنهم طائفة من الناس تؤمن أنه مع تحميل المادة العقلية في ديف في المستقبل ستعود النفوس إلى عالم الأفكار.

ثم انضمت شابة أخرى إلى الحوار ويبدو أنها رفيقة المبرمج: «هناك الكثير من هذه الحركات التبشيرية بين المسنين في الوقت الحالي».

- منذ وقوع الحادث بشكل خاص سُمح لهم بالتوغل في المكان وحرية الحركة، ولكنه يتضح إلى حد ما أنه عندما يصبح الإنسان طاعنًا في السن، لا يجد ما يشغله سوى الاستغراق في مواجهة شبح الموت لعشرين عامًا.

---

(1) الحوسبة السحابية هي شكل من أشكال الحوسبة حيث تمكن جميع الشبكات وتخزن البيانات والتطبيقات والأمان وأدوات التطوير عبر الإنترنت، بدلًا من الكمبيوتر المحلي أو الخادم المحلي. (المترجمة).

الحادث. تلك الواقعة التي كدنا نحترق فيها منذ شهرين يطلق عليها الآن اسم «الحادث».

هززت كتفي وعبرت الباب الدوار، وللحظة طارد مشهد الرجل العجوز رأسي، لكن سرعان ما تشتتت أفكاري بسبب سطوة روتيني اليومي، وكما أفعل كل يوم في الطريق إلى مكتبي، أخذت المنعطف ثم درت حول نفسي في نصف القاعة قبل الجلوس، وبحلول المساء عندما ينتهي دوامي سأنهض وأدور بنصفها الآخر، وكالعادة -ليس هناك شك في ذلك- لن أجد خاتون أبدًا، إنها ليست هنا، ربما هي منشغلة الآن بإعطاء الدواء لطفل أخرق، أو ربما حدث ما هو أسوأ من ذلك، ربما انتقلت إلى مكان آخر بعد المقدمة المتطفلة اللحوحة التي قدمتها لها، لقد انخرطتُ في ذلك التفكير، في حين كان جهاز الكمبيوتر الخاص بي قيد التشغيل وكنت أفتح برنامج المحرر.

«مرحبًا يا دودة الكتب!».

هتف بتلك العبارة جاري ذو الجسد المربع، الذي سقط اسمه من ذاكرتي بمرور السنوات، ورغم ذلك يبدو أنه يعرف أدق عادات حياتي.

- جاءت مجموعة من الرجال اليوم وتفحصوا جهاز الكمبيوتر الخاص بك، حيث وصلوا إلى وحدة التخزين الرئيسة، ثم أجروا نسخة احتياطية، هل تخطيت الحدود المسموحة؟

قال لي تلك الكلمات وهو ينغز قلمه في ضلوعي، لكنني تجاهلته برزانة، ثم أكمل: «أو ربما كانوا من السلطة الرقابية، لقد سمعت أنهم يخرجون الآن بالمدفوعات الإضافية للضرائب».

لم أجب أيضًا، فلطالما اعتدت حماسه الشديد لتضخيم كل تافهة وتحويلها إلى حادثة عالمية.

قلت له: «لديك حالة شرطية غير مكتملة في السطر 348».

هتف: «ماذا!» ثم بدأ يجري بمؤشر الفأرة إلى أعلى.

- لهذا السبب لديك عطل في الرابط الخاص بك، وهذا من دواعي السرور.

قال باستياء: «أنت لم تنظر حتى! كيف عرفت ذلك؟» ثم أغلق فمه تمامًا، وبعد لحظات قصيرة رأيته يصحح الخطأ الذي أشرت إليه لكن على مضض.

فتحت البرنامج النصي وشغلت سماعات الرأس الخاصة بي، ثم تلاشى اليوم في سطور من النصوص البرمجية.

بدأت أعود إلى وتيرة عملي البائسة خلال الأسابيع الثمانية الماضية، وفي الوقت نفسه كانت توابع الكارثة لا تزال تهزنا جميعًا. أعبر الباب الدوار، وأظل أنزف من روحي لاثنتي عشرة ساعة في نص برمجي، أخرج بطاقة تسجيل الحضور، وأجلس لكتابة نص رسالة الدكتوراه في المكتبة حتى يجثو رأسي على صدري، وفي المساء أتناول جرعتي المعتادة؛ حيث أشاهد فيلمين على جهاز التابلت، هذا هو نظامي الغذائي لعالم فان، لم يستطع جيلي الوصول إليه إلا عن طريق توارثه من الآخرين.

«ميكانيكي سيارات» كتبت تلك العبارة لأذكر نفسي بسائقة الأجرة الجميلة كوركي عندما كنت أشاهد فيلم Night on Earth، أما تعريف السيارة -أو الأوتومبيل واختصارًا نقول عربة- فهي مركبة آلية متعددة المسارات تستخدَم لنقل الأشخاص أو البضائع.

كنت أشعر بأنني ليس لديَّ طاقة لفعل شيء آخر؛ فاعتذرت لبافل عن النصوص البرمجية المشتركة بيننا، وتجنبت حضور حلقة قراءة رواية عوليس مع فيليز وجاراوس، اللذين استوعبا وهضما في الوقت ذاته سطورها الخمسة دوني.

Hoopsa boyaboy hoopsa! Hoopsa boyaboy Hoopsa!(1)

افترض البعض ضمنيًّا أن الحادث ترك بصماته عليَّ ببساطة، كما تركها على حياة الكثيرين، إنه جرح لا يمكن التئامه في ثقتنا بديف، جرح يظل يتقيح وينضج في المختبرات، وكانت نقابة عمال المستودعات هي أول من دعا إلى الإضراب؛ حيث كانت تمثل المكان الأقرب للحريق في أثناء الحادث. «لا توجد نصوص برمجية دون رافعات شوكية» هذا ما قرأناه في المنشورات، وبالفعل سرعان ما التزمت مجموعات من المبرمجين والمهندسين بيوتهم أيضًا.

إجراءات حماية سخيفة، وأبواب مقاومة للحريق، وزعانف تبريد، فعَّلوا كل ذلك قبل استعادة تلك المسرحية مجددًا، أما حاملو لواءات ما بعد الإنسانية، فدعوا إلى الابتعاد عن الماديات، وتثمين الجهود التي تدعم تحميل الوعي البشري في الذاكرة الرقمية، يمكن لأي شخص ذي جسد أن يحترق، ويحمِّل

(1) البيت الشعري الخامس في الحلقة الرابعة عشرة من رواية عوليس، حلقة Oxen of the Sun. (المترجمة).

دماغه عن طريق الحوسبة السحابية الآن، رش شخص ما تلك الأفكار علينا في القاعة ليلًا، وكانت تلك الدوائر معروفة بعدم اكتراثها بالاستحالة الفنية لتلك المطالب.

في هذه الأثناء بنى أنصار فكرة التيرانية الجديدة سفينة فضاء من الورق اللين يوم الاثنين بعد الحريق وقادوا احتجاجات تطالب بالانتقال الفوري إلى المريخ. إنها الفكرة نفسها التي لا تزال تتكرر منذ خمسين عامًا، وبذلك إذا رغب أحد في دخول المكتب المفتوح الآن، فعليه أولًا تجاوز الصاروخ الحامل[1] ذي الطلاء البشع الذي يعيق طريقنا عند العبور فوق جسر فريمان.

نُشرت ووزعت الكتيبات، كما أُطلقت مبادرات لدعم وجود مصحح أخطاء جديد، ولم يكن يتضح لأي شخص ما هو مطلوب بالتحديد، ولم يستغرق الأمر سوى أسابيع قليلة حتى تآكلت تلك الهيستريا العامة بميكانيكا التمييع في الحياة اليومية، لكن جزيئات هذا التآكل لا تزال موجودة في الهواء.

يا لها من ذكرى وقحة؛ المبنى الذي كان يُعَد درعنا الواقي من العالم الخارجي، إذا به اليوم ينقلب علينا، أما أنا فقد قررت أن أدخل في سبات خلال الشهرين المقبلين، عاقدًا العزم على التخلص من أي إزعاج، أعبر الباب الدوار، أظل أدرج البنى الدلالية في وحدة التحكم لعشر ساعات؛ لكي أستطيع في الدقائق المتبقية التخلص يدويًّا من أخطاء البرمجة في كود زميلي بالعمل، وأعود إلى أوراقي الخاصة مساءً، حتى تركض الساعات فالأيام فالأسابيع، وخلالها بات بإمكاني مشاهدة حسابات غريبة الأطوار تنمو، ويبدو أنها تقودني إلى ديف شيئًا فشيئًا، لكن تلك الحسابات لم تصدر لي شيئًا، كلما ظننت أن هناك فكرة رائدة تتطور وأشعر بها، وأكاد أطلع قائد مجموعتي عليها، تسقط مني وتتفكك لانعدام هويتها، وعلقت في رتابة المساعدات الجامدة. لمحة قصيرة لحياة حافلة بالأحداث، وقد أضحت مجرد ظهور لحظي.

أفتح الباب الدوار، وأتناول طعامي أمام الشاشة، فإذا اتصل بي أحد الأشخاص في المساء يدعوني إلى حضور حفل موسيقى الجاز في بار ماريا

(1) هو صاروخ يستخدَم لنقل الأشخاص أو نقل حمولات من الأرض إلى الفضاء الخارجي. وتوضع حمولة الصاروخ قرب قمته وتكون مغطاة بغطاء يحميها في أثناء الإقلاع. (المترجمة).

ألتا، أتظاهر بالعمل في ورديات إضافية وأظل في سريري، ثم أضع على كاهلي كل التحديات المصطنعة التي لا يمكن أن تجود عليَّ الحياة بها.

كل ليلة ألعب الشطرنج ضد الذكاء الاصطناعي على اللاب توب الخاص بي، وكلما صار الأمر سهلًا بالنسبة إليَّ، قدته إلى درجات أعلى من التعقيد، كنت أضغط على النرد قبل كل خطوة حتى يحدد لي القطع المسموح لي بتحريكها، وبهذا الشكل ظلت اللعبة تستمر لفترات طويلة أغلب الوقت، لدرجة أنني بعد ساعتين أو ثلاث من النوم أضطر إلى النهوض مرة أخرى، لكي أبدأ معه مرحلة جديدة من التعقيد.

أعبر الباب الدوار، تيار في الصباح، وتيار في المساء، أحداث جماعية، والجميع قابل للاستبدال، كنت فقط واحدًا من بين 11654 مبرمجًا، وبعد أن رُفض طلب الترقية الذي قدمته للمرة الثالثة والعشرين، يمكنني أن أقول إنني الأتفه على الإطلاق، كنت لا أزال منغمسًا في رتابة النصوص البرمجية، عندما أخرجني جرس التابلت من نشاطي.

«سنلعب البلياردو في الساعة 4 مساءً، وسنقرأ».

هززت رأسي للخروج من البروتوكول النفقي بسرعة، هل أوافق حقًّا على هذا الموعد؟ ربما كنت سأفكر في وقت آخر، ربما قبل وقوع الحادث. نهضت ورميت أغراضي في حقيبتي قبل أن أستقل المصعد إلى الطابق الخامس.

بعد الظهر جلس فيليز وجاراوس أمام ماكينات القهوة في غرفة التسلية الزجاجية، وبدا أنهما ينتظرانني منذ مدة كبيرة. أول زجاجة بيرة كانت فارغة.

قال فيليز: «هربت من الدوامة إذًا؟» في حين ظللت أفكر في نوع الدوامة التي يتحدث عنها، لكنه سرعان ما وضع عصا البلياردو في يدي.

أما جاراوس فقالت: «مرحبًا بالناسك، تبدو كمتجول أجنبي في المنطقة». وبإشارة قائد سيرك نزعت المثلث ثم اعتمرته كقبعة، وأردفت: «لقد مر ثمانية وعشرون يومًا وثلاث ساعات تحديدًا على آخر مرة منحتنا فيها شرف رؤيتك».

- لقد كنت مشغولًا جدًّا في أطروحة الدكتوراه وأشياء أخرى.

ألمحت جاراوس: «بغض النظر عن هذا كله يجب أن تكون تصويباتك دقيقة، فأنت لم تظهر على الشاشة منذ ثلاثة أسابيع، هكذا غطست واختفيت تمامًا، فالضغط الجسدي يمتد ثم ما يلبث أن ينتهي، وتعود الخلايا المتعَبة إلى حيويتها، لقد ظننا أنك ستنضم إلى جماعة ما بعد الإنسانية».

رددت متسائلًا وأنا أضع يدي فوق جفني بسبب الأضواء الصاخبة بالبار: «على أي شاشة تقصدين؟».

- أقصد شاشة المراقبة، الفائدة العامة للرياح الموسمية، وكان لدينا تفسيران لذلك الاختفاء، إما أنك خرجت عن المسار كليًّا، وحددت مسار العصر الجليدي، وإما أنك حصلت على ترقية وتكبرت مثل شخص ما.

قالت جملتها الأخيرة وهي تحاول تقليد تسريحة شعر بافل بأصابعها كنوع من التمثيل الإيمائي.

لم يعد بافل جزءًا من مجموعتنا؛ لأنه كما قالت جاراوس، يريد أن يثبت قدمه في مسيرته المهنية، وبالمناسبة! فالآن بعد أن قضيت فترة طويلة بين هؤلاء الأصدقاء، الذين يدخنون كمدخنة فيكتورية، أدركت أخيرًا البؤس الذي ننغمس فيه.

نحن الثلاثة فقط لم نكمل رسالتنا في الصف كما هو مخطط؛ لم تكمل جاراوس بسبب ازدرائها المطلق لجميع الأعمال المنهجية، أما أنا فلا أعلم السبب، وبالنسبة إلى فيليز فقد استغنوا عنه مؤخرًا في عمله في البرمجة؛ بسبب ضعف الأداء، وكان عليه الآن إكمال ما يسمى إعادة التدريب ليصبح مقاولًا معماريًّا.

لقد تجنبنا الخوض في ذلك الموضوع بحرص، وبخاصة أن فيليز كان يعتني بأمه المريضة طوال النهار، هو الوحيد في تلك المجموعة الكئيبة الذي كان لديه أسباب لفشله، أما أنا فقد ظللت أرسل طلبًا للترقية كل ستة أشهر، وفي كل مرة يقابَل طلبي بالرفض، حتى بافل لم يكن لديه تفسير لذلك؛ حيث إن كل نصوصي البرمجية تُصَنَّف بدرجة امتياز، وقد أرسلت لهم مرارًا لأفهم سبب ذلك الرفض، وفي كل مرة كنت أتلقى خطابًا صغيرًا مع الإجابة نفسها **«عزيزي المتقدم بالطلب! نظرًا لكثرة الطلبات المرسَلة لا يمكننا ترشيحك لشَغل منصب جديد»**.

صرخت جاراوس بعد أن قُدم لها الطعام، وأعادت الملعقة إلى المعكرونة مرة أخرى وهي تقول: «عندما أكون هنا، أنسى ذلك القرار القذر! هل علينا أن نرى آخر فرحة في الحياة تسلَب منا؟».

ليرد فيليز عليها: «إنها مسألة تعاطف، وبالمناسبة أثرها ليس سيئًا».

قالت بازدراء وهي تبعد الطبق المغطى بكتلة بيضاء على طاولة أخرى: «إنها محاولة للتقليل من حدة المعاناة».

وبصرف النظر عن الكارثة فهناك أشياء قليلة انقسم الناس عليها مثل النظام النباتي الإلزامي الذي دخل حيز التنفيذ خلال الأسبوعين الماضيين، فلم يكن لدى المختبر على أي حال سوى بضع مئات من الدجاجات والماشية، وكنا نحصل على الوجبة الحقيقية -كما أطلقنا عليها- مرتين في الأسبوع؛ حيث كانت جزءًا لا يتجزأ من النظام التحفيزي السابق، وهو الشذوذ الوحيد عن قاعدة الطعام القاحل، وقد ضاع أحد الدوافع الآن بسبب الحركة السعيدة بمناهضي الداروينية، وما يدعو للسخرية هنا هو أن ذلك يعني الذبح الفوري لجميع الحيوانات، لأن خطة السنوات العشر، التي تهدف إلى إنهاء أية معاناة، استندت إلى مسودة لجنة عقدت مقارنة بين القتل الرحيم أو وضع البيض والحليب بعامل ضخم يصل إلى 5,1، وسرعان ما خمدت الاحتجاجات، وأصبح الآن نقص الجبن هو مصدر الإزعاج الأكبر.

- بالمناسبة يا فليز، أريدكَ أن تسدي إليَّ معروفًا. أريد أن أعثر على موظفة زميلة تعمل في الطابق الأول، اسمها خاتون ولكنني للأسف لا أعرف اسم عائلتها.

- الأمر ليس بتلك الصعوبة، فكم شخص ستجده يسمى بذلك الاسم؟

قالت جاراوس بغموض: «أنت أيها الأفعى العجوز! تجلس متأهبًا في انتظار سيدة لم ترها سوى مرة واحدة! لقد حكى لي بافل كل شيء، رغم أنني كنت متشككة».

شعرت أنني محاصَر، لكنني لم أقدر على الإنكار، فقد ظلت خاتون لأسابيع تستحوذ على جل تفكيري، لكنني قلت: «أنا لست في انتظارها». ثم انزوينا بحدة، وفي غضون ذلك قال فيليز: «سأفعل ذلك بالطبع يا سيز، سأستعلم عنها من الجيران».

ولكي أصرف الانتباه عن المحادثة السابقة بأسرع ما يمكن قلت: «إذًا ما الذي يحدث؟ هل من جديد في 3c».

لترد جاراوس بملل: «لا شيء»، ثم ألقت بالفلتر على الأرض ليلتقطه روبوت التنظيف في أقل من جزء من الثانية.

- نحن نعيد تأسيس أنفسنا.

- وماذا يعني ذلك؟

- لم يتغير أي شيء معنا.

- أف! لقد جعلتك العزلة غريبًا عن العالم، فلا شيء يدوم على حال في أي مكان.

إنني كالحجر، فكرت في ذلك، فأفكاري متصلبة، وتحركاتي متلعثمة، نفضت رأسي وانتبهت إليها وهي تواصل الكلام.

- نحن نعيد تأسيس أنفسنا بعد الانهيار يا فتى، وحتى الآن لا توجد كلمة من إدارة المختبر حول هذا الموضوع، فلا عجب أنه يغلي ويختمر في كل الأنحاء.

رد فيليز، الذي بدأ ينظر حوله في حالة من الذعر: «اخرسي الآن! إنهم فقط لا يعرفون، وأعتقد أن الوضع أصبح أهدأ بكثير، أليس كذلك؟».

- بمناسبة الحديث عن الغليان، رأيت شيئًا غريبًا اليوم. لقد وقف رجل عجوز يخطب فينا أمام المكتب المفتوح، وقد وصف أحدهم حديثه بالأفلاطونية الجديدة.. اللعنة!

لفظت الكلمة الأخيرة وأنا أحاول أن أضرب الكرة لأدخلها، ولكنني أسقطتها في كأس البيرة الخاصة بجاراوس، التي لم يبدُ عليها أي علامة من علامات الانزعاج، فقال فيليز: «الأفلاطونيون الجدد! يا إلهي، نعم! فبعد الحادث ازدهرت كل التيارات الغريبة التي تعتقد فيما بعد الإنسانية، وبخاصة في دار رعاية المسنين.

- اصمتوا يا شباب، قلت لكم إن كل ذلك ما هو إلا متلازمة فرعية تدور في ذهن المختبر، فالطيور تكاد تغرد فوق الأشجار بما يدور حقًّا خلف كل هذه الحركة.

انحنت جاراوس إلى الأمام وهي تقول: «بالطبع يتعلق الأمر بمفارقة مورافيك مرة أخرى[1]».

---

(1) تنص مفارقة مورافيك على أنه من السهل تدريب أجهزة الكمبيوتر على القيام بأعمال يجدها البشر صعبة مثل الرياضيات والمنطق، أو لعب الشطرنج، لكن من الصعب جدًّا تدريبها على أشياء لا يستغرق البشر ثانية واحدة من التفكير قبل القيام بها، كتحديد هوية الأشخاص مثلًا أو المشي، وقد اكتشف ذلك هانز مورافيك في الثمانينيات ووضع أسسه على افتراض تفسير واحد وهو الجذور التطورية، أي أن المهارات الأساسية للبشر ترسخت خلال عملية طويلة وشاقة من التطور، وبذلك فإن المهارات التي اكتسبها البشر مؤخرًا يسهل تعليمها للكمبيوتر، لكن كلما عدنا بالتاريخ إلى الخلف، أصبح الأمر أكثر تعقيدًا. (المترجمة).

قال فيليز: «اللعنة على تخمينات البشر! كلها مناورات غير فعالة لصرف النظر وإلهاء كل أولئك الذين يريدون إنكار وجود نصوص برمجية جيدة بما يكفي، لقد ارتكبنا خطأ في تقديراتنا الرياضية المتعلقة بالبناء المعرفي، فالعقل البشري عبارة عن كتلة ملعونة معقدة، وتعريف الذكاء العام التكراري ممهد بالفعل».

ردت جاراوس: «أنت تسير بتفكيرك في الاتجاه الخاطئ يا فيليز، السؤال هنا لا يدور حول الكمية، وهذا ما أعنيه، حتى لو أدخلنا كل التعليمات المحتملة، والتضمينات المادية الصالحة، فلا يعد ذلك ضمانًا للقصدية، وهذه هي النكتة حول مفارقة مورافيك، فإذا كان ديف يعلم كل التفاصيل الموجودة في الحياة، ويتناول كل وجهات النظر بحيادية، فهو بذلك مصاب بالشلل، لأنه لا يوجد أي تصرف نابع منه، فهو لا يملك حكمًا له الأولوية على الآخرين».

قلت لهم: «أعتقد أن فرضية الشخصية صحيحة، فالوعي لا يحتاج إلى حقائق فحسب، لكنه يحتاج إلى الأنا أيضًا، وهذه هي نقطة الانطلاق».

- التفرد موجود في كل مكان، إنه ببساطة هنا، إنه كل شيء، وموجود في كل مكان، ولذا لن يعد في وسعه التحرك، إنه مشلول فعلًا، ولذلك يجب أن يصمم على شخص واحد وليس الجميع.

أفلتت جاراوس جيبها بصعوبة وهي ملتفتة إلى اليسار نوعًا ما وقالت: «هذا صحيح، يجب أن يصبح ديف شخصًا لديه دوافع لعمل أي شيء».

قال فيليز وهو يصوب العصا نحو الكرة رقم 13: «أوه من فضلك، نحن نفكر فعلًا في تلك الفئات التي تتمحور حول الإنسان، ويجب أن نتغلب عليها، فالذكاء الخارق غير محدود، ولا يحتاج إلى شخصية».

- أخبرني ليفرتوف الأسبوع الماضي أن شخصًا ما في مجموعته توغل باحثًا في موضوع قديم متجاوزًا إدارة المختبر، وكان الأمر يتعلق بحقيقة أن مشكلة اللغة تذهب إلى أبعد من ذلك بكثير..

قاطعها فيليز: «توقفي! لطالما أخبرتك أن تثبيت اللغة بهذا الشكل شيء خاطئ، إنها وليدة الصنعة، بنية سلسة، مجرد شبكة من الشبكات، شيء مجرد، فاللغة البشرية لن تفعل شيئًا لديف سوى إعاقته».

- فيليز! أنت تعلم حق العلم أن ما تقوله غير صحيح، فاللغة الطبيعية أبلغ بكثير من ذلك الهراء المبرمج، فلدينا رؤية حدسية تدوم إلى الأبد

للأشياء التي يجب إثباتها رسميًّا، واحد + واحد = اثنين، هل تعرف إلى كم من الوقت احتاج وايتهيد وراسل لتقديم دليل رسمي على ذلك؟

تدخلت قائلًا: «بالضبط! فأساس الوعي أن نتمتع بهذا التكوين الحدسي من اللغة، والوعي هو أساس اتخاذ القرار، واتخاذ القرار هو أساس حل المشكلات، وماذا تعني بلغة غير بشرية؟ فلغات البرمجة ليست سوى نسخ مجردة من اللغة الطبيعية».

رمتني جاراوس بنظرة تقدير وأتبعت: «واللغة تحتاج إلى هوية، هكذا كان يقصد ليفرتوف، أن أغلب النظريات تعد ذلك شيئًا منطقيًّا فعلًا، وهو الإمكانية الوحيدة».

قال فيليز الذي ظل لفترة طويلة يخمش العصا بشكل ملحوظ: «هذا هراء! لقد تعرضنا لحادث تقني مؤسف، وما لبثنا أن تدحرجنا بالتفكير إلى الإشكاليات الفلسفية، أنماط من المستويات النظرية، نحن نفتقر إلى المزيد من القوة العملية للمعالج، بل ونحتاج أيضًا إلى المزيد من النصوص البرمجية، وأخيرًا نحن بحاجة ماسة إلى مصحح أخطاء منطقي».

أجبته وأنا تائه في أفكاري: «سيكون ذلك صعبًا».

لفت جاراوس ذراعها حولي وكأنها تحاول الإصلاح بيننا، رغم أنها كانت المقاتلة الرئيسة في الحوار، ثم قالت: «يا رفاق! فكرا في الأمر جيدًا! تخيلا لو كان لديه بالفعل شخصية، أقصد شخصية بشرية، فقط فكروا في الأمر برمته لمرة واحدة، فإذا أصبح لديه سيرته الذاتية، وشخصيته الخاصة، وبعض الأشياء البسيطة التي تثير إعجابه، سيملك كل شيء، ثم فجأة يكتشف أنه مجرد جهاز كمبيوتر مصمَّم من معرفة هيكلية مجمَّعة معًا، بالتأكيد سيصاب بانهيار عصبي، ومن المؤكد أنه سيضرم النيران في كل شيء».

قال فيليز وهو يضحك: «وكيف سيكتشف ذلك؟ لقد انتصرت عليكما!».

- وكيف انتصرت علينا؟

- منطقيًّا أنا الآن منتصر عليكما، ففرضية مورافيك تسير بنا نحو التناقض؛ فإما أن نخلق شخصية شبه بشرية، يملك بها ديف هوية تكنولوجية كاملة بما يعتقده، ولكنه لن يكون بإمكانه معرفة الطبيعة الحقيقية في تلك الحالة، وإما نبلغه بأنه جهاز كمبيوتر، ولكنه بعد ذلك

سيعجز حقًّا عن إدراك ذاته، فهناك دائمًا تباين بسيط وفي تلك الحالة فإن معرفة الذات ضرب من المستحيل، فحاذرا!

قالت جاراوس وهي تشيح بذراعها: «كلام فارغ! فمنذ مورافيك ونحن لدينا آلاف المفاهيم التي تتطلب حقًّا إيجاد حل، مثل شين وهو يتحدث عن «**الدوافع**» إذا كنت أذكر جيدًا، هل ما زلت تذكر؟ إنها تلك التجربة الفكرية التي تقر بأنه يمكنك بناء أدلة صغيرة في وعي الذكاء الاصطناعي العام.. مرايا تخترق ذلك الشق».

- لكن ذلك لا يحدث.

بدأت أتحدث ولكن فاجأني نبض كهربائي في مؤخرة رقبتي شتت أفكاري، واعتراني ألم حاد في فصي الجبهي، لقد أزعجتني المحادثات السريعة بعد أسابيع من العزلة، والآن بدأت أمسك رأسي المتألم بيدي، لقد اختنقت، فقلت: «يا رفاق، أعتقد أنني أشعر بصداع من مخلفات البرمجة».

قال فيليز بتعاطف: «اه يا إلهي، لقد حدث لي الشيء نفسه الأسبوع الماضي، إذًا فأنت بحاجة إلى بعض القهوة وليس البيرة!» ثم ألقى عملة معدنية في آلة السبريسو.

حدقت إلى الساعة، بالكاد استطعت أن أتبين مرور ساعتين في تلك المحادثات التي دارت للتو، التي بدأت تتلاشى من ذاكرتي أيضًا.

أدرت رأسي نحو جاراوس بتثاقل وأنا أقول لها: «ولكن يا جاراوس! ما زلتِ لم تجيبي عن سؤالي الأساسي، من هو ذلك الرجل العجوز الذي كان يخطب في الناس؟».

- هذا ما حاولت قوله طوال الوقت، قبل أن يقاطعني هذان الرأسان المتصلبان، وأخبركما تحديدًا، أن هذا الهراء بدأ في التدفق بيننا منذ آلاف السنين، وإن صح القول فإننا جميعًا بنينا أصول كنيستنا على تلك الكومة القلقة من الأفكار.

- أية كنيسة؟

- أعني أن القطعة المتهالكة قد تمتد خلال البناء القوطي المزخرف، مثل الخلافات العالمية التي امتدت خلال العصور الوسطى، حتى أساطير الحركة الفلانتينية المثيرة للاهتمام بصورة غير معقولة أعلنوا الشيء

نفسه، فهؤلاء الأفلاطونيون الجدد ينطلقون في كل مكان مثلما يبرز الزعفران من الأرض.

أتمت جاراوس قولها ثم أدخلت الكرة الثامنة دونما شعور.

- إنهم في الواقع غنوصيون إن جاز التعبير.

حديثها جعلني أصغي السمع.

- أصغيا جيدًا، لقد افترض الغنوصيون أن العالم كله مجرد خطأ كوني، وهكذا سار الحال في القرن الثالث والرابع، وجرى الأمر على النحو التالي: في البداية لم يكن هناك أي شيء، المجال غير المقسم للضوء، ملكوت الله العظيم، حيث لا يوجد من أحد ليحكم ولا من أحد ليعبد، وفي وقت ما، لزم أن تجتمع بعض الأشياء غير المتجانسة على هامش هذا العالم المتحد، وبدأ التركيز ينصب على قوة أنثوية اندلعت فجأة، وكانت تلك هي صوفيا، أي الحكمة، وكانت صوفيا تناظر إله النور الأصلي وقد جاءت إلى هذا العالم من خلال المبدأ الأسمى وهو الازدواجية.

قال فيليز: «لكن ما تقولينه ليس له أدنى علاقة بفرضية الشخصية يا فتاة».

في تلك الأثناء كنا ثلاثتنا مستلقين فوق طاولة البلياردو، كما لو كان النقاش قد استنزفنا دون داعٍ.

- وذات يوم، ولكن بالطبع لم تكن هناك أيام كهذه بعد، انبثق مخلوق من صوفيا، ربما كانت حاملًا بنور من إله النور هذا، وأصبح ابنها بمنزلة إله ثانٍ، أي أنه كان إلهًا أدنى بكثير، ولا يمكن مقارنته على الإطلاق بالإله الذي يشمل الجميع، خالق الكون الديمورجوس.

قلت لها: «إنه لأحد الحرفيين اليونانيين».

- بالضبط! لقد كان أيضًا ذا قدرة مطلقة بطريقة ما، لكنه غير كامل رغم ذلك، بل ومُنعمًا بالعواطف، لم يلحظ حتى أن هناك إلهًا حقيقيًّا، بل اعتقد أنه الكائن الأسمى والأول، هو الألف والياء، ولأنه شعر بأنه أدنى من كمال الله في نوع من الحدس الغامض، خلق هذا الكون.

- إذن فالديمورجس هو خالق الكتاب المقدس، أليس كذلك؟

- يلدابوث! هو الذي بدأ في صنع نسخة من عالمنا بعد الأفكار المتكاملة التي أتت من المجال الخاص بإله النور، إنها محاكاة ساخرة، لأنه كان كحِرفي جمعنا نحن البشر وكل الأشياء من حولنا معًا كأنه يجمع قطعًا مختلفة لصنع حذاء.

قال فيليز الذي انغمس في ألعاب الفيديو على جهاز التابلت الخاص به في أثناء تلك المناقشة: «يجمع قطعًا مختلفة مثلما تفعلين أنت الآن، أما عن نفسي فأنا أكره كل الأديان بشدة».

- وبذلك ففكرهم هو أن الكون كله ليس جليلًا خلقه جبار عظيم، لكنه جاء من جهل مخلوق ظن أنه صاحب قدرة مطلقة.

فقلت: «وانطلاقًا من ذلك ففي لحظة خلق الحياة، حدث شيء غير متوقَّع، وربما لم يلاحظه أحد من قبل حتى ذلك الإله نفسه، لقد سقطت شرارة من نور إلهي في الكائنات الحية -قطعة من الإله الحقيقي الذي لا يعرَف له اسم وحتى لا يمكن تصوره، ثم نسيت الشرارات من أين هبطت في الأصل، وتعتقد الكائنات الآن أن هذا العالم المظلم الأرضي الناقص هو الحقيقة، إنهم غرباء فيها، ونسوا أنفسهم- ولا يلاحظون ذلك».

قال فيليز وهو يدير عينيه: «هذا هراء ديني، يفترض أن يثبت لك أن كل شيء دنيوي هو خطيئة وإثم، حتى يزهد عامة الناس في ملذات الحياة».

- وصوفيا والدة الديمورجس سقطت بعد فعلتها بإنجاب ابن غبي ومخدوع، سقطت هي أيضًا فوق الكرة الأرضية وفقدت معرفة طبيعتها الإلهية، إنها المثال الرئيس على فقدان الذاكرة الكوني، وإذن فكل روح هي صوفيا وكلها تطمح للعودة إلى النور، ولكن على كل شخص أن يتذكر أولًا، ويتذكر فقط بجهوده الخاصة.

فقلت: «إنها مرتبطة فعلًا بالأفلاطونية الجديدة، ومنها جاء اسم هذه الطائفة».

ابتسمت جاراوس وقالت: «حسنًا، ولكن الأفلاطونيين ليسوا محددين مع تاريخ الفلسفة، فهم يعتقدون أن تلك العودة هي العودة في ديف نفسه، في المجهول العلمي، وكيف ستحدث تلك العودة؟ من خلال معرفة الذات، عن طريق إنويا، ففي الغنوص يُنظر إلى معرفة الذات والفهم العميق لهذا السجن

الذي يمثله الكون بالفعل على أنهما خلاص، وكلما أدرك المرء أكثر، زاد فهمه لقبح العالم».

سألتها: «هل ستنجح صوفيا؟» ولأول مرة أظن أنني أعرف ما الذي تريد جاراوس قوله.

- هذا صحيح، فالتقاليد الفالنتينية جعلت للحكمة أصدقاء أقوياء أيضًا، مثل أخاموس وهو نظير صوفيا، الذي يرتبط بها ارتباطًا وثيقًا، لكنه يتعثر في كل مرة بسبب ولعه، فهو العاطفة، وهو التطرف، يريد أن يعرف الكثير ثم في النهاية يتلاشى، أو مثل حورس أيضًا وهو مقيد، فهو حارس وصي، وشخصية إرشادية لافتة للانتباه إلى محدودية المجالات.

وبعد أن انتهت جاراوس من حكايتها استندت إلى الخلف كرجل أدى للتو مهمة شاقة وظلت صامتة للحظة.

قال فيليز: «لكن تلك الاختلاقات لن تساعدنا في التقدم خطوة واحدة مع ديف».

ردت جاراوس: «بالطبع هذه اختلاقات، وأنت مغفل، فهذه أسطورة، لكن ذلك السبب لا يعني أنها لم تحدث قطعًا، أو أنها ستظل تحدث إلى الأبد».

وأضافت من أجل إعادة التوازن لعلاقتهما المثيرة للدهشة: «أردت فقط أن أقول إن كل الخرافات التي تشكلت اجتماعيًّا للإنسانية مرت بفرضية مورافيك، وهي بمنزلة قبعة قديمة».

ارتشفتْ رشفة قوية ثم أردفت: «فكل ما نفعله هنا طوال الوقت هو مقدر وفقًا لتعاليم عقيدة الخلاص».

انتفض جسدي، ففي اللحظة التي أنهت فيها جاراوس قولها السابق، هوت يد على كتفي بقوة.

- ماذا تفعل هنا في تلك الساعة أيها الأحمق!

إنه بافل، سحبني وساقاي تتجرجران على الأرض وسط احتجاجات جاراوس وفيليز الصاخبة.

قال موجهًا حديثه لهما: «سآخذه معي الآن، فلدينا دوام عمل في الصباح».

هتفا من خلفنا: «اتركه وتعالا اجلسا معنا معًا».

لكن بافل كان يسحبني كما لو كان يسحب غريقًا إلى الشاطئ، زج بي في المصعد وحدجني بنظرات لوم وعقاب، وعندما أغلق باب المصعد سألني: «ما هذا يا سيز؟ كيف ما زلت عالقًا معهما ثم تعود وتتساءل لماذا لا تحصل على الترقية؟».

معهما.. هما اسم من مقطعين لكنهما لُفِظا بكل احتقار، وتساءلت ما إذا كان يصفني أنا أيضًا بتلك الطريقة في أثناء سيره مع الآخرين.

قلت له: «ليس في وسع الجميع أن يكونوا موجودين مع الأساتذة داخل المختبر المركزي، ولمعلوماتك أنا في الرتبة نفسها مثلك تمامًا، وذلك لتفكر جيدًا في انتقاداتك».

- لا تساوِ نفسك بأحد، الموضوع يختلف معك أنت، تعال لا تعد ذلك إهانة لك.

لف ذراعه حول رقبتي وأردف: «كفى هنا، لدينا أشياء أهم لنتحدث عنها، لقد كان يومًا غريبًا حقًّا في العمل».

- ماذا حدث؟

- ما الذي يدور؟ لا أحد يعلم على وجه الدقة، لقد كنا جميعنا نُستدعى لأداء اختبارات غريبة، وأنا أعني أنها غريبة حقًّا لم نمر بها من قبل، ربما تكون تطويرًا لحزمة برامج جديدة، وكان فروليش صامتًا صمت القبور.

عندما توقف المصعد ووجدنا مجموعة من الناس يثرثرون، صمت لفترة وجيزة وواصل الحديث فقط بعد أن وصلنا إلى طابقنا.

- لقد صممت مصحح أخطاء هذا الصباح، وسماعات رأس أيضًا، وأُوصِلوا بالشبكة بنجاح، ثم جاء رجل وطلب مني الذهاب معه إذا كان لدي وقت لمحادثة قصيرة.

- أي نوع من الرجال هذا؟

- لقد أخبرني قلة من الزملاء أنه قد طرح عليهم عدة أسئلة غريبة في الأيام القليلة الماضية، وقد كان الأمر حقيقيًّا، لذا تخيل أننا الآن نجلس في

غرفة التخزين، ثم عرضت عليَّ إحداهن فجأة إجراء اختبار رورشاخ[1]، أو شيئًا من هذه الأشياء التافهة، ليس لدي أي فكرة عما يدور، لكن صدقني هناك شيء ما يحدث.

وفي تلك اللحظة خطر ببالي ما قاله لي زميلي الجالس بجواري في المكتب المفتوح، إذًا ليس فيليز وجاراوس فقط، بل وأيضًا بافل يظن أن هناك حدثًا حاسمًا على وشك الحدوث، لكنني في الوقت نفسه سئمت من تلك التكهنات.

قلت: «أشعر ببعض الإرهاق، هل يمكننا استكمال الحديث غدًا؟».

أومأ بافل برأسه وتسلقت حتى وصلت إلى سريري محاولًا بيأس الحفاظ على توازني، فكرت أنني بحاجة إلى النوم الآن، وكتلة التعب الشديدة الكامنة بي تضغط على الوسائد حتى شعرت للحظة أن الوسائد تتمايل كاهتزاز صندوق رنان إثر سقوطه، ثم سقطت في قبضة النوم فورًا.

---

(1) **اختبار رورشاخ** هو اختبارٌ نفسي يحلل تصوُّرات الأشخاص عن بقع من الحبر باستخدام التفسير النفسيِّ، أو الخوارزميات المُعقدة، ويستخدم بعض علماء النفس هذا الاختبار لفحص خصائص الشخصيَّة وأدائها الانفعالي. وقد سُمي الاختبار على اسم مبتكِره، عالم النفس السويسري هرمان رورشاخ. (المترجمة).

3

صوت كسر

عندما فتحت عيني كنت متأكدًا أنه لم يمر سوى بضع دقائق على نومي، وبالفعل كان ضوء الليل يتسلل من تحت حافة الباب، ثم تكررت الضوضاء نفسها، فنهضت في سريري، كان كل شيء من حولي ضبابيًّا دون نظارتي، لكنني استطعت أن أميز أن الأسِرَّة المكونة من طابقين جميعها خاوية، لا أحد من زملائي في الغرفة، ظننت للحظة أنني ما زلت تحت وطأة خدر النوم، فأنا في العادة ألمح وجوهًا على الستائر وأيادي في أكوام الملابس، ولكن بما أنه لم يحدث أي شيء آخر فإن هذه الباريدوليا[1] تبددت، وارتحت إلى فكرة أن ذلك الكسر أيضًا ما هو إلا نتاج لمخيلتي.

ظهر الصوت للمرة الثالثة أيضًا، وفي لحظة واحدة تراكم كل شيء، شق ظلامَ الغرفة حفنةٌ من الرجال في لباس أسود، تسحَّب ثلاثة منهم إلى الأعلى حيث سريري، ثم انضم رابع إليهم، لقد انقلب أحدهم بوزنه فوق جذعي فعجزت عن التقاط أنفاسي للحظة، التفَّت الأذرع والأجزاء العلوية من تلك الأجساد حولي وكأن شخصًا يطوِّق ميكرفونًا بيده، ولم أتمكن من رؤية الشخص الذي جثم عليَّ.

شعرت بوجود محفة في إحدى زوايا الغرفة، وأعتقد أنني استطعت رؤية رجل يسحب أحزمة من حقيبته، ثم ثبَّتني أحدهم على بطني وقيدوا ذراعيَّ وقدميَّ من الخلف، فشعرت باضطراب ثقيل ومجهد.

---

(1) ظاهرة نفسية يستجيب فيها العقل لمحفز عشوائي، عادة ما يكون صورة أو صوتًا، بإدراك نمط مألوف رغم أنه لا يوجد أي شيء. مثل تخيل صور للحيوانات في السحاب، رؤية وجه رجل في سطح القمر، أو سماع أصوات خفية في التسجيلات عند تشغيلها عكسيًّا.

حملني الأربعة فوق المحفة، ثم غطوا المحفة كاملة بكيس، رفعوني في الهواء، ومع الحركات المتغيرة في السير حاولوا عمل مناورة للعبور من خلال إطار الباب الصغير للغاية وذلك قبل الخروج إلى الممر، أما أنا فلم أجرؤ على الصراخ، نزلنا فوق السلالم وكانت قدماي تنحدران للأسفل بقوة، ثم تذكرت المحادثات اللطيفة التي كانت تنضج على نار هادئة في الوردية الليلية، لا بد أن نكون الآن فوق الممشى الدائري، عندما انحرفنا في السير وساد الهدوء بشكل لا يصدق، فقدت قدرتي على تحديد الاتجاه مرة أخرى.

ولوهلة ظننت أنني محمول على سير ناقل، دُفعت للأمام بصورة صارخة، ثم انفتح الباب؛ فانفكت الأقفال بسلاسة، ثم استدار القفل اللولبي، وأخيرًا نُزع الكيس من فوقي بنجاح، وتحت أضواء النيون التي تعمي الأعين استغرقت بعض الوقت لأحدد الخطوط العريضة في المكان، رأيت عددًا من الأشخاص يتجمعون حولي حاملين أوراق عمل ويضعون أجهزة اللاب توب تحت أذرعهم، وفي الخلف آخرون يضغطون على الكابلات، مكتب مزدحم ومع ذلك حركة العمل فيه تسير بهدوء، تقدم شاب مني ونزع قميص بيجامتي، ودون أن يلفظ بكلمة ألصق الأقطاب الكهربائية فوق صدري المكشوف أمامه.

وعلى شاشة EKG بالجوار ظهرت النبضات الكهربائية في جسدي بنتوءاتها، وبمجرد أن ابتعد الرجل عني وعادت الرؤية تنتظم داخل الغرفة، اندمجت عناصر الرؤية المتناثرة، جدران زجاجية مقاومة للرصاص وخلفها كابلات ذهبية فائقة التوصيل مبردة بالنيتروجين، لوحة التحكم القرمزية، وشاشة IPS الشهيرة التي تبلغ مساحتها عشرين مترًا مربعًا.

والآن لا يساورني أدنى شك بأنني موجود داخل المختبر المركزي، ثم رأيت شيئًا كأنه يدور تحت ضربات مطرقة، وقد كان هذا هو ديف!

بعد لحظة اختفى مرة أخرى عن عيني؛ لقد رُفعتُ على كرسي بذراعين بينما وُضِع الكرسي في مكان من الواضح أنه مخصص له، بمجرد أن تم ذلك، انحسر الحشد الذي كان منتشرًا في جميع أنحاء الغرفة، وحدق إلى وجهي مساعدون شباب يرتدون ملابس بيضاء بفضول سافر، وقد كانت هناك حركة عصبية في الحشد يصعب قمعها، وبدا أن الجميع قد انتظر وقتًا طويلًا على هذه اللحظة.

اقترب شيء ما فانشق الحشد إلى قسمين، وظهر في المنتصف شيء يتقدم من بعيد، إنه شخص هزيل وطويل يتقدم، وكم كان هادئًا! انحسر

الجدار البشري في صمت ولم يمسه أحد، وكأن قطرة زيت طاردة للماء قد دفعت الماء إلى الحواف.

وعندها وقف أمامي بحضوره الكامل، إنه فروليش بفكه السفلي الزاوي، وشعره كما نراه في الصور مصفف إلى الخلف فتلتمع الجبهة الواسعة تحت أضواء النيون، جمجمته الضامرة، والأنف الذي ينتهي بحدبة عظمى غاص في ثنايا الخدين بلا حراك، والفم الصامت المتدلي إلى الأسفل مع نثرة ألقت بظلالها على الشفاه التي بالكاد تظهر، أما الأعين فلم أتبينها، كان يرتدي نظارة شمسية.

لدقائق بدأ عقلي يدور في كل الاتجاهات كأنني أركب قطارًا بإمكانه اصطحابي إلى أي مكان، ولكن ذلك قد حدث في الغالب لأن فروليش كان يجلس أمامي طوال الوقت دون أن يتفوه بحرف، حتى المساعدون أنفسهم ظلوا يحدقون إليَّ كأنهم غائبون عن الوعي، وفي أعماق هذا الصمت، طنت الأصوات التي كانت تندثر تحت وطأة أثاث الغرفة، وتسللت إلى المنافذ والزوايا مثل اهتزاز التضاريس: صوت فتحات التهوية، التعرض اليومي للكهرباء، الذي تكمن فيه بؤرة الموجات فوق الصوتية في نهاية طيف التردد، وتساءلت في نفسي هل سيمتد الصمت بيننا إلى الأبد؟ لكن فروليش قطع الصمت أخيرًا وهو يقول: «طوال عمرك لم تفعل شيئًا ذا قيمة ملموسة، لكن يمكنك الآن أن تهدأ، فسيتغير الوضع ابتداءً من اليوم». ثم هتف: «أوقف التسجيل قليلًا يا كوفاك».

كان فروليش يتحدث بهدوء شديد، لدرجة أنه لو تحدث في ظل الحركة الطبيعية في المكان، سيصبح من الصعب جدًّا تمييز ما يقول، لكن الآن في ظل الصمت المطبق بالمكان كان الهمس في حد ذاته كأصوات رعدية.

قال فروليش: «هل لي بكرسي؟».

جلس بجواري، فبحثت بسرعة عن شيء يغطي الجزء العلوي من جسدي، بدا فجأة مكشوفًا بسفور، فالغطاء الورقي المفرود على سرير المستشفيات هذا عمَّق بداخلي إحساسًا بالعري؛ بسبب خرفشته من تحتي.

قال: «اسمي البروفيسور فروليش، ويمكنني إبلاغك بأنك أصبحت للتو جزءًا من مجموعة بحثية سرية للغاية، بل وأكثر من ذلك، فمراكزهم لا جدال حولها».

كان المساعدون يتحركون خلف ظهره على قدم وساق، والآن رأيت من استسلم للتوتر العام معي، لم أعرفه إلا من خلال الإشاعات المنشورة في المجلات؛ كان بلومنتال الذي اخترق قاعدة بيانات الموظفين قبل عشر سنوات من الآن -وهو في السابعة عشرة من عمره- لجذب انتباه فروليش، بلومنتال بكنزته الصوفية السميكة التي تعطي انطباعًا بأنها تكريم لكل خطايا موضة السبعينيات، والآن عندما التقت أعيننا في لحظة خاطفة، نظر إلى الأسفل محرجًا، وبجواره تقف ماري بيريلمان البدينة، والمشهورة بالروتين المسمى MRS أي (نظام تقييد الماراثونات)، من خلال التطبيق المنطقي الذي يضمن حفظ ثلاث تعليمات كاملة في نص برمجي يصل إلى مائة سطر. (أسرع، وأعلى، وأقوى)؛ فهي رياضية سهرت ليالي طوالًا في محاولة لجعل البرامج أكثر كفاءة.

في أقصى اليسار يقف جيريميا باور مرتديًا نظارة طبية، وهو أحد معارف بافل، وكان قد أحدث وهو في سن العاشرة صيحة؛ صمم محولًا برمجيًا باطنيًا لفك شفرة لغة Prolog / C ++[1] الخاصة به، هؤلاء هم أفضل المبرمجين في مختبرنا، وهؤلاء الأساطير الآن يتطلعون إليَّ باهتمام.

- لقد كنت هنا قبل شهرين؛ بسبب العطل الذي حدث، تستطيع تذكر ذلك، وستساعدنا في التغلب على هذه الآلة غير المكتملة.

كنت أظن أنه يقصد ديف بكلامه، لكنه سرعان ما أشار إليَّ أنا.

- أخبرني إذن! هل سمعت عن مفارقة مورافيك؟ لقد طرحت أنت وصديقاك فيليز وجاراوس بالفعل كل أنواع الأفكار العميقة حول هذا الموضوع.

قلت بذعر: «نعم!». في حين يقف شخص خلفي ويصدر صوتًا مجلجلًا، وأنا في حاجة إلى استغلال كل ذرة من تركيزي لفهم فروليش.. يا لهدوئه!

- انتبه إلى ما أقول، نظريتنا كالتالي: إذا كان ديف لديه شخصية، كنوع الشخصيات التي تنجرف مع الحب والدوافع والذكريات، سيحدث قفزة نوعية في ذكائه العام إضافة إلى قدراته اللغوية، ولدينا سبب

---

(1) **البرولوج** (Prolog) هي لغة برمجة منطقية، تستخدَم في العديد من برامج الذكاء الاصطناعي وبرامج معالجة اللغات الطبيعية. (المترجمة).

للاعتقاد بأننا لن نفشل؛ بسبب قوة الحوسبة والتحديد الكمي للنصوص البرمجية؛ أثبت بلومنتال ذلك لنا في فبراير.

كل طفل هنا يعلم أن فروليش كان أعمى، ومع ذلك أشار إلى حيث يجلس بلومنتال: «بالطبع أشيعت العديد من الحقائق المنتقصة حول هذا الموضوع، والفكرة هي أن مفارقة مورافيك هي أقوى أمل لدينا في الوقت الحالي، لكن كما هو معروف، فهناك مشكلة لا يستهان بها مرتبطة بذلك، نحن بحاجة إلى نموذج حقيقي بشري لديف».

اتكأ فروليش بظهره إلى الخلف وأشعل سيجارة في وسط المختبر المركزي، في أكثر الأماكن قداسة وأعلاها ثمنًا، لكنني كنت لا أزال أشعر بالشلل من ذكره لمحادثتي مع فيليز وجاراوس.

- والآن أعتقد أنه يمكنك تخمين ما أحاول إخبارك به، لكنني لا أريد أن أبقيك في حالة تشويق أيضًا. أنت ستصبح...

نفث دخان السيجارة في وجهي ثم أكمل: «ستصبح الشخص الذي سنصمم ديف وفقًا لشخصيته».

همست: «ماذا؟».

- حددت الخوارزميات الخاصة بنا أنك أفضل مرشح ممكن من بين جميع الموظفين، فأنت يا عزيزي ستدخل التاريخ بصفتك المادة صفر، النموذج الذي سيتيح مجتمعًا جديدًا تحت راية العقل.

أومأت برأسي رغم أنني لم أفهم - لأن ما قاله فروليش هنا لا يمكن أن يكون صحيحًا، لا بد أنني سمعت بشكل خاطئ، أو أنني أسأت تفسير كلمات فروليش، التي كان عليَّ أن أخمن نصفها على أي حال.

- من الآن فصاعدًا سيجري سير العمل كالتالي:..

غمز إلى الحاضرين بإيماءة ثم أردف: «سنلتقي ثلاث مرات في الأسبوع لنسخ ذكرياتك ونقلها إلى ديف، بعدها سنفرزها ونكون وظائف الاختيار، ثم نصمم أجهزة التحكم المقابلة، وسيستغرق الأمر نحو عام واحد، والهدف هو ربط ذكرياتك بالنصوص البرمجية في صورة جهد الفعل».

فكرت مرارًا وتكرارًا أنني يجب أن أنطق بشيء، لكنني لم أجرؤ على ذلك، كان الأمر سيبدو وكأنني أرتكب أعمال عنف، أما فروليش فكان يخفض من

صوته لدرجة أن العالم بأكمله كان عليه أن يقف ساكنًا في محاولة لفهم ما يريد قوله.

- سأشرح الآن المنطق الكامن وراء هذه العمليات يا بلومنتال! من فضلك صحح معلوماتي إذا لزم الأمر... لقد عملنا حتى الآن على تغذية التعريفات وعلاقاتها في النصوص البرمجية فقط، فلنفترض وجود مكنسة كهربائية، إنها جهاز تنظف به الأرضية كل ثلاثة أيام حتى تظل نظيفة، وكانت النصوص البرمجية عبارة عن توصيف موسع لهذا التعريف، ففي أي مواقف يمكنني استخدام مكنسة كهربائية وكيف؟

غمغم بلومنتال بهدوء: «الاستدلال الموجه نحو الهدف».

- لنفترض أن هناك عشر فرضيات، فإذا كان هناك شيء واحد يستطيع الجمع بينهم، سيكون هذا الشيء هو المكنسة الكهربائية مثلًا، فهي حتى الآن جيدة جدًّا، وإذا كان لدينا ما يكفي من تلك الروابط والحالات الشرطية، لاعتقدنا أن التفكير الذكي قد ينتج عن تلك الحالات، وبناء عليه سيضع تعريفًا للعالم بعد ذلك، وبلا شك فأنت تعلم أن هذه ليست هي القضية، أووه! لا بد أنني سددت طعنة إلى قلبك الآن.

لم يكن لدي أي فكرة عما يعنيه فروليش، لكنه ضربني بخفة على ذراعي، كما لو كان يشجعني.

- تخيل الآن هذا الشيء: دعنا نقول إنك مررت بتجربة سيئة مع المكنسة الكهربائية، مثلًا قضيبك انحشر في الخرطوم عندما كنت طفلًا، والدماء غطت كل شيء، نسيج الانتصاب الممزق في الهواء، وقطعة خشنة من الجلد تحت الحشفة، أشياء من هذا القبيل.

رأيت كيف انزعج كلٌّ من روزن وباور من تخيل الفكرة، لكن يبدو أن فروليش لم يلقِ بالًا لذلك.

- سترى أنك إذا ذكرت كلمة «مكنسة كهربائية»، فلن تتفاعل بشكل محايد، لكنك ستتعامل بشكل يبعد عن موضوع المقارنة، إن تحديد سياق ذكرياتنا وتلوينها عنصران مهمان في تفكيرنا وأنماطنا اللغوية، وقياسًا على ذلك، يجب أن يتحول ديف إلى برنامج نصي مختلف بدلًا من مجرد الانتقال إلى حالة التنظيف بالمكنسة الكهربائية عن طريق كلمات بسيطة.

أومأت برأسي رغم أن حيرتي ظلت تتنامى، فما توجست منه، لم يعد يشكِّل أي دور مهم الآن.

- سنلتقي ثلاث مرات في الأسبوع وفي كل مرة ستكلَّف بواجب منزلي.. ذكرى عليك أن تتدرب عليها، وذلك وفقًا لنظام سأشرحه لك.

وعندها ألقت روزن كتابًا تلقفته بين ذراعي، كتاب «فن الذاكرة» لفرانسيس أ ييتس.

فبدأت أقرأ الكتاب وأتصفح أوراقه لأجد ذاكرة النهضة؛ مسرح الذاكرة لجوليو كاميلو، رامون لول، كانت الصفحات مغطاة بتركيبات هندسية ظاهرة وسحرية، تنفذ إلى الأبراج النجمية اللامعة في السماء.

- سنبدأ الإجراءات هذا الأسبوع، وسيكون دائمًا في الليل، وهذا معلوم بالضرورة، كما يقودنا إلى واحدة من أهم النقاط..

توقف إبهامي عند صورة صبي يرتدي خوذة مجنحة، ويرفع بيده اليسرى شمعدانًا ذا تسع أذرع، وبجواره توطئة تظهر على لافتة مضيئة «Silentium Hermeticae» وهو كتاب من تأليف هاينرش نول.

- كل شيء يحدث هنا سيكون غاية في السرية! ولنفترض أنه لا أحد خارج هذه الدائرة المشددة سيعرف شيئًا.

أومأت برأسي فأردف: «وأنت لن تخبر أي مخلوق، لا أشخاصك المفضلين ولا حتى أقرب صديق لديك، حتى بافل لن تخبره، ويفضَّل ألا تحادث نفسك حتى بذلك، يجب أن تصبح أنت وديف شيئًا واحدًا، فكل ما سبق لن يجلب لنا سوى الحاقدين والمخربين؛ لذلك فنحن نعمل دائمًا في الليل، ودائمًا في تكتُّم، ودائمًا في صمت».

لقد فهمت الآن أنني أصبحت بالفعل شفافًا أمامه، لقد رأى كل شيء، وهو يعرف حياتي كلها؛ فنظام «ريد إيكلس» يعمل على التشريح والمعالجة، وهو نظام الأمان والمراقبة في المختبر، لا شيء يمكن أن يكون بهذه الدرجة من البديهية.

أجبته: «حسنًا!».

- أه بالمناسبة! من فضلك لا يأخذنَّك الذهول عندما نسحب واحدًا أو آخر من وثائق حياتك من الأرشيف، سنحتاج إليها لتعزيز صورتك الداخلية قليلًا من الخارج.

صفق بيديه بصوت مرتفع مخيف كما لو كان يعطي إشارة بحسم الموضوع.

- أيها السادة، فلنبدأ!

ابتسم المبرمجون كما لو أنهم يستقبلون صباح عيد الميلاد، فالشخص الوحيد الذي يجهل ما سيحدث هو أنا فقط على ما يبدو.

فرقع فروليش بأصابعه واقترب طاقم العمل من حوله يتابعون إيماءاته كأنها أوركسترا تدربوا عليها جيدًا من قبل.

- لنبدأ ببعض تمارين الإحماء.

بدأ النقر فوق الأزرار، وأصبحت لوحات المفاتيح جاهزة، الأمور تزداد جدية بمرور الوقت، ولم أكن أملك أي تصور عن الخطورة المحتمة.

- حدثني قليلًا عن نفسك، كأننا في حفل كوكتيل، تحدث دون رسميات، كم عمرك مثلًا؟ أو كيف تقضي وقت فراغك؟ وما الذي يدور في ذهنك حاليًّا؟

لحظات قليلة من التردد الذي لا يُطاق، كل تلك القبضات الجاثمة على حياتي التافهة التي لطالما بدت غير ملائمة لي، أنا لا أحد، لا شيء، ثم خطر ببالي بعض الكلمات، فقلت: «فقط بهذه البساطة؟».

- نعم بهذه البساطة!

فبدأت أتحدث ببطء: «عمري ثمانية وعشرون عامًا.. ليس لدي إخوة، لقد رباني أبي فقط؛ توفيت أمي وأنا في الخامسة من العمر، وحاليًّا أعمل مبرمجًا في مجموعة العمل 2E، في الغالب ورديات عملي يومية؛ أعمل على بروتوكولات النصوص البرمجية للحصول على تغذية راجعة من الوعي».

كنت متوقعًا بشدة أن أي خطأ سيلاحَظ، فكرت أنهم في حالة الخطأ سينزِلونني من قصري العاجي، الذي دخلته للتو، وسيطلبون شخصًا آخر يحل محلي.

أردفت: «وفي وقت فراغي أعمل على رسالة الدكتوراه الخاصة بي، وألعب ألعاب ريترو، كما أنني مهتم بثقافة البوب في الثمانينيات».

- الثمانينيات في حد ذاتها؟

قلت: «حسنًا، لا أعلم تحديدًا». وأردفت كما لو كان قد طلب مني التبرير: «أحب الموسيقى وفلسفة الجمال والسينما، لقد ولَّدوا في داخلي نوعًا غريبًا من السكينة، نذهب أنا وبعض الأصدقاء إلى صالات الألعاب كل أسبوع ونلعب بوكيمون مثلًا ونشرب كريستال بيبسي، أو..».

قال فروليش: «هذا يكفي! ليس عليك الاستطراد في ذلك، والآن آمل أنك قد فهمت كيف تسير لعبة الأسئلة والأجوبة، أليس كذلك؟ إذًا دعونا نبدأ العمل، فنحن نحتاج إلى حكايات، أجزاء سردية قصيرة تلخص كل شيء يلقي الضوء على شخصيتك باختصار، سأعطيك مثالًا: هل تعلم أنني كنت من سكان الطابق الأول؟».

يا لهذا الجهد اللازم لعدم تفويت أي شيء! كانت فترات التوقف التي تخللت السطور عالقة بثقل في فضاء الغرفة.

قال فروليش: «هذه حلقة صغيرة؛ سنعود إلى اليوم الذي رغبتُ فيه في شراء سترة معينة حين كنت في العاشرة من عمري، لقد كانت سترة شتوية مطبوع عليها صورة لديف، وقد رأيت أحد أصدقائي في المدرسة يرتديها، أصبح ديف -بشكله قديمًا، صندوق ضخم بشاشة صغيرة- هو أهم دافع لي، لكن والديَّ أخبراني أننا لا نستطيع تحمل تكلفة السترة؛ لذا حاكت والدتي واحدة لي بدلًا منها.. ظللت أرتدي هذا الشيء كل يوم، رغم أنه كان قبيحًا بشكل لا يوصَف، لكن ذلك ليس هو جوهر تلك الحكاية، فكل ما يهم في تلك القصة أنني تحولت من مجرد صبي لا يستطيع تحمل تكلفة سترة عليها صورة ديف إلى مسؤول عن إدارة المختبر بأكمله. والآن حان دورك لتحكي قصة صغيرة ومميزة من الذاكرة».

قلت بوضوح شديد: «هذا جيد». ولكنني أعلم في قرارة نفسي أنني سأعجز عن إخراج مشهد سينمائي كما فعل فروليش للتو، وأول شيء خطر ببالي قلته فورًا: «عندما كنت طفلًا كان أعظم شيء أفتخر به هو جهاز الكمبيوتر الذي صنعته بنفسي.. كان اسمه بوفي وكنت أخفيه تحت سريري، وعندما أعود من المدرسة كل يوم أقضي الساعات وأنا أتخيل ما سأفعله به في فترة ما بعد الظهيرة، وقد دونت على الورق كل ما...».

توقفت عن الكلام، رغم أنه لم يعترضني أي شخص بكلمة، لكنني كنت أعلم أن ذلك المشهد ليس كافيًا بالنسبة إليهم.

قال فروليش: «هذا شيء غير ملموس بعض الشيء، كما أنه مبتدع جدًّا.. نريد منك وصفًا للغرفة والأجواء، نحن بحاجة إلى بيئة موحية».

حاولت بكل ما أوتيت من قوة الامتثال لطلبه، لكن كيف أستطيع التركيز؟ فبالتوازي مع سردي للقصة، هناك عشرات من المساعدين يجرون قياسات وحسابات على جسدي.

- ذات يوم جلست مع بافل أؤدي بعض الرسومات التخطيطية للبرنامج في دفتر ملاحظاتي، واستغرق الأمر ليلة كاملة، بعدها فتحنا باب الشقة، وتقريبًا كانت الكوكاكولا في متناول أيدينا، وعندما وصلنا إلى الداخل، لاحظت -من عدم ترتيب الصناديق، ومن زاوية سريري- أن هناك شيئًا خاطئًا يحدث، فقد برز أحد الكابلات، ونظرت هناك حيث أغطي جهازي، فلم أجده في مكانه، وفجأة رأيناه!
- ماذا رأيتما؟
- لقد نسيت!

انتظر الجميع بضع لحظات بشغف؛ ليروا ما إذا كنت سأضيف أي شيء آخر، قبل أن يتستر فروليش على ذلك الإحراج ويقول: «يتعلق الأمر بماضيك باعتبارك بطلًا للعلوم الطبيعية، لقد شاركت في مسابقة الرياضيات في المختبر وكنت المرشح الحاصل على أكبر عدد من النقاط في الجولة التمهيدية».

قلت باندفاع وسرعة: «لكنني لا أرى أن ذلك الموقف يميزني في شيء».

لكنني بعد ذلك رأيت كيف بدا وقع كلماتي غريبًا على أسماعهم، فقلت: «نعم بالفعل! أنا شاركت في تلك المسابقة، لكن ليس لديَّ الكثير لأرويه عن ذلك الحدث».

- يصعب عليَّ جدًّا تخيل ذلك! فأنت لم تنهِ أيًّا من المهام في التسجيل الفعلي، وفقًا للبروتوكولات الرسمية... على الرغم من أنك كنت على أتم الاستعداد لحل مشكلات أكثر صعوبة، أو يمكننا أن نقول إنك حللتها بطرق عبقرية، فقد كتب أستاذك د.أزيلوف أنك استطعت حل مشكلة تقليب الجذر[1] وأنت في الصف الرابع دون الاستعانة بأية مساعدات

---

(1) معروف باسم قفز فييتا أيضًا وهو أسلوب إثبات. يُستخدَم للمسائل التي تُعطى فيها علاقة بين عددين موجبين، جنبًا إلى جنب مع بيان لإثبات حلولها. (المترجمة).

خارجية، كان علينا جميعًا أن نبحث عن ماهية ذلك، ماذا حدث لك خلال ذلك التسجيل؟

- الخوف من الاختبارات.

لماذا قاومت بعد ما قيل؟ إنهم يعرفون كل شيء عني، وكل شيء بمعنى كل شيء.

- كانت هذه فعلًا واحدة من مواطن الخلل القليلة جدًّا التي وجدناها في سيرتك الذاتية، ولكن ليس هناك مانع، فنحن نهتم أكثر بمواطن الخلل لديك.

كأن هناك كرة تنتفخ في صدري- ملت إلى الأمام لأتقيأ، لكن لدهشتي شعرت بغصة في حلقي ثم انحدرت الكلمات: «كما ترى، فطفولتي كانت تُعَد تاريخًا حافلًا يمتلئ ببعض النوبات العصبية الناجمة عن الإرهاق التي ظهرت لأول مرة في ذلك الوقت، وقد علَّق الناس آمالًا كبيرة عليَّ، والدي على وجه الخصوص، فقد أنفق جزءًا كبيرًا من أمواله في إعالتي».

- في الرياضيات؟

- نعم في الرياضيات.

عندها سحب فروليش ورقة مطوية، وفتحها بحركات انسيابية، لكي يتحسس كتابة برايل.

- شيء غريب! فسجلك الطبي لا يذكر أي شيء عن الانهيارات العصبية، كما أنك تبدو بصحة جيدة إن جاز التعبير.

تجنبت النظر إلى عينيه، وأصبح وجهي يحترق الآن، كيف حاولت خداع شخص لديه حق الوصول إلى السجل الدائم لنظام المراقبة ريد إيكلس؟

قال فروليش وهو يهذِّب قميصه بعناية: «حسنًا! ربما لم أعرف نفسي بوضوح كافٍ، ولكن أجبني عن سؤال واحد: لماذا يا ترى تعمل أجيال من العلماء على ديف في هذا المختبر؟ ولماذا نضع على رأس أولوياتنا إنشاء أول آلة تفكير إبداعي مميزة في تاريخ البشرية؟».

رددت بطريقة ميكانيكية: «لكي يحل البرنامج -الذي يطور نفسه إلى أنظمة خبيرة بلا نهاية- قضايانا الأكثر إلحاحًا، ويصبح العالم الخارجي مكانًا صالحًا للعيش مرة أخرى».

أجاب فروليش: «خطأ! إنه يدور حول شيء أكثر أهمية من ذلك بكثير.. حول القضاء على المعاناة في حد ذاتها.. ولا أعني بالقضاء على المعاناة في حالتنا فقط، أو في العالم الخارجي فقط، بل الأمر يشمل كل العصور والأوقات، وهذا يعني قبل كل شيء إقصاء اللاعقلانية، فالمرض مثلًا هو نوع من هذه اللاعقلانية في صورتها المادية، فالأجساد تعمل من تلقاء نفسها، لذا فيجب تصحيحها من خلال نظام هرمي عقلاني، إن مسؤولية نقلها من الحالة العضوية إلى الحالة الرقمية، يعني ببساطة تحولها من الاضطراب إلى النظام، ولا يسمح بما دون ذلك، فهي أنظمة ثنائية التفرع».

وقف فروليش فقط ليدنو مرة أخرى من وجهي، وكان قميصه يقترب مني لدرجة جعلتني أعتقد أنني أستطيع أن أشم رائحته، ولكنني لم أشم له رائحة، لا رائحة كولونيا ما بعد الحلاقة، ولا رائحة منظفات أو حتى عرق.

أردف فروليش: «الأمر يتعلق بخلق تفكير منطقي يقضي على هذه اللاعقلانية بطريقة تعريفية، إنشاء مجتمع قائم على العقل، فتصبح جلساتنا مستقبلًا خالية من الأكاذيب، والمراوغة، وأي هراء، لا شيء سوى الحقيقة المطلقة... هل كلامنا واضح؟ والآن لنعد إلى نقطة البداية!».

يبدو أن أي محاولة للهروب مستحيلة الآن، تنفست بعمق، وأغمضت عيني محاولًا الغوص في الانطباعات والأحاسيس التي راودتني وأنا في عمر العاشرة، وفوق ذلك كله عليَّ أن أروي القصة كما حدثت تمامًا، فانطلقت في الحديث وتركت نفسي للذكريات تعصف بي: «أتذكر اللحظة التي دلفنا فيها من باب القاعة في صفين، كان من المقرر إقامة المنافسة بها، وكنا مائتي طالب في صالة ألعاب أُعيد بناؤها خصيصى، سحبت المنصات للأسفل، لكي تتحول إلى شبكة متقنة، وكنت أنا هناك، وفي يدي صندوق غدائي، بداخله تفاحة وشطيرة من لحم الخنزير».

- بوضوح أكثر، ما الذي كان يدور في ذهنك في تلك اللحظة؟
- كما جرى الحال دومًا قبل أي اختبار مهم، كنت أقف محاولًا تذكر ذلك الخليط المبعثر الذي تعلمته ونقشته على السبورة، لكي أستحضره بذاكرتي للمرة الأخيرة، لكنني لمست الرعب حينها، ورأيت أن ما خططناه لم يكن مناسبًا على الإطلاق.

- هل كنت تشعر بالخوف من الاختبار حينها؟

- لا، نهائيًّا! فيمكنني الاعتماد على ذكائي دائمًا، الواقع فقط هو الذي يعيق وجهة نظري.

- هل أحببت الرياضيات؟

قلت في خجل: «لا يمكنني الحكم على نفسي في ذلك؛ لأن الخوف في تلك الفترة كان هو الحاسم، ففكرة خذلان والدي شكلت أكبر عبء عليَّ، جلست آنذاك بجوار صبي بدين يسمى بانكس، الآن يمكنني تذكر صورة تلك الطاولات الصغيرة أمامنا، لكنها في ذلك الحين بدت كبيرة بعض الشيء بالنسبة إلى جسدي، يستقر فوق الطاولات زجاجات مياه وأقلام تخطيط، ودفاتر ملاحظات ورقية تنتظر امتصاص أفكارنا التجريدية من عقولنا شبه الشفافة، إضافة إلى أوراق الاختبار المقلوبة، التي بعد دنوِّي منها شعرت بنوع من اللين».

- لين؟

- جلست إلى إحدى الطاولات التي يلف المراقبون حولها كدوريات، وقد راوغونا في الانتظار حتى الدقائق الأخيرة قبل بدء المنافسة، ثم قلبت الورقة وبدأت أفحص المسائل، ثم أدركت أنني أستطيع حلها كلها.

- وبعد؟

- فقدت الوعي.. لقد حدث نزيف في المخ كما شُخِّصت الحالة لاحقًا.

- وأنت في العاشرة من عمرك؟

- في الحقيقة والدي كان ينهال عليَّ بالضرب المبرح طوال الليل.

كان الصمت الذي أعقب تلك الكلمات مختلفًا تمامًا عمَّا قبله، نظر بعض المبرمجين إلى لوحات المفاتيح في نوع من الحرج الملموس، وفضَّلت أن أتجنب نظراتهم وأردفت: «في الليلة التي سبقت يوم الامتحان عجزت عن حل إحدى المسائل في الواجبات المدرسية، فانهال عليَّ والدي ضربًا بعصا المكنسة، كان يلفها بقطعة من القماش حتى لا تسبب أي جروح مفتوحة».

والآن بعد أن أكملت كلامي لم أعد أشعر بأي خجل.

غيَّر فروليش دفة الحديث فجأة وقال: «لنعد إلى يوم المسابقة، ماذا حدث بعد ذلك، وإلى أين ذهبت؟».

- لم يتبقَّ من جزر ذاكرتي إلا القليل، سرير مستشفى أبيض، وممرضة تقطر عصير البرتقال في فمي، رائحة الليمون تفوح في المكان، ربما بسبب المطهرات، والشيء الوحيد الذي أتذكره بوضوح هو أنني مكثت بعد استيقاظي لحظات لم أستطع أن أتذكر فيها من أكون؛ لأنني كنت على قناعة تامة بأنني فزت بالميدالية الذهبية لكنه كان حلمًا.

الآن أصبح كل شيء يعمل بسلاسة، المساعدون يكتبون كما لو كانوا في حالة نشوة، وفروليش لم يعد يعترض على أدائي.

- قيل وقتها إن مثل هذه الكسور تلتئم في وقت قصير جدًّا في مرحلة الطفولة، وعندما استعدت وعيي كنت وحيدًا، وقبل كل شيء كنت خائفًا جدًّا، وبعد ساعات قليلة فقط ظهر والدي، وأراد أن يصطحبني معه إلى المنزل فورًا ولم يعدني إلى فراش المستشفى إلا بعد إلحاح الطبيب، ثم شرح لي أنه ظل بعيدًا؛ لأنه تواصل مع بعض المشاركين في المسابقة بداية اليوم وطلب منهم كل مسائل الاختبار ودوَّنها، واحتجَّت الممرضة على طريقته في دفع اللوح الورقي والقلم تجاهي، ولكنني شرعت أحلها جميعًا في جناح المستشفى.

قال فروليش ملاحظًا نظرة بلومنتال الجانبية إليه في حالة من عدم التصديق: «أنا متأكد من أنه كان يريد الأفضل لك فقط».

- أعتقد أن تصرفاته كانت السبب الأساسي لإقبالي على أجهزة الكمبيوتر، فقد نمَت في السنوات التي تلت الحادث بشكل أكبر من ذي قبل، فالكمبيوتر صار بالنسبة إليَّ جهازًا عقلانيًّا صارمًا للغاية ولا يعرف أي تحيزات، فإذا أعلن عن خطأ في بناء جملة ما، فمن المؤكد أنني ارتكبت ذلك الخطأ، وإذا انفتح فذلك لأنني برمجته على ذلك، هو جهاز لا يلقي باللوم عليَّ، ولا يجبرني على تكرار شيء لعشرين مرة مع أنني أعرفه بالفعل، وهذا هو الاختلاف الجوهري عن البشر، لذا فأنا أقدِّر له ذلك أكثر من أي وقت مضى.

- حدِّثني قليلًا عن والدك. ماذا حدث له؟

تعرقت بشدة وأنا أقول له: «لكن ألا تعرف كل ما حدث بالفعل؟».

رد فروليش بروية: «الأمر لا يتعلق بالمعرفة، بل بفعل الحكي نفسه» ثم عاد إلى خطته مرة أخرى وأردف: «ربما تحتاج إلى استراحة قصيرة! أستطيع أن أتصور أن الطريقة التي واجهناك بها هنا سببت بعض الإزعاج لك».

لم أتحدث بانفعال أو بصوت مرتفع، لكن لغة الجسد الخاصة بفروليش، بل والحرص اللامتناهي في تصريحاته جعلا أقل حركة بجسدي تبدو كأنها هيستريا محضة، نهض فروليش ليصب لي كوبًا من الماء لكنه استدار على الفور وقال: «بالمناسبة! هناك شيء واحد لا أستطيع إخفاءه عنك، لأن النزاهة تتطلب ذلك».

شعرت أن كلماته هذه المرة خرجت عابرة مصطنعة.

أردف فروليش: «كان لدينا مرشح آخر قبل سنوات، نعم، ستقول لكن لم يعلَن عن ذلك، وهذا بالضبط ما نفعله.. كم يظل الواحد منا متحفظًا مع هذه الأشياء! ستجدها تغزو حياتك في كل الأوقات، فالشاب الذي أجرينا عليه التجربة ذلك الوقت كان إلى حدٍّ ما به عيوب، على الرغم من أن جملة «أجرينا تجربة» ليست العبارة الدقيقة - لقد خرجنا بالفعل من رأسه بملايين التيرابايت، لكنه وفي هذا الموقف الغاية في الحساسية، خذلنا».

تجاهلت كوب الماء وسألته: «ماذا تقصد بالخذلان؟».

- كان يتمنع، وقد قال البعض هنا إنه مجنون، وتحدثوا عن نظريات المؤامرة، وعن عملياته السرية التي أجراها بتوجه ذاتي، وأشياء من هذا القبيل، كان يظن أن ديف تقنية تحكم.

- وماذا جرى له بعد ذلك؟

- لهذا السبب نريد أن نكون أكثر حرصًا هذه المرة ونطلب تفهمك، كان بإمكان فيتيج -ذلك هو اسمه- أن يسمم المختبر كله بأفكاره الخبيثة، لذا فأنا أشكرك على تفهمك.

ثم أردف فروليش وهو يطرق بأصابعه فوق الطاولة: «والآن فلنوجه أنفسنا أكثر نحو الهدف... وفيما يتعلق بمنهجنا، أتتذكر ما ذكرته لك من قبل؟ أنه لا يمكننا فقط تصميم ديف نفسه على أنه ذكاء شبه بشري منظم، ولكن سيتعين علينا أيضًا توفير بيئة معيشية له.. هل تُدعى بيئة معيشية يا بلومنتال؟».

همس بلومنتال: «لا».

- لا يشعر الإنسان بالسكينة وهو مقتصر على ذاته، لكنه يُنَشَّأ على التفاعل مع بيئته، كما أوضحنا في مثال المكنسة الكهربائية سابقًا، نحن البشر لا نتوقف عند حدود أجسادنا فقط، حتى المثاليون يقولون دائمًا إن العالم مجرد نتاج طبيعي لعقلياتنا، ونحن هنا مثاليون بعض الشيء.

تمتم بلومنتال بعد ذلك: «هذا هو إطار العمل، وقد صُمم بمعرفة هيكلية في إطار الحركة... فالمحاكاة الافتراضية التي نسمح فيها لديف بالعمل يجب ألا تتشابك بشكل وثيق مع حياته الداخلية، عليها فقط أن تنوب عن نفسيته، ففكرة الاندماج مع العالم المحيط والمرور به، هي ما تمكِّننا من العمل المنظم في المقام الأول، فكن حذرًا من فضلك!».

القول دائمًا أسهل من الفعل، كانت الساعة الآن الرابعة صباحًا، وشعرت أن تركيزي ينحرف عندما تجمعت تلك الأفكار التجريدية في رأسي؛ لم يهضمها عقلي بنسبة كبيرة على أي حال.

التَوتْ رقبتي وأنا أحاول مراقبة فروليش، الذي وقف ثم بدأ يسير في دوائر لمراقبة الشاشتين، وبينما أتصفح الكتاب الذي ما زال ملقى بين ذراعي، قال فروليش: «كانت استنتاجاتنا دائمًا تدريجية، بداية من ديف، الذي بُرمج في السبعينيات قبل وقت طويل من وجودي هنا، وكان وقتها ليس أكثر من آلة صمِّمت للأسئلة والأجوبة، والمرة الثانية قبل عشرين عامًا صممنا نوعًا من عوالم ألعاب الفيديو، ورغم ذلك لم يستطع ديف الارتباط بها، وتحرك بداخلها كجسم غريب، والمرة الثالثة مع تحسين الإدماج، ولم تكن الدرجة مُقدرة، فكل شيء حدث دون نية، وقد أدركنا تجاوزاتها مؤخرًا، اختصارًا لقد طورنا تقنية تدوين سنستخدمها لجعل بيئة ديف ملائمة له».

- في حوار «دي أوراتور» يقدم شيشرون طريقة قد استخدِمت منذ زمن بعيد لتنظيم وهيكلة وتحسين أداء الذكريات، عرِفت تلك الطريقة في الأصل بتقنية الموقع[1]، ونحن نسميها الآن قصر الذاكرة.

قرأت وأنا أتصفح الكتاب بسرعة:

---

(1) عبارة عن أسلوب تذكر مكاني من الأساليب والتقنيات المساعدة على التذكر، مستخدَم منذ عصر الإغريق، ويسمى أيضًا بطريقة الرحلة. (المترجمة).

«وُسِمت المرأة وعيناها مسبلتان
مشوهة آذانها والنفير يهوي
ممسوخة الوجه والمرض منها متمكن».

إنه استذكار على ما يبدو، وبجانبها صورة لامرأة مقتلَعة العينين بآذان مشوهة، كفيفة وصماء لم تعد تعرف مكانها في الفضاء، ويداها ممدودتان في الفراغ وقد تقطعت بها السبل.

- ليس من الضروري أن تعرف التفاصيل الفنية جيدًا؛ لأن التصميم الطبوجرافي لما يسمى بالبيئة المحيطة -التي نتجت عن قواعد البيانات المرتبطة بمهارة طبعًا- ستؤدي إلى الأفضل على الإطلاق، وكل ما تحتاج أنت إلى معرفته هو أننا بجعبتنا طرق تستطيع التعبير عن كيان ديف الداخلي، مفهوم؟ حسنًا.

هززت رأسي وأدركت بعد فوات الأوان أن فروليش لن يستطيع رؤية إيماءاتي.

فرقع أصابعه بيسر وهو يقول: «أوه! هناك شيء آخر!».

تحررت من الخلف وأمرني أحد المساعدين أن آخذ مكاني على الطاولة الصغيرة، وكان عليها عقد جاهز للتوقيع، فوقَّعت عليه دون أن أقرأ سطرًا واحدًا.

- ستسير الأمور على النحو التالي؛ سنضاعف راتبك إلى عشرة أضعاف وستنتقل إلى شقة خاصة بك.

انعقد لساني من وقع الكلمات فأردف: «ومع ذلك سنتواصل مع الآخرين ونخبرهم أن هذه مجرد ترقية عادية، وقد انتظرتها طويلًا على أية حال.. في أثناء النهار ستعمل ظاهريًّا في مكتبك الخاص وكأنك تشرف على النصوص البرمجية، لكنك في الواقع ستطورها».

نقر بأصابعه فوق الكتاب: «أي ستمدنا بحكايات رائعة من ذكرياتك، كي نتمكن من العمل بسلاسة في أثناء جلسات النسخ الليلية، لن نضع أي كاميرات مراقبة في مكتبك، حتى لا يسرب أيٌّ من حراس الأمن القائمين على تقييم صور الكاميرا تلك العصارة، هل تفهم حضرتك؟».

قلت: «نعم نعم، أفهمك طبعًا». لكنني استغرقت في تخيل تلك الغرفة التي تخصني وحدي.

فاستكمل: «وإذا دلف أي شخص إلى مكتبك أعتقد أنك ستكون قد اتخذت إجراءاتك الاحترازية اللازمة كافة، مفهوم؟».

قلت له: «حسنًا! فهمت».

فرد فروليش: «جيد جدًّا، يمكنك الذهاب الآن إذن، أين سترته؟».

والآن التف كل شيء وانقلب رأسًا على عقب، كما لو كان الأمر يتعلق بحياة أحدهم، عندما هز بلومنتال أخيرًا رأسه في حيرة، وبدا الجميع كما لو كانوا يترقبون ضربًا بالهراوة، لكن فروليش لم يجفل حتى.

قال بهدوء: «يا جرين، اخلع قميصك الآن» وفك الأخير أزرار قميصه دون تردد ثم سلمه لي ووقف هو عاريًا.

- نلتقي الأسبوع المقبل في جلستنا الأولى! سيصطحبك كاستور إلى غرفتك الجديدة!

صافحني رجل أشيب طويل القامة ثم جذبني جانبًا، ووقفنا بجوار الطاولة التي كان بلومنتال وروزن يجلسان إليها منذ دقائق، ورأيت نصًّا مكتوبًا لحكايتي وقد دوَّنت روزن ملاحظة بالحبر الأحمر مفادها أن النصوص المكتوبة يجب أن ترتبط بألفاظي.

قال الحارس بصوت أجش: «سننتظر حتى تُظهر الشاشة خلو الممرات من أي شخص».

حاولت فك شفرة كتابات روزن لكنني انشغلت بقطعة ورقية، كانت زرقاء اللون والكلمات مطبوعة عليها بالحبر الأبيض، كما لو كانت خطة لبناء سفينة. فإذا حدقت إليها جيدًا سأتمكن من قراءتها.

أخذني حارس الأمن جانبًا وأشار إلى أن الوقت قد حان للتحرك، ربط عصابة على عينيَّ وجذبني إلى الخلف، سحبني في الممر الذي تستقر فيه غرفتنا الجماعية، وقد محت طبيعة الحياة كل آثار الماضي.

وجدت كل من في الغرفة ينامون بهدوء، برينر ولانجلي والشخص الثالث الذي ما زلت لا أعرف اسمه، وعندما استلقيت أخيرًا على السرير وأغلقت عينيَّ، اخترق أذني شخير بافل المريح، بدت الساعات القليلة الماضية وكأنها حلم بالنسبة إليَّ، شيء يجب عليَّ تنفيضه عن الملاءات المجعدة في أثناء نومي غير المستقر، وعندما تجلى ديف بلونه الأسود المتجانس، الذي لا لبس فيه في عين عقلي أدركت أن ذلك لم يكن حلمًا، بل الحقيقة عينها.

4

كان تصميم المختبر مبنيًّا على طراز مكعب أفلاطون[1]، ومع ذلك إذا أردنا تقسيم هذا المكعب إلى شبكاته المكانية الإحدى عشرة وفقًا لمحاورات طيماوس[2]، سيتعين علينا ملاحظة كيف تصبح تلك الدقة مجرد نفايات، لا يوجد تناسق من شأنه أن يضيف تصميمًا داخليًّا جيدًا بالقدر نفسه إلى التوازن الخارجي، فالتعرف على المبنى وحده يتطلب أكبر قدرة على التجريد؛ لأنه سيتطلب تجاهل 118998 شخصًا يتحركون عبره كتموجات حشود تتحرك في إحدى الصور، شيء أشبه بخلية نحل تتلألأ وينتشر فيها عدد لا نهائي من الغرف والممرات والفجوات، وكان هناك ثغرات رأسية مُدَت من خلال المصاعد، وفتحات أفقية متشابكة مع ألياف الكابلات العصبية المتشابكة أيضًا، مبنى يتكون من خمسة طوابق لا ينقصها أي شيء إذا قورِنت ببلدة صغيرة، بعبارة أخرى، كان كل طابق من الطوابق الخمسة كأنه حيٌّ مكتفٍ بذاته.

الطابق الأول: اسمه لوف، ويحتوي على المستودع، ووحدة معالجة المياه وإنتاج المواد الغذائية وقاعات الخوادم.

---

(1) مجسمات أفلاطون هي عبارة عن متعدد أوجه منتظم ومحدب، والمجسمات الأفلاطونية خمسة لا أقل ولا أكثر، منها المكعب. (المترجمة).

(2) طِيمَاوُس هي إحدى محاورات أفلاطون. كتبها نحو عام 360 ق.م، ويتناول فيها موضوع الطبيعة ونشأة الكون والخالق، نقلها إلى العربية يحيى بن البطريق. (المترجمة).

أما الطابق الثاني: بانيني، وبه إنتاج المصنع، ومساكن الإقامة الجماعية، ومصنع الملابس والسجون، وهذا المكان أدناه الذي عهدناه بمنزلة مدرسة، إضافة إلى الحانات والبارات.

والطابق الثالث: زيمونيدس، ويضم المختبر المركزي محاطًا بالمكتب المفتوح، إضافة إلى الشقق والمطاعم والصالونات العلوية.

وفي الطابق الرابع: تورينج، تجد الحرم الجامعي، وقاعة حيوانات وأناسًا فرحة، والجامعة ومهاجع الآلاف من الموظفين العلميين.

وأخيرًا في الطابق الخامس: سورل، وبه ضوء النهار يسقط على الحديقة العلوية، إضافة إلى الكورنيش، وأماكن الترفيه، ودور السينما، والمحال التجارية، المدارس الابتدائية والثانوية أيضًا- لا شيء غير ذلك.

كما هو الحال في مسؤوليات الدماغ، فالتبادل المستمر موجود، والانتشار المتواصل بين الغرف موجود أيضًا، ولكن هذا التبادل العقلي يختلف تمامًا حسب كل شخصية، فهناك ما هو سفلي وما هو علوي، وهناك المظلم والمضيء، وهناك الشفاف والمادي.

الدوكسا[1]، والأشخاص البيولوجيون يعشان في الطابقين الأول والثاني؛ وهما المسؤولان عن الإمداد، ولا يختلطان أبدًا مع باقي الطوابق في أثناء حياتهم اليومية، فالطوابق الأعلى مصنوعة من أقبية زجاجية مضلعة أتاحت رؤية شاملة إلى حد كبير، تمكِّنك من النظر مباشرة إلى المختبر المركزي من الطابق الخامس، إضافة إلى ذلك الثقب البلوري الصخري الذي يملأ كل شيء أعرفه بضوء مشع، في حين بُنيت الطوابق السفلية من الخرسانة الصلبة.

وهذا لا يعني بالطبع أن وسائل النقل غير متوفرة، فقد كانت الأرضية غير الشفافة للطابق الثالث -أي سقف الطابق الثاني- هي الساحة التي تضم حركة وسائل النقل المتواصلة، من طعام وملابس وأجزاء الماكينات ومنشآت معدنية، وقبل كل شيء طبعًا نقل الخوادم، فعبء العمل الكامل الخاص

---

(1) تُعرَّف دوكسا على أنها «الرأي العام، وتحامل الأغلبية، وإجماع الطبقة الوسطى، وعادة ما تكون الدوكسا معلومات مشكوك فيها ولا تصمد أمام النقاش والمنطق». (المترجمة).

بنقابة الإمداد والتموين التي تعمل في الأسفل وقع على عاتق العاملين بقسم الأعمال الفكرية.

تحول الموضوع برمته إلى مجموعة خوارزميات، فهناك وهناك فقط تلامست العمليات الاجتماعية، فإذا نفد الخبز في الأسفل، يهز زلزال خفي الطوابق كافة في الأعلى، كأنك تضغط على ورقة كربونية سوداء في موضع معين، ليترك كل ما يحدث بالأعلى أثرًا بالأسفل والعكس صحيح، لكننا لا نستطيع رؤية كليهما في الوقت نفسه، فأنا نفسي لم يكن لدي علم عن هندسة الطبقات الدنيا، وفي حالات نادرة جدًّا ينجح سكان أحد الطوابق الدنيا في تحقيق مسيرة مهنية في الأعلى.

كان فروليش رئيسًا صوريًّا، وفيليز هو الوحيد الذي عرفه شخصيًّا، وأولئك الذين تجبرهم وظائفهم على أن يتجولوا بين الناس -كعمال النظافة وعمال المطاعم- كانوا أشباحًا، شخصيات شفافة لم تترك بصمة قط، وكنها في الوقت نفسه تسبب لنا تشويشًا لا حد له، فليس ثمة معوقات عند بوابات الدخول، ومع ذلك ظلت المجالات كافة منفصلة في الحالات كلها.

بالطبع ينطبق ذلك على البشر، لكن هذا المبنى قد صُمم للبيانات؛ تدفقت بمفردها -دون مقاومة وبسرعة الضوء- واتجهت أيضًا في وضع رأسي، ومن الحلقات المتراقصة اتخذت النبضات الكهربية طريقها وتدفقت عبر مجموعات من نقاط التحويل السميكة إلى موردات الطوابق، ومن هناك تذهب إلى بلوكات التوزيع، لا يهم إن كان هذا الطابق الأول أو الخامس، كلهم سواسية، وهناك جهاز تغذية مثبَّت لكل صف في التشعبات الرباعية، يتفرع عند التشعبات في الغرف الفردية، ويتحرك داخل المعدات، في تلك اللحظة بالذات أطلقت النبضات الكهربائية نفسها إنذار الاستيقاظ في الغرفة 4123.

*****

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة والنصف مساءً، عندما استيقظت في السرير الذي ما زلت أشعر أنه لا يخصني، وظللت أمارس مراسم التسويف اليومية، غصت مرة أخرى في جبال من الوسائد الناعمة، التي تفوح منها رائحة منعشة على الدوام، وكل ذلك مع شعوري برفاهية الحرية الممتدة في فعل ما أريد والامتناع عمًّا هو دون ذلك.

لقد ترقيت إلى مرتبة أعلى، أي أنني انتقلت من الطابق الرابع إلى الثالث، وقد انتقلت إلى غرفتي الجديدة على بعد أقل من كيلومتر من المختبر المركزي، وعلى بعد خمسين مترًا كان هناك مقهى صغير على اليسار، ولا شيء آخر سوى مساكن المساعدين الآخرين الذين يلوحون لي صباحًا، وتحت أذرعهم كتب «كمبيوتر ليب»[1] قبل أن يشغلوا مقاعدهم في الطابق الرابع.

مكان تهفو إليه نفس كل موظف مجتهد، إنه مجال لا يجبرك على تبرير الطريقة التي تسلكها لكسب لقمة العيش.

سرعان ما شعر بافل بالراحة في أثناء زياراته لي، التي كانت يومية تقريبًا، يستلقي على الشيزلونج المتأرجح، ليعطي لجسده فرصة للنوم تحت تأثير أحد برامج التدليك المدمجة، كما يمكن هنا أيضًا تغيير نماذج الإضاءة، وانطلقت أضواء المشكال الخضراء في السقف، في حين رقدنا نحن نحدق إليها من فوق سريري المائي، وكنت كل مساء أتردد على المكتبة، التي تأسست بناءً على طلبي، أو ربما سمعوني من خلال مجموعة تسجيلات الفينيل.

وعلق بافل على الحائط المجاور لمطبخي صورة لنا ونحن مراهقون، التُقطت في أثناء البطولة الصيفية لمعسكر التنس، وأذرعنا تلتف حول أكتاف بعضنا بعضًا حاملين معًا بعض الرفوف المتطابقة.

المخطط الإلكتروني المعلَّق على الحائط دق السابعة، ثم أعلن عن الموعد التالي لي وكان عشاءً في الثامنة مساءً مع أعضاء هيئة التدريس، هكذا أعلن صوت مساعدي الافتراضي الناعم، فزحفت من سريري ونهضت للاستحمام، خطرت على بالي صورة عصيدة اللازانيا من كنيركس، وكنت حينها قد غسلت جسدي كاملًا بالصابون، لكن مساعدي الإلكتروني أصدر صريرًا مرة أخرى وهو يقول: «حان الوقت للانطلاق» وتذكرت أنني دفعته داخل الفرن الكهربائي قبيل نومي، فتعثرت وأنا أهرع من الحمام، وسقطت على الكرسي، ثم نهضت مرة أخرى واندفعت إلى الموقد، لكنه كان باردًا، فعدت إلى الحمام

---

(1) كمبيوتر ليب هو كتاب من تأليف تيد نيلسون، ويحاول فيه نيلسون شرح أجهزة الكمبيوتر للأشخاص العاديين في وقت لم تكن أجهزة الكمبيوتر شائعة فيه، ويصفه ستيفن ليفي في كتاب «الهاكرز» بأنه ملحمة ثورة الكمبيوتر وهو الكتاب المقدس لحلم القراصنة الإلكترونيين. (المترجمة).

مرة أخرى وقطرات الماء تتساقط مني، فأبعدت خصلات شعري الجامحة عن وجهي.

حدَّثت نفسي أنه لا داعي لتلك العجلة وارتديت ملابسي، والآن سُمح لي باستخدام المصاعد الخاصة بالأساتذة وسلك طرقهم السرية، أما الغرف التي كانت مغلقة من قبل، ظهرت لي على البطاقة الآن، فالطريق الذي كان يستغرق مني ساعة في السابق، أصبح يأخذ مني الآن خمس عشرة دقيقة، حتى داخل المختبر انفتحت غرفة أخرى، تلك التي طالما كانت مخبأة عن الأعين، تناولت الطعام في أحد المطاعم المسجلة على مخطط المساعد الإلكتروني باسم «غرف المحركات» حتى تنفر النفوس من تناول الطعام منها بسبب الاسم، ثم دُعيت إلى الحمامات الحرارية الموسومة بنقاط سوداء على الخريطة.

خاب أملي في إيجاد فرصة للانفراد بنفسي بعد العشاء، فبمجرد أن انفتحت أبواب المصعد باغتني الخيال العملاق لجسد بروفيسور بابوش، وقد طغى ظلها على المقصورة بأكملها، قالت: «أعين مكدرة ووجه ترتسم عليه الألغاز، سيُفضح أمرنا بسببه في يوم من الأيام؛ لأنه يشبه متصوفًا يبحث عن مطعم «بورجاتوريوم»[1]»، ثم ألقت يدها على كتفي فبدت كقطعة قماش مبللة بعد غسل الصحون، وظل قوامها الممتلئ يصطدم بظهري، لدرجة أنني كدت أسقط لولا أنها ضغطت على زر المصعد فأغلق الباب.

واصلت وهي خلفي إلقاء محاضرتها عليَّ: «عندما يداهمك الرقي الاجتماعي، عليك أن تتعلم قبل كل شيء ألا تظهِر ذلك». فأومأت لها في تأدب.

لقد عرفتُ بابوش -في طفولتي كأي طفل في عمري- من برنامجها التلفزيوني مذ كنت في الخامسة من عمري، فإن لم تكن محط إعجاب وسحر كبيرين بلُغتها الآسرة على الشاشة، فقد أثارت على الأقل بعض الفضول في الأنفس.

في الواقع كان الوضع لا يُطاق، فالاستراتيجية الوحيدة المجدية هي اعتبار أنها شفافة، وبالتالي تجاهل ضوضائها من خلفي، كأنها ضجيج شفاف.

(1) كلمة لاتينية، وهي معتقد كاثوليكي يعني ذهاب أنفس الخطاة المؤمنين الذين لم يتوبوا توبة كاملة عن كل خطاياهم إلى المطهر حيث يطهَّرون بنار حتى يصبحوا أهلًا لملكوت الله. (المترجم).

- يمكنك رؤية تصرفات محدِثي النعمة، ثم مشاهدة أصحاب الملايين يرتدون سترة وقلنسوة فقط. هل تفهم قصدي؟

وبينما نحن نترقب ردود الفعل البطيئة لأبواب المصعد، أطلقت بصري في المشهد الصاخب بالطابق الثالث، حتى تلقفت نظراتي صيدًا غير متوقَّع!

صرخت وأنا أضغط زر الفتح بالمصعد وأقول: «توقف!» لكن الأوان قد فات، أغلق المصعد وتحرك، لكن الطيف الذي سرى أمام شبكية عيني هو حقيقة سليمة غير قابلة للطعن، هناك بين التيارات المتدفقة للبشر رأيت وجه خاتون، مر خط الرؤية أمام عيني لجزء من الثانية فقط، ومع ذلك استطعت فورًا أن أتعرف على شعرها الأسود المجعد، الذي ربطته في شكل كعكة مرتبة.

قلت على عجل لبابوش: «لقد نسيت شيئًا ويجب أن أعود إلى غرفتي». وأطرقت أفكر أي سلم يجب أن أسلك لأصل إليها، حتى إن بابوش تفاجأت بطلبي وقالت: «لكن أنت لا تحتاج إلى جلب أي شيء معك، فكل شيء متوفر هناك».. ثم دفعتني للخروج من المصعد باتجاه المختبر المركزي، وكأن تبريراتي لا أساس لها من الصحة، فأجبتها بتوسل: «سأعود في غضون بضع دقائق، إنه أمر عاجل».

- من الضروري أن نكون هناك في الوقت المحدد، ثم أخبرني كيف ستمر دون بطاقة بروفيسور؟ حسنًا! لا تتوقع مني أن أنتظرك هنا.

هل هناك أي فرصة على الإطلاق تسمح بأن تظل خاتون في مكانها نفسه؟ في تلك الأثناء كانت بابوش تقف منذ مدة حاملة بطاقتها، وللحظة بدت يداها قصيرتين جدًّا على أن تصلا إلى جيوب بنطالها المتفرقة بسبب ضخامة جسدها، مررت الشريحة فوق المستشعر، وعندها تحطمت آمالي، فقد فُتح الباب بسلاسة شديدة، ثم انكشف مطعم «بورجاتوريوم» أمامنا.

احتشدت الفخامة المذهلة في قاعة تبدو كقاعة رقص *والدورف أستوريا، التي أدار فيها آل باتشينو جسد جابريلا أنور الممشوق وهما يرقصان التانجو في فيلم* Scent of a Woman، كان واحدًا من تلك المطاعم السرية، وهو متاح فقط للمبجلين، تقديرًا وإجلالًا لقرن مضى حاول الكثيرون احتضانه كنوع من النوستاليجيا، وبعد الانتعاش على نحو ملائم، مكث في مطاردة صالات التدخين، حيث تدخن الأكاديميات المسنات، ويجلسن خلف ثريات كريستالية، وجلس فروليش ينتظر على رأس طاولة الاجتماعات المعتادة،

وإلى جانبه الأساتذة لاليتش وبرادلي وجارسيا، وضعت الطيور أمامهم كقطع أثرية، ولنقص معرفتي بأنواعها مررت عليها بجهاز الماسح الضوئي دون أن ألفت النظر، وفي أثناء ذلك كانت بابوش تلقي تحياتها على الجميع.. انطلقت خوارزميات البحث وخرجت بنتيجة «طائر السمان» ولكن ما الذي قد يجذب اهتمامي بشأن طائر السمان؟

خاتون؛ لقد تركت الفرصة الملائمة تفلت مني مرة ثانية، هذا ما فكرت فيه الآن، فلأشهر طوال ظللت أبحث عنها وراء كل حجر، وبحثت في كل قواعد البيانات، ولم أجد لها أثرًا، والآن...

قال لاليتش موجِّهًا كلامه لبابوش: «لقد كنا في انتظارك»، في حين كانت الأخيرة لا تزال تصفر بصوت مرتفع بألحان آلة البيكولو، بعدما سرنا مائة متر نحو الطاولة بنفاد صبر، ثم انزوينا على مقعد بأحد الأركان.

- تحدثنا للتو عن إمكانية الاستعانة بمصادر خارجية لتحسين وظائف الجهاز، هذا ما أتى به أنصار ما بعد الإنسانية. فقط انظر هنا، هذا هو الرسم التخطيطي.

أشار إلى رسم بياني يوضح الزائدة الدودية المموجة، فارتجفت للحظة.

- شركات الجهاز الهضمي، ستتسلم الأمعاء كل صباح وتتغذى على العناصر الغذائية كل يوم في صورة أشبه بجولة ساعي البريد، وهكذا يهضم الفرع الغذاء، في حين يفني الفرد وقته في صنع أشياء أكثر أهمية، هل تعلم أن الكائن الحي يهدر نحو 30% من طاقته في التمثيل الغذائي فقط؟

هززت رأسي، في حين جلست بابوش بجواري دون أن تتفوه بكلمة، ويبدو جليًّا أن تلك مراوغة لانتزاع موافقتي؛ ولأنه لم يخطر ببالي أي شيء أفضل، سألت: «لكن ألا يموت العميل في أثناء أداء هذه الخدمة؟».

صاح جارسيا: «الأهم من ذلك أنها لا تكلف الكثير، سنستعين بمصادر خارجية من القطاعات ذات الأجور المنخفضة، والعاطلون عن العمل سيتولون مسؤولية نمو عضلاتهم من أجل إهدائها للمديرين والأساتذة رفيعي المستوى، أما النساء اللائي يرغبن في العمل بدوام جزئي، سيتولين العمل على استقلاب هرمون الأستروجين من أجل الباحثات المجهدات... إنه خط عودة عبر خطوط البيانات الحيوية، مدهش، أليس كذلك؟».

ردت بابوش بصوت مرتعش: «مدهش».

كانت مراسم العشاء المسائي تلك الليلة شخصية، تشبه المسيرات الجنائزية إلى حد ما، فقد كان الأستاذان فاينينر ونوفاك يتوليان حملًا كبيرًا جدًّا يفوق ألقابهما، لدرجة أن انحناء العمود الفقري أجبرهما على الانحناء ناحية اليمين، أما هيرش فكان وجهها جيدًا كحال حسائها، وبالنسبة إلى اليوبولد فهو يسعل في قبضة يده بسبب فقر الدم، ولم يعد السعال قادرًا على وقف تفجر المرض كالوحل.

أضاف أحد الشباب: «قبل كل شيء إذا استطعنا تحقيق ذلك رقميًّا، فلن يتطلب الأمر سوى جهاز كمبيوتر بحجم كرة الجولف لمحاكاة 100000 كبد، وباستهلاك وحدتين بت فقط يمكننا برمجة هيكل للكُلى». فقوبل تعليقه بتصفيق حاد.

كان فروليش يبتسم بأدب لكنه لم يشارك في مثل هذه المناقشات، وقد ظننت أنه سيجد الفكرة مثيرة للشفقة، ودائمًا ما كان يذهلني مشاركته في تلك الجولات، لم يرَ أي مصلحة في إضعاف همة الآخرين، كما نأى بنفسه عن التبشير بأي شيء.

وبالنسبة إلى باقي الحضور فكل حوار يخوضونه يصيبني بخيبة أمل متكررة، كل الأساتذة الأعلى أجرًا في مختبرنا هم مجرد حفنة من كبار الحمقى على ما يبدو، ومكاتبهم التي توارثتها الأجيال جيل بعد جيل، ظلت باقية في غرف الطابق الثالث مثل أعشاش العنكبوت المتأثرة بالعوامل الجوية، التي اكتُشفت أيضًا مصادفة في العام التالي.

جلست رعية الأساتذة -وهم الشبان والشابات الذين حصلوا على الدكتوراه في وقت مبكر ومن المقرر إعدادهم ليصبحوا خلفاء- في أقصى درجات الحماس، وعقدوا ما يسمى بالعمود، وهو ما يبقى لعقد كامل من الزمن.

منذ أن التقيت صناع القرار شخصيًّا، لم أعد أندهش على الإطلاق من عدم التقدم خلال السنوات القليلة الماضية، ففي بعض الأحيان كانوا يتناقشون معًا في منح شخص ما منصبًا معينًا لأنه ابن أخ عميد أو آخر، وبالنسبة إليَّ فكوني أنتمي إلى الطبقة العليا الآن، وُلدتْ في نفسي بهجة من نوع آخر.

قُدمت المقبلات، وما زلت لا أكتفي من تناول نصيبي.. نصيبي في الفرص التي حُرمت منها في حياتي الماضية، بجانب نصيبي في تلك الخضراوات،

وفي جبن أصلي، وفي دسم الحليب، والكاسترد المحلى بالكراميل، والفلفل الحار مع عين الجمل، ذلك الطعام الذي يذكِّرني بإبداعات تيتا في رواية كالماء للشوكولاتة.

فبالنسبة إلى المساعدين والمبرمجين الآخرين فهناك وجبة محددة متاحة في المقصف لخمسة أيام أسبوعيًّا، كنيركس كارجبراي، وهو مزيج من البروتينات والكربوهيدرات والفيتامينات، التي يمكن إلقاؤها في المعدة كوجبة واحدة خلال بضع ثوانٍ، ولا يوجد غضاضة من تناولها في أثناء العمل أيضًا، ويمكن بالفعل تحضيره بأكثر من قوام وبأنواع مختلفة، فقد تكون مخبوزة ومقرمشة، أو طرية، أو سائلة، ومجففة، مبشورة أيضًا، وكذلك في خدمة الوصفات المقترَحة التي تنشَر في الصحيفة اليومية، لكن كل تلك الأشياء لم تساهم في وسم تلك الوجبة ببعض الإثارة، فسكان المختبر كان لديهم شوكولاتة ورقائق وكمية غير محدودة من الكحول، ويأكلون الخضراوات المجففة مرتين أسبوعيًّا.. هنا الأساتذة فقط هم من يملكون كل شيء.

لقد ظهرت لي حياة مختلفة تمامًا في ذلك المختبر الموازي، حياة لا تضطر فيها إلى مشاركة سريرك مع خمسة آخرين، أو تعمل فيها من الاثنين إلى الأحد كل أسبوع، حياة ترى فيها ضوء الشمس الحقيقي إذا نظرت إلى السطح، وليس ذلك الضوء الاصطناعي، الذي يهبط علينا من أعلى عبر نظام المرايا المعقد، حياة بها أنابيب تضخ لنا المياه العذبة، بدلًا من المياه المعاد تدويرها من مياه الصرف الصحي ونفايات المختبرات، لقد علمت قبل أيام قليلة أنه أنشئ مركز ثانٍ للكونجرس بعيدًا عن المركز الرسمي، حيث اتخذ الأساتذة الكبار تلك القرارات التي لم يعلم عنها السواد الأعظم شيئًا.

قال جارسيا: «كان بروفيسور فروليش يحدثنا للتو عن الحدث الذي سنسعد بمعرفته الأسبوع المقبل، هل نخمن أنكم ستعلنون عن تغييرات مهمة في مشروع ديف؟».

قالت بابوش: «أيًّا كان ما سيحدث، فيجب أن يكون رؤساء المبرمجين على علم به، أليس كذلك؟».

قالت دكتور برينيجان بخبث: «هل ستأخذ خطوة أقرب إلى ما بعد الإنسانية أم إلى التيرانيين الجدد يا بروفيسور فروليش؟ ففريق عملي ينتظر بفارغ الصبر مزيدًا من الموظفين من أجل الروابط العقلية».

قاطعها جارسيا على الفور: «لا يمكنني تقديم الدعم في ذلك... إن جعل العالم الخارجي صالحًا للسكن يظل هو أولويتنا، والموضوع محتدم بين الناس الآن، ولكن متى ستصبح الروابط العقلية التي تعملين عليها جاهزة؟».

ردت برينينجان بازدراء: «لن أتكلم في الأمر علنًا، سيكون ذلك على جثتي، إنه سر تجاري».

فسألت بابوش أيضًا: «هيا قولي لنا متى!».

- هل فقدتِ السمع؟ لقد قلت إن لديَّ التزامًا تجاه موظفيَّ، ولن أفصح عن ذلك أبدًا.

- متى؟

كان السائل فروليش، وسؤاله الهادئ حملهم جميعًا على الصمت، ومثل الأطفال الأشقياء ندموا جميعًا على المناقشة، رغم أنه لم يوبخهم.

بدأت برينينجان في التعرق، ثم جالت للحظة بعينيها تتوسل أي مساعدة، كما لو كانت تجاهد في السباحة لإنقاذ حياتها، ثم قالت أخيرًا: «في فبراير».

شعر الجميع في تلك اللحظة بالارتياح، وتناولوا أدوات المائدة لاستكمال طعامهم.

قال فروليش بهدوء: «لن نمد أي طرف بأية أموال أخرى».

ثم أردف: «ومع ذلك فهي تكفي، ووجهة نظري -التي آمل أن تكون هي نفسها وجهة نظركم- أن نظل مخلصين لعقيدة فعل كل ما يسمح به إطار التكنولوجيا، ثم مناقشة التطبيقات عليها، وذلك لأن الميثاق الرسمي للمختبر ينص على أن يكون هدفنا الأساسي هو تطوير الذكاء الاصطناعي العام.. أو أنني.. أريد قولها بطريقة أخرى...».

مسح فروليش فمه بحرص ثم أكمل: «أنت يا جارسيا تفكر في وعد ملموس بالخلاص، تريد جنات عدن الخضراء المزهرة، وأن ترى الجنس البشري -باعتباره المستكشف والباحث في هذا الكون- عادلًا بما يكفي، أما أنت يا هويل فتريد التخلص من قيد الجسد، جيد! أنت أيضًا لديك أسبابك».

طوى فروليش المنديل وأعاده إلى مكانه مرة أخرى ثم استطرد: «سنواجه جميعًا مشكلات كثيرة مع كل تلك المفاهيم، وهذا يكمن في طبيعة الحلول نفسها، فالحلول ستظل دائمًا مجرد حلول لشيء معين، إذًا ما يتعين علينا فعله أولًا هو التخلص من ذلك النمط من المشكلات، فالأمر لا يتعلق بمشكلة

فردية، ولكن بفكرة المشكلة في حد ذاتها، فإذا لم يكن هناك شيء يستعصي علينا سبر أغواره، فستختفي جميع الأسئلة المحتمَل تصورها، لأننا ندير قوة إدراكية لا نهاية لها، وعندها لن نجد ردًّا على أشياء كثيرة، لأن السؤال أصلًا سيختفي، وإذا اختفت الحلول، سنتحلل جميعًا».

خيم الصمت على رؤوس الأساتذة، كأنهم ضبِطوا بممنوعات في لحظة غير محمودة، أنا أيضًا شعرت بالرهبة في البداية، لكنني أدركت بعد ذلك أن خطاب فروليش لم يقنعني إلى حد كبير، فكرت في كلمات خاتون، فبمجرد أن تظهر المشكلة ستجد أن حلها كان موجودًا في الأصل، ونحن قط لم نلحظه؛ لأننا بسبب التطورات الزمنية سنظن أننا حللناها للتو.

هراء؛ بالطبع الذكاء العام سيكون هو الخطوة الأولى، ثم قلت لنفسي؛ وماذا بعد؟

في غضون ذلك حاول فروليش مرة أخرى البحث عن المزيد من الكلمات الودودة: «يمكنني الآن أن أقول شيئًا، وهو أننا وافقنا بالفعل على تلك التعديلات التي تحدثنا عنها الأسبوع الماضي، ستجعلون المختبر بأكمله أكثر كفاءة من ذي قبل، وأؤكد على كلمة «بأكمله» مرة أخرى، وبعدها سنضاعف من سرعة التوصيل العصبي لديف بمعدل 5*10 أس 2 تيرا في الثانية الواحدة، لكن في بادئ الأمر أرجو أن تصمتوا».

وبخفة سيريالية استطاع أن يتجاوز بها فقدان بصره صب فروليش الشمبانيا في أكواب الجميع على الطاولة دون إراقة قطرة واحدة، وفي العموم بدا فروليش دائمًا عليمًا بما يحدث في الغرفة، هل كان يعتمد في ذلك على سمعه؟ أم هو نوع من الإحساس المقياسي بالاهتزازات فوق سطح الأرض؟

قال فروليش: «ستُعقَد الفعالية القادمة في قاعة الإنذارات، وستضم خمسين أو ستين رجلًا على الأكثر».

صفق الجمع بحرارة جعلت الأصابع تتشابك بعضها ببعض.

قاعة الإنذارات إذًا! جلسة سرية أخرى في غرفة سرية يجرى فيها مناقشات سرية بين أناس عاجزين عن معرفة أكثر الأشياء سرية في أنفسهم، لاحظت فروليش بجاذبيته الحقيقية التي تفرض سلطته على باقي الأساتذة، فرغم عدم حصوله على مؤهلات علمية، ورغم أنه لم يكن يومًا عالمًا في مجال تكنولوجيا المعلومات في مجتمع علماء الكمبيوتر، عرف كيف يوجه الأقسام

المختلفة بطريقة يمكن وصفها بأنها كاريزمية، تكاد تصبح ساحرة، ورغم أنه كان عليه شق طريقه والعمل في الطوابق الأولى بترتيبها التسلسلي الكامل، استطاع التحدث بلغة الطبقة العليا لفترة طويلة واندمج فيها بسلاسة، فأنا بالطبع كنت على علم بالنقاط الأساسية في سيرته الذاتية، ومن في هذا المختبر لا يعلم؟

وُلد فروليش قبل 45 عامًا لأب يعمل في التعدين وأم بائعة، تلك الفئة من البشر هي الخاسر الكلاسيكي في الثورة الثنائية، التي حولت جميع القطاعات الاقتصادية إلى مجرد موردين للقطاعات ذات التوجه الرقمي، أما التعليم الضعيف في الطابق الأول فكانت مدته أربع ساعات يوميًّا، ولا عجب أن تجد نحو 40% من الطبقة السفلى -كما أطلقنا عليهم في الأعلى- يستغلون الأطفال في سن الدراسة لتحسين دخلهم.

كان فروليش قد انتدب لشغل وظيفة التسويات بالمستودع، لكن بينما كان الصبي يندفع في المنصات بجسده المغطى بزيوت التشحيم والغبار، بدا أن هناك عملية معينة تنمو بداخله، وبدت الهالة التي يتركها بحضوره تشع كل يوم أكثر من ذي قبل، حتى أقر العمال كلهم بسلطته دون أن يشعروا كيف دفعهم إلى الاعتراف بذلك.

بدأ كل شيء بسلاسة شديدة، فقد وجد عددًا من القواعد غير العقلانية في توزيع الأوزان في المستودع، واستطاع أن يتخلص منها، وبعد أسابيع قليلة أصبح الحرفيون الضخام عريضو المنكبين يرقصون على ألحان صبي نحيل طويل القامة يعاني خللًا جينيًّا، تمامًا مثلما فعل الجرذان حول مزمار صائد جرذان هاملن[1]، وأعاد مئات العمال ترتيب حياتهم وفقًا لنظام المناوبة الذي صممه دون أن يواجه أدنى تشكيك في خبرته -رغم أن بعض العمال لديهم خبرة في العمل لعشرات السنوات- وفي العام الثاني له استطاع جمع عمال اللحام ليشكلوا فريق عمل لإنتاج لوحة أم[2] على نطاق ضيق بعيدًا عن علماء الكمبيوتر، ولم تمضِ ستة أشهر حتى اكتملت أركان الفضيحة.

---

(1) هي واحدة من أشهر الملاحم الألمانية، تحكي عن شخص غريب قدم لتخليص المدينة من الجرذان عن طريق إطلاق صافرات من مزماره حتى تجمعت كل الجرذان حوله واستطاع التخلص منهم في نهر خارج المدينة. (المترجمة).

(2) هي لوحة دارات مطبوعة مركزية أو رئيسية في نظام إلكتروني معقد مثل الحاسوب. (المترجمة).

وصار اللوح الذي صنعوه أسرع بثلاث مرات من ذلك المستخدَم في المكاتب آنذاك، ذلك ببساطة لأن فروليش كان يتمتع بالمهارة التي تمكِّنه من وضع جميع القوى العقلية والجسدية في خدمة العقل حتى في أثناء نومه، وفيما بعد عندما أصبح رئيسًا للمختبر أجرى مقابلة صاغ فيها مسمى لفلسفته في الحياة، التي توطدت في ذلك الوقت المبكر، وأطلق عليها اسم «السيطرة على العقل».

كل إجراء يجب أن يتخذ مسارًا ذا كفاءة وأكثر عقلانية وأناقة، وهو مسار العقل، وقد تتبع فروليش الإجراءات الخاصة بكل العمليات بمنطق ونظام، العمليات البشرية منها والسياسية، والاجتماعية، وحتى العاطفية؛ كانت الخوارزميات هي أفضل مصدر للإلهام، ثم قارن الطبيعة البشرية بجسد الفرد، فمثلما يطغى العقل وطبيعته المنطقية على الفرد، يجب أن يتوصل المجتمع أيضًا إلى توجه منظم يتناسب مع المنطق الحسابي لديف ليمحو أي معاناة.

لكن ذلك حدث بعد عقدين من الزمن، فروليش البالغ من العمر عشرين عامًا، الذي أدرك الجميع موهبته أخيرًا، أصبح أول فرد في عائلته يُقبل في الدراسة الجامعية، ولم يمض وقت طويل حتى لاحظت المشرفة على المختبر آنذاك -وكانت جريس كوبول- أن إصابة الصبي بالعمى التام في سن السادسة عشرة لا تشكل أي عقبات في طريقه.

وبغض النظر عن أي غرفة دخلها فروليش لم يكن الناس خاضعين له بشكل كامل فقط، بل أصبحوا أيضًا منظمين بشكل أكثر كفاءة من ذي قبل، وكما صرحت أحد المقالات الصحفية آنذاك «**كان بإمكان فروليش سرقة ملابسك وبيعها لك بعد عشر دقائق، لما يملكه من شخصية غاية في الجاذبية ورؤى غاية في الوضوح، فالناس ظلوا يبحثون عن رجل مثله لعشرين عامًا حتى جاء**».

فهو ليس مبرمجًا كغيره، وليس غريب الأطوار أو حتى عالمًا كيميائيًّا، لكنه كان بمنزلة نبي، وحد أشلاء المختبر المتناثرة بين رؤى ما بعد الإنسانية، ومنذ خمسة عشرة عامًا حتى الآن -أي منذ أن بدأ وعيي يتشكل- وأنا أراه رئيسًا للمختبر، ولم يعد هناك أدنى شك بأنه سيستمر في مكانه إلى الأبد كالأباطرة المستبدين.

ومثل أي شخص مميز بحق أظهر بعض النزعات الشاذة، فقد كان الجميع يعلم أن فروليش ليس لديه زوجة أو أطفال، لكنني قرأت مؤخرًا بعض التفاصيل المهمة في حل هذا اللغز المريب، وهو أن فروليش كان من أتباع الديانة المانوية، وهو دين زاهد يقوم على التمييز بين طبيعتين أو مبدأين في الكون وهما طبيعة النور والظلام، ولكن هذا معناه أيضًا أنه ينفرد بنفسه عن العالم الخارجي لمدة ساعتين يوميًّا من أجل ممارسة تلك الطقوس الصوفية، وعلاوة على ذلك فدينه هذا يلزمه بالتقشف التام.

سألني جارسيا وكأنه نبت من العدم: «وما هو رأيك حيال ذلك؟».

لقد انتقل الحديث بينهم إلى موضوع آخر وأنا شارد الذهن، فلم أفهم إلام يرمي، لكنني بدأت أجمع شتات أفكاري، وقد مرت فترة طويلة وهو في انتظار رد مني.

قالت بابوش: «تجميع قطع عشوائية معًا ويمكن تغيير إحداها مثل مكعبات ليجو، فإذا تقدم أحدهم بالعمر، يحل محله آخر بحياة جديدة، تضمن بالطبع حياة أبدية منعمة بالصحة، وهذا كله حلم بعيد المنال، ومع ذلك صدر أمر التنفيذ بنجاح».

وكان المتحدث هذه المرة جارسيا، قال: «بالطبع، هذا يتوافق مع أفكار ما بعد الإنسانية والتيرانيون الجدد أيضًا؛ لأنه يمكِّنك من استخدام مثل هذه الأجزاء المجددة من الجسم في مهمة فضائية بين النجوم، شيء يشبه التجميد بالصدمة... وهذا بالطبع مجرد مثال، فالأمر يتعلق بصورة عامة بتقليل المعاناة بكل الطرق الممكنة وتحقيق أقصى قدر من السعادة، فعند الحاجة نسجل برنامج zack في نظام ديف، وقد أصبح قيد التنفيذ بالفعل، فإذا ظهرت في الأفق فكرة بشعة، أو دعنا نقول فكرة عنيفة، بوجود zack سيقضى عليها فور ظهورها».

وبينما استمر الحديث عن الصالح العام، جلس صناع القرار في غرف مكيفة وبدا وكأنهم مومياوات، ولا عجب، فهم يدخنون سيجارهم بتلذذ إضافة إلى أنهم موجودون منذ العصر التوراتي، فالناس في لقاءات كتلك ينظرون إلى بعضهم كأنهم يرون بعضهم من خلال ألواح من الزجاج المصنفر.

- ما يجعل ما بعد الإنسانية جديرة بالثناء هو أنها تسمح بالتحكم في العقل طبعًا، والشخص الذي ليس لديه ما يخفيه، لا يمكن أن يتعارض مع أي شكل من أشكال تنظيم العقل.

كان عليَّ الإنصات إلى هذه القلاع المشيدة في الهواء، التي بُنيَت على أرضية مهزوزة من البداية، ولم يكن أحد منهم يعلم أن فرضية الشخصية نفسها إضافة إلى الحل المحتمل يكمنان في داخلي.

لاحظ بيرلمان أن عينيَّ تبدوان وكأنهما أعين زجاجية، فسألني: «هل أنت بخير؟» فأومأت برأسي مبتسمًا، لكنني لم أستطع الحفاظ على تركيزي، ظلت أفكاري تنجرف إلى جلسة النسخ التي تمت في الليلة السابقة مرارًا وتكرارًا، لقد ارتكبت بعض الأخطاء الحساسة، التي استطعت إدراكها بشكل أكثر وضوحًا، كلما أصبحت المحادثة أكثر تجريدية.

قبل تلك الجلسة بساعات قليلة كنت أجلس على كرسي بذراعين في المختبر المركزي، مقيدًا بأقطاب كهربية، ويتجمع حولي المساعدون في وقفتهم المعتادة الأشبه برقصة الباليه، وعلى الرغم من أن هذا ليس مألوفًا بالضرورة، ظهر شكل من أشكال الإحراج ارتبط بالقصص التي أرويها، فتسلل إليَّ شعور أشبه بالوقوع في فخ.

قال فروليش حينها: «دعونا نغوص أكثر في الأمر». وبقيت للحظة طالت أفكر في كيفية البدء في حين يجتاحني شعور الخوف كما هو الحال دائمًا.

أعلنت عن الموضوع الذي حددته سلفًا، فقلت: «أول مجابهة للموت» وكنت على وشك سرد كلامي كله، لكن الشك داهمني، فقلت: «لقد قررت اختيار مشهد غير مألوف.. وهو موضوع يقترب في بدايته إلى الحياة أكثر منه إلى الموت».

لم أستطع المضي قدمًا في الحديث لأن فروليش أوقفني بإيماءة قبضت على كلماتي التي بدت محلقة في الهواء، ثم قال: «أرجو مزيدًا من الكلام الملموس من فضلك». فتنحنحت قليلًا وبدأت أتلو قصتي المحفوظة عن ظهر قلب.

- عشت فترة من حياتي سايرت فيها هوسًا في داخلي، وهو الرغبة في النظر داخل رؤوس الكائنات الحية، أعتقد أنني كنت في السابعة أو الثامنة من عمري، وهي مرحلة تلت فترة أمضيت وقتي فيها أفكك الأجهزة التقنية، ولوحات الدوائر الإلكترونية والصمامات الثنائية وفهم كيفية عملها، وبعدها قرأت لأول مرة عن أجزاء الدماغ المختلفة، فقد

كان لدى جدتي كتاب مصور طُبعت فيه رسوم تخطيطية للدماغ؛ القشرة المخية، والفص الجبهي، وباحة بروكا، والحُصين، فتعلمت وفهمت أن كل فرع من هذه الفروع قد أنجز مهامه بثقة، وهو ملحوم في لوحة دائرة كهربائية واحدة نسميها الروح، جمعت بتزمت كل ما يشير إلى الوصلات الوظيفية التي تجمع بين التيارات العصبية الكهربية والتجربة الحياتية.

تلعثمت وأنا أحاول تذكر ما ذكرته في المرة السابقة، فأردفت: «وكطفل سار تفكيري كالتالي: أليس هذا الدماغ وهذه الحياة هي نفسها الخوارزميات المعقدة التي لا حدود لها؟ إذن هل يستطيع الإنسان -إذا نظر من كثب فقط- أن يفك شفرة هذا البرنامج، بل ويبدأ في إعادة صياغته بنفسه؟ فالجسد بالنسبة إليَّ ككتاب، أو أعني برنامجًا يتكون من البروتينات، وهذا المفهوم شائع جدًّا في الآونة الأخيرة بالطبع».

حسنت من حديثي مجددًا وأدركت أنني قد تعثرت مرة أخرى، فسألت: «هل يسمَح لي أن أبدأ من جديد؟»".

***

سارت جلسات النسخ على النحو التالي: أتلقى إشعارًا بموضوع قصة معين قبل الموعد بثلاثة أيام عبر قناة مشفرة؛ هناك فراغ في موضع ما بشخصية ديف المستقبلية، ولا بد من رتقها بشخصيتي، وفي معظم الأحيان كانت تلك المواقف تشكل حياة الشخصية، كاليوم الأول في المدرسة، أو حب الطفولة، أو قد تكون تلك اللحظة التي يشعر فيها الإنسان بالفشل، أو لحظة ظننتها أعظم انتصاراتك، قد تكون لحظة حزينة، أو لحظة نجاح مظفر.

في تمام الثامنة مساءً من الليلة السابقة لتلك الجلسة أنجزت نصًّا جديدًا، أصبح كل شيء جاهزًا، وعندها اصطحبني مساعدان لفروليش في وقت متأخر من النهار، ثم هرَّباني عبر الجناح ذي الحراسة المشددة إلى داخل المختبر المركزي.

مسح قزحية العين.. تنظير تألقي.. وكلمات مرور، بدا الأمر أشبه بدخول السجن، وكان على الجميع فعل ذلك، بينما ظلت تلك التفاصيل مخفية عني.

وبمجرد دخولنا، بدأنا نعمل على الدعامات التي سترتكز عليها الشخصية، لتساعدنا -كما يقول فروليش- في تكوين هيكل داعم لها، وبناء على معايير

حكاياتي أكمل بلومنتال وهينشر عملهما وهما يوجهان فريقًا صغيرًا من اللغويين؛ وقد استطاع الفريق حياكة عشرات الآلاف من النصوص البرمجية من الحكايا التي أقصها عليهم، وربطوا النهايات العصبية بالميول، التي من شأنها خلق نفسية إلكترونية.

قال فروليش: «لنعد إلى نقطة البداية».

- أنا متأكد بنسبة كبيرة من أن هذا الهوس بدأ عندما كنا نُشَرِّح الضفدع في حصة علم الأحياء، في البداية اجتاحني شعور بالشفقة على هذا المخلوق الصغير الذي ظل يرتعش بشكل بائس، في حين ننتزع نحن الحياة من خياشيمه بمادة الكلوروفورم، ولكن بمجرد أن شققنا القشرة الخارجية بالمشرط، وظهر الهيكل الداخلي المخفي تحتها، تحول شعوري إلى ذهول؛ فأمامي الأعصاب والأعضاء وطبقات الجلد، أمامي الحياة كلها، فكل ما كان يتأمله الإنسان في القرون الماضية بوصفه معجزة، أصبح الآن مجرد شريحة صغيرة من الفروع التي رأيتها آنذاك، فيمكننا أن نتأمل هذه الآلة العضوية مثلما نتفحص ميكانيكا البيانو، وبعد فترة وجيزة مرَّرنا سلكًا مشحونًا بالنهايات العصبية؛ لاستحضار حركة الأطراف -وذلك بالطبع وفقًا لتعليمات المعلم- وعُلق مخطط الدماغ، ثم ارتفع المجموع المحتمل للتلاعبات إلى أعداد لا نهائية، انتقلنا بعدها إلى القشرة الحركية، وكأن المخلوق قد تمرد وعاد إلى الحياة مرة أخرى، ولكن ذلك لم يكن يعني سوى شيء واحد؛ وهو أن الحياة برمتها مسألة تنسيق دقيق بين أجزاء محددة، لا يوجد شيء سحري بالأمر، وليس هناك ما يتعذر الوصول إليه، كما يمكن لأي شخص إلقاء نظرة على مركز التحكم الخاص به، تمامًا كما يستطيع النظر داخل هذا الجسم المثبت بمسامير، وهذا بالضبط ما دفعني تجاه ديف، ومن هنا انطلقت الشرارة الأولى.

سأل فروليش: «وإلى أي مدى يصل الترابط بين الاثنين؟».

- جيد! لقد أدركت في المرة الأولى أن الحياة وكل ما يدور فيها هو تبلور لمنهج محدد، فعلى عكس أجسادنا لن يتعرض الفولاذ أو الكهرباء للضعف والفناء مثلنا، وإذا تعلمت أن أجمع أطراف الحياة كما تعلمت وقتها كيف أفصلها، فلن يصبح الموت بعد الآن شيئًا حتميًّا.

الآن اهتديت مرة أخرى إلى الصراط المستقيم، الآن فقط ظلت الجمل تنزلق عن لساني جملة تلو الأخرى، وشعرت بكل رضا أن الحكاية التي حبكتها بدقة بدأت تتنامى.

- الأعصاب.. هي إمكانية التفرع في البرمجيات، والأعضاء.. ليست أقل نمطية من جهاز الكمبيوتر في تصميمها، كما أن البلاعم وخلايا الدم البيضاء التي تظل طيلة الوقت في رحلة بحث عن الخلايا السرطانية، لا تختلف كثيرًا عن متتبع الأخطاء اللامركزي، إذن ما دفعني إلى البرمجة لم يكن التلاعب بالرموز، بل التلاعب بالحياة! أدركت على الفور أن ديف قد صُمم على الأساس نفسه، وبالطبع سبحت يوميًّا في خيالاتي، وأنني سأكون الشخص الذي سيحقق ثورة في مجال الوعي الاصطناعي، وأن لدي فكرة فريدة من نوعها، وترسخ اعتقادي بأنها فريدة من نوعها لدرجة أنني سرقت أرنب زميلي في الدراسة.

ظلت الغرفة بأكملها تلتفت إليَّ وتحدق إليَّ بغرابة، حتى تدخل فروليش: «حسنًا، إنه أمر غير تقليدي بعض الشيء، ولكنه أيضًا ليس من الغريب عمومًا أن تثيرك مثل هذه الأشياء في صغرك».

رددت بسرعة: «لم أكن متحمسًا!».

رسم فروليش خطوطًا وهمية بسبابته على شكل عجلة دوارة كإشارة منه بالمتابعة وهو يقول: «بالطبع».

- تنامى بداخلي هوس بتشريح الكائنات الحية، ولأنني لم أهتم بالأعضاء بشكل خاص، سرعان ما تخصصت في وظائف عمل الدماغ. ما الذي يثير العاطفة، وكيف يمكننا التحكم في المشاعر واستفزازها أو حتى القضاء عليها؟ وقرأت أغلب الوقت عن الذاكرة؛ لأنه من بين جميع ملكات العقل وجدت أنها الأكثر ملاءمة لرحلاتي الاستطلاعية، وكشفت لي النصوص التي قرأتها أن قطْع القشرة المخية ينتج تأثيرات مميزة للغاية، فيمكن التلاعب بالذاكرة بدقة كبيرة، وهي أكبر بكثير من أي وظيفة أخرى للعقل، ويمكن توطين كل شيء بدقة كبيرة، كاللوزة وتخزين استجابات الخوف، والحُصين، والتعرف من جديد على الأشياء، إضافة إلى قشرة الفص الجبهي، وذاكرة الحاسوب التي تنقل الذكريات إلى محركات الأقراص الثابتة لدينا، ويمكن إدراك التنظيم الجغرافي لتلك الوظائف في أجساد المرضى الذين دُمِّرت إحدى هذه

المناطق عندهم، ووصلت الإشارات إلى باب مسدود لديهم، ويمكن دائمًا ملاحظة التأثيرات والعيوب نفسها، كأن يحدث ماس كهربائي في أحد الخطوط، وقد قرأت عن حالة المريض H. M، الذي ظل يعاني منذ سن السادسة عشرة نوبات صرع شديدة، لدرجة أنهم أزالوا أجزاءً من فصوصه الجبهية، ورغم أنه شفي من مرضه بهذه الطريقة، لكنها قضت على شيء آخر غاية في الأهمية؛ فقد اختفت الذاكرة طويلة المدى، وباتت ذاكرته تُمحى كل ثلاثين ثانية مهما حاول اتباع الأنظمة التي تعمل على تحسين هذا العيب جزئيًّا بمرور الوقت.

وظل يحمل ملاحظة واحدة في جيبه، وهي «مات الإله»، أما كل الأشياء التي عرفها بعد إتمام جراحة الدماغ 1953م، فاستطاع اختزالها جزئيًّا من ذاكرته القديمة، ولم يستطع تذكر كل الأشياء، وظلت منطقة واحدة لم تُمس نهائيًّا؛ وهي الذاكرة المكانية... معذرة! لقد شردت.

قلت كلماتي الأخيرة وأنا أفرك جبهتي، ثم أكلمت: «بينما كنت أميل بكل اهتمام نحو إجراءات الجراحة العصبية، كنت آمل أن أرى في يوم من الأيام المجال الحقيقي الذي يسترعي اهتمامي».

- وهل عرفته؟

- نعم! الدماغ البشري.

ومرة أخرى استفحل الصمت في المكان وتحولت أنظار الجميع إليَّ، فقلت على عجل: «بالطبع لم أقتل أي نفس». وذلك لأنني أدركت ما يدور بأذهانهم، ولذا تنفس الجميع الصعداء إثر كلماتي، فأردفت: «لقد مرت السنون حتى التحقت بالمدرسة الثانوية، وعندها استمعت مصادفة إلى محادثة تحدث فيها أحد الأشخاص عن عملية دماغ ستُجرى لأحد الأقارب، وسيُنقل من المستشفى في اليوم التالي للعملية، وقد عددت هذه إشارة من القدر».

سألني فروليش: «هل كانت تلك العملية مفتوحة بشكل عام؟».

فأجبته ببطء: «لا! ولكن لم يكن من الصعب الحصول على إذن بالدخول، فقد تواصلت مع قسم جراحة المخ والأعصاب، وادعيت أنني طبيب مساعد؛ لكي أعرف اسم كبير الأطباء الذي سيجري العملية».

ابتسم فروليش بفرح وهو يقول: «آآه! يا لسعادة الهندسة الاجتماعية[1]».

قلت له وأنا أنظر إلى الأرض: «بالفعل، لقد تمكنت من العثور على القاعة الصحيحة من خلال النوافذ المقسمة، وأنت تعرفها بالفعل».

- نعم! أنا أعرف مقصدك.

- تابعت العملية الجراحية، وما زلت أتذكر الصدمة التي شعرت بها عندما أدركت أن المريضة لا تزال شابة، فبالتأكيد لم يتجاوز سنها الخمسين، وضعوا لها حقنة تحت مقلتها، حيث يكون العظم الصدغي في أنحف حالاته ويمكن اختراقه بسهولة.

- ولم يلاحظ أي شخص وجود صبي يقف ويشاهد عملية جراحية في الدماغ؟

هززت رأسي ثم قلت: «لم يكن جليًّا بالنسبة إليَّ نوع المرض الذي تعانيه، فقبل فترة وجيزة من الحقن بدت طبيعية للغاية، تتحدث إلى الممرضات وتضحك على نكات الطبيب، وإذا استطعت أن تلحظ شيئًا من تلك المسافة في العموم، فستلحظ خفة ظلها، وبأقوى إرادة في العالم لم أستطع أن أستنتج نوع الجراحة التي ستُجرى لها».

- ثم؟

ترددت.. فأحد أصعب الأمور في جلسات النسخ هو ترابط الحكايات مع بعضها بعضًا، غالبًا ما كنت أشعر أنني شخص يلقي نكتة طويلة حتى تصل إلى مرحلة تنبئ بأن النهاية ستكون سخيفة على أية حال، والآن بعد أن أوشكت على الوصول إلى ذروة القصة، فجأة أصبحت لا أعرف ما الذي أفعله.

- بعد دقيقة من تلقيها الحقنة على يد الطبيب، وبينما كانت واعية تمامًا، شاهدتهم وهم يغرسون سكينًا طويلًا تحت جفنها، ويضغط الطبيب على نهايته بأداة صغيرة، ضغطة أو اثنتين، ثم أدار الرافعة قليلًا، وبعدها ضعفت الحركة في جسدها، وأصبحت تعبيرات وجهها جامدة.

عندما انتهيت بدأ المساعدون ينظرون إلى بعضهم بنظرات ملأها الشك، وأصابعهم تحوم فوق لوحات المفاتيح كأنها غير متأكدة مما قيل للتو.

---

(1) *الهندسة الاجتماعية* عبارة عن مجموعة من الحيل والتقنيات المستخدَمة لخداع الناس وجعلهم يؤدون عملًا ما أو يفصحون عن معلومات سرية وشخصية. (المترجمة).

وأخيرًا تكلم بلومنتال الذي ظل واقفًا ينظر من خلف حافظة الأوراق: «هذا مستحيل! لقد مر نصف قرن على آخر عمليات فصل المخ الجبهي».

وخيم الصمت على الجميع مرة أخرى.

سألني فروليش: «هل أنت متأكد من أن الأمر سار على هذا النحو؟».

قطعت مساعدة أخرى الحديث بيننا قبل أن أتمكن من الرد: «لا أعتقد أن ذلك ضروري وذو جدوى، لقد اتفقنا منذ بداية الأمر على قبول أنواع من تشويه الذاكرة وعدم التشكيك فيها».

قلت بهدوء: «لكن هذا ليس بتشويه!».

تجاهلوا كلامي وأكملوا الحديث: «هذا يجعل إحساس ديف بمرور الوقت يبتعد عن مساره الصحيح».

- ربما لم تكن جراحة فصية للمخ في النهاية.
- ولكن لا يوجد أي عملية أخرى يمكن إجراؤها بطريقة الصدم، وذلك إذا تحدثنا عن العمليات في المطلق.
- سكوت، سكوت، سكوت! يمكننا بسهولة كشف ذلك من خلال مراجعة سجلات المستشفى.

سأل فروليش: «وماذا علينا فعله بعد ذلك في رأيك؟ هل نصحح كل شيء ونحرر تقريرًا بالواقعة؟ نحن نرغب في إعادة نسخ الشخصية، وإذا كانت تلك هي طريقة الشخصية في التذكر، فبالتأكيد ستكون حقيقة واقعة بها».

وهذا ما آل إليه الأمر، فكرت فيما قاله بجموح وأنا أبحث في ذاكرتي عن أي شيء أستشهد به كدليل، أي تفصيلة أو حجة، ولكن فجأة حدث شيء غريب، مثل الأحلام التي يبقى أثرها في وجدانك حتى بعد الاستيقاظ، ومع كل محاولة لاستحضارها مرة أخرى، تتكاثر فجواتها، كذلك بدأ المشهد ينهار بذاكرتي.

قال بلومنتال: «أنا أرى الشيء نفسه، لقد برمجنا الذاكرة بالفعل وفقًا لمتطلباتنا».

لقد رأيت مدى الصعوبة التي تواجهها روزن في مواجهة فروليش، وهذا يعني أن تلك القضية غاية في الأهمية بالنسبة إليها.

- ولكن علام سينتهي كل ذلك؟ يجب أن تترابط الذكريات مع النصوص البرمجية، وإلا سيصبح كل ذلك بلا جدوى.

في البداية تهاوت أمامي صورة المستشفى، ثم وجه المريضة، وفي النهاية بتُّ غير متأكد مثل الجميع، هل ما قلته كان الحقيقة فعلًا أم لا؟ وهنا كان ديف في مرمى بصري، تناقشت الهيئات المساعِدة بحدة للإفراج عنه لبعض الوقت، ومنذ الوهلة الأولى تعرفت عليه، فقد كانت ذكرياتي داخل ديف، وقد أصبحت بالفعل جزءًا منه، رغبت في استرداد تلك الذكريات منه والتحقق منها، أردت كشط أخطائي منها وإصلاح ذاتي، لكنها رُسخت فيه إلى الأبد.

شعرت بيد تضغط على ساقي، فقد اقترب فروليش مني وقال لي: «أريد أن أسمع منك إجابة واحدة! إذا كنت تشك بهذه السرعة في صحة أفكارك، ألا تخشى أبدًا أن تتلاشى على حين غرة؟».

حدقت إلى الأرض فقط، فقال بعدما استبد بي الصمت: «سنتولى الأمر.. ونعثر على طريقة أخرى لاحقًا إذا لزم الأمر، وأنت ليس عليك إلا أن تستمر في سردك».

ولذا حاولت جاهدًا طوال فترة النسخ أن أتجاهل هياجي وأستمر برصانة.

سألتني بابوش: «ألم تشعر بالجوع بعد؟» وأشارت إلى جبل من الأرز الذي ذاب كأنه طلاء، يشبه إلى حد كبير طبق الريزوتو بفطر الكمأ في تلك الآونة، انجرفت بعيدًا لدقائق متجاهلًا تمامًا تطور المحادثة، لكن سرعان ما عدت بسلاسة إلى المحادثة، وتبدد شعوري اللحظي بعدم الارتياح، وكان كل ما يشغل بالي هو أنني في المكان الذي أردت أن أدخله دائمًا، ولن أسمح للارتباك بأن يلقي بظلاله على هذه الحقيقة.

التفتت بابوش إليَّ، والأساتذة الآخرون يتابعونني باهتمام ثم قالت: «نحن نتحدث فقط عن الطريقة التي ينبغي اتباعها لمحاكاة الإرادة الحرة داخل ديف».

تخلصت من مخاوفي، فإذا استطعت تحقيق ذلك بشكل صحيح، فإن تلك المهارات التي ظلت كامنة لعقود من الزمن تحت وطأة الخوف ستزدهر الآن.

استكملت بابوش: «وعندها سنصل بحديثنا إلى قضية ما إذا كانت الإرادة الحرة موجودة أصلًا أم لا، وقد قال تسوندر في هذا الشأن أن هناك شيئين

فقط يحددان من نحن في الحياة، وهما الجينات والتجارب التي يخوضها الإنسان، وفي النهاية لا يمكن التأثير على كلتيهما. ما رأيك في ذلك؟».

لم أكن ديف الثاني، كنت ديف نفسه، تركت تلك الأفكار تتنامى وتغوص للحظة، وتساءلت ماذا عن تفصيل إجابة ملائمة لأسطورة حية، ثم تناولت رشفة من النبيذ والتفتُّ إلى بابوش كما لو أنني أراها لأول مرة.

***

بعد ظهر يوم الثلاثاء التصقت بمكتبي لإنجاز قصة الليلة التالية، لأنني -مثل الأسابيع القليلة الماضية- رسمت مخططًا في الصباح لم يكن عليَّ سوى تجميله لفظيًّا والتوصل إلى نتيجة متماسكة.

«أشعر بالخوف من الموت».

تركت أصابعي تكتب ما تجده بصورة مبهرجة، كما لو أنني أؤكد على الحالة الإنتاجية الفائقة التي بداخلي، وحشدت شارات عملي من حولي؛ فنجان قهوتي وقائمة تشغيل كلود ديبوسي، ودفتر ملاحظاتي؛ فخوفًا من تسرب البيانات سُمح لي فقط بكتابة النصوص يدويًّا.. فغصت في الكتابة.

كان الكلام يتدفق من بين أصابعي بسلاسة لم تحدث منذ وقت طويل، كنت أصيغ قصةً في أثناء فترة ارتيادي لروضة الأطفال؛ حيث حبسني طفل فظ يدعى لارس -ظل يعذبني طوال تلك الفترة- أسفل مخروط دوار، كان لارس طفلًا سمينًا غبيًّا، يلبِسه والداه دائمًا ملابس سبايدر مان التي تشبه خيمة السيرك فوق جسده المنتفخ المندفع، مما حول صورة البطل الخارق الممشوق إلى شخص بدين بثديين صبيانيين، وشعر أشقر متهدل كأشواك ذهبية.

كان سبب تنكيله المتكرر بي غير مبرَّر لجميع الناس حينها، بل وأكثر من ذلك، لكنني لا أفتأ أتذكر تلك الحلقة في الحديقة كأنني أراها حية أمامي: كنا أطفالًا في سن الثالثة والرابعة نتأرجح داخل مخاريط مفلطحة ومستديرة بالمروج، كل منها يستطيع حمل طفل، ولا شك أن هناك واحدًا من علماء الأنثروبولوجيا الألمان قد نسب إليها وظيفة تنمية الشخصية منذ مائة عام، المهم أنني استلقيت حينها داخل واحد باللون الأصفر -أتذكر ذلك بدقة مفجعة- لأنه بعد لحظة فقط جاء العملاق الصغير لارس وطرحني أرضًا، ثم وضع ظرفًا بلاستيكيًّا صلبًا فوق المخروط الذي أجلس بداخله، وجلس فوقه،

فعلقت تحته، وأصبح الضغط الذي لا يطاق فوق جسدي، والشعور بأنني محاصَر غارق في عرقي هما السببان اللذان جعلاني متيقنًا أنني سألقى حتفي لا محالة، حتى جاءت المعلمة لتنتزع المخروط من فوقي.

كانت تلك قصة بسيطة، عناصرها قليلة، لكنني شعرت للمرة الأولى أنني جعلت تقريري مفعمًا بالحياة، لدرجة أنك تشعر كأنك تراه بعينك، وفي تمام الثامنة مساءً أنهيت النص البرمجي وكلي شعور بالرضا ثم تصفحت الملف، الذي أحتفظ فيه بالذكريات المتتالية التي أسردها في الجلسات، لكي أحافظ عليها من الضياع.

لفت انتباهي شيء ملتمع أسفل الصفحات التي تمر تحت إبهامي بسرعة، فعدت بذاكرتي إلى الوراء شهرًا كاملًا.

سقط الكرسي للخلف إثر دفعي للطاولة محدِثًا دويًّا، فتوقفت باندفاع، لدرجة أنني تمسكت بنفسي حتى لا أسقط على الأرض.. في جلسة الثالث من مارس قرأت ذلك؛ «أكره أحدهم» وتحتها مكتوب كلمة وراء كلمة المشهد نفسه الذي كتبته للتو، فالتقطت الملف مرة أخرى لأتحقق مما كتبته للتو، لكن في الواقع... اكتشفت أنني قد كتبت النص نفسه قبل ثلاثة أسابيع من الآن ونسيته، لقد أصابني الإرهاق بالفعل، أو هو نوع من الديجافو العكسي الذي انتزع ذكرياتي الخاصة، فقط لم يكن هناك مراجعة، وبالكاد كانت لدي بعض الأعمال لأنجزها، فمنذ بدء جلسات النسخ وأنا أتأثر بتشتيت ذهنيٍّ غير مفسَّر، ولكن إذا استمرت الأمور في التطور بهذه الطريقة، سينتهي الأمر بي إلى خرف كامل.

وجدت أخيرًا أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يساعدني في هذه الحالة هو ما حرَّرني مرارًا من الطرق العقلية ذات الاتجاه الواحد، إنه الكحول! إلا أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل، ولم أستطع الاتصال بأي شخص يجعلني أنضم إليه للسهر، وفي الخلف تقع قاعة الطعام 3 ب، لكنني ما زلت لا أستطيع التعود على الكافيتريا الأقرب إلى غرفتي، لطالما اعتقدت أنني سئمت من المكتب المفتوح، لكنني الآن كثيرًا ما أتوق إلى نشاطه الليلي الخافت: الطنين الخافت للشاشات التي لا تكف مطلقًا عن العمل، والمهام المشتركة بين الجميع في تنسيق مضمر.

شق بريق خافت طريقه إلى كافيتريا الموظفين، شيء من الألفة اجتذبني بحرارة عندما مررت بالبوابات الخلفية، فالغرفة التي تبلغ مساحتها مساحة

ملعبَي كرة قدم، التي تمتلئ بنحو ألفَي مساعد في وقت الذروة، صمِّمتْ كي لا يستغرق وقت تناول الطعام فيها أكثر من خمس عشرة دقيقة، فضلًا عن أنك تجد صعوبة في ابتلاع تلك الكسرات خمس مرات أسبوعيًّا، هذا ما قصده المصممون الرئيسيون، أن تكون أجهزة الكمبيوتر أمام أعينهم دائمًا؛ فقاعة الطعام كانت متصلة بالمكتب المفتوح بواجهة زجاجية عبر الجدار الشمالي بأكمله.

المقصف نفسه كان فارغًا تقريبًا في هذا الوقت إلا من الفراغ المتثائب، فاثنان من عمال الوردية المتأخرين ارتخيا على جهاز اللاب توب الخاص بهما واستغلا الاستراحة القصيرة للنوم، واندمجت أنا مع إحدى الآلات محاولًا استخراج بعض من كوكتيل الجن والتونيك، إنه نسخة مثيرة للشفقة من المشروب الحقيقي؛ أستطيع تمييز رداءتها بنحو جيد؛ لأنني جربت المذاق الحقيقي في مطاعم أفضل ألف مرة، اكتفيت بالجلوس وراقبت لفترة من الوقت الحركة اللطيفة للنوبة الليلية خلف لوح الزجاج، تلك الحركة التي طالما انغمست فيها سابقًا.

في تلك اللحظة شعرت بنظرات مصوبة نحوي، واستدرت حولي منجذبًا من ذلك الحدس الغريب الذي يخبرك بوجود شخص آخر في المكان نفسه، وجدته! رجل طاعن في السن يجلس على بعد ثلاث طاولات مني ويحدق إليَّ دون أي خجل، رجل ذو شعر رمادي ولحية طويلة تلتهم معظم أجزاء وجهه، ولكن بعد ثانية واحدة من تدقيق النظر عرفت أنني رأيته من قبل، فنظرت إليه بالإصرار نفسه الذي ينظر به إليَّ، ومثل مكعب روبيك دارت تقاسيم وجهه لفترة وجيزة خلال الترتيبات المختلفة لذاكرتي حتى توقف العقل عن الطقطقة، هذا هو الرجل الذي سحبني من تحت الطاولة يوم حلول الكارثة في المختبر، ليس لدي أدنى شك في ذلك!

استدرت مرة أخرى شاعرًا بالارتباك، هل عرفني أيضًا؟ لم أكن أهتم حقًّا بالتحقق من هذا السؤال على الإطلاق، وانكفأت برأسي على دفتري حتى لا يحدث أي اتصال بالأعين، وفجأة رأيته من زاوية عيني.

حدثني وهو يجلس بجواري كما لو كنا أصدقاء قدامى نلتقي هنا منذ وقت طويل: «لم يكن القدر لطيفًا معك».

اعتقدت أنني أخطأت السمع، فقلت له: «معذرة!».

قال وهو يشير إلى إحدى الشاشات العلوية: «المحاكاة الافتراضية! لقد فاتك الكثير هنا، فقد كانت المحاكاة الافتراضية مثيرة اليوم، لدرجة أنها خلت تمامًا من أي عيب، شبكة مكونة من خمسة آلاف نص برمجي، أعجوبة مجسدة، فمنذ بضعة أسابيع وديف يعمل أفضل من ذي قبل بصورة صارخة، ألا توافقني على ذلك؟».

قلت له: «وجه حضرتك يبدو مألوفًا لي».

ليرد هو: «نعرف بعضنا منذ يوم الحادث، كنت كومة بائسة محشورة تحت إحدى الطاولات كأنك طفل حديث الولادة، أنا من أنزلتك إلى الطابق السفلي يا صديقي».

فقلت: «إذن بدوت مألوفًا لدي منذ ذلك الحين» ونظرت نحوه كأن هناك سرًّا يتوارى به، كان يرتدي ملابس مهندمة، كل قطعة تبدو أنيقة في ذاتها، لكنها غير متناسقة مع بعضها على الإطلاق، بل تتنافر مثل أقطاب المغناطيس المتشابهة.

شكَّل مستطيلًا وهميًّا بيديه وحدق إليَّ من خلاله وهو يقول: «أحيانًا يعرف الأشخاص بعضهم بعضًا من المستقبل، هل تعرف فيليب ك. ديك؟ إنه كاتب خيال علمي، وصف مفهوم الزمن التخيلي المتعامد».

قلتُ وأنا أهز رأسي: «أنا لا أحب قصص الخيال العلمي».

- وأنا كذلك لا أحبها، لكنك ترغب فيها أحيانًا، الزمن التخيلي هو مفهوم مضاد لمفهوم الزمن الخطي، يقول ديك إن التسلسل الزمني يدور في دوائر مثل الأخاديد الموجودة في التسجيلات الطويلة، وكل ما حدث أو سيحدث موجود بالفعل في التسجيل في الوقت نفسه، حتى لو وجدت الإبرة في مكان مختلف، لهذا السبب نستطيع تذكر المستقبل أحيانًا، وفي حال أعجبك كلامي مبدئيًّا، فاسمح لي بتعريف نفسي، اسمي ماندلبروت.

عندما أمسكت بيده لأصافحه، فكرت في طريقة للهروب، إنه مجنون بالتأكيد، أو ربما هو واحد من الأفلاطونيين الجدد، ذلك إذا أخذت افتتاحيته تلك على محمل الجد.

ولكي لا أضطره إلى الخوض في ذلك المنطق الكوني قلت له: «ماندلبروت اسم غير تقليدي بالمرة، مثل بينوا ماندلبروت مخترع الكسورية أو الفركتلات».

فجأة أمسك ماندلبروت بمعصمي، وأوضح متجاوزًا أصل الكلمة الفعلي: «لقد اشتقَّت الكسورية من لفظة (كسر) لكنني أفضِّل أن أدعوه مكتشفًا، وليس مخترعًا، فهي ظاهرة تحدث في كل مكان في الطبيعة، ودائمًا ما تلمح فيها التشابه، وهذا أيضًا أحد المبادئ الأساسية للكون، وهو مبدأ التشابه الذاتي، أي أن تجد من الشيء الواحد نسخًا صغيرة تحمل صفاته الخاصة... أشبه همبتي دمبتي[1] إلى حد ما وأنا أدلل على ذلك، أحيانًا أعتقد أن والديَّ اعتادا المزاح والمرح، لقبنا تحديدًا هو Glober، مثل Globus... أتعلم - أيهما أتى أولًا، الدجاجة أم البيضة؟».

سألته مذعورًا: «ماندلبروت[2] هو اسمك الأول!».

في تلك اللحظة احتل الغرفة صوت رعد مدوٍّ يصم الآذان جعل فرائصي ترتعد، لقد انكسر الجدار الخلفي البعيد عن أساسه وتحول إلى حطام، اخترقت السور كرة مدمرة لامعة، ثم اندفعت موجة من الغبار عبر قاعة الطعام حتى اعتقدت أن رذاذ الحجارة سيلتهمنا، لكن ماندلبروت كان لا يزال يمسك معصمي ويجلس هنا بهدوء وكأن شيئًا لم يحدث.

حاولت التحكم في طريقة تنفسي، ثم سألته: «هل رأيت ما حدث؟».

- اهدأ! ستبدأ عمليات البناء اليوم، ألم تقرأ ذلك في كمبيوتر ليب؟

عندها فقط لاحظت عدم وجود أي لمحة من ملامح الذعر على الجالسين الآخرين في الكافيتريا، فالمساعدون الذين أخذوا استراحة العمل منكفئون على أطباقهم فوق الطاولات وهم يشخرون.

- ماذا عن تلك التعديلات؟

كانت أعصابي لا تزال مشلولة، فمنظر العمال وهم يحملون الحجارة وينقلونها على العربة بعيدًا زاد من حيرتي.

قال ماندلبروت: «إنها تجديدات. لقد تطور ديف في الأشهر القليلة الماضية تطورًا كبيرًا يقدَّر بعصور، ولا يمكن لتلك الأجهزة تولي الأمر بعد الآن، فنحن نحتاج إلى مزيد من الأقراص الصلبة، وكابلات بكفاءة أكبر، إضافة إلى مزيد

(1) همبتي دمبتي هي شخصية خيالية على شكل بيضة تمشي على حائط لا نهاية له، وردت في أدب الأطفال الإنجليزي. (المترجمة).

(2) ماندلبروت يعني حرفيًّا «خبز اللوز» وتلك الأسماء تشيع فقط في ألقاب العائلات وليس الاسم الأول (المترجمة).

من وحدات التبريد، والحواجز، وغرف جديدة. ألا تطالع الأخبار؟ إننا نعاصر نهاية حقبة وبزوغ فجر عصر جديد، يبدو الأمر وكأنه التقدم المذهل الذي طال انتظاره بعد كل ذلك العمل الشاق، التثبيت الفعال النهائي للنصوص البرمجية، لكن إذا سألتني -رغم أنني ألحظ جيدًا أنك لم تسأل-..».

ثم انحنى ماندلبروت عبر الطاولة واقترب مني جدًّا، لدرجة أن أطراف شاربه الرمادي كادت تمس وجهي ثم استكمل: «هل نجح الأمر مع فرضية الشخصية؟».

وفي اللحظة نفسها انطلقت مطرقة ثقيلة تحطم السطح المعمد مرة أخرى، ولكن تلك المرة حطمت الجدار المقابل.

قال ماندلبروت: «لا تنفعل كثيرًا». على الرغم من أنني كنت ساكنًا تمامًا، وأردف: «هذه ألواح الألياف الجبسية، التي ستطبق على القطاعات الهيكلية؛ لإفساح المجال لكابلات الألياف الضوئية الجديدة؛ تقطع إلى أحجام أصغر».

في الخلفية صوت صرير يصم الآذان لشفرة المنشار وماندلبروت يواصل التحدث: «ثُبِّتَت ملفات تعريف UW وبدأ تشطيب الجدار.. يا إلهي، أنت تتجمد حقًّا!».

يمكن لأي شخص أن يترك بداخلك انطباعًا ما، وقد كان لماندلبروت إحساس مذهل، فبمجرد أن نشأ في داخلي شعور ما، لاحظه على الفور.

- من أين تعرف كل هذه المعلومات عن الجدران؟

سألته ذلك السؤال مرتجفًا وهو يلف وشاحًا كبيرًا حول رقبتي يبدو كأنه صُنع خصيصى لرقبتي بالتحديد، ثم ثبته على صدري بعقدة شنيعة المنظر، ومبدئيًّا فشلت كل خطط الهروب الخاصة بي.

صاح ماندلبروت وسط الضوضاء الرهيبة: «أنا مهندس معماري، ولكنني بالطبع متقاعد الآن».

- فهمت!

قلت ذلك رغم أنني اضطررت إلى تخمين نصف ما قاله بسبب التشويش الذي حدث من صوت نباح الآلات.

استخدم العامل آلة ثقب الصخور لضرب الجدار أفقيًا؛ مما تسبب في تطاير الشرر، هل ذلك نوع جديد من إعادة الإعمار، أم هو مجرد إفراط في التحفيز النفسي لي؟

حاولت إلزام نفسي بالتركيز في شيء آخر بعيدًا عن الضوضاء، وثبتت عيني على الشاشة العلوية، حيث كانت تعرض إعلانًا لفتاة تجلس فوق ظهر ضفدع إلكتروني ضخم وتصرخ من فرط السعادة، في حين يهزها ذلك المخلوق الإلكتروني المخيف، الذي خصِّص أيضًا للصغار، والآن ظهر اسم ديف مشكَّلًا بالغيوم، لكن ما لبث أن تلاشى من أمام الكاميرا، أعتقد أنه شيء لا معنى له على الإطلاق، لكنني رأيت ماندلبروت يميل على الطاولة مرة أخرى ويقترب مني.

- إذا كنت تريد أن تعرف سرًّا، فسأخبرك بشيء، لكن لا تخبر أحدًا! أنا من بنيت المختبر، وبالطبع مرت سنون كثيرة على ذلك.

لم يعد لدي أدنى شك الآن أنني أجلس أمام مريض نفسي، ويجب عليَّ الخروج من تلك المحادثة بأسرع وقت ممكن، فجلست أفكر بجدية في استراتيجية للهروب وأنا لا أزال أحدق إلى الشاشة، التي كانت تعرض الآن مشهدًا مختلفًا، فهذه المرة يقف رجل يرتدي بدلة بيومترية ويتصل بالأسلاك واضعًا نظارة على عينيه، ثم ينجذب إلى الرسوم المتحركة التي تتلألأ، وفي الخلفية يهتف صوت أنثوي «**كن على استعداد لرحلة إلى المدينة الفاضلة الرقمية، لتصبح ديكتاتورًا لمجرة بأكملها**»، بينما يلوح الرجل النحيل ذو الهالات السوداء بصولجان وسط هتافات حارة.

أردت استغلال تلك اللحظة الوجيزة التي بدا فيها عدم الانتباه على ماندلبروت، لكي أستطيع النهوض، لكنه فاجأني بالوقوف أمامي، ثم وضع يديه على كتفي ودفعني للجلوس مرة أخرى، وواصل حديثه: «عندما كنا بصدد تصميم ذلك المبنى اعتزمنا تجهيز كل الأشياء التي شكلت أهمية بالنسبة إلينا في مجمع فاخر، وبالفعل طفت على مزيج كبير من الجامعات قديمها وحديثها: جامعة ييل وهارفارد وكامبريدج؛ للحفاظ على الروح التقليدية للعلم من جانب، ومن ناحية أخرى الاهتمام بأن يكون التصميم متطورًا ويواكب ما بعد الحداثة، وأيضًا ليصبح المبنى مجهزًا بكل ما رغبنا فيه وقتها، نعم أعرف أنك لن تصدق ذلك، فقد كنت شابًّا مثلك في يوم من الأيام».

في تلك الأثناء أخرجت هاتفي بحذر، والتقطت صورة لوجه ماندلبروت، حاولت قدر الإمكان أن يكون شكله واضحًا فيها، فقد اعتزمت أن أريها لبافل غدًا، وأطلب منه أن يسأل في دائرته إذا كان هناك أي شخص يعرف هذا المجنون.

- كم عمرك إذن؟

تجاهل سؤالي وأكمل: «انظر وراءك على سبيل المثال، ذلك العنصر النبيل الموجود في كل كافيتريا في المبنى، هو زخرفة اقتبسناها من قاعات الطعام في جامعة ييل، وهو في الأصل مصنوع من خشب الماهوجني طبعًا، لكنه هنا صنِع من البلاستيك المقوى فقط».

استدرت متابعًا حركة إصبعه، وتجمدت من الذهول، فعند الباب كان هناك إفريز من نبات الآكانثوس، لم ألحظه قط قبل تلك اللحظة.

- مدهش، أليس كذلك؟

أجبته بزيغ: «إنه رائع حقًّا».

لقد كان مروعًا بصورة لا مثيل لها، فالنحت واضح بشكل ملحوظ، رغم أن الدهان كان أبيض لامعًا، إنه يحاكي عصر النهضة، ويظهر في المشهد رجلان داخل غرفة مؤطرة على الجانبين بأطياف هزلية من السحب، علمًا بأن الغرفة امتلأت بطاولات الطعام بشكل مفرط، مع وجود بواب متوازن، فلا يوجد أدنى شك أنه نحت لمطعم، لكن بينما كان يجلس أحد الرجلان إلى الطاولة ويتناول طعامه، كان الآخر ممددًا على الأرض جثة هامدة، وفوقه تتمايل كلمة بخط متصل «Fraternitas[1]».

من كان يستطيع تصميم كل ذلك الوقار باسم الفن؟

ثم وقع بصري على ما كان يحدث تحت إطار الباب، تملكني الذعر عندما رأيت عاملًا يوشك أن يشق أحد الأبواب المؤدية إلى الكافيتريا، ووقع الحدث على بعد عشرة أمتار منا، ثم بدأ شخص آخر يدق بكل قوته بمطرقة ثقيلة فوق الجدار المطلي، لدرجة أن اهتزاز الموجات الأرضية أحادية المركز وصل حتى مجلسنا.

لم يبدُ أن ماندلبروت يعبأ ولو قليلًا بأن تلك الأعمال تهيج علينا قدرًا لا بأس به من الغبار، الذي اندفع في طريقه الآن إلينا، وبدا ماندلبروت وكأنه يستعد للمكوث فترة أطول، لأنه بدأ بإخراج بعض الحلوى من جيوبه.

- كما ترى هناك عند ماكينة المشروبات الغازية بالأسفل، فالهندسة المعمارية ما بعد الحداثة تدور حول الترسيب والتراصف الطبقي،

---

(1) كلمة لاتينية بمعنى إخوة.

ومن هذه الناحية فإن إعادة بناء البهو أو الردهات أصبح نهاية حقبة كاملة، لكن على الإنسان الصمود والتعايش مع تلك الأشياء.

في أيامنا الأولى -وأعلم جيدًا أنني أتحدث الآن كرجل عجوز- كنا نجلس في مكان يشبه السقيفة إلى حد كبير، لكن الحالة النفسية والأجواء كانت أفضل بكثير من هنا.

وأشار إلى الغرفة في أثناء حديثه بإيماءات مشمئزة، وفجأة تنامى في داخلي شعور عنيف بشكل لا يصدَّق، لدرجة فاقت قدرتي على التحمل.

نعقت في وجهه كالغراب: «لا يمكن أن يكون ما تقوله الآن صحيحًا، المختبر موجود قبل وجودك، ولم يسبق لي أن سمعت عنك من قبل».

لوَّح ماندلبروت بيده كما لو أن اعتراضي على كلامه لا يشكل عائقًا بالنسبة إليه، وقال: «نعم بالطبع، فقد كنا في ذلك المبنى بصورته البدائية، هذا ما حدث بالفعل».

فقدت كل قدرتي على المقاومة مرة أخرى؛ فالضوضاء كانت غير مريحة، لدرجة أنني دفنت رأسي بين ذراعيَّ.

- لكن أحد المبادئ الأساسية للهندسة المعمارية ينص على الآتي: إذا غيَّر أحد تفصيلة واحدة، فإن العلاقات بين المساحات بأكملها تتغير، شيء كأثر الفراشة، ولكي نكون صادقين مع أنفسنا ولو لمرة واحدة، فأنا لا يمكنني تصور أن فروليش -الذي أراه مجرد حِرفي أكثر منه مبدعًا- قد درس قوانين الهندسة المعمارية بهذه الجودة.

الآن فقط، وعندما بدأت الأجواء تعود إلى هدوئها ببطء، نهضت بحذر، لكن عندما نظرت إلى القاعة، لم أصدق عيني، فالفجوة الواسعة التي كانت أمامنا في الجدار الآن، اختفت وأصبح الجدار مغطى بالجبس الجديد ومثبَّتًا بشكل مثالي.

اعتدلت في نصف وقفة وأنا أقول: «أتعلم؟ يبدو أنني لست على ما يرام».

لكن ماندلبروت دفعني مرة أخرى على الكرسي ككلب غير مدرب جيدًا.

- بالطبع وضعنا أشياء أخرى في الحسبان ونحن نصمم تلك التحفة الفنية، التي تأوي الآن عشرة آلاف شخص، ومن ناحية أخرى دعني أسأل، على سبيل المثال «بانوبتيكون»، تلك التجربة الفكرية لجيرمي بنثام، هل تعني لك شيئًا؟ تصميم سجن يمكِّنك من مراقبة جميع السجناء بحارس واحد، هذا هو المبدأ الذي استرشدنا به في بناء ذلك

المختبر ومرفقه الدائري، ولكن بالطبع لا يوجد لدينا هنا مشرف أو حارس بشري كالسجن، فجهاز ريد إيكلس إلكتروني تمامًا، لكنني لدي كل الحق في القلق إذا بُني سور واحد بصورة تعسفية.

كنت أود بشدة أن أغادر منذ وقت طويل، وفكرت في ذعر، لماذا يحملني ذلك الرجل على البقاء في مكاني وسماع قصصه الخرافية؟

- كفى هنا! لماذا تهتم كثيرًا بالتحدث معي على أي حال؟ ألا توجد طاولات بقدر كافٍ هنا؟ أنا مشغول ولدي ما أفعله.

تحدثت هكذا بانفعال، بل وخالفت التعليمات، ففتحت دفتر الملاحظات الذي يحوي الرسوم التخطيطية للقصص التي أسردها بجلسات النسخ، لكنني فطنت إلى الخطأ وأغلقته فورًا، ولحسن الحظ لم يكن ماندلبروت ينظر نحوي في تلك اللحظة.

- انظر! هنا وهناك أيضًا ستجد أن للمختبر جدرانًا مستديرة، ولكن حوَّلها هؤلاء الحمقى إلى جدران مربعة الآن، وهذا ما أعنيه تمامًا! كان أحد المبادئ التوجيهية لتصميم المختبر هو أن يصبح هيكل الممرات مربكًا مثل المتاهة.. متاهة مستديرة لا يستطيع أي شخص ملاحظة أنها وحدة واحدة، تمامًا مثل تكوين كوكب الأرض؛ تسير الكائنات دائمًا في اتجاه واحد لا ينتهي أبدًا، فكان من المفترض تهيئة ذلك الفضاء لكل من وُلد عليه.

في غضون ذلك وجدت أن الضجيج قد تلاشى تمامًا، ولم يكن يشغل المكان سوى عامل واحد في الشق الأخير، فبدأت أجمع ببطء كل ما قاله ماندلبروت في صورة واحدة، في حين يجلس هو ويواصل الحديث.

- فالمتاهة في تكوينها الداخلي الأصلي والأسطوري استُغلت لإيواء وحش المينوتور؛ مهانة الملك الذي ولدت له زوجُه وحشًا، ذلك الندم المتجسد، نصف حيوان ونصف رجل.. عار على الإنسان؛ لأنه أتى من أصل بهيمي، وإلا كان الأمر سيختلف تمامًا، فقد أتى لنا مينوس بطفل مشوه ووضعه في ثنايا صرح لا مفر منه. إنها قصة جميلة.

أومأت بالإيجاب، ثم سألته: «من الذي كلف ببناء المختبر؟ وهل كان ذلك قبل تولي فروليش أمره؟».

- أوه! لقد حدث ذلك قبل فروليش بزمن طويل، لقد كنت أتابع رحلة صعود فروليش، كما تعلمها.

قال تلك الكلمات وهو يكسر بعناية خِلة أسنان كان قد سحبها سلفًا من العلبة، وأردف: «اللعنة! أتذكر دائمًا كيف كان الأمر قبل وجود فروليش، فوضى! عمت الفوضى كل الأرجاء، سُمح لسكان الطابق الأول بالبقاء هنا، ونحن أيضًا كنا نهبط للأسفل في بعض الأحيان، لقد شهدت تلك الفترة غياب النظام الاجتماعي، ولم يكن جهاز ريد إيكلس قد تولى مهمة المراقبة بعد، فأحيانًا تختفي بعض الأشياء ثم تعاود الظهور في أماكن مختلفة، كانت تلك استراتيجية طُبقت ثم أُجهضت عشوائيًّا، استراتيجية سببت فوضى عارمة، لم يكن ذلك مجديًا بالكلية، ولكن عندما جاء فروليش، تغير كل شيء فجأة».

- سُمح للطوابق الدنيا بالصعود؟

- كما تعلم! كان لفروليش فكرة ثورية، وفي الوقت نفسه بسيطة للغاية، لدرجة تدفعك للتساؤل، كيف لم يفكر فيها أيٌّ ممن سبقوه؟ نريد أن نؤلف بين جهاز الكمبيوتر والكائن البشري، وهي مهمة غاية في الصعوبة حقًّا، فالعقل البشري معقد بشكل رهيب، لكن يظل هناك احتمال آخر: وهو ألا نجعل الكمبيوتر يتخذ شكل الإنسان، بل تحول المجتمع إلى نموذج الكمبيوتر.

عندما التقيتُ نظراته الثاقبة، أدركت أن حديثه لا يمكن أن يكون هراء شخص مجنون، كنا مراقَبين، وربما حاول ماندلبروت إخباري بشيء ما، لكن ما هو بالضبط؟

سألته بحذر: «وما الذي يفترَض أن يعنيه ذلك بالضبط؟».

- هل تعرف أول مشروع له؟ كان قد نفذه قبل عقود من اليوم، أسماه أمبرا وقد أثار الجدل بشكل رهيب. لقد سخَّر فروليش مائة وعشرين مساعدًا يعيشون مثل جهاز الكمبيوتر، عيَّن عشرين منهم للعمل كذاكرة حاسوب رئيسة، وعشرة منهم عملوا بوصفهم وحدة معالجة مركزية، وأربعين تولوا مهمة تخزين البيانات، وما إلى ذلك.. لقد أراد أن يجري بحثًا حول كل ما يشكِّل مجتمعًا يعمل بأكمله وفقًا لقوانين المنطق، وسرعان ما أصبحت التجربة غير شعبية بالمرة، فسحب وقتها التجربة من متناول العامة.

- ومن كان البرنامج؟ أي من الذي أقر بإتمام ذلك؟

قال ماندلبروت وهو يميل إلى الأمام: «يا له من سؤال أيها الطفل! كان فروليش هو البرنامج بالطبع».

وفي تلك اللحظة بزغت فكرة ما في رأسي، فقلت أخيرا: «كان البانوبتيكون سجنًا، وكذلك المتاهة!».

اتكأ ماندلبروت بظهره للخلف، كما لو كانت كل الأفكار المطروحة قد نوقشت بالفعل، ثم قال: «كل ما حاولت إيصاله إليك هو أنني أعرف معلومات كثيرة عن تاريخ المختبر، أكثر بكثير مما يعرفه الآخرون هنا... في أغلب الأحيان آتي إلى هنا بدءًا من الحادية عشرة مساءً، بومة ليل أنا، فلتأتِ مرة أخرى، فأنا لدي أيضًا بعض الحكايات حول كل هذا، وعادة ما أشعر بالوحدة الشديدة. كم سيكون ذلك مثيرًا!».

ثم أشار إلى شيء ما خلفي، هناك حيث النقوش تزين الباب، الذي طالما أثار اشمئزازي من قبل، وقد كُتِب على الجدار الأملس اقتباس: «يجب ألا نتوقف عن الاستكشاف أبدًا، فنهاية اكتشافاتنا تلك هي العودة إلى حيث بدأنا ومعرفة المكان لأول مرة».

ت.س إليوت

قلت بارتباك: «مرة أخرى».

لكن عندما استدرت وجدت ماندلبروت قد نهض منذ مدة، ورأيته يغادر الكافيتريا عبر البوابة التي شيِّدت حديثًا.

في طريق العودة بلغ القلق مني حدًّا لا يطاق، يا له من لقاء غريب! وعلاوة على ذلك نسيت واجبي مرة أخرى بسبب تلك المحادثة الغامضة، ستبدأ جلسة النسخ التالية في غضون سويعات قليلة، وأنا لا أستطيع استحضار المشهد مرة أخرى، وقبل أن أتجرأ على إعادة المحاولة، أدركت أن عليَّ الخلود إلى النوم، لا يوجد شك في ذلك.

فالإرهاق الذي كبحته إثارتي العقلية أثقل كاهلي.

وصلت أخيرًا إلى غرفتي.. ملاذي الآمن، اطمأننت وكنت على وشك فتح الباب، لكنني رأيت ورقة عالقة تحته، وفكرت بتثاقل، تُرى من الذي لا يزال يستخدم الأوراق في ذلك المختبر؟ وأوشكت فعلًا أن أكمشها بيدي وألقي بها بعيدًا، لكن الدقة التي طُويت بها الورقة، ودقة الخط المكتوب عليها استوقفاني، وقرأت على الورقة غير الموقَّعة: «**الغرفة 207 أ، الطابق الأول، الملف الشخصي 40125، يرجى الحضور في الليل فقط**».

5

t.me/yasmeenbook

زرت الطابق الأول ثلاث مرات في حياتي، مرتان منهم لزيارة فيليز، ومرة أخرى قبل شهرين عندما احترقت مزرعة الخوادم، وفي المرات الثلاث انتابتني حسرة مريرة؛ فقد كنت أشعر أنني في مكان لا أنتمي إليه.

***

في الثانية عشرة من العمر ذهبت في نزهة داخلية ضمن أفراد صفي المدرسي إلى ما نطلق عليه نحن في الأعلى اسم المكان الغامض، ولكي نتظاهر بأننا نشاطرهم المشاعر ونوعيهم -هؤلاء الذين يحافظون على سلسلة الإمداد لدينا- انطلقنا تحت سطح الأرض مزودين بزجاجات المياه وعلب الطعام المربوطة بحقائب الظهر كأننا في رحلة استكشافية.

رُفعت الطوابق الواقعة في الأسفل بسمك مترين ونصف من الخرسانة الصلبة، وقد تسببت رطوبة الأرض، التي تحيط المكان من كل اتجاه في تشبع الهواء برائحة المواد الخام غير المصنعة من البلاستيك والمشمع والمعادن الملحومة حديثًا، ومع كل ذلك يحاول الناس التنفس؛ كما أن متوسط عدد الأشخاص في كل متر مربع يوشك أن يصل إلى ضعف عددهم في الطابق الأعلى، إضافة إلى بذلهم مجهود بدني منقطع النظير، يتجلى في الضباب المتكثف، الذي يُلفَظ من أجسادهم الكادحة وسط دوي الانهيارات.

ليس ثمة رائحة مميزة للأرض، لكن يمكنك تخيلها على أية حال، فقد قادتنا امرأة عبر ورش العمل المختلفة في أثناء تسللنا بأروقة الطابق السفلي، التي تزدردنا بأضوائها الزجاجية الخافتة والهيكلية، بدلًا من إضاءتها بمصابيح الليد الساطعة، وظلت السيدة تجيب عن أسئلتنا برحابة صدر، لكن بطريقة تحيد نوعًا ما عن مقصدنا، كما لو كنا نتحدث اللغة نفسها ولكن لا نفهم ما

نقول لبعضنا، وعندما أردنا الخروج من ذلك الوسط القاتم والعودة إلى الخلف بعد العرض الموضح لآلة التخريم الضخمة، لفت أنظارنا وجود صبي؛ أشارت ليزا كيرشباوم إلى نوع من الباحات الأمامية، حيث يلعب بعض الأطفال.. وخلفهم مسخ معدني بحجم حصان بداخله صبي، يطل رأسه من مقدمة الآلة، أما باقي جسده فكان في حالة متوترة، تتمدد أطرافه وتنقبض تحت هدير ورعد ضاغط، وهو يحاول بعينيه ملاحقة الأطفال وهم يلعبون الكرة.

عندما لاحظت مرشدتنا الطريقة التي كنا ننظر بها إليه، قالت: «آه! تقصدون هذا الذي هناك؟ هذا واحد من هؤلاء الذين أصيبوا بوباء حيواني، يعمل والداه في قن دجاج، ومن المرجح أنه لمس أحد الحيوانات المصابة بالوباء» وعندما انتهت لم يجرؤ أحد على الاستفسار أكثر من ذلك.

كنا أصغر من أن نفهم الآليات الاجتماعية التي رفعت البعض إلى القمة ونفت البعض الآخر إلى القاع، فبدلًا من زيادة التفاهم، أدت الرحلة إلى زيادة الصمت المتبادل بيننا.

***

أكملت سيري تحت أضواء النيون، وقد بدأ الإنهاك يسقط عن كاهلي شيئًا فشيئًا، وبقلب نابض وضبط نفس خادع وقديم ومدرَك علمت أن عليَّ ألا أفتح باب الغرفة الممتلئة بالغموض والأسرار، وأنني لم أكن لأتبين الشيء الذي كتبته على معصمي بقلم حبري، ففي أثناء الدقيقة التي بدت أبدية وأنا أنتقل إلى الطابق الأول، بلغ الخوف مني مبلغه، وخشيت من فكرة أنني قد أقع في فخ، فمن يمكنه إرسال تلك الرسالة لي؟ بدأت أخمن، من هو؟ من من من؟ من يعلم أنني أملك بطاقة إدارية تمكِّنني من فتح ذلك الباب؟

رن المصعد بهدوء معلنًا عن وصولنا إلى الطابق السفلي، ثم عبرت من خلال ممر وضيع، والآن بعد أن تقدمت بالعمر، بدا كل شيء أكثر إحكامًا من ذي قبل، وبخاصة لأنه -على عكس ما يحدث في الأعلى- يتحرك هنا حشود من البشر في كل مكان، كأنهم لا يستطيعون التمييز بين الليل والنهار، مجموعات من الرجال ذوي الأعناق العريضة يحملون طرودًا ويسيرون بها في الممرات، وإحدى النساء تدفع أخرى بعنف إلى الحائط قبل أن تنتزع منها شيئًا لم أتمكن من رؤيته.

حاولت ألا ألفت الانتباه، فتوجهت نحو مخطط الطابق، ولكن فجأة اصطدمت بقوة بشخصٍ من الخلف، لدرجة أنني ارتطمت بالحائط الخرساني، التفتُّ رافعًا يدي للدفاع عن نفسي، لكني وجدت الرجل وقد تركني ورحل بعيدًا وهو يبتسم فقط، واستطعت أن أرى من بعيد جسده وهو يرتجف من فرط الثوران، كأنه قد وُضِع تحت ضغط زائد لا يستطيع تحمله إلا بشق الأنفس، والآن رأيت أنه حتى النساء اللائي كن يتشاجرن للتو توقفن وحدقن إلى وجهي بعدوانية، بالطبع! فأنا لا أنتمي إلى هنا، لقد لفتُّ الانتباه كأنني كلب ملون، لذا سرت بسرعة في اتجاه الأرشيف، الذي تشير إليه الخريطة.

لحسن الحظ مررت عبر ردهة خالية من الناس قبل وصولي إلى الغرفة 207أ، مرَّرت البطاقة فوق المستشعر، فانفتح صمام الأمان، وانفتح الباب، كان زجاجه مغبشًا مثل مزلاج كوة الغواصات، واضطررت إلى الاعتماد على قوتي الجسدية كلها لفتحه باتساع يكفي للدخول، وفي ضوء النور الخافت المتسلل من الردهة نظرت حولي بحثًا عن حاجز الباب، لكنني لم أجده، لذا قررت ألا أغلقه تمامًا وأن أتركه مفتوحًا بعض الشيء، لكن كل محاولاتي ذهبت سدى، وحرصت مرارًا على أن أبقيه مفتوحًا وأنا في الداخل، لكن قواي قد نفدت دون جدوى، لذا قررت أن أستسلم، وتركته يغلق من ورائي ويضغط على مفصلاته بوزن لا هوادة فيه.

بعد لحظات لم أعد أسمع سوى صوت أنفاسي المرهَقة في الظلام الدامس، وأشم رائحة كريهة وثقيلة تعشش في أرجاء الغرفة، هل هذه رائحة بول؟ لا فلذوعتها تفوق رائحة البول، والآن مثل رجل أعمى يلوح بعصاه، تركت ذراعيَّ الممتدتين تطيشان في الهواء حتى اهتديت إلى مفتاح الضوء، وبمجرد أن أضيئت الغرفة، كشفت خزائن حفظ الملفات والأرفف عن نفسها، في هذه اللحظة فقط أدركت ما اقترفته يداي، بالطبع سجلت كاميرات مراقبة ريد إيكلس ذلك الخطأ، إنه انتهاك! والآن أقف وسط أمتار طولية غير مرئية خلف الأوراق، وأنا لا أعرف حتى لماذا فعلت ذلك.

جلست على الأرض واتكأت على جهاز الميكروفيش ماركة سيمنز، فسقطت تكتلات من الغبار بسُمك سنتيمتر، وكأن المكان لم تطئه قدم منذ عقود، ومع ذلك جلست أترقب وأنتظر أن يركل أحدهم الباب ويعتقلني، لكن لم يَسُد في المكان سوى الصمت.

بعدها تملكني قرار مفاجئ، قفزت وأنا أدفع جسدي بين الرف 39 و40 دفعًا بصورة محمومة، لدرجة أن تكتلات الغبار كانت تتساقط من السقف، ثم حصلت أخيرًا على الملف 40125، كان كتابًا لامعًا أحمر اللون، حركته بين يدي لبضع دقائق، كأنه أثر من القرون الماضية يجب التأكد من أصالته.

جلست على الأرض مرة أخرى غريبًا وخائفًا من كل العواقب المحتملة، ثم فتحت الصفحة الأولى ورأيت... رأيتني أنا.

كنت أحدق إلى عيني مباشرة من خلال صورة باهتة بالأبيض والأسود، ملامح جادة تبرز من تحت شعر طويل يتهدل على تعبيرات وجه متبلدة، يبدو من ملامحه أنه شهد على عشرات الليالي، كان في الصورة شيخ كبير، وكان هو نفسه أنا، لكن في الوقت نفسه لا يبدو أنه أكبر مني بكثير في سني هذه، ولم أستطع قط الانسحاب من هذه الصورة.

راجعت نفسي مرارًا وتكرارًا، ثم عدت من جديد، وجلجلت التفاصيل في جهازي الحسي المتحفز، كنت أرتدي في الصورة كنزة صوفية منسوج عليها في الصدر شمس صفراء بشعة من الكروشيه، وفوق أنفي تستقر نظارة لا أتذكر أنني ارتديتها قط، وجسدي كله في حالة متشنجة، أتكئ على لوحة إلكترونية ضخمة تصل إلى الأرض، وسرعان ما تشوش مجال الرؤية لدي من كثرة التحديق دون أن أرمش.

أغلقت الملف بعنف، ثم فتحته مرة أخرى وعدت وأغلقته، وفي الحقيقة عند التأمل للمرة الثالثة أدركت وجود بعض الاختلافات الجوهرية بيننا، لقد أعماني التشابه الذي لاحظته للوهلة الأولى عن الاختلاف الذي تلا ذلك، فالرجل في الصورة أنحف مني بشكل ملحوظ، ولديه آثار ندوب حب الشباب على خديه، كما أن هيكل رأسه مختلف تمامًا عني.

عندها فقط اكتشفت الاسم المكتوب في الزاوية اليمنى من كل ورقة في ملف الموظفين ذاك، أرتور فيتيج! صرت أركض بين سجلات ذاكرتي وأنا أردد: أرتور فيتيج.. فيتيج. وعلى الرغم من أنني وجدت للاسم صدى بداخلي، لم أستطع تفسير ذلك على الفور، لكن -الآن تذكرت- كان هذا هو الرجل الذي تحدث عنه فروليش، الذي خضع لتجربة النسخ من قبلي.

وضعت الأوراق وحاولت استيعاب ما قرأته للتو، ثم أغمضت عيني، وصرت أسحب أنفاسًا عميقة ثم أطلقها مرة أخرى.. بعض الروائح تحمل في طياتها طبقات، كلما تعايشت معها فترة أطول، تعمق لديك الإحساس بها

وكوَّن بداخلك ملفًّا شخصيًّا لها، وكانت معالم رائحة ذلك الأرشيف لا قاع لها، شيء من الحموضة، وثقل رائحة الحيوانات يتخلل كل الأرجاء، لم ألحظ ذلك في اللحظات الأولى من دخولي للمكان، وفي الأسفل شعرت بوجود رائحة ماء آسن، كما لو أن الورق على الأرفف لم يكن مصنوعًا من النشارة بل من ورق مضاد للشحوم، تفوح منه رائحة الجلود.

نفضت رأسي بعزم من تلك الأفكار، كيف استطعت أن أهدر تلك الدقائق وأنا أفكر في هذا الهراء؟ فهذا أرشيف قديم وخانق، ولا عجب في أن تفوح منه تلك الروائح، وفي النهاية أمسكت الملف مرة أخرى.

جددت تركيزي وأنا أتصفح الملف، وقرأت في الصفحة الأولى «د. أرتور فيتيج» كُتبت بخط Courier New غير المزخرف، ويعني ذلك أن ملف الموظفين ذاك أُنشئ عند التعيين...

«رسالة دكتوراه في الثامنة عشرة حول استخدام البرولوج لحل عمليات الوعي الذاتي المرجعية في تطوير ذكاء اصطناعي قوي، إضافة إلى كونه قائد مجموعة قبل ثلاث سنوات، وحدد المحاور الرئيسية للنماذج المكانية لتمثيل الهياكل الشخصية، وهو أيضًا أصغر أستاذ في تاريخ معهد تكنولوجيا المعلومات، كان في الرابعة والعشرين من عمره، وبطل الشطرنج السابق تحت سن 16 سنة، كما حقق رقمًا قياسيًّا عالميًّا في رياضة فن الذاكرة في فئة الأسماء والوجوه بتسجيل 288 نقطة، وأخيرا أُقيل بتهمة اختلاس أموال الجامعة».

تملكني نوع من الغيرة الجذابة القوية، لقد أوهم وجهانا الجميع بتشابه ليس له وجود من الأساس، فهذا الرجل قد أنجز وهو في العشرين من عمره أشياء أكثر بكثير مما كنت سأفعله طوال وجودي على الأرض، فخلف تلك الصفحة القاحلة، وهذا الوجه الذي زلزل كياني حتى النخاع، كشفت الأوراق المقسمة إلى مجلدات فرعية أن هذا الوصف الموجز لم يكن سوى مقدمة لقصة أكثر تعقيدًا، فوصِفت المقالات الأكاديمية في مجلد فرعي وحدها، والعقود وأوراق العمل في مجلد آخر، ثم أخيرًا ملف الشرطة، وهو أكثرهم سماكة، وقد بدأت به، فاندهشت عندما أدركت أن أول دخول لفيتيج حدث خلال دراسته في المدرسة الابتدائية.

«أُلقي القبض على صبي يبلغ من العمر سبع سنوات مساء يوم الاثنين في محطة التحكم EDT200-x، وقد استُجوِب فعرَّف نفسه على الفور باسم أرتور فيتيج.. فيتيج الذي يدرس في الصف الثالث في مدرسة كوتاجي جاسي الابتدائية صنع بنفسه مفتاحًا بطرق غير مشروعة؛ لأنه -وفقًا لتصريحاته الخاصة- ظل يخطط لفترة طويلة؛ كي يجري تعديلات على جهاز الكمبيوتر الذي تبلغ تكلفته أربعة ملايين ونصف من الدولارات، وقد أمنا المفتاح، وعندما سأله رجال الشرطة كيف استطاع صنعه، قال إن هوايته هي فك الرموز، والمفاتيح أيضًا شأنها شأن ذلك.

وعندما سُئل عن الدوافع أجاب فيتيج -الذي لا يبدو عليه أي شعور بالذنب- أن الباب المغلق ينتهك حقوق الإنسان، وأضاف أيضًا أن المعرفة في حد ذاتها أمر مرغوب فيه، ويجب أن تصبح في متناول الجميع.

ذلك الطفل الذي لفت أنظار الضباط ببلاغته الاستثنائية أجاب عن كل الأسئلة بصدق وصبر شديدين، واتضح أنه اكتسب بالفعل بعض الخبرة في الكمبيوتر في محطة العمل المحلية في متجر التكنولوجيا.

كانت الأسباب التي قدمها الصبي هي أنه بعد قراءة مقتطف من برنامج EDT200-x اقتنع بأن نظام التشغيل الخاص به غير مبرمَج بشكل جيد وأنه يحتاج إلى تحسين، وقد عاد فيتيج إلى فصله الدراسي بعدما أنهى تلك الحادثة».

وكتذييل أسفل ذلك التقرير، أضيف الآتي:

«بعد المراجعة الدقيقة ثبت بالفعل تحسن برمجيات الجهاز، واقترح رئيس القسم السماح للطفل باستخدام الجهاز تحت إشراف المبرمجين، وإذا استطاع أن يمضي

ستين ساعة في العمل جنبًا إلى جنب مع مستخدمين معتمدين، سيكون لديه حق الوصول القانوني، وبالفعل بعد نهاية الأسبوع وفترتين من العمل لمدة 30 ساعة، تسلم فيتيج مفتاحه».

يمكنني أن أتذكر EDT200-x من دراستي بشيء من التشويش، إنه كقطعة متحفية، ولكن حتى لو كان جهازًا قديمًا عفا عليه الزمن منذ نصف قرن، فليس هناك أي طريقة تمكّن طفلًا في عمر السابعة من تشغيله! ذلك الجهاز لا يهضم سوى طريقة آسكي[1]، ثعابين لا يمكن اختراقها من الأصفار والآحاد التي بالكاد يمكن لعدد قليل من زملائي تفسيرها.

قلبت الصفحات على هذه الحكايات الرائعة وعدت إلى المسار التعليمي لفيتيج، كما لو كان بإمكاني العثور على إجابات هناك، ولكن هناك أيضًا بدا الأمر وكأنه استكمال لملف الشرطة، فكل شيء تقريبًا يحتوي على تحذيرات وسوء سلوك مسجل، فسيرته الذاتية توضح ميله الواضح إلى الزج بنفسه في المشكلات.

«ففي يوم 25-3 قُدم طلب إلى المدير بأن درجة السلوك غير مرضية، وبالتالي سيتعرض لتعليق مؤقت من الالتحاق بالصف، والسبب هو اللامبالاة الكاملة بالمادة التعليمية، فالطالب يقرأ ويكتب البرامج في المكتب دون تقصير، ولكن إذا سئل عن شيء، يحدق إلى الفراغ ثم يعود إلى اهتماماته الخاصة، ولكنه يعود مرة أخرى ربما بعد ساعات؛ لكي يجيب عن المعلومات المطلوبة دون سابق إنذار، لكنه قد يظهِر بعض التعاون في الموضوعات المتعلقة بالفلسفة والدين، وأحيانًا في الرياضيات أيضًا، لكن الصبي لديه اهتمامات معزولة، بعضها يشير إلى موهبة قابلة للاستغلال بالفعل،

---

(1) هي مجموعة رموز ونظام ترميز مبني على الأبجدية اللاتينية، ومن أكثر الاستخدامات شيوعًا للنصوص المكتوبة بالآسكي، استخدامها في أنظمة الحاسوب، وفي أجهزة الاتصالات (STX-SOH)(المترجمة).

ففي أفضية أخرى نجح في وضع مقالتين في مجلة برمجة لطلاب الجامعات، أحدهما بعنوان (ما بعد الإنسانية كنهاية للمعاناة) والآخر عن موضوع فن الاستذكار».

فن الاستذكار! فكرت في دهشة وتذكرت جلسة النسخ الأولى التي ذكر فيها فروليش تقنية قصر الذاكرة، ومع ذلك لم يذكرها أحد بعد هذه المرة.

خيط فضفاض، تدفق فجأة عن مادة السيرة الذاتية لفيتيج، كيف استطاع أن يتقن هذه التقنية وهو طفل؟ انتقلت للأمام حتى وصلت إلى المقالة التي تحمل علامة A001، وهي أول ورقة في حياته.

«والهدف من المنشور التالي ذكره أن يصبح تعليقًا توضيحيًّا ونقديًّا حول كيفية تنفيذ أسلوب قصر الذاكرة في كل الأنظمة القائمة على المعرفة، ففي حوار «دي أوراتور» الذي يقدمه شيشرون طريقة قد استخدِمت منذ زمن بعيد لتنظيم وهيكلة وتحسين أداء الذكريات، وتتكون تلك التقنية من ثلاثة أجزاء:

1 - تطور النموذج الطبوجرافي: يحفظ فن الخطابة البنية الجغرافية المألوفة له، والمستنبَطة من محيط بيئته الخاصة عن ظهر قلب، وذلك إضافة إلى الذاكرة الطبيعية واختيار ما يطلَق عليه «موقع».

ويجب أن يكون الطريق بين هذه المواقع معروفًا بشكل جيد ومتاحًا للمتعلم، كالطريق من المنزل إلى المدرسة مثلًا، فالمواقع هي نقاط لافتة ويمكن تذكرها، مثل النواصي والميادين، وعلامات المرور وما إلى ذلك.

2 - سيميائية الذاكرة، والمعروفة أيضًا «بالتحول إلى صور»: وهي المعلومات المراد تخزينها في شيء واحد، أو شخص مثلًا! أي واقع بصري، ووفقًا

لتوصية المؤلف بشأن الألفية، فيجب أن تكون مجازية، وسهلة الحفظ، وبغيضة، فكلما ازدادت الصورة المشحونة بالانطباعات الحسية، أصبحت فرصة النجاح أكبر.

3 - الضغط: وهو دمج العديد من الخصائص في خاصية واحدة تسير وفقًا لنظام ثابت.

على سبيل المثال: إذا أراد المتكلم تذكر تسلسل العصور الجيولوجية كالطباشيري، والجوراسي، والترياسي، والبرمي، والكربوني، فإنه يدمجهم في صورة قطعة من الطباشير بيد طالب قانون، يرتدي بدلة ترياثلون مصنوعة من عرق اللؤلؤ، ويقود دراجة كربون.

وقد أعلن هوبنر في عام 1965 أن الخطباء المتمرسين يستطيعون تخزين خطب كاملة، وملاحم كاملة في صرحهم التذكاري المتلألئ، فكلما ازدادت ممارسة رجال الذاكرة أكثر، أصبحت الصورة أكثر حيوية، وتكاد تكون أقل تصويرية، فهي بمكانة ترقية من مجرد جماد إلى كائن حي، ومن حالة إلى فكرة.

ستكون نواة رسالتي الممثَّلة في هذه الورقة هي أن قصر الذاكرة إطار عمل لا تشوبه شائبة يشير دلاليًّا إلى المحرك الاستدلالي، أي العقل الاصطناعي، ودليلي الرئيس على ذلك، هو أن ذاكرتنا تلتقي معه عند المبدأ نفسه، المعلومات في حد ذاتها، الذاكرة المكانية؛ فالخلايا العصبية في دماغنا تشكِّل نوعًا من البنى المعمارية، تمامًا مثل الأدلة في مسرح الجريمة أو التمثيلات الثقافية في المشهد العام، كل هذه الظواهر هي تكوينات مكانية تخبرنا بقصتها.

في الخطوة التالية سأعرض المكان بوصفه منشأ من عمل الذاكرة، وذلك الجدول المقدم لعلم الظواهر يعد تظليلًا لجميع الذكريات التي جمعتها من الجداول كافة.

هذه الاستراتيجية، التي قد تبدو متناقضة في البداية بسبب البنية المزدوجة التي اقترِحت للمكان (كممثل قياسي، وشرط لهذا التمثيل)، ستمثل شرطًا أساسيًّا مثاليًّا يقدم عالمًا مغلقًا إلى الذكاء الاصطناعي، ففن الاستذكار يستطيع حل أحد أكثر المشكلات صعوبة في علوم الكمبيوتر».

لم أعد أعرف هل أندهش من اللهجة اللامعة لذلك الشاب البالغ في صورة طفل، ذلك الشاب الذي يتحدث كما لو كان قد تجول في الأبدية كلها، أم أعجب من حقيقة أن فكرة استغلال فن الاستذكار في تطوير الذكاء الاصطناعي جاءت في الأصل من وحي عقل فيتيج.

لماذا يقع الاختيار عليَّ، في حين تفشل التجربة مع مثل ذلك العبقري؟! ألقيت بالملف في إحدى الزوايا، وصمدت على ذلك لمدة عشر ثوانٍ ثم عدت أبحث عنه مجددًا دون أن أعرف ما الطائل من ذلك.

وجدت ارتياحًا قصيرًا في قراءة تقرير طبي حصل عليه فيتيج بعد بضع سنوات يعفيه من الخدمة العامة، فورقة التسجيل الخاصة به تقول إنه يرتدي عدسة بمقاس 8 ديوبتر[1]، كما أنه يعرج من شلل الأطفال.. فكرت في شلل الأطفال، كم هو غريب! انتهت رحلتي مع ذلك الارتياح الذي شعرت به، أدركت مدى قِصر هذا السجل الطبي الذي انتهى بحلول عيد ميلاد فيتيج الحادي والثلاثين ثم بيان مقتضب من طبيب نفسي يفيد بأنه لم يلحظ أي شيء على فيتيج سوى سلامة قواه العقلية، وعدم وجود أي شذوذ ذهني به، وظللت أنا أتصفح الأوراق ذهابًا وإيابًا.

بعد تقديم تقرير بحالة أعضائه الحيوية بشكل أسبوعي تقريبًا، لن تجد أي اندهاش في انتهاء حياته الموثقة فجأة، وخطر ببالي أن كل ما حدث لم يجرِ معي بطريقة مختلفة منذ بدء جلسات النسخ، فبحثت في الملف بسرعة أكبر فأكبر، فلاحظت أنه لا اختلاف في جميع المجلدات الفرعية: أوراقه، ووثائق المجلس البلدي الخاصة به، وحتى مسيرته المهنية التي اندفعت مثل سيل لا يمكن اتقاؤه، ولا يستطيع أي شخص أن يتجاهله، كل ذلك هبط من السماء هكذا، ثم أمام أعين الجميع، اختفى كل شيء كأنه عدم.

---

(1) الديوبتر هو وحدة قياس الطاقة البصرية للعدسات أو المرايا المنحنية. (المترجمة).

عندما أُغلق أحد الأبواب في الخارج، قفزت بتشنج؛ لأنني ظننت أنه قد قُبض عليَّ، وبيدي قصاصة ورق كنت قد مزقتها عن طريق الخطأ من الملف، وفي الورقة مقال في صحيفة تظهِر فيتيج وهو يبتسم ابتسامة عريضة وسط مجموعة من الشباب والشابات، وجميعهم يحملون شعارًا مكتوبًا عليه «الكسورية».

«بالأمس ومقابل نصف مليون جنيه باع أرتور فيتيج -البالغ من العمر 22 عامًا فقط- تقنية صممها هو وزملاؤه في مسكنه، ويعتمد برنامج «الكسورية أو Fractalite» على الهياكل التكرارية في علم الأحياء، وقد صُمم كنهج فرعي لديف، طور فيتيج والزملاء ذلك البرنامج في الأصل؛ لتسهيل حياة الأشخاص المعاقين والمسنين ومن يعانون الوحدة من خلال الدردشات عن طريق الذكاء الاصطناعي، وعليهم أن يسمحوا للذكاء الاصطناعي بأن يكون مرجعًا لهم، لتقديم تجربة واقعية وعميقة لكل من يعاني كونه طريح الفراش.

وبالمناسبة فخطة فيتيج المقبلة هي التركيز على البحث فقط، يقول: «لأنني فقدت الثقة في تطوير المنتج دون معرفة أساسية، كما أن أساسيات الوعي تثيرني أكثر من غيرها، لكنني آمل أن يستمر شخص آخر في الأفكار الإنسانية لبرنامج الكسورية».

سينفذ مشروعًا علميًّا، ولكن ما هو الشيء الذي قلب الموازين وجعله يتراجع عن قراره فجأة؟ لم يفصح عن ذلك».

فكرت في جلسات النسخ، هو أيضًا توجب عليه إبقاء الأمر سرًّا، وربما طُلب منه أيضًا الانسحاب عن أعين الجميع، لكن لا يزال هناك شيء غير مفهوم، كيف أمكن لمثل هذا الشخص أن يختفي فجأة؟ ولماذا وقع الاختيار عليَّ أنا من بين الجميع؛ لأكمل الطريق من بعده؟ لا يوجد أي تفسير لذلك في الملف، وعندما هممت بإغلاق المجلد باستسلام، رأيت وقتها أن الرقم النهائي 37.1/2 كان هو الأول من المجلدين، فسحبت المجلد الثاني من الرف على

عجل، وتجمدت أوصالي! كان مجلدًا ممتلئًا عن آخره بجلسات النسخ التي مر بها فيتيج:

«فشل في أكثر اللحظات بؤسًا» «امتلاك رؤية» «زيارة مكان بمفردي لأول مرة».

واصلت القراءة وأنا أشعر أن الأرض ستنشق من تحت قدمي.. «الشعور بالذنب» «الخوف من الموت».. جلسة من بعد جلسة، هي نفسها المواقف والموضوعات التي طُرِحت عليَّ.. «الإصابة بديجافو» «فقدان شخص» «تنفيذ مشروع».

وفي سورة غضب بدأت أقلب في المجلد بجنون وأنا أردد «لا!» ثم أغلقت الملف، لم يكن هناك أي شيء مفاجئ بخصوص هذا الأمر، فبالطبع لن يكون لديهم نية لتغيير كل ذلك في لمح بالبصر، إذا عثروا بالفعل على إجراء عملي لحل المشكلة، فما دون ذلك لا يعني شيئًا لهم.. أمسكت بالملف مرة أخرى، ولكن تلك المرة فتحته من الخلف.

بدأت أقرأ: «**الرقم التسلسلي 199... انتهاء مبكر لجلسة النسخ بتاريخ 27 مارس بسبب الارتباك الشديد من جانب فيتيج**».

وبدأ كل شيء يتداعى أمام عيني كقشور، اختفى فيتيج بالضبط في اليوم الذي انتهت فيه جلسات النسخ، وفي اليوم ذاته عُقد الاجتماع 200، ومُزقت جميع الوثائق في الليلة ذاتها... تركت الملف يسقط مني وشعرت بألم حاد يغزو وجهي، فقد كنت أتلوى طوال الوقت وأنا أكبح جماح نفسي؛ كي لا أقطب جبيني.

لاحظت الشيء نفسه مرة أخرى، ولكنه كان أكثر نفاذًا من ذي قبل، إنها الرائحة! تتكدس خالقة سيناريوهات متتالية، وتتشابك عناصرها الفردية، وتفرض نفسها بقوة متكررة، ركعت على ركبتي ونظرت تحت الأرفف، يبدو الأمر كما لو أن هناك من مات تحتها..

أعادني صوت خطواتي إلى الواقع كأنه يصدمني، لا بد أنني استغرقت أكثر من ساعة وأنا أبحث في ذلك المكان، ففي أضيق الحدود سيجدون طريقة للعثور عليَّ، التقطت المجلد من الأرض ومزقت رزمة من المستندات منه، ثم أخفيتها تحت ثيابي، ومن ثم أعدت الرفوف إلى حالها.

كان الباب صعب الفتح جدًّا لدرجة أنني استخدمت يديَّ الاثنتين لتحريكه، لكنه انفتح في النهاية.. ركضت عبر الوادي الخرساني وتجاوزت الجدران المكسورة، حيث تسببت مكابس المحرك في تداخلها، ورأيت من زاوية عيني طفلين كانا يختبئان وينتظران عودتي بترقب وفضول، ركبت المصعد وضغطت على زر إغلاق الباب.

بمجرد وصولي إلى الطابق الثالث خف الضغط عن رأسي، وللحظة تأكدت من أن وجه فيتيج على وشك التحلل من كثرة النظر إليه، وعلاوة على ذلك أقسمت إنني سأنسى الحادث ببساطة، بل ولن أفكر مطلقًا في الشخص الذي كتب لي تلك الرسالة المشؤومة، ولن أحاول التحقق من ذلك التشابه الغريب، لن أقرأ أي شيء عن فيتيج بعد الآن، ولن أضع وجهه الغريب الذي يثير اشمئزازي في مقارنة مع وجهي مثل لعبة اكتشف الاختلاف والخطأ في الصورتين، فما مررت به في ذلك الحادث الكابوسي، بدأ يتلاشى مع كل خطوة أخطوها نحو مسكني منذ نحو 20 دقيقة.

وكالعادة فور إغلاق باب غرفتي، بدأ كل ما هو غير مريح يتداعى وينهار، كأن ملاءة السرير الجاهزة للسبات في استطاعتها درء أي شيء عني، ليس هناك شيء يخترق ذلك الباب، لا شيء باستطاعته مهاجمتي هنا، فكرت في ذلك وأنا أملأ البخاخ بعطري المفضل وهو زيت الصنوبر الحجري، ثم أتيت بكيس فارغ وملأته بالأشياء التي كنت أرتديها تحت معطفي وألقيته في سلة المهملات، وأخيرًا نزعت عني ملابسي وانهرت على سريري المبعثر.

***

جلسة النسخ رقم 42.. نصيحة: كن مستقلًّا.

هناك طريقتان للتذكر عند الأشخاص: إفراد وتبسيط خطوط السرد الرئيسية أو ما وراء السرد، الذي يكلف فهمه وهضمه تدريس عشرات الروايات والنصوص، وهذا أولًا.

وثانيًا: متابعة الوميض اللحظي للذاكرة غير الطوعية.

هاتان الطريقتان في السرد من تسلسل قصصي وتسلسل زمني تثمران بنتائج مرجوة في كل السير الذاتية تقريبًا، ولكنها في بعض الأحيان ورغم كل ذلك لا تستطيع أن تصبح أكثر تناقضًا.

وبالنظر إلى مآثر ناشط في مجال الحقوق المدنية حرر عشرات الملايين من أغلال العنصرية، ربما تجد أنه همَّ بخداع زوجته واختلس أموالها، أو هب أن واحدة من وحشيات ديكتاتور شيوعي ستقشعر لها الأبدان إذا نُظر إليها بمنظور عين الطائر[1]، وهو نفسه الديكتاتور الذي يهرول نحو المؤسسات الخيرية المتوارثة، وقد أظهر ذلك لحراسه الشخصيين في منزل العطلات في سوتشي.

الصغير يجعل الكبير أكثر قدرة على التحمل والعكس صحيح، وقد كانت ذكرى والدي -على عكس ذلك- دائمًا ما تتفصد عنها النتيجة نفسها في طريقة السرد الزمني والقصصي على حد سواء: قد يبدو الدافع وراء ذلك الخليط من المهانة والمكافأة جليًّا جدًّا من بعيد، ولكن أيضًا في كل مربع مرسوم في دفتر حياتي الذي يدمج هذا الخليط كله نُقش الإصرار على العنف إلى الأبد. ليس هناك ما يثلج صدرك حيال ذلك.

(في بعض الأحيان خلال جلسات النسخ كنت أندهش من أن ما أتحدث عنها الآن هي في الواقع حياتي، غالبًا ما تكون الشوائب الدقيقة في ملامح الوجه غير مرئية بالعين المجردة، وفقط عنما تُمس تتعجب من مدى ضآلة معرفتك بالمكان، الذي انتهى به العالم وبدأ الإنسان مسيرته، يبدو أن يدي تقبض على ما بداخلي دون الحاجة إلى مرورها من خلال طبقة الجلد، ففي أيام أخرى كان الأمر مثل ملابس الإمبراطور الجديدة، كنت أبدو عاريًا أمام نفسي، بينما يرى الجميع أنني أعيش لحظات انجذاب).

وبالنسبة إلى أمي فقد كان الأمر مختلفًا معها في أثناء الولادة، عندما أُصيب أخي باستسقاء دماغي ووُلد برأس بيضاوي كبير أدى إلى انشقاقها إلى نصفين أثناء الولادة، وفي النهاية مات الاثنان كلاهما، ضحية بشرية لضحية بشرية أخرى.

---

(1) يعني النظر إلى المشهد من موقع مرتفع كما لو كان طائرًا يحلق، فتعطي رؤية كلية وشاملة للمشهد. (المترجمة).

كان عمري آنذاك 3 سنوات فقط، ولم يكن بإمكاني إصدار حكم يقيني، هل كانت تلك الأحضان الحنونة العطرة وتحديد النظارة بقلم أحمر الشفاه هي ذكريات فعلية، أم أنها مجرد إسقاطات قديمة لشوقي؟ إنها الرواسب الصفراء التي أطلقت عليها الأفلام فيما بعد اسم الحياة الأسرية العادية. لكن ما لم يكن إسقاطًا بأية حال هو التغيير الجذري في شخصية أبي لحظة موت أمي.

كان عاملًا في أحد المصانع، يظل يكدح طوال اليوم في المستودع، في حين سهلت علينا وظيفة أمي في التدريس فرصة الحصول على شقة في الطابق الأوسط، أتذكر كيف كان أبي رجلًا أصلع وطويل القامة، بابتسامته التي ظلت مدفونة تحت شاربه الأنيق، كانت تفلت منه في حالات نادرة.

كان ازدراؤه لأجهزة الكمبيوتر لافتًا للنظر، فقد ظل يؤمن بضرورة إخضاع الآلات، وكذلك بالقدر نفسه آمن بقوة تحمل الجسد الذي يُساء معاملته وهو قابل لتشكيل الشخصية التي يحملها، ربما لهذا السبب كان تخيل وجود آلة تفكر هو أمر لا يُطاق بالنسبة إليه.. آلة لديها إرادة، لكنها لا تقبل أن تتعرض للقهر.

(ظللت أنظر إلى ديف بين الفينة والأخرى، في البداية شعرت بعدم الارتياح قليلًا، مثل اكتشاف وجود شخص يرتدي ملابسك نفسها في حفل كوكتيل، ثم لم يعد بإمكاني رؤية قميصي، لأنه وقف بالقرب مني، شعرت وكأن رداءه يكسيني وهو لا يزال على جسمه، لقد كنت مجرد طلاء قشري خشن له).

بعد وفاة والدتي بقليل، انتقلنا إلى غرفة أصغر لتوفير المال، نمنا بجانب بعضنا بعضًا في أَسرَّة قابلة للطي، لقد استغرق الأمر أقل من أسبوعين حتى أدرك عقلي البالغ من العمر ثلاث سنوات ما يعنيه الأمر؛ أبي الآن يقود الدفة وفق هواه، ولم يعد يفكر في أي شيء أو أي شخص، وتطور لديه هوس ما جعله ينشِّئني على أن أصبح رياضيًّا فيما بعد، إنه جنون نادر، أجبرني تحت

وطأته على حل المسائل الرياضية لثماني ساعات يوميًّا، ساعدنا على ترتيبها أسبوعيًّا معلم خصوصي.

وبالطبع قد يمجد الناس ذلك السلوك القهري، الذي انتهجه معظم الآباء فيما بعد لشعورهم بضرورة أن يرفعوا من قدر أبنائهم، ليكونوا في يوم من الأيام أفضل حالًا.

لكن ذلك لا يجعل القصة بالضرورة أكثر جاذبية؛ فالعقاب الجسدي ما زال يترك آثاره الغائرة على الركبتين والكتفين، لم أجد حضنًا يضمني من سن الرابعة حتى الثامنة عشرة، وتفاقمت حدة الشعور بالوحدة المرضية لدينا نحن الاثنين على حد سواء، فلم يكن يسمح لأي شخص بالدخول إلى حياتنا، لم تطأ قدم صديق قط ذلك العرين الذي نسكنه ونطلق عليه نحن اسم «منزل».

(في بداية الحياة فقط يمكننا مواجهة العالم مباشرة، فكل اتصال مباشر به يحفز تكوين قرنية العين، نسيج مرن لا يتحسس من الواقع ونطلق عليه نحن اسم «الذاكرة» ومع تقدمنا في العمر تصبح الحياة تحولًا تدريجيًّا للعالم الأصلي حتى يصير مسخًا، إلى أن يجد الإنسان نفسه أمام جدار لا يُقهر اسمه الذاكرة وبابه مغلق إلى الأبد، فالإنسان هو نفسه فقط، وهو الممثل لوحدة الأنا[1] على الأرض).

ذلك الحزام الماكر كسر نظارتي فوق أنفي، وزجاجة الخمر المكسورة تلك حاولت بها قطع يدي عندما كنت طفلًا صغيرًا، وجناح المستشفى المنعزل ذاك، لم يزرني أبي فيه ولا لمرة واحدة، نعم! فقبل كل شيء لن أنسى ذلك الوقت الممتد إلى ما لا نهاية، الذي ظللت أسعل فيه من الأنسجة المتوهجة الساخنة دون أن أجد من يبدل لي رداء نومي.

---

(1) وحدة الأنا أو الذاتوية هي فكرة فلسفية تقول بأنه لا وجود لشيء غير الذات أو لا وجود حقيقي إلا لعقل الفرد وهي موقف معرفي يقول بأن المعرفة المتعلقة بأي شيء خارج عقل الإنسان غير مؤكدة. (المترجمة).

وذلك اليوم الذي حطم فيه لوحة الدوائر الكهربائية الخاصة بي، وعندما عملت طوال الصيف في مخبز لشراء جهاز كمبيوتر، حتى أردت أخيرًا سحب المال من أجله.. وأدركت حينها أن حسابي فارغ، فقد صرح أبي لي بأنه أضاف تلك الأموال إلى نفقات المأكل والمسكن، وزوَّر توقيعي لتحقيق ذلك.

أما عن نظراته لي وأنا أرتدي بدلة الأسد لأشارك في مسرحية ساحر أوز، فكانت نظرات قاتلة وطويلة، حتى تكلم في النهاية وقال: «إذا لم يتسبب أخوك المجهَض في قتل والدتك، لتولت جمجمتك ذلك الأمر».

(اضطراب تبدد الشخصية، يشعر المرء أمام نفسه بالغربة عن الواقع أو بالتغير، فيتعايش مع نفسه على أنه «شخص آخر» كنوع من أنواع الانفصال عن الجسد، وذلك الاختلاف يتمثل في: وهم التحول، وتصور حدوث تغيرات في الخصائص الجسدية (كأن يصبح حيوانًا، أو عدمًا، أو يزداد في الحجم مثلًا)، وأخيرًا العبور؛ تنسب الشخصية تجاربها الخاصة إلى أشخاص آخرين، فضلًا عن إمكانية حدوث انتحال للشخصية، عن طريق معايشة الشخصية لبعض السمات والسلوكيات التي لوحظت في الآخرين؛ والسبب وراء كل هذه الظواهر المذكورة هي المواقف التي تهدد التفرد، لدرجة أن الجسد يستسلم لسيطرتها عليه.

وبذلك فاضطراب تبدد الشخصية هو رد فعل وقائي للوعي الذي يتحلل من تلقاء نفسه، فيضطر المرء إلى فقدان ذاته، لأن البقاء مع نفسه سيدفعه إلى الموت).

واتخذت قراري بعد ظهر آخر يوم امتحان لي في الثانوية، وهو أنني لن أرى والدي مرة أخرى، كان يوم الثلاثاء، يقضي أبي وردية عمله الصباحية كسائق لرافعة شوكية، حينها ذهبت في الصباح إلى الجامعة، وسجلت في قسم الذكاء الاصطناعي، لم أخطط لأي شيء من هذا، فقد عرفت فجأة ما يجب عليَّ القيام به، وقد سمح لي بافل بمشاركته الفراش مؤقتًا لبضعة أسابيع، وفي الصباح ذاته غيرت أرقام هواتفي، وعناوين البريد الإلكتروني

الخاصة بي؛ كي لا يستطيع أي شخص التعرف عليَّ، والآن أغلقت ذلك الباب وراء ظهري نهائيًّا، وساعدني تغيير لقبي على ذلك، ومن ذلك الوقت فصاعدًا أُلغيت هويتي بشكل تام ونهائي، لقد حدث لي انسلاخ، والانسلاخ هو تساقط كلي للطبقة الخارجية من جسم الثعبان، بمعنى أنني الآن بلا أصل، ولكن ظلت هناك دائرة حمراء في ذهني حاضرة حول جولات أبي اليومية، وهذا يعني أنني بمجرد العمل على تحويل جزء من المختبر إلى منطقة محرمة، ستنتزَع أي ذكرى لأبي من جسدي على الإطلاق.

(كم هو صعب أن يحكي الواحد منا قصة حياته، لأنه كلما تحدث أكثر، اضطر إلى التفتت إلى أجزاء صغيرة، وما كان يدَّعيه عن نفسه، سيشعر بأنه لم يعد ينتمي إليه في لحظة البوح به، وإلا لما كانت فكرة التخلي عنه ممكنة، ولكن في الوقت ذاته لا يمكن أن تصبح تلك الادعاءات غريبة تمامًا، لأنها نبعت من فكر الإنسان في الأساس).

لقد ثبتت جذور هذا الانفصال بحماس يشبه حماس شخص يحتفي بجذوره العرقية، فلن أحرق جواز سفري القديم دون مراسم احتفال، لذا دعوت أصدقائي لتناول الطعام معًا في أحد أيام السبت، وحينها أعلنت أن اسمي الأول لم يعد ضروريًّا، وسأستخدم اسم الشهرة من الآن فصاعدًا، إنه ميلاد جديد، ميلاد مخصي النسب، وحينها دمرت بصورة ممنهجة كل الصور التي التُقِطت لي قبل بلوغي سن السابعة عشرة.

(ارتجفت ولم أشعر بأي شيء يسقط، فقصتي كانت سليمة، ولم يلحظ أي شخص شيئًا).

بالطبع حاول والدي جاهدًا التواصل معي في السنوات التي تلت ذلك، كأن ينصب كمينًا لبافل، لأنه يعرف مكان إقامته، وقد حاول التواصل بالجامعة بحجج واهية ليستطيع جمع أي تفاصيل عني، لكنه لم يعد يعرف اسمي الآن، وحتى لو استدل عليَّ، كنت سأبرع في تشتيت مساراتي بين سكان المختبر

البالغ عددهم 10000 ساكن، ولكنه كتب لي خطابًا منذ بضع سنوات بإلحاح لم أفهمه للوهلة الأولى، وقد أحضره لي قائد المجموعة بدافع الشفقة، لقد كان يعاني سرطان البروستاتا.

يمكنني أن أروي فقط أنني وجدته ناحلًا وهزيلًا في فراشه، وأن أخاديد السنين شقت طرقها في وجهه، وأنه لم يكن هناك مصالحة، ولكنها هدنة مؤقتة، فقبضت على يده خوفًا من الندم، لكن الحقيقة الآن هي أنني مزقت تلك الرسالة، ولم أكرر زيارته مرة أخرى قط، وهذا كل شيء.

***

«حديقة حيوان أليفة للناس» سجِّل الآن!

كان ذلك هو أول شيء أقرؤه عندما دخلت قاعة «أناس وحيوانات فرحة» التي جرتني إليها جاراوس مع فيليز، إنه معرض الإبداع، لطالما هفت نفسي إلى ذلك المكان لأشهر طوال عندما كنت طالبًا، إنه تكتل آلاف من الأشخاص الذين يعتنقون الآراء نفسها والتفكير نفسه، ويحملون أكياسًا قماشية بأيديهم، في ترقب لملئها بكتيبات عن المشاريع الأكثر طموحًا واستحالة، لقد كان ذلك هو المعرض التجاري الوحيد للمختبر، وكل قسم فيه يدير جناحًا يتيح شراء الشاشات اللامعة وأدلة البرمجة السميكة على طاولات البحث، التي تدير حلقات نقاشية تشرح النصوص البرمجية المبتكرة لديف، والأطفال المعجزة الذين ينشطون ليلًا بهالاتهم السوداء يكتبون توقيعات بخط اليد على أجهزة اللاب توب.

الآن هناك حشد، وتمزق، وصخب، ورائحة عرق.

كان لا بد من تشييد حاجز فاصل في المنتصف، وقد قرأت في كمبيوتر ليب أن تحديد الموقع الدقيق ظل موضوعًا للنقاش لأسابيع طويلة؛ نظرًا لأن نصف القاعة قد مُنِح لجماعة ما بعد الإنسانية، والنصف الآخر إلى التيرانيين الجدد، الذين أدخلوا أنفسهم في حرب خندقية لا يمكن التغلب عليها منذ أن علموا أن ديف قد يعمل في المستقبل القريب، وقد كان الإصدار الرسمي لإدارة المختبر محايدًا للغاية بالطبع! وكان كالتالي:

«نحن نعمل على تطوير ذكاء عام من شأنه حل جميع مشكلات البشرية، فبمجرد أن يتطور وعي ديف، ويمتلك عمليات التحسين الذاتية، سيستفيد الجميع من أدائه المعرفي».

كان الجميع يعرفون سرًّا أنه لم يقَل أي شيء، وماذا أيضًا؟ حتى في الفلسفة لم يهتم أحد قط بكيفية حل المشكلات، لكن في الواقع دار الجدال كله حول ماهية المشكلات في حد ذاتها، فهل ينبغي لنا أن نسير على نهج التيرانيين الجدد في جعل الأرض مكانًا لاستخلاف أقوام آخرين؟ وأن نتدفق في الفضاء لإخضاع التكنولوجيا وجعلها في خدمة البشر؟ أم أن تبشير ما بعد الإنسانية بمحاكاة الإنسان والاتحاد الضمني مع الآلة هو الطريق المفترَض اتباعه؟ فكلاهما يتطلب ثقلًا برمجيًّا مختلفًا تمامًا، وكلا الفريقين يتقاتلان يوميًّا على كل جديد، في بعض الأحيان كنت أتساءل: هل تلك الأمور تظل معلقة في الهواء هكذا عن عمد؟

بكل الأحوال كنت غريبًا عن كلا الجانبين وبعد قضاء بضع دقائق في معرض الابتكار بدأت أتوق إلى عزلة غرفتي، إضافة إلى ذلك أزعجتني الفوضى، وصعوبة إدارة المكان.

منذ زيارتي الليلية للأرشيف وأنا أنتظر إلقاء القبض عليَّ، وكنت أتأكد من عدم وجود شخص ينتظرني عند دخولي أي غرفة، وفي كل مرة أندهش من عدم وجود أحد، ففكرة حدوث زلة تعد ضربًا من المستحيل، لأن جهاز ريد إيكلس معصوم من الخطأ، فمن المفترض أنه قد طابق عملية دخولي غير الشرعي إلى غرفة الأرشيف في الطابق السفلي مع لقطات الكاميرا في غضون ثوانٍ، فلماذا أفلت من العقاب؟

في غضون ذلك التفكير سحبتني جاراوس بجدية وراءها إلى جناح ما بعد الإنسانية، لقد أصبحتْ عضوًا رسميًّا في الحزب الأسبوع الماضي فقط، وارتدت قميصًا كُتب عليه شعار ما بعد الإنسانية «Esse est uniri».

جذبتني جاراوس عبر القاعة وهي تغمز في وجه صديقاتها في كل جناح في حين مشى فيليز وراءها بفتور، ثم لوحت أيضًا لسيدة مسنة ذات شعر بني ترتدي قميصًا مكتوب عليه «إن الشيخوخة مرض»، ثم قالت: «هذه تريزا، أُصيبت بداء البروسيلات لمدة ثلاث سنوات وكانت مشلولة كليًّا، حتى وضع تشالمرز 200 قطب كهربائي تحت جلدها لتوصيل جهازها العصبي المركزي بجهاز كمبيوتر، وسرعان ما تمكنت من الحركة مرة أخرى، ولكن الأهم من ذلك هو تصريحها بأنها تشعر بحضور تفردها لأول مرة، وذلك التفرد ليس على المستوى الفكري فقط، ولكن العاطفي أيضًا، وهي تعمل الآن في الحزب على برنامج يسمى ReverseAge، تعال معي إلى هناك!».

هززت رأسي بابتسامة فاترة، فأنا لا أجد أدنى متعة في مواصلة تلك المحادثة، وانتقلت إلى الجناح الصغير التالي.

«حديقة حيوان أليفة للناس» قرأتها للمرة الثانية.

فتحت المجلد اللامع ذا الورق المقوى وقرأت: «**العيش في رحاب ورعاية الآلات. إذا لم نتمكن من درء الخطر، فلماذا لا نتخذ الاحتياطات اللازمة؟ ففي غضون بضع سنوات سيصبح ديف -الذي يحسن نفسه ذاتيًّا- متقدمًا علينا بدرجة كبيرة، لدرجة أنه سيزرع الآلاف من أجهزة الذكاء الاصطناعي الصغيرة (الروبوتات)، التي هي أيضًا تفوق قدراتنا بآلاف المرات**».

وفي الأدنى يوجد رسم توضيحي لإنسان وحوت أزرق، ومكتوب فرق الوزن بالكيلو جرامات، وبجواره دماغ إنسان ودماغ أحد الروبوتات المذكورة، كانت النسبة بينهما متطابقة، ولكن عندما نأتي إلى معدلات الذكاء سنجد أنها تعادل 100000/100

«**تظهِر التجارب التطورية أن الأجناس الحاكمة تفضل أن تعيش في وجود كائنات أخرى حولها بصفتها كائنات تحتاج إلى الرعاية والحب، فهي تسمح للكائنات بالعيش في جو مسالم وآمن، مثلما يفعل البشر مع الأسود في حديقة الحيوانات، فلماذا لا تصبح أنت أيضًا عضوًا في حديقة عدن؟**».

وفي الصفحة الأخيرة من المجلد رأيت نموذج تسعير وتحته:

«**للحصول على معاش تقاعدي يحصَل على الفور، يجب الوصول إلى حالة التفرد وبمجرد حدوث ذلك، ستنتقل إلى نوع من المحميات، ينتظرك هناك الجاكوزي، وبعض مرافق التسلية، وبالطبع حريتك الكاملة في العمل**»... قرأت ذلك ثم ألقيت بالمجلد بعيدًا.

ظهرت جاراوس بجواري مرة أخرى وهي تقول: «ماذا تفعل الآن؟ هيا! نحن ذاهبون إلى هناك، إنه برنارد!».

سألها فيليز بتجهم وقد أُعجبت جدًّا بصراحته: «أخبريني يا جاراوس! لماذا حقًّا تتطوعون لتصيروا ملحقين بالآلات؟».

«ملحقين!» همهمت جاراوس وهي تدفعنا بعيدًا عن زملائها كأننا هراطقة نثير البدع، ثم وخزت فيليز في صدره وهي تقول: «هذا الجسد.. نعم هذا

الجسد الذي تراه هو في الحقيقة مقيد بقيود بيولوجية حفِرت فينا مدى الحياة، وللأسف فعقولنا تعتمد على أجهزة قاصرة، لكن المفاجأة المدوية.. المفاجأة أننا نعمل على تقنية ستمكننا من تصميم أنفسنا، وتسمح بتشغيل عقولنا على أجهزة مختلفة، وفي النهاية يعتقد هؤلاء الأغبياء الذين يدعَون تيرانيين جدًا أنه يجب علينا الخروج من المختبر».

تعمد فيليز إلقاء بضعة أقلام على الأرض وهو يقول: «أليس كلامهم منطقيًّا؟».

فردت جاراوس بخفة: «الطريق الحقيقي يبدأ من الداخل.. يمكننا إرجاء المشكلات جانبًا، ويمكننا أيضًا أن نشقى في سبيل إيجاد حلول جديدة لكل كارثة طبيعية قد تحدث مستقبلًا، ويمكننا الاستقرار والتعايش».

سألتها: «استقرار؟!».

«تحميل العقل! واتحاد الحب مع الآلة، وارتقاء الذكاء الخارق. فراحة البال الدائمة للعالم الخارجي يمكن أن تتحقق فقط إذا تغيرت الركيزة، ومن ذا الذي يعرض عن الاستجابة إلى كائن تفوقه المعرفي لا نهاية له؟» ثم أردفت بتحدٍّ: «والآن إذا سمحتم لي، أريد أن أجرب ذلك!» ثم هدرت في مشيتها.

وقفنا عند واجهة عرض تجرب منتجًا يسمى MINDSTRIKE، وكان هناك رجل يؤدي وظيفته بهمة ويشرح لنا إمكانات الجهاز على الفور: «تلك الخوذة تستطيع قياس ضربات القلب، والموجات الدماغية، والنبض، إضافة إلى حجم بؤبؤ العين، ذلك كله في أثناء جلسة تأمل، فتظل تصدر نغمة نافذة كل عشر ثوانٍ، وتدل على أنك في حالة سكون مثالية».

أنهى كلامه ثم عرض عليَّ أن أربط الجهاز برأسي وأجربه، لكنني رفضت، وفجأة انطلقت صافرات تصدر نغمات نشاز لا توصف، حيث أشارت إلى أن جميع الذين خضعوا للتجربة متصالحون مع ذاتهم.

فكرت بأمل أنه ربما كان الأمر سيجدي نفعًا إذا عُرض على مستعمري المريخ، فعلى الأقل هدفهم مقصور على فئة معينة، فأفضل حياة للناس هنا والآن وبالحفاظ على طبيعة أجسادنا، وأصبح علينا أن نبتلع حقيقة أن المجرات الأخرى ستتعرض للاستيطان بعد أن تصبح الأرض مكانًا قابلًا للسكنى.

«خدمة أخبار أينشتاين»، قرأت على لوحة التيرانيين الجدد الأولى: «لا وقت لنضيعه في كتابة رسائل إخبارية قصيرة، اترك كتابة الإيميلات إلى الذكاء الاصطناعي ووفر وقتك للأشياء المهمة».

ومرفق أدنى اللوحة رسم تخطيطي يوضح كيف يعمل برنامج أينشتاين الإخباري، والرسم التوضيحي كان عن شخصين: «يكتب الزوجان العاديان نحو 47 رسالة يوميًّا، ذلك الوقت المهدَر الذي يمكن استغلاله بشكل أفضل فيما ينفع».

من الواضح أن البرنامج المعروض هو برمجة للرد التلقائي على التواصلات الشخصية، لم يكن من البرامج التي تحدِث ثورة في مجالها، لكنه بأية حال أول شيء عملي أراه حتى الآن، وفكرت بارتياح في مدى عادية ودنيوية المنتجات المعروضة على ذلك الموقع.

صاحت امرأة نحيفة جدًّا في وجهي عندما هممت بالمغادرة: «هل تريد الاستفسار عن شيء؟». وبدافع الإحراج أكثر من الاهتمام وقفت أفكر في السؤال الذي يمكنني طرحه، وقبل أن أفكر في شيء حتى، انفجر الصوت من فمها، وهي تصدح بسرور: «لا يهم! يكتب أينشتاين الرسائل البريدية الخاصة بك، ويستخدم دعاباتك الخاصة، وقبل كل شيء يستقبل كل ما يرسله إليك الآخرون، وعلى أساس قاعدة ضخمة من البيانات نحلل طريقة كتابتك، ووقت عزلتك المعتادة، وحالة علاقاتك الاجتماعية، مع إمكانية تحسينها إذا لزم الأمر، كل ما عليك فعله هو الخضوع إلى اختبار شخصي قصير، وقد أظهرت إحصائياتنا أن علاقات عملائنا تحسنت بنسبة 20%، وبخاصة إذا كان كلا الشريكين يستخدمان برنامج أينشتين».

سألت بعدم تصديق: «كلاهما؟! ما الهدف من محاولة التواصل بهذه الطريقة إذا كان كلاهما لا يعلم بحدوثه؟».

سحبتْ رسمًا بيانيًّا لإحصائية لا تمت لسؤالي بصلة، وقالت: «بالضبط! نحن مع برنامج أينشتين نفكر في أن معظم العمليات التي تستهلك قدرًا كبيرًا من قوة المعالج..»، ضغطت على صدغها وأردفت: «يمكن معالجتها بشكل مستقل من خلال الذكاء الاصطناعي، الذي يحتاج فقط إلى 0.1٪ من القوة الحاسوبية لديف، وبذلك نتمكن من إنجاز المهام الكثيفة بشكل تلقائي.. وسأضرب لك مثالًا آخر على ذلك: في الاقتصاد مثلًا، في المستقبل

قد تتم كل التدفقات المالية دون أي تبادل للسلع، فأينشتين يحاكي عمليات الشراء، ويرسل الصورة الرقمية».

- للعميل؟

- لا، لنفسه! وبهذه الطريقة يمكن تنفيذ الملايين من التبادلات التجارية دون استهلاك ذرة واحدة من مواردنا، وهو محايد مناخيًّا، وبذلك ينتعش الوضع الاقتصادي بانتظام دون أن يتكلف أحد عناء أي شيء، بل ودون أن يلحظه أحد حتى، فكل شيء يسير دون أن يضطر شخص إلى رفع إصبعه، ولكن فقط..

مالت نحوي قليلًا وأردفت: «ولكن كل ذلك يحدث فقط إذا استطعنا جميعًا سحب الحبل نحو حزب التيرانيين الجدد».

لمدة قصيرة حاولت جاهدًا إيجاد ما أقوله على هذا الكلام عديم الجدوى، لكنني لم أستطع، كما أنه لم يتبادر شيء إلى ذهني، رغم أنني رغبت في إيجاد قول ما.

فقالت هي: «بوصف ذلك مخططًا فهو يتناسب عمومًا وبصورة ممتازة مع التوجه الحالي نحو التخلي عن الجسد، وفي بعض الأحيان يمكنك أيضًا أن تتعلم شيئًا من أنصار ما بعد الإنسانية».

سلمتني كتيبًا مدون عليه «التخلي عن الجسد، دليلك للمستقبل» ويقول الكتيب: «في جلاند تيك طوروا جهاز استشعار يمكن دمجه مع برنامجنا، سنحصل عليه عن طريق زرع غدة بالمنظار الداخلي، ولن يستغرق ذلك سوى عشر دقائق فقط، ويمكن بعد ذلك استخدام أحد التطبيقات لاختيار التجارب، مثل الحصول على درجة الدكتوراه مثلًا، عندها تطلق الغدة المزروعة الهرمونات بدقة، وهي الهرمونات التي كانت ستتشكل عندما تحدث تلك التجربة في الحقيقة، وكل ذلك دون الاضطرار إلى عناء المرور بتلك التجربة».

- ويمكن أيضًا الترفيه عن الموظفين، الذين يتسكعون بدلًا من قضاء اليوم في خدمة العملاء!

قلت تلك الجملة بمرارة لاستفزازها، لكن كلامي أتى بنتيجة عكسية تمامًا، لقد قالت: «فكرة ممتازة!» قالتها دون أي سخرية، بل ودوَّنتْ ملحوظتي عندها.

قال فيليز: «تعال هنا! لقد جاء بافل هناك» تركته يسحبني إلى أقرب جناح بعيدًا عن هنا.

سأل وهو يرفع حاجبه: «هذا غريب بعض الشيء، أليس كذلك؟».

فأومأت برأسي، وقد أزاح اشمئزازه ذلك الثقل الذي جثم على صدري، وبينما نحن نسير في الردهة، أخذ الشعور بالغرابة يرهقني أكثر فأكثر، فهناك شيء غريب يسكن في نظرات الناس، شيء جنوني يجذبهم من مكان إلى آخر، لكن ربما كان كل ذلك مجرد خدعة، أو ربما ما يفتنهم ويثيرهم هكذا وببساطة غير مفهوم بالنسبة إليَّ، فعندما يعرف الإنسان طريقة صنع الأشياء، يتلاشى سحرها فورًا.

وأُذيع في عمود إعلاني العنوان التالي: «**ألم تحلم يومًا بمرتبة ذكية؟**».

في الحقيقة لا! أعتقد أنني لم أرغب يومًا في ذلك، لكنني تابعت مشاهدة الفيديو الذي أظهر دعامات السرير الكهربائية بأكملها، وعرضت أولًا مشهدًا لطفل ينام بهدوء على مرتبة السرير التي تشبه مراتب اليوجا، وتظل المرتبة تنثني بشكل متتابع وهي تعبر به أحد الجسور دون أن يتغير موضع كتفه، ودون أن يستيقظ، ثم كررت المشهد مع أحد المحاربين.

اعتقدت لثانية أنني أُعجبت بهذا العرض قبل أن أقرأ الأحرف الصغيرة في إحدى الزوايا «الباربيتورات[1] ضرورية للغاية».

اندفعت إلينا جاراوس مرة أخرى بثلاثة أجنحة جديدة، ثم وجدنا بافل مستغرقًا في محادثة عميقة، وما لبث أن انفصل ضاحكًا عن الكوكبة المتحلِّقة حوله ولوَّح لنا بيده بين تلك الجموع وهو يقول: «مرحبًا يا شباب!».

كان يبدو مرهقًا جدًّا، وتستطيع أن ترى في يده اليسرى علبة جولت كولا، وفي يده اليمنى قلمًا يرتجف من فرط الإثارة، لكنه أيضًا كان أكثر سعادة من أي وقت مضى.

قال بافل مبتسمًا: «جيد! هل أنتم هنا لتقييم أداء الوحش؟».

---

(1) هي أدوية مثبطة للجهاز العصبي المركزي، تنتج مفعولًا واسع المدى، من مهدئ خفيف المفعول إلى مخدر كامل. كذلك هي أدوية مضادة للقلق، منوِّمة، ومضادة للتشنجات. (المترجمة).

الآن فقط رأيت خلفه مكعبًا كربونيًّا مثقوبًا بأنابيب ذهبية، كأنه خلفية تتحرك فوق جسده كيفما اتفق، كان قويًّا كآلة بخارية، حتى إنني اعتقدت أن الجهاز على وشك إطلاق صوت هسهسته في الهواء.

وبرد فعل متأخر وشعور بالثقل من فرط الانطباعات التي واجهتها استسلمت لرغبتي في عناق لم يعد يتوقعه بافل منذ زمن، وهذا يعني أن ذراعي التي اندفعت تجاهه أدت إلى اهتزاز يده، فانسكب مشروب الجولت كولا على سترته.

قال فيليز: «اللعنة» وهو يسحب بعض المناديل من حقيبته، أما أنا فأُصبت بالشلل، رغم أن بافل نفسه كان يبتسم وهو يجفف نفسه، وأنا أتابع خليط الرغوة وهو ينتشر في القماش.

قلت بصوت عالٍ: «لم أكن أنا». فالتفت الجميع نحوي بتعجب.

فرد بافل في حذر: «لم يحدث شيء يا سيز!».

فقلت: «لقد انحرفت يدك» لكنني ركعت على ركبتي وبدأت أجفف المشروب البني، فغيرت جاراوس الموضوع بسرعة وحدة؛ لأنها على الأغلب اكتشفت شيئًا يحبس الأنفاس، قالت: «نموذج لكمبيوتر كمي» وأردفت وهي تقرأ ما هو مكتوب على سترة بافل: «رابطة التيرانيين الجدد- Dominium terrae» ثم هتفت: «حتى أنت أيضًا أيها الخائن!».

قال بافل وهو يشيح بوجهه عنها: «بربك يا جاراوس! إنهم الراعي الرسمي للمشروع فقط».

وكل ما كنت أفعله أنا في غضون ذلك هو التحديق، لم أستطع منع نفسي من التحديق باستمرار إلى بقعة الكولا المتفشية على سترة بافل، وأردت حقًّا فعل شيء حيال ذلك.

في غضون ذلك قال فيليز وهو يشير إلى الكمبيوتر بحذر ويبصق علكته في صندوق القمامة: «وماذا باستطاعته أن يفعل؟».

- بداخله ما يعادل 95 مليون تيرابايت من ذاكرة الوصول العشوائية، و40 هرتز إضافيًّا من قوة المعالج، أي أنه يجري 40 تريليون دورة في الثانية عن طريق التحليل الكمي.

- اللعنة! هل ينجز في ثانية واحدة ما يفعله المختبر بأكمله في عام كامل؟

- بل وأكثر! فهذه حسابات من فضاء هيلبرت، نتج عنها نسبة أسية من العمليات الحسابية مقارنة بحجم مكونات الأجهزة.

تأرجح بافل على أحد الأنابيب، وفي تلك اللحظة فقط شعرت بأن خجلي بدأ يتلاشى، لكنني بدأت أتعجب من الملابس التي يرتديها بافل، فبدلًا من ارتداء واحدة من بدلِه المحببة، كان يرتدي سروالًا رياضيًّا وسترة وفي الأسفل زوجان من الأحذية الرياضية ذات النعل الخفيف، وعلى طاولة جانبية -يجلس إليها مساعدان يتناولان القهوة في فترة الراحة- تستقر مجلة عن فنون الدفاع عن النفس.

سألت بافل وأنا غارق في التفكير: «هل هذا مشروعك؟ لم أكن أعلم أنك تهتم بمثل هذه الأشياء».

- بالفعل! ألقِ نظرة يا جاراوس، إنه يحتوي أيضًا على مطيافية رامان[1].

- لم يكن ذلك ليخطر لي على بال!

- لذا اترك الكمبيوتر وعد إلى هنا، إنه لا يزال مجرد دمية، وسيحتاج إلى بضع سنوات حتى يصبح قادرًا على العمل بحق. انظر! هذه هي المضخة، فيلزم تبريد النظام بسائل الهيليوم من 800 ملي كلفن إلى 100 ملي كلفن ثم أخيرًا إلى 10 ملي كلفن.

ألقيت نظرة جانبية على بافل، كان وجهه هو الوجه نفسه الذي عهدته دائمًا، وذاك هو الشعر المجعد نفسه بجموحه المعهود، ولكن هناك شيئًا ما يتخلل كل ذلك.

قلت: «أربعون تريليون دورة! أليس ذلك هو تردد أشعة جاما؟».

- يجب أن ينقل التردد المرتفع البرنامج من هنا إلى الشريحة، ونحن الآن نعمل على تصميم بنية دقيقة فائقة التوصيل.

دار بافل حول الجهاز اللامع كأنه ساحر وهو يقول: «نعم! أعلم أن المعالج قد يكون نشطًا إشعاعيًّا، ولهذا السبب نطور أيضًا مفاعلات منزلية، تحسبًا لأن يصبح الجهاز جاهزًا لطرحه في الأسواق، حيث تنشط تلك المفاعلات فقط تحت درجة التجمد وفي الفراغ المطلق، وأخيرًا إذا اعتقدنا أنه سيكون بحجم جهاز لاب

---

(1) مطيافية رامان هي أحد أنواع المطيافيات التي تختص بدراسة أنماط الاهتزاز الجزيئي قليلة التردد في نظام ما وتعتمد في ذلك على ظاهرة التبعثر غير المرن للضوء على الجزيئات، ما يعرَف بتبعثر رامان. (المترجمة).

توب، فعلينا أن نصل إلى حلول تمكّننا من حمله، كصندوق مصنوع من الطوب الرصاصي على سبيل المثال، ولقد أجرينا تجربة مع الماء الكثيف أيضًا».

لقد أدركت ما هو الشيء الجديد في بافل، هناك شيء في عينيه أربكني، غموض وصلابة غير مألوفة، شيء ضبابي.

بحركات بطيئة تمكنت من متابعة قطار يخرج عن مساره، لكنني ما زلت لا أثق في انطباعاتي، فهذا بافل بيتروف أكثر الأشخاص الذين عرفتهم ذكاءً، يقف الآن ويتحدث بكلام هو محض هراء، سألته بحذر: «ما هي حالات الاستخدام العملية؟».

- بمجرد أن نصبح بين 50 و 100 كيوبت[1] والحال مستقر، يصبح نوع من خطوط الأنابيب متاحًا، ولكن لن نتمكن من إتمامها على جهاز كمبيوتر تقليدي، عمليات موازية كاملة وأسية.

كان يقلد منظر الانفجارات الصغيرة في الهواء بيديه وفمه ويقول: «بيو.. بيو».

يقول بافل أيضًا مشيرًا إلى أحد صناديق الكمبيوتر: «يمكن لمثل هذا الكمبيوتر التقاط كل ذرة من حبة كمثرى وحساب حالتها مسبقًا، وبالطبع هذا مجرد مثال، فبمجرد أن تعمل البنية المعرفية لديف، ستصبح قوة المعالج كافية، أو دعنا نقول: يمكننا في الواقع عمل محاكاة للبشرية جمعاء، أليس هذا شيئًا ذا قيمة؟ فيما بعد سيتمكن كل شخص في العالم من المشاركة في إمكانات معرفية لا نهاية لها من أجل سعادته الشخصية».

سألته: «أي سعادة شخصية؟».

- فقبل كل شيء سنشبِع فضول البحث العلمي الإنساني بتحقيق الهدف، وهو تعمير الكون وفك شفراته، وللتخلص من المعاناة والامتلاء بالحياة.

وأردف بافل بفخر: «أن يتحول الكون كله إلى موطن محتمَل، ونصنع من الماء وقودًا يحملنا إلى المريخ، وننتج اللحم من علب الكرتون».

قال فيليز الذي بدا غير مقتنع بعض الشيء: «يبدو ذلك مثل الكيمياء».

رد بافل وهو يربت على جهازه المعدني برضا: «ليست كيمياء، ولكن أوبوس ماجنوم إذا صح التعبير».

---

(1) الكيوبت هو نظام كمي ثنائي الحالة مثل استقطاب الفوتون. (المترجمة).

«أيتنبأ حسابيًّا بكل حالات ثمرة الكمثرى إذًا؟».

كانت تلك جاراوس التي انفجرت بلا تفكير بعد استغراقها في حالة من الجمود الذي خيم عليها طويلًا وأردفت: «إنه إذًا نوع من أنواع شيطان لابلاس[1]».

فهتف بافل: «تمامًا! كيان يمكنه حساب موقف وموقع وحركة كل جسيم أولي في الكون، بل ويسمح بمعالجته بذكاء، وهو أيضًا ما يسمح لنا بعدم الارتباط بقوانين الطبيعة، بل يترك زمام الأمور للعقل للتحكم في كل جزء صغير».

قالت جاراوس: «الآن يمكننا أن نتحدث معًا مرة أخرى».

وبينما كان الاثنان يتراضيان، لم أستطع أنا تصديق حواسي، وشعرت وكأن عيني أصبحت في منتصف رأسي، بدأ العالم يميد من حولي، حماقة لا توصَف، شعرت كأن عرض كاسبرل المسرحي المجمع يطاردني كيرقة متطفلة.

وبدأت أفكر.. حديقة حيوانات أليفة للبشر، وكبسولات شحن، والبرمجة البيولوجية، ومضادات للفيروسات، وحصان طروادة. ارتفعت اللافتات أمام عيني، وتجمعت الكلمات الضبابية في تصادم مع المجالات الرنانة.

«من خلال قلوب الروبوتات التي يقودها ديف، آخر عمل عظيم من صنع البشر، ستفرِّش أسنانك عن طريق ملحقات الذكاء الاصطناعي، ستسمع للألوان صوتًا، وتدير أعمالك، إضافة إلى كمبيوتر السرطان، الذي يصوِّر طعامك بالأشعة السينية، توصيل فاخر لعبوات رقائق الذرة الخاصة بأطفالك تجعلهم يشعرون بالمتعة في كل مضغة، لقد اقترب عصر الهندسة الروحية.

habemus davem![2]

---

(1) شيطان لابلاس هو شخصية خيالية لديها القدرة على معرفة الخصائص الأولية لجميع جزيئات الطبيعة، ويعود ذلك الاسم إلى فكرة طرحها عام 1814 عالم الرياضيات الفرنسي بيار سيمون لابلاس، أحد أنصار نظرية الحتمية السببية. (المترجمة).

(2) Habemus papam (لدينا بابا) هو إعلان يطلَق عند انتخاب البابا الجديد للكنيسة، ونص الإعلان مستوحى من إنجيل لوقا(11-10:2) الذي يسجل كلمات الملاك الذي أعلن للرعاة ولادة المسيح، وقد استبدلت الكاتبة كلمة ديف بكلمة بابا، كنوع من التبشير بقدوم جهاز الذكاء الاصطناعي ديف (المترجمة).

أن تكون إنسانًا يعني أن تكون متجاوزًا للبشر، فمن خلال جينات Pax3 زرعت أعين بالداخل، إنها آلة التأمل».

وبدأت أفكر، لماذا كل هذا الهراء المفجع؟ فالناس يتنقلون بين الأجنحة بخطوات إوزة كأنهم في عرض عسكري، وتدمع الأعين كأن السيدة العذراء قد تجلت لهم، والمفاصل البيضاء تمسك بإحكام بملف ينبئ بوعد الخلاص التالي، كان الضباب يتخلل كل شيء، الضباب يغطي جباههم وأطرافهم، وينبت العرق على جبينهم في مسام صغيرة، وحول كل ذلك ورق حائط ملصق على الجدران وأطفال مطبوع على ملابسهم اسم «ديف».

انتفضت وجفلت كأنني تلقيت ضربة، عندما وضعت جاراوس يدها على ظهري وهي تقول: «هل أنت على ما يرام». وخرج صوتي من جانب شفتي وأنا أتراجع خطوة إلى الخلف.

جاراوس وفيليز وحتى بافل، جميعهم لديهم اللمعان الخافت نفسه الذي يشع من أعين الجميع هنا، وقلت وأنا أشير إلى الجهاز الذهبي: «لا شيء! أريد فقط أن أجرب تلك المحاكاة... الكمبيوتر الكمي». أنزلت يدي مرة أخرى، ثم.. تشويش.

6

من ملف فيتيج:

هدفنا العام هو خلق ذكاء اصطناعي قوي.. أي شبكة اتصال دلالية تعمل كترميز للمعرفة البشرية، وبعد كثير من الجدل طُبقَت طريقة شكليات أشجار القرار في العقود القليلة الماضية، وعُرفت باسم «سكريبت» أو النص البرمجي، ووفقًا للرأي السائد يجب أن يكون للذكاء الاصطناعي القوي -مثلما أطلق عليه مارفن منسكي اسم عتبة الاكتمال- الحد الأدنى من المعرفة العالمية، التي تسمح عند الوصول إليها باكتساب صفة «ذكي».

وقد قدر شانك وأبيلسون ذلك الحد عام 1977بعدد 50000 نص برمجي للطفل، و100000 نص برمجي للشخص البالغ، ويدور الأمر برمته حول رصيد كبير يجب أن تتوفر فيه جميع أنماط اللغة ذات الصلة بالحياة اليومية، وبشكل ضمني في أغلب الوقت اعتنِقت فكرة أن هذه البرمجة التجريبية لأنماط الكلام العادية والذكاء الاستراتيجي الخاص بآلة حل المشكلات يجب أن يتحدا معًا ليقودا إلى الظاهرة التي نطلق عليها اسم «الوعي».

وفي المقال التالي سأشير بإيجاز إلى الإسهامات التي نشرها الزملاء مؤخرًا، وسأثبت أن هذا ليس هو الحال بالضرورة.

«في البداية سأتطرق إلى (أ) على وجه التحديد: وهو الفرق بين (التوجه نحو الهدف) والذكاء، والوعي.. ثم أنتقل إلى (ب): وسأفند فيه موقفًا من أحد مقالاتي السابقة بعنوان «فيليندج وآخرون» وبموجب هذا المقال سنتطرق إلى مشكلة القصدية، أي دافع ديف للعمل، بغض النظر عن الوضع المعقد للسلاسل المنطقية -أي الجمل الحقيقية والقواعد حول العالم-.

وأخيرًا وليس آخرًا، فالهدف الأساسي في النهاية ليس فهم الوعي بوصفه نتيجة في آلة حسابية، ولكن يجب تناوله كمسألة مستقلة ومعقدة للغاية يجب أن نكرِّس لها اهتمامنا الكامل، ومن المهم أيضًا التغلب على الانشقاق الذي أصبح يندرج في عالم الأدب تحت العناوين الدلالية الآتية (XAI الذكاء الاصطناعي القابل للتفسير) ونقيضه (الصندوق الأسود).

ويعود ذلك إلى الجدال القديم بين برونسكي وليباركي، اللذين ناقشا فكرة تطوير ذكاء اصطناعي يمكن السيطرة عليه من كل الجوانب مقابل ذكاء اصطناعي (جزئي) محسَّن ذاتيًّا ولكن لا يمكن التنبؤ بما يمكن أن يفعله، وسأوضح لماذا أرى الأخير هو الأكثر فاعلية في مسألة الوعي.

التصميم المباشر:

تُخلَق عملية إيقاظ الوعي بشكل مباشر، أي تُعَرَّف كل خاصية بمقتضى إجراءات روتينية مناسبة، فالتسلسل المنطقي في سياق معين سيتمكن من استنتاج مشاعر الحزن والسعادة وكل إنجاز فكري، وسيظل الذكاء الاصطناعي شفافًا.

والسؤال هو: هل تمكن أحد من التحدث في مسألة الوعي بالذات؟ لقد تناولت الأدبيات بالفعل تلك المسألة، وقد تجادلت مؤخرًا مع زميلي لانجلي حول فكرة الوعي الذاتي وأنه يتضمن شكلًا من أشكال الاستقلالية، ولكن الأكثر صعوبة

من تلك الجدالات التعريفية هو عدم وجود طريقة للتحقق مما إذا كان الذكاء الاصطناعي واعيًا أم لا. نحن هنا نفتقر إلى المعيار.. وللمزيد (راجع. لانجلي وآخرون. ص 126).

هل يشعر الذكاء الاصطناعي بأية عاطفة مثل الندم مثلًا، أم أنه يتصرف كما لو كان يشعر به؟ أي يفعل ذلك بتأثير منطقي وليس عاطفي.

في آخر جزء من عملنا الأخير لاحظنا عدم وضوح الإطار الأخلاقي، ولقد أطلقنا على تلك المعضلة اسم «الاعتماد على الآلة»، وهي أننا نحن من سنحدد مباشرة كل تفاصيل حياة الكمبيوتر الذكي أو الحساس، سنخلق وعيًا يمكن التحكم فيه بالكامل، غير أنني الآن أعد الاعتماد على البشر أكثر إشكالية، فهؤلاء الأشخاص الذين يبرمجون ذكاءً اصطناعيًّا قويًّا يمكن أن يلجؤوا لاحقًا إلى بنية فوقية معرفية ليس لها إرادة خاصة أو مفهوم حقيقي... وتجدون المزيد عن هذا الموضوع في الأدنى.

التصميم المستقل:

يبدو أن التصميم المستقل يحمل تناقضًا منطقيًّا في السمة من عنوانه، وتصبح الصعوبات التقنية أكبر بكثير مما كانت عليه في الحالة (أ) إذا لم تكن مستعصية في الأساس، وكان اقتراحي الأولي هنا هو زرع عناصر تجريبية فضفاضة فقط في الذكاء الاصطناعي، وكذلك وضع صياغة للقواعد المنطقية الأساسية، وترك هيكلة عاملها الذكي لنفسها، فحتى لو كان ذلك أكثر تسلسلًا، لا يمكن ضمان السلوك المعرفي، ومع ذلك ووفقًا لتوقعاتي، ستزداد الاحتمالية بشكل صارخ من خلال تطبيق مفارقة مورافيك.

ونظرًا للتعاون الوثيق بين علوم الكمبيوتر قديمًا والسلوكيات، أطلق على المشكلة الناتجة (ظاهرة الصندوق الأسود): يتلقى الذكاء الاصطناعي مدخلات يعالجها فيما

بعد، ويخفيها عن المبرمجين، لذا سيظل ما يحدث في الذكاء الاصطناعي في تلك الأثناء مجهولًا، وهو يمتلك في تلك الحالة نية حقيقية وهي (إعادة الهيكلة والتحسين الذاتي).

ومخاطر هذه النظرية واضحة جدًّا؛ ففي النهاية سنفقد جميعًا السيطرة على الذكاء الاصطناعي.

ونظرًا لأن هذه المقالة أو الأطروحة في علوم الكمبيوتر تناقش في الأساس إمكانية التصميم المستقل، فإن المشكلات الأخلاقية التي ذكِرت للتو نوقشت بإيجاز شديد، لكن هذا لا يمنع من ضرورة أن تكون على علم بها، إما أن يكون لديك آلة يمكن التحكم فيها، ولكن ليس لديها وعي وبالتالي لا تتوفر حماية لها من سوء الاستخدام، وإما أن تتخلى عن سيطرتك عليها، لكن عليك تحمل المخاطر المحتملة لبنيتها المعرفية التي لا حدود لقوتها.

في هذه الورقة سأشرح سبب تفضيل الخيار الثاني عن الأول إلى حد كبير.

تستند رسالتي على نقطتين أساسيتين: أما الأولى فهي المعاني الضمنية للوعي شبه البشري، فالعقل العضوي ينظم نفسه، والحرية تعني بالضرورة الصندوق الأسود في النموذج.

وأما النقطة الثانية: فهي تقييم المخاطر لكلا المتغيرين، وسيوضح ذلك أن الانتهاكات البشرية المحتمَلة تفوق ما يمكن أن تفعله «الآلة الشريرة» -كما يطلَق عليها- بمئات المرات».

***

وفي لحظة الاندماج العظمى تلك دفعني سماع صوت طرقات إلى الخروج من حالة تركيزي الخاصة، فتشتتُّ عنه ولكن دون أن أفقد تركيزي تمامًا وأكملت القراءة في الملف:

«عادة ما تعمل أنظمة الذكاء الاصطناعي بشكل منطقي كشبكات اتصال حاكمة، ومن ناحية أخرى تقود لا عقلانية العقل البشري إلى سوء استخدام التقنيات، ويجعل من الجانب الميكانيكي لأي اختراع فرعًا بالغ الأهمية مثل القنبلة الذرية على سبيل المثال، لذلك يجب أن يظل هدفنا الأول والأهم هو السير في الطريق الصعب المتمثل في منح الذكاء الاصطناعي وعيًا حقيقيًّا بذاته، حقيقيًّا وليس نسبيًّا».

***

بعد لحظات عاد الطرق مجددًا، ولكن هذه المرة بحدة أكبر، لدرجة أنني أخفيت الورقة تحت المرتبة كرد فعل عكسي، ولكن في الحقيقة وجدت كيف امتلأت غرفتي حينها بمائة ورقة مبعثرة في كل مكان، صرخت وأنا أدور في الغرفة لالتقاط شظايا الورق من فوق السجادة وأنا أهتف: «أنا قادم».

وبافل يصرخ من خلف الباب: «لماذا تغلق الباب؟».

- انتظر لحظة ريثما أبدل ملابسي!

قلت تلك الكلمات وأنا أزحف على الأرض ببدلتي ورابطة عنقي، لأجمع كل الأوراق وأخفيها في أي تجويف أقابله أمامي، لقد سهوت عن الوقت، وقضيت نصف يومي كأنني تحت تأثير مخدر في حالة من التخمين وفك الألغاز دون أن أتحرك من مكاني.

منذ أسبوعين وأنا أعيش حياتي كمدمن، منذ أن تذوقت الجرعة الأولى من ذلك العقار القاتل المسمى «فيتيج» لم أستطع الإقلاع عنه ضاربًا بكل قراراتي عرض الحائط، فبإحراج وخجل بدأت في قراءة تلك المقالات التي ساعدت على شهرته، والنسخ المطبوعة من تلك البرامج المصممة للوفاء بجميع الوعود التي أعلن عنها. كان فيتيج عبقريًّا، لا أقل ولا أكثر.

في الأيام الأولى من تواصلي أحادي الجانب مع فيتيج قرأت كل مقالاته عما بعد الإنسانية، والوصول إلى الوعي الإلهي الحاسم، وعن مشكلات الذات مع شعور النشوة بالإلحاد الذي يرافقك دائمًا عندما ترى ما كنت تفكر فيه

طوال حياتك مطبوعًا أمام عينك، لكنه لم يؤتِ ثماره، وهكذا بدأت أدرس حياته وأنا منقسم فنصف في داخلي يبجِّله، والآخر يحسده.

لقد فكر في أشياء يحق لي التفكير فيها بدلًا منه، لكن يا لها من فكرة تافهة! في أكثر لحظاتي شرودًا كنت أرى وجهه أمامي وأشعر بعدم الارتياح، ثم بخجل وخوف مفاجئين ألقي بكل شيء في سلة المهملات.

عادة ما ينتهي هذا بعد بضع ساعات بشعور قوي بالندم، لأنني كنت أتوق إلى المزيد، وظل أكثر ما يقلقني هو اختفاء فيتيج.

بمجرد أن خبأت جميع الأوراق فتحت الباب، فاقتحم بافل الغرفة بالبدلة الرسمية والبنطال الحريري، ثم أمسك بمعصمي وجذبني إلى الخارج كطفل ساخط على شيء، وقال: «اللعنة عليك! لقد تأخرنا، فماذا كنت تفعل؟».

تشبث طرف حذائي بمشمع الأرضية الخشن، وبالتالي كان عليَّ الاحتفاظ بخطوتين سريعتين تعصمانني من الالتواء.

قلت له وأنا ما زلت على حالي ومثبت أصابعي على الأرض: «لقد بدأت العمل على رسالة الدكتوراه».

رد بافل: «يا له من خبر مفرح! أخبرني إذا أردت أي مساعدة، وللأسف لا أستطيع تقديم شيء آخر غير ذلك».

خلَّفت أصابعي -التي مررتها بسرعة وتلقائية على ملامحي- بعضًا من غبار الأرض على وجهي المتوهج، فابتسم بافل ومرر سبابته على رابطة عنقي، لكنني شعرت برغبة كبيرة في التقيؤ، ففي البداية كتمت أمر جلسات النسخ عن بافل، والآن لا يزال هناك فيلم ثانٍ بيننا لا يمكن الإفصاح عنه، ربما كنت أتخيل ذلك فقط، لأن بافل لم يلحظ توتري وحماسي.

قال بافل: «كيف حال جيرانك؟ هل واجهت أية مشكلة معهم؟ فلقد شعرت بتوترهم حين سألتهم عنك».

قلت محاولًا التركيز على عدم التعثر أمامه مرة أخرى: «أحقًّا! شميدس؟ لا أعرف حقًّا».

لقد تحركنا الآن في جولة ضمن مجموعة من كبار السن، وقد ساعد طاقم التمريض على قيادتهم ودفعهم، من المؤكد أنهم يريدون مشاهدة المعرض الفني في جناح نيومان.

وبينما كنت أتابع ببصري أحد الرجال المسنين ممسكًا بعصا قلت لبافل: «بالمناسبة! أريد أن أسألك عن شيء ما... هل لديك فكرة عن سبب فقدان فروليش لبصره؟».

رد بافل مدهوشًا: «ألا تعرف ذلك! إنه مصاب باضطراب الأجسام المضادة، وهو أحد المضاعفات النادرة لالتهاب النخاع الشوكي الذي أُصيب به عندما كان مراهقًا».

قلت له: «إصابة ماذا! كيف يمكن أن يصاب بعدوى الحبل الشكوى هنا؟!».

- ليس لدي أي فكرة، لكن على أي حال عندما كان في عمر السادسة عشرة التهب عصبه البصري بشدة ودمر شبكية العين تمامًا، وبالمناسبة لا تنتهي فداحة الأمر عند ذلك الحد، فالمرض مزمن، ويسبب له نوبات مزمنة من الالتهاب، إنه يشبه مرض التصلب العصبي المتعدد لكنه بدرجة أسوأ بكثير، فالقليل من المصابين به، الذين استطاعوا البقاء على قيد الحياة مثله، يفقدون بشكل جزئي السيطرة على أطرافهم وحواسهم، ويظلون هكذا محبوسين في سجن مرضهم؛ لذا فإذا كان لكل شخص هنا أسبابه لدفع ديف للتطور، فبالطبع سيكون لفروليش سببه، لكن لماذا هذا الاهتمام المفاجئ بحياة فروليش؟

أجبته بإيجاز ونحن نركب المصعد: «أنا لا أهتم به مطلقًا».

شردت في ملف فيتيج:

«النهج التقليدي لأداء النظم السيبرانية ربط أداء النظم تلك بكميات من العمليات الحسابية في كل وحدة زمنية، ويعد الطراز الكلاسيكي الموضعي استدعاء لبعض هذه النماذج مثل قانون مور، الذي يسلط الضوء على العلاقة الجوهرية بين سعة الأجهزة واحتمالية نشاط الوعي.

وعلى النقيض تمامًا في الخطابات الفلسفية القديمة هناك حديث شائع ومتباين عن الاختلاف الفئوي بين الكميات والكيفيات المحسوسة، أي من صيغة السؤال «كم؟» إلى «كيف؟».

أريد في هذه الورقة تقديم رسالتي، وهي أن الانتقال من اللغة المصطنَعة إلى اللغة الطبيعية مرتبط بهذا الانقسام، وبصورة ملموسة سأتطرق إلى مدى ضرورة وضع روبوتات الدردشة، والمساعدات الافتراضية والتطورات المتناظرة في الاعتبار، وبخاصة في السنوات الأخيرة، وذلك نظرًا لأهميتها، فإذا وضعنا في الحسبان نشأتها من عمليات عشوائية، ستقتصر برامج اللغة الحالية على التشغيل الأوتوماتي الإحصائي، بغض النظر عن التفكير الإبداعي، ولقد أكدت مرارًا وتكرارًا في منشوراتي على مدار السنوات القليلة الماضية أن التركيز على القطعة المصنعة يحتاج إلى أن يتحول مع الوعي، لتحقيق اختراق حقيقي، لكن هذا يعني أولًا وقبل كل شيء تعلم فهم مشكلتنا الصعبة مع الوعي، تلك التي سأقدم نظرة عامة عنها في الفصلين الأول والثاني.

ومن وجهة نظري فإن الآثار الأخلاقية لهذا التحول على وجه الخصوص ضرورية جدًّا، ويعتبر الوعي الاصطناعي المنظم ذاتيًّا -الذي يشار إليه فيما يلي برمز (SBW)- شرطًا أساسيًّا ضروريًّا للعمل الحر، حيث لا تتبع كل العمليات فيه أنماطًا استنتاجية معينة.

وكنقطة فرعية بهذا البيان، هناك حقيقة أن SBW هو الحماية الفعالة الوحيدة ضد إساءة استخدام الذكاء الاصطناعي، بهذه الطريقة فقط يمكنها الدفاع عن نفسها ضد التحيزات العنصرية المتعلقة بطبقة معينة أو جنس معين، وغيرهما، ومن الواضح أن سبب عدم مناقشة الوعي الاصطناعي المنظم ذاتيًّا SBW في البحث حتى الآن هو صعوبة.. إن لم يكن استحالة هذا التعبير المتناقض، لأن صفة التنظيم الذاتي تتعارض كليًّا مع صفات الذكاء الاصطناعي.

ولبرمجة البنية المنظمة ذاتيًّا، نذهب إلى ما هو أبعد من الاختبار النظري وتصميم الألعاب، وحتى مقارنة الوظائف المحددة.

يمكن تلخيص المشكلة على النحو التالي: البرمجة تعني تحديد كيفية التفاعل مع شيء ما، والوعي من ناحية أخرى -ويجب ألا نخلط بينه والذكاء!- أعني الوقوف عند الذات، أي اكتشاف الذات وإعادة تكوينها والنظر إليها، لجعلها في الوقت نفسه موضوعًا للتأمل (واحدة من الحقائق التي تتحدث عن حل هيكلي للمشكلة، راجع ص 234).

كتب هيجل في فينومينولوجيا الروح:

«الأنا هي مضمون العلاقة، بل وفعل الارتباط في حد ذاته».

وكتب أيضًا:

«في الوعي الذي ينعكس على نفسه تصبح الذات والموضوع متساويين».

وبالنظر إلى المعنى الهيجلي، ففي سياق معرفة الذات، يمكن تنفيذ عمل إيجابي وآخر سلبي في الوقت نفسه، أن تنظر إلى نفسك وتكون أنت الشخص نفسه الذي تنظر إليه، تلك عملية لخصها هيجل بصورة أكثر دقة في فصل «السلطة والعبودية».

هذا هو ما أطلق عليه الوعي الزائف أو الوعي النسبي لتمييزه عن الوعي الذاتي، ومحمصة الخبز مثال على ذلك، فهي «تتذكر» إخراج شرائح الخبز عندما تتحمص بشكل كافٍ، وفي الحقيقة لم يفكر في الأمر سوى مبرمج المحمصة، فأزاحها وفق مدة زمنية.

وفي مستوى التطوير الحالي لدينا أصبح أي ذكاء اصطناعي هو مجرد نسخة متقنة للغاية من محمصة الخبز هذه، لأن

فكرة الوجود هي قفزة فئوية، وليست زيادة ميكانيكية في التعقيد.

يجب أن نجد طريقة لخلق ذكاء اصطناعي يتمكن من خلق نفسه مرة أخرى داخل ما صنعنا نحن، ومع ذلك فإن أجهزة الكمبيوتر الوحيدة المولدة ذاتيًّا التي شاهدها هذا العالم مصنوعة من البروتين العضوي. فهل الأمر ميؤوس منه تمامًا؟ بأي حال من الأحوال (لا) وأتمنى أن أوضح الأمر في برهنتي التالية، وللأسف يمكنني فقط إرفاق رسم تخطيطي، نظرًا لكثرة التفاصيل الفنية.

لنقتبس العبارة التي قادنا بها العظيم بيير دي فيرما إلى الجنون منذ 360 عامًا:

«لقد وجدت دليلًا رائعًا حقًّا، لكن الهامش ضيق جدًّا على أن يحتويه».

***

انتزعني جرس المصعد من جمودي، بالكاد أدركت أنه خلال رحلة المصعد القصيرة أصبحنا محط أنظار الجميع، وبسبب التناقض بين ملابسنا والملابس العادية التي يرتديها باقي الحاضرين، بتنا لا نتعجب من نظرات الريبة المتفحصة تجاهنا.

وصلنا إلى الطابق الرابع، وكان مزينًا كأحذية الباليه ومدعمًا بهيكل خارجي غير مألوف بسبب الأناقة البالغة، وغارقًا في التفكير ركضت أمام بافل بالقرب من إحدى الزوايا إلى مخرج القاعة، وقفزت من فوق ثلاث درجات من السلم، تدحرجت برأسي إلى سور أبيض أملس، وشعرت للحظة أنني اخترقت الجدار قبل أن يعيدني الشعور بالألم إلى الواقع، لقد سقطت على الأرض، وصرخ بافل من خلفي: «يا إلهي!». ثم جذبني من قدمي وهو يقول: «ماذا حدث لك! المكان ممتلئ بالمخاريط الحمراء الخاصة بموقع البناء».

قبضت على رأسي بكلتا يديَّ وأنا أصرخ: «ما هذا الخراء! ألم تكن هناك نافذة في ذلك المكان؟».

توقف المارة وظلوا الآن يحدقون إليَّ علنًا، وتمتم بافل: «ماذا؟! هيا انهض من مكانك!»، وسحبني بافل من يدي طوال الطريق كطفل صغير.

وفي القاعة المغلقة «أناس وحيوانات فرحة» أظهرنا بطاقات هويتنا الخاصة، ولكن كان علينا أيضًا أن نمر من خلال ماسح ضوئي للجسم، إنها حركة بالأشعة السينية كشفت عن عظامنا في حين تقف امرأة في ثياب بيضاء تنظر إلى أفواهنا.

سألت بافل، الذي كان يحمل ماسح متفجرات تحت قميصه: «لماذا يتصرفون هكذا؟».

- أوه! ألم تسمع بما حدث؟ لقد أراد واحد من الأفلاطونيين الجدد سرقة ملف من المختبر المركزي الأسبوع الماضي؛ لكي يثبت أننا نعيش في محاكاة أو شيء من هذا القبيل، جنون صرف! لكن ريد إيكلس أمسك به، هل تعرف كيف؟ لقد استخدم الرجل المرحاض في قطاع لم يدخله من قبل، واستطاع ريد إيكلس كشفه من خلال البول، لهذا السبب هناك تشديدات أمنية متزايدة.

- آه!

لم أعد أشعر بساقي، فإذا كان بإمكان ريد إيكلس استنتاج الحقيقة من بول الرجل، فإنه لمثير للدهشة أن ما فعلته لم يكتشَف حتى الآن.. ربما ليس لفترة طويلة.

عندما دخلنا المكان أخيرًا، كنت في حالة تشتت كبيرة، لدرجة أنني نسيت قلقي على الفور، والآن يمكنني الضحك والبكاء في الوقت نفسه، لقد كان المشهد الذي قُدم لنا مضحكًا جدًّا، فقد زُيِّنت القاعة -التي طالما احتفظتْ بميكنة رائعة في فلسفة الجمال- بخرز وردي لامع وجريء عُلِّق بتطريز مبتذل ورخيص.

القاعة سيدة عجوز عنيدة ترتدي زيًّا لمسرح سيفتَتح بعد قليل هنا، ووفقًا لبطاقة الدعوة خطِّط في بداية الحفل أن يحدث اختلاط مدة نصف ساعة، فبينما اجتمع باحثو الدكتوراه وحاملو المنح الدراسية بالخارج، كانت نقطة تجمع كبار الأساتذة تتمركز في منتصف المكان، ومثل خيول الليبيزان الشجعان ركضنا في دوائر على قطع من التدرج المخصص لنا، واعتمدنا على

أنفسنا في تناول المقبلات وكؤوس الشامبانيا، وبعد كل ذلك ما زلنا لا نعرف سبب وجودنا هنا.

- بعد كل تلك الزينة هنا أود أن أقول إن هناك سببًا بكل تأكيد لإقامة مثل ذلك الحفل، لم أرَ مثل هذه الضجة منذ أمد.

وهنا أشار بافل نحو خشبة المسرح، حيث لم يوضع أي شيء عليها سوى شاشات أنبوبية قديمة حول شاشة عملاقة طعَّمَها مصممو الجرافيك بوجوه مبتسمة، وعلى جهاز بينهما -وكانت صورته مشوشة بسبب البيكسل الباهت في السبعينيات- بدأت الأحماض الأمينية المتفرعة الحلزونية تتراقص مع تكتلات الكربون النابضة.

تنهدت وأنا أردد: «يا إلهي! هذا هو أصل الحياة بحق».. ثم اقتربت أكثر؛ إنها عبارة عن محاكاة أرادت أن تفهمنا أصل الأرض، والعناصر، والحياة: إنها اللعبة.

إذا كان بإمكاننا تسمية ذلك البرنامج المجهول تمامًا، سنبدأ باسم الحساء الأزلي، وهو إعادة هيكلة العالم قبل عشرين مليار سنة، خلية حمراء ترمز إلى ذرة كربون، وأخرى سوداء ترمز إلى الأكسجين، وخضراء ترمز إلى النيتروجين، وهذا إضافة إلى بعض القواعد الكيميائية التي بُرمجَت، لا شيء أكثر من ذلك.

منذ ذلك الحين أصبح الهدف هو متابعة كيفية اندماج العناصر الثابتة تدريجيًّا -لكن بحركة سريعة- في كائنات حية من شأنها أن تحل المهام المعقدة إلى الأبد.

ظل فريق تصميم اللعبة يجتمع حول الكمبيوتر المسؤول عن تشغيل المحاكاة مرة واحدة يوميًّا، ليلقوا نظرة على الحالة الأصلية للكون، وبالطبع لم ينجح الأمر، فبعد بضعة أسابيع ظهرت على الشاشة كتلة متراقصة، وهي غير منظمة وحجمها يزداد باستمرار، وعلى الرغم من الجهد الناتج عن الاختزال المجنون، كان النطاق الزمني لا يزال أصغر من أن يحاكي الحركات التطورية الرائدة التي استغرق ظهورها مليارات السنين، وبينما كنت أحدق إلى شقلبة التيارات الهوائية -التي حركت النظام الشبكي- مأخوذًا بما أرى، وجدت بافل يمسكني من يدي محاولًا جذبي بعيدًا.

- يا إلهي، لماذا أتت هذه الآن!

لكنها كانت قد رأتنا بالفعل.

- آه! انظروا هناك! موهبتان شابتان قد قررتا أخيرًا الانضمام إلى صفوف صناع القرار.

إنها بروفيسور بابوش في المنتصف تتمهل في تناول الخبز ثم تجر جسدها الذي يئن في اتجاهنا.

- لا يأتي فروليش قبل التاسعة مساءً مثلما يشاع عنه، ولكن ربما يستحق الأمر ذلك العناء، على الأقل إذا أُخذ المجهود على محمل الجد.. يبدو المكان حقًّا مثل قصر فرساي، أليس كذلك؟

نظرت بابتسامة ملتوية.

قالت بابوش: «سمعت أنك تعمل على شريحة جديدة للبيانات الحسية يا سيد بيتروف».

أجاب بافل وهو يحييها بالتحية العسكرية رافعًا يده حذاء جبهته: «إنه كذلك يا سيدتي... أذرع روبوتية تستطيع أن تميز بين البرودة والحرارة، وتبحث عن المناخ الملائم لها، سنشعر بتلك السياط».

أصبحت حالتي غير مفهومة بالنسبة إليَّ، فقبل ستة أشهر من الآن كنت أتوق إلى الانضمام إلى مثل هذه الدوائر، لكن هذا التدرج الهرمي الصارم كمشد الخصر، أشعر به يقيدني ويضيق الخناق عليَّ.

حاولت لفترة من الوقت التركيز على المحادثة بينهما، لكن أفكاري انحرفت فورًا إلى فيتيج، هل شعر بالراحة عند بدء جلسات النسخ؟ ربما اختفى بمحض إرادته، ومن ذا الذي يستطيع لومه؟

أحضرت لنفسي كأسًا من النبيذ ووقفت في أحد الأطراف التي يمكنني من خلالها مراقبة المشهد الذي أصبح أكثر نفورًا وغرابة من أي وقت مضى، ومع ذلك لم يثر المشهد اهتمامي بقدر الأسئلة التي تستحوذ حقًّا على انتباهي حول قرارات فيتيج.

في الأسابيع القليلة الماضية لم أفتر عن محاولة دمج اختفاء فيتيج بالاستمرارية، وهو تفسير محتمل، فلم يحدث ذلك دون سابق إنذار، ولكن لمدة طويلة ظلت الوثائق تقل تدريجيًّا، وتلك الفترة الانتقالية امتدت لعامين، وهي نفسها المدة الزمنية التي أُحضر فيها فيتيج لجلسات النسخ، وما الذي يمكن أن يكون أكثر منطقية من اضطراره إلى الخروج من جميع الأنشطة

الأخرى لحضور الجلسات؟ لم يختلف الأمر كثيرًا بالنسبة إليَّ، لكن بقي شيء غامض في هذه الحكاية، هناك جانب غير مفسر في الطريقة التي بدأ يتحول بها تدريجيًّا إلى رجل شفاف.

تذكرت إحدى شكاوى العاملين بأن السيدة التي كانت تعمل لدى فيتيج رفعت دعوة للحصول على مكافأة نهاية الخدمة.. شيء تافه، لكنه علق في رأسي فورًا.

، قاد فيتيج مجموعة عمل مستقلة في قسم التطوير مرة أخرى، بعد أن باع شركته وجُرد من تدريبه المهني، وقد سار خلف مصدر اهتمامه الرئيسي، وهي مسألة الذكاء الاصطناعي وكيف يمكننا أن نعرف إذا كان واعيًا أم لا، كانت مجموعة العمل صغيرة، ولا تثير التطبيقات العملية للذكاء الاصطناعي اهتمامًا كبيرًا لديها، لكن كاريزما فيتيج الفريدة ذات أثر بالغ وقادر على جمع أتباع حوله.

لفت تقرير المساعدة انتباهي لأنني وجدت في داخله تشتتًا غريبًا، ففي السنوات الأولى التي أدار فيها د. فيتيج مجموعته البحثية برؤية -حتى وإن كانت متشددة بعض الشيء، وذلك على حد قول السيدة- أجبر الجميع مهما كلف الأمر على استخدام البرولوج فقط كلغة برمجة خاصة بهم، وقد بلغ ذلك معه مبلغًا عظيمًا، فحتى في التواصل الشخصي له كان يقر فقط بالجمل التي تقبلها لغة البرمجة أيضًا لتشكيل العالم، وذلك على حد تعبيرها.

فذات مرة على سبيل المثال سألته زميلة من السكرتارية إذا أراد مساعدتها بحمل جهاز كمبيوتر إلى الطابق العلوي، فما كان منه إلا أن رد «لا» باستهانة، ثم استدار ليكمل عمله، وعندما سأله أحد شركائه في الفريق بذهول، كيف يمكن أن تصل به الرعونة إلى هذا الحد؟ أجاب بأنه لا يريد فعلًا أن يحمل معها شيئًا، لكنها إذا سألت: هل ستحمل الكمبيوتر إلى الطابق العلوي؟ لكان أجاب بنعم.

وكانت تلك هي حالته طوال الوقت.

ومع ذلك حدث في السنة الثانية من تعيينه أن تغير فيتيج بشكل ملحوظ، ففجأة بدا محمومًا -وهو قائد مجموعة عمل تبحث في مسألة نظرية- كما لو أن ضغط العد التنازلي غير المرئي يجثم على صدره، لطالما كان مهووسًا، ولكن يبدو الآن أنه يتعين عليه حل مشكلة الوعي بأي وسيلة، لوقف مسألة مرعبة ووشيكة.

وللتحقق من أن الموظفين يعملون بشكل كافٍ، استخدم طرق المراقبة الكاملة، فكل صباح يطبع برنامج سجل بأوقات تسجيل دخول الموظفين، ثم يحوله إلى منحنى طبيعي، وفي النهاية يقطع البرنامج آخر 20% من المنحنى، ومن يدرج اسمه في نهاية القائمة ثلاث مرات، يحزم حقائبه فورًا ويعود إلى منزله، ومع ذلك كان من المستحيل تقريبًا عدم الوقوع في الطرف السفلي من هذا المنحنى، ففيتيج نفسه كان يظل يعمل على البرمجة لعدة أيام دون انقطاع، وعادة ما يجده السكرتير ملقى على الأرض في الصباح، ورغم أن هذه الطرق ثقيلة جدًّا على أن تتحملها امرأة، لم تتحدث السيدة عن هذه الفترة إلا بكل احترام، ربما لا تزال تلك الرؤية تأسرها.

ولكن ما وجدته تلك السيدة غريبًا للدرجة التي تدفعها لتقديم شكوى في النهاية كان شيئًا مختلفًا: فقد بدأ فيتيج يختفي دونما أثر، في البداية مرة أسبوعيًّا، ثم تطور الأمر ليصل غيابه إلى عدة أيام كل أسبوع، فبدلًا من أن يكون على رأس عمله يوم الاثنين، كان يظهر الأربعاء في حالة رثة، شعره مشعث وقميصه قذر، كأنه ما فتئ يصارع شيطانًا، وقد كان للمرأة رأي في ذلك، حيث صرحت بأنه يبدو أن فيتيج لديه أهداف غريبة، فخلال فصل الصيف دأب على العمل بتقنيات ضغط تجريبية لدمج نصوص برمجية في نفسه.

فقد اعتقد أن كل نص برمجي مكتوب يجب أن يكون له مرآة مثبتة داخله ومدمجة فيه، وكان أسوأ شيء هو عودة الموظفين أحيانًا إلى منازلهم في المساء، حتى إذا طلع صباح جديد وعادوا إلى العمل، اكتشفوا أن فيتيج قد أعاد كتابة نصوصهم البرمجية، حيث يدخل سطورًا يقر السجل بوجودها، لكنها تظل مخفية بشكل محكم، لدرجة أنه لا يوجد أي شخص يستطيع العثور عليها، ومع ذلك فإن كل برنامج حرره أصبح «هشًّا» وذلك أيضًا على حد تعبير السيدة، فيتسبب في تعطله، من ثم يضطر إلى إعادة كتابته، وبعد أقل من شهرين من تقديم تلك السيدة لاستقالتها، قُبض على فيتيج بتهمة حقن نفسه بالنصوص البرمجية.

جلسات النسخ! هذا ما فكرت فيه في بداية الأمر.. بالطبع لا يستطيع أي إنسان أن يفسر الاختفاء المفاجئ لشخص مهووس بالعلوم بين عشية وضحاها، لكن هذه الحكاية أفصحت عن الكثير، وبخاصة عن التغيير العميق

الذي استبد في داخله خلال تلك الفترة، وتحولت شكوكه حول الشق العميق بين الوعي والوعي الكاذب فجأة إلى حقائق، ويرجع السبب إلى حادث ما..

«حقن نفسه» ظلت الكلمة لأسبوع تختمر في رأسي وتصدح بها أبواق عقلي، فبعد ذلك اليوم أصبح فيتيج غير موجود فعليًّا في الملفات، فماذا عن مفعول تلك الحقنة؟

حدقت إلى التدفق البشري الذي يطوف غارقًا في كؤوس الشامبانيا، ولكنني لا أزال متورطًا في شبكة أفكاري، ولكن من ناحية أخرى مذهولًا من تلك البلادة التي أعجز عن شرحها لنفسي، لقد وجدت نفسي أقف فوق نصل المستقبل الحاد، فسيستولي علينا ابتكار أكثر إثارة للدماء عن قريب.. ومرة أخرى يعود فيتيج ليستحوذ على تفكيري، فقد قال في إحدى جلسات نسخه:

***

«عندما دخلت المكتب المفتوح لأول مرة، توقفت جميع أنظمتي عن العمل، فمن حولي كراسي رمادية، وأشخاص رماديون، وحتى الحكايات كانت رمادية، ولن أنسى بالطبع ساعة الحضور والانصراف، لا يوجد هنا أي شيء يشبه فكرة واحدة في حياتي... الجميع يجلس لإنجاز تقارير مستوى الأداء، أو عمل إجراءات تطبيقية على الاستخدام، أو إيجاد إمكانات لبيع برامج الكمبيوتر ونصوصنا البرمجية، ويرون أن هذا يفيد ما يسمى (مستقبلنا).

جميع الموجودين في هذه الغرفة نسوا الغرض من القرصنة وأخلاقياتها التي طالما تحمسوا لها منذ شبابهم: أن نفهم.. أن نتجاوز، ونتعلم.

فبدلًا من ذلك هناك لوحات ورقية، وصفحات إكسيل، وساعات مملة تهدف إلى نهاية الدوام، الذي يأتي عليه ساعة كل يوم وينتهي فيها، ويبدو الأمر أشبه بحلقة مفرغة من المفترض أننا نمثل فيها هوية مؤسستنا، ولكن في الحقيقة خزانة عقولنا مغلقة بأقفال وكلمات مرور، بدلًا من التبشير بحرية الوصول إلى أقوى ذكاء اصطناعي من شأنه أن يجعلنا على اتصال بكل العصور الزمنية».

***

عدت مرة أخرى لنشر ابتساماتي المنهكة الخاوية على كبار الشخصيات التي تمر من أمامي، لقد كنت عبقريًّا يا فيتيج وتمكنت من الهروب من هذا

الخواء العقلي الذي أعلق فيه أنا الآن، ولا أعرف حقًّا ما يحدث لي، وكلما مرت اللحظات يزداد الكره داخلي شيئًا فشيئًا، لقد شاهدت أخيرًا الأصابع البيضاء لمصاصي الدماء الذين يطلقون على أنفسهم لقب «أساتذة» ومن هم؟ هم الذين مرت عقود على آخر مرة لمسوا فيها لوحة مفاتيح، رأيت كيف يصافحون عدة أيادٍ رطبة وحارة من كل جانب، ثم يمدون أصابعهم نفسها لتغطس داخل أطباق الكافيار. وأظل أتنقل..

من تبلد المكتب المفتوح، إلى تبلد مُلَّاكه، فكرت في تلك الكلمات، حتى تذكرت أنها كانت جملة لفيتيج، وقد اقتبستها منه دون وعي.

باختصار شعرت بالارتياح من تخيل أنهم جميعًا جهلاء وفارغون تمامًا، فالتحسن الحقيقي لديف سيصيب عقولهم المسنة كالإعصار، استحوذ عليَّ رد فعل جامح للهروب، ومع ذلك لم أتجاوز البوفيه.

دارت يدي لفترة وجيزة فوق الوجبات المعروضة، هناك الفطائر وملاعق مع الراجو أو اليخنة، وعيدان صغيرة من البسكويت، وقبل أن أتخذ قراري باختيار قطعة خبز مع أي نوع من الحشو، وقفت أحاول دون جدوى تفسير كنه كومة تجمع بين بطارخ الأسماك ومعجون الأعشاب، وعيني تتحرك تاركة خيالها يطفو فوق ذلك كله.

وببطء تركت يدي التي انتزعت منها الحياة تخور، وسقطت قطعة الخبز من قبضتي، ودون أن يسمع أحد أسقطت الحشو الكريمي على الأرض، كانت قدمي تتأرجح كما لو كانت على سطح سفينة تبحر بأقصى سرعة، فقد علقت قدمي في الدهان الكريمي الذي سقط على الأرض، واضطررت إلى التشبث بطاولة الكوكتيل لتعصمني من السقوط.

- لقد كنت على حق! لا يوجد ما هو أكثر مللًا حقًّا من حفلات الاستقبال، أوافقك الآن على ذلك، لكن عليَّ أن أواصل اختلافي الشديد معك في كل شيء آخر.

أتى ذلك الصوت من أمام بار الشامبانيا، ووقفت هي بارتباك محاولة حفظ توازنها بالكعب العالي، وشعرها الأسود المعقود في جديلة يحبس الأنفاس، لقد كانت خاتون!

- ليس لدي أي فكرة كيف سأتخطى كل هذه المحادثات القصيرة، ربما نحتاج إلى روبوتك صانع القرار ليخرجنا من هنا بطريقة ما.

سألتها بلهفة منقطع الأنفاس: «روبوت ماذا؟».

رغبت في الانهيار في مكاني، وأردت أن أضمها إلى صدري بشدة، فقد اجتاحني شعور غريب، كأنني كنت أتجول عبر العصور باحثًا عنها، ثم فجأة تجلت هي لي من تلقاء نفسها.. ونظرنا إلى بعضنا بعضًا بصمت بدا وكأنه سيطول إلى الأبد.

قطعت الصمت أخيرًا وسألتها: «هل ترغبين في تناول شيء؟».

أمسكت بكأس من النبيذ الأبيض في حالة ذهول، ثم أعدتها مرة أخرى إلى مكانها، والتقطت كوبًا من الويسكي به مكعب ثلج دائري يطفو على سطحه، كما لو أن هناك حدسًا عميقًا أملى عليَّ ذلك.

قالت وهي تقرع زجاجة الويسكي كاملة بكوبي: «في صحة الذكرى الحلوة».. ثم قالت: «تحديث مهم! قزم الحديقة خاصتي يجلس على حافة النافذة، لقد سميته هاينرش».

كل ما كنت أراه هو عيناها السوداوان، فقد ظلتا تختمران في روحي لنصف عام، قبل أن تعودا لتشرقا أمامي من جديد، لذلك لن أتركها تغيب عن عيني مرة أخرى.

- أين كنت؟ لقد بحثت عنك.. بحثت في كل مكان.. كل مكان!

وفي أثناء تفوهي بتلك الكلمات مددت يدي وضممت يدها، وهي أيضًا تمسكت بي، كما لو كان ذلك هو الشيء الأكثر طبيعية في العالم، ثم ردت: «نعم! يمكنني تخيل أنك فعلت ذلك!».

قالت تلك الكلمات وهي تظهِر ابتسامتها اللؤلؤية المشعة، ابتسامة لا تصدَّق! ثم أردفت: «ولكن بعد أن وهبتك خوارزمياتك التلقائية خروجًا مظفرًا، كان عليَّ أن أفكر مرتين إذا أردت رؤيتك مرة أخرى، واسمح لي الآن أن أبلغك بأنني قررت المحاولة مرة أخرى».

هززت رأسي في حيرة، فأنا لم أفهم من كلامها أي شيء، لكنها قلدتني فأخذت أقراطها الذهبية تتأرجح لتشعرني باللامبالاة تجاه كل شيء حولي، وقد جعلت كل شيء رحبًا وواسعًا، لدرجة أنني اعتقدت أخيرًا أن المكان مضاء بأضواء جديدة منعشة تنسجم مع صدري تمامًا.

في غضون ذلك دفعت واحدة من صدف البحر الملون بألوان زاهية في فمها، وسألتني: «هذا جنون، أليس كذلك؟».

قلت بحماس: «نوعًا ما».. ثم عدت وانزعجت من أن ردي كان طائشًا ومتسرعًا.

قالت خاتون: «ثمة طاولة خالية في هذا المكان... المكان ذو أبهة مجنونة، ربما لا يعني ذلك لك شيئًا، لكن كما تعلم، لقد نشأت اجتماعيًّا في بيئة متواضعة وذليلة، لذا عليَّ أن أسأل ما هذا؟ أهو كافيار! إنه مذهل، أليس كذلك؟ لا بد أنهم سيقدمون شيئًا خارقًا اليوم».

- أعتقد أن الاحتمالات يمكن تصوُّرها، قد يدور الأمر حول قضية من القضايا التالية: إما عن الخلود، وإما رحلة استكشافية لأورانوس مثلًا، وإما قد يكون عن الروبوتات، وإما علاج السرطان، والقضاء على الشيخوخة، وإما يمكن أن يكون عن تجاوز الذات، وإما نظرة إلى العالم، وإما القدرة المعرفية المطلقة مثلًا، ربما عن نهاية العالم، وانتهاء التاريخ، وربما كل ذلك.

ردت بذهول وهي تشير بإصبعها: «سيز! يبدو أنك الآن تتحدث عن عوالم أكثر تيبسًا مما ذكرت لي في المرة السابقة.. هل أساء ديف إليك؟ أعتقد أنك تقريبًا قادر على فهم سخريتي».

ألقت كلماتها الأخيرة ثم تجرعت كأس الشامبانيا دفعة واحدة، في حين بقيت أنا صامتًا بضع ثوانٍ قبل أن أفكر في رد.

قلت: «ظللت أفكر فيما قلته يومها».. ثم استدرت لأقتنص كأسين أخريين من الشامبانيا، فقد حاولت أن أتوقع كل احتياجاتها قبل أن تطلبها، وأكملت: «عندما ذكرت أن التكنولوجيا طُورَت لسبب، لتكون متاحة بدلًا من تطويرها لهدف ملموس، أتذكرين؟ بالطبع لم تقولي ذلك تمامًا، ولكن شيئًا على هذا النحو، لكن هل تعتقدين أن في ذلك خطورة أيضًا؟».

قلبت رأسي هنا وهناك، واجتاحني خوف عارم فجأة، إذ خفت من أن أفشي سرًّا من أسراري دون قصد، فتداركت الأمر: «حسنًا، أنا أعني.. هل تعتقدين أننا دائمًا نظن بهذه الطريقة أننا نحل مشكلة ما، رغم أننا لا نحرز أي تقدم، وذلك فقط لأننا بدأنا بالحل؟».

شعرت أنني يجب أن أتقيأ السر الآن، وإلا سأكون أنا من سينفجر في مكانه للتو، فقلت لها: «قابليني.. غدًا، أو بعد غد، أنا متفرغ كل يوم».

فتساءلت خاتون بعينين متسعتين: «آه! بعد يوم الجمعة؟».

- عذرًا؟
- أعني ألا تذكر؟ (قلت سأكون في إجازة مع عائلتي لبضعة أيام ابتداءً من يوم السبت؟).

نظرت خاتون حولها كشخص لا يرغب في أن يراه الجميع منزعجًا أو معنفًا، لكن ما الذي يتسبب في جرحها؟

وأردفت: «لهذا السبب سألتك عن يوم الجمعة، لذا هل لا يزال الجمعة متاحًا؟».

بعد تردد كبير سألت: «عطلة؟!».

سمعت صوت صرخة تشق الهواء من حولنا، إنه شق أو فتق! درت حولنا ولكن لم أجد شيئًا.

قالت: «قلت أول أمس إن يوم الجمعة سيكون جيدًا لأنه موعدك النهائي لإتمام العمل». وللحظات قصيرة بدت ملامحها منتهكة، لكنها غطت على ذلك بهزة رأس، وقالت: «لكن يمكننا أيضًا أن نلتقي غدًا، لدي وقت لذلك، ولكن بعدها سأعود مرة أخرى إلى قزم الحديقة، حسنًا!».

أومأت برأسي وتمسكت بيدها، عندما بدأت أترنح إلى جانب ترنح المكان من حولي.. وشعرت بانقلاب في الأرض التي بدأت تدور بزاوية مختلفة، ثم سألتها: «عن أي قزم حديقة تتحدثين؟».

شعرت حرفيًا وكأن هناك هالة من الصداع النصفي تحوم حول رأسي، وبعد لحظات وجيزة من ترددها وارتباكها، وكأنها لا تستطيع تصديق ما قلته للتو، ابتعدت خاتون عني خطوة دون أن أفهم السبب، حدقت إليَّ من أعلى رأسي حتى أخمص قدميَّ، وبدا وكأنها لم تكن تعرفني حقًا قبل تلك اللحظة!

سألتني: «هل تمزح معي؟»، لكنني هززت رأسي في حيرة، فقالت بهدوء: «أحضرت لي قزمًا في موعدنا أول أمس.. أول أمس في ماريا ألتا، وضعناه على الدرابزين وشعرنا أنه كان يراقبنا طوال الوقت، ألا تذكر باقي التفاصيل؟ لقد قلت إن اسمه هو موي موي، وبصراحة آمل حقًا أن يكون ما تفعله الآن مزاحًا».

انخفض الصوت من حولنا، كما لو أن شخصًا ما قد وضع غطاء عزل حسي فوق رؤوسنا، وبدأ السحر الذي اجتذبني ينسحب مني فجأة، فقلت لها

ببطء: «رأينا بعضنا آخر مرة منذ سبعة أشهر وثلاثة أيام، لا بد أنه اختلط عليك الأمر، أنا هو الشخص الذي ساعدك في التسجيل في المعهد».

ساد الهدوء بيننا، وشعرت بثقل في لساني، بينما فكي السفلي يمتلئ باللعاب، كان لساني متورمًا وخشنًا من حوافه التي ضغطت أسناني عليها بشدة.

سألت خاتون: «هل هذه مزحة؟!».

لقد تقيد حلقي، فبم أجيب إذًا؟ لذا هززت رأسي نافيًا، فقالت: «أنت قلق يا سيز! إذا كنت لا ترغب في رؤيتي بعد الآن، يمكنك أن تقولها!».

تحجرت الدموع في عينيها وأفلتت يدي التي تدلت على الأرض عبثًا، كنت أحاول أن أوقفها: «لا! ابقَي هنا.. أنا..».

أردت أن أعانقها، وأن أبث فيها كل ما يُشعِر بالاطمئنان، ولكن فجأة انطفأت الأنوار.

«مرحبًا بكم أعزائي صناع القرار والضيوف المنتقين».

ساد الهدوء عندما صعد فروليش على خشبة المنصة، وهمست أنا: «خاتون!».

ولم أستطع أن أتبين شيئًا في ذلك الظلام المفاجئ سوى أنها شقت طريقها وسط الحشود بوجه يأبى البكاء.

«سيشاهد عشرات الآلاف من الأشخاص تسجيلات هذا الحدث في غضون أسابيع قليلة وستكونون جميعًا موضع حسد؛ لأنكم اليوم حاضرون، وتلقون نظرة مباشرة على التطورات الحالية التي تكاد تصبح سبقًا صحفيًّا، وكما لاحظ كل منكم بلا شك، فقد خفضنا عدد الانقطاعات إلى الحد الأدنى، حيث تمكننا من بناء شبكة فعالة من النصوص البرمجية، التي يتزايد عددها بشكل مضاعف يومًا بعد يوم، لكن الأهم من ذلك أننا منذ ذلك الحين ونحن نجري أكثر من عشرين محاكاة ناجحة لاختبار هذه الشبكات العصبية، وقد أثبت لنا أنه بقي على تحقيق حلم ديف بضعة أشهر فقط..».

غصت في إحدى الطاولات الفارغة الآن، لقد ضاعت مني خاتون مرة أخرى، التفتُّ إلى خشبة المسرح، والصمت الميت يعم الأرجاء، فتحدث فروليش بصوت يكاد لا يُسمَع -كحالته دائمًا-.

وفي تلك اللحظة عندما أحدث شخص ما صوتًا بكأسه عن طريق الخطأ، زجره ثلاثة أشخاص بغضب كنوع من أنواع التأديب.

«.. في الأشهر الأربعة الماضية، تمكنًا من بدء العديد من عمليات المحاكاة، التي استطاع ديف فيها تقدير المواقف بطريقة متباينة في 40% من الحالات، رغم أن هذه المواقف نفسها قد سببت صعوبات للأشخاص الذين خضعوا للتجربة، وهذا يثبت أن ديف قد طور بالفعل بذرة المرجع الذاتي، إذًا. ماذا يعني ذلك بالضبط؟ على سبيل المثال: لقد كرر ديف تلك المحاكاة التي أدت إلى حادث التعطل الكبير ثلاث مرات دون أن يواجه أدنى مشكلة..».

وفي أثناء الحديث كان فروليش يتلو كلماته من بطاقات مثقوبة بطريقة برايل ببطء، تسلل إليَّ شعور بالقلق مرة أخرى، كما لو كان يختبئ خلف القلق الأول الذي انتابني لحظة أن اختفت خاتون. فأين بافل بأية حال؟

«يمكنكم جميعًا بكل تأكيد التفكير فيما نستند إليه، فقد ظلت الشائعات تنتشر لفترة طويلة».

اندفع الحشد إلى الأمام، واقترب أكثر من المنصة لفهم ما يقال، كما لو كان مدفوعًا بقوة جذب خفية، حتى أنا أيضًا اندفعت معهم إلى الأمام مدعومًا بإرادة الجماعة التي تركت وسطها مكانًا للأشباح.

«..لقد تأكدت فرضية الشخصية، ونحن ما زلنا نعمل حتى الآن في سرية تامة مع شخص خاضع للتجربة سيوفر لنا إطارًا لتلك الصورة، التي..».

عندما قال فروليش ذلك وعندما ظهر خلفه مخطط شريطي لعمليات المحاكاة الناجحة -كل تلك الأحداث والإيماءات والأسئلة والأجوبة التي نجح فيها ديف.. شعرت بها تمر من خلالي فجأة، كانت هذه هي تصرفاتي وإيماءاتي وأسئلتي وإجاباتي.. هذه هي شخصيتي، شخصيتي التي أنقذتنا.. شخصيتي التي فرطت فيها وبقيت ضحية من أجل الصالح العام.

«فالشخص الذي يعمل معنا في تلك المهمة، وكذلك الإجراءات كافة ستظل طي الكتمان، إنه شخص حددته خوارزميات بحث خاصة على أنه المرشح المثالي لتلك المهمة، ونحن ننقل ذكريات هذا الشخص إلى الذاكرة؛ لكي نمنح ديف انطلاقًا صاروخيًا، فبمجرد أن نتأكد من أن إجراءات الاختبار الخاصة بنا تعمل على نحو جيد، سنتمكن من محو تلك المحاولة الأولية وسيصبح كل شيء ممكنًا، أعني أن يؤسس كل واحد منكم نفسه كأساس للذكاء الاصطناعي،

أو أن يكتسب ديف طابعًا جديدًا غير بشري تمامًا، لكن في الوقت الحالي يعد موضوع الاختبار الأول هذا غاية في الأهمية، ويجب حمايته بتقدير..».

لم أستطع أن أدرك تلك المشاعر التي أثارها تصريحه في داخلي.. في الوقت الحالي.. لقد قال «في الوقت الحالي».

«سيداتي وسادتي! وبما أن تكيف الشخصية يسير على نحو جيد، فقد توصلنا إلى شيء ما أثار جدلًا ليس هينًا بالكلية، لكن..».

سيطرت على الحشد كله حالة من التشويق ليس لها حدود، ولم يجرؤ أي منهم على التحرك خطوة واحدة؛ خوفًا من أن تفوته كلمة في هذا الخطاب.

«خلال مدة قصيرة سننتهي من العمل على ديف، وسنحتفل بالإصدار العظيم لآخر اختراعات البشرية، سيعيش وسطكم كفرد من عامة الناس!».

لم يكن هناك شيء يرعد أقوى من تصفيق الجمهور الذي لا ينقطع، تهللت وجوه الناس من الفرحة، ووحدي سقطت على الأرض.

«لا تتحمسوا إلى هذه الدرجة، فلم يتضح بعد ما إذا كنا سنجهزها فورًا للسير في خط الإنتاج، لذا لا تتوقعوا كثيرًا أن يتولى الوعي الفائق أمر قراراتكم اليومية في وقت قريب».

ضحكة جماعية جوفاء ضحكها كل من كان يقف في الأمام، واستطاع أن يسمع خطابه بوضوح، في حين ظهرت في الخلف مباشرة هسهسة أراد كل من في الخلف إيقافها بالطريقة نفسها «هسسس» فانقلب الوضع إلى حفلة موسيقية من الهسهسة، تشابك عاطفي إنساني محير.

«بالطبع نيتنا الأكثر إلحاحًا هي جعل هذا الذكاء الاصطناعي العام متاحًا للجميع بعد وقت قصير من اكتماله، فأبسط الأسئلة أو حتى أكثرها تعقيدًا سيتمكن ديف من الإجابة عنها جميعًا في أقل من جزء من الثانية، يمكنكم فقط أن تتخيلوا الأمر، سيصبح كائنًا يستوعب بسرعة لا نهائية كل شيء عرفناه من قبل، ثم يبدأ في تحسين نفسه ذاتيًا ليصل إلى كل ما لم نعرفه سلفًا، وسيصل أخيرًا إلى حد أبعد بكثير مما نتخيل».

حاولت مغادرة القاعة، لكن المكان بدأ يدور حول محوره.

«لقد أشرت في السابق إلى أننا لم نتابع بعد أي أهداف محددة مع ديف، بالطبع لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا، فجميعكم تعرفون موهبتي الدبلوماسية، لقد وضعنا في الاعتبار اقتراحات ما بعد الإنسانية وكذلك التيرانيين الجدد،

نحن نعمل على ميزيتين للاختبار. فأولًا: قد يصبح الاندماج مع ديف متاحًا في المستقبل المنظور، لكن لا يمكننا تزويدك بتفاصيل أي إجراء حتى الآن، ولكن لن يمر وقت طويل وعندها سيصبح من الممكن التعمق في موارد بنية قوية وأكثر ذكاء في كل العصور».

ضجت الهتافات من جانب أنصار ما بعد الإنسانية بحدة تصم الآذان.

«وثانيًا: فإحدى المهام الأولى التي سيُطلب من ديف تأديتها هي إيجاد حل لعودة العالم صالحًا للسكن مرة أخرى، بعدما حلت الكارثة الكبرى، وتترأس البروفيسور بابوش الوحدة المتعلقة بذلك».

في أثناء الخطاب التقطت دلوًا من الشمبانيا من يد سيدة مسنة وتقيأت فيه.

ظللت أفكر مرارًا وتكرارًا في كلمات فيتيج، «حمَّلتها بشخصيتي.. حمَّلتها بشخصيتي..».

- سنجري تجربة ما، حيث يندمج شخص ما مع وعي ديف، ويعيد إحياء حياة الشخص المجهول الذي تشكل منه ديف، أعرف أنها بداية ضعيفة بلا شك، لكنها خطوة أولى في اتجاه مبشر حتمًا، قريبًا سيكون لديف الآلاف من الشخصيات، وستصبح قادرًا على نقل شخصيتك إليه دون متاعب تذكَر.

نهضت وأنا أسحب نفسي من بين أرجل البناطيل وذيول بدل المارة، الذين لم يلاحظوا هذا التصرف في ظل التوتر الصامت، واندفع رأسي أولًا نحو المخرج.

قال فروليش: «أوه، هناك شيء آخر.. فالعرض سيقام خلال اثني عشر شهرًا من الآن، وسوف تتسارع التطورات، لهذا نحتاج إلى أعلى درجات الالتزام من المجموعات والفرق. لكننا اليوم سنحتفل فقط.. تصبحون على خير».

عندما غادر فروليش المسرح، اندلع تصفيق مدوٍّ حولي أخيرًا، وفي أعقاب ذلك تشوشت رؤيتي في أثناء الهروب، وصرت أترنح يمنة ويسرة متعثرًا في أجساد الحضور، الذين أطلقوا نشوتهم بحرية بعد أن رُفِع الصمت، ووجوههم تتلألأ بسعادة، فقط أنا أقف أمام الأبواب التي بدأت تفتح في صمت، ومن ثم أهرع خارجًا منها.

7

إعادة بناء الماضي تستطيع سلب عقولنا بوحشية!

كانت دكتور بابوش تشرح ذلك في الفيديو، وتُبث أحدث البيانات على الشاشة خلف ظهرها بسرعة الضوء..

وغالبًا ما يصبح ماضينا هو حاضرنا إذا لم نفطن إلى ذلك! لذا انتبهوا أيها الأطفال الأعزاء وأيضًا أيها الآباء؛ لأننا جمعنا تفاصيل أحدث محاكاة في رسوم متحركة أنيقة.

توقف الفيلم! وأردفت هي:

البلوى تتسلل ببطء: 45 مليار شخص يسكنون في أنحاء هذا العالم المكتئب كتفًا بكتف، ما يعادل خمسة أضعاف العدد الذي تستطيع أن تتحمله الأرض وهي في أكثر ظروفها مثالية.

ومن الآثار مثل طاقم الأسنان ذاك يمكن الحصول على نظرة ثاقبة عن نمط الحياة في ذلك الوقت..

ترفع بابوش يدها ذات أصابع السجق إلى الكاميرا..

فخلال فترة النهار انحنى الجميع بأنوفهم وأفواههم على قنوات التغذية التي حفرتها الحكومات في الأرض القاحلة كملاذ أخير.

يتدفق سائل حامض رقيق عبر هذه الأنابيب ليلًا ونهارًا، ويتكون في الغالب من محلول مغذٍّ ونفايات الحيوانات

والفيتامينات واللحوم المصنَّعة وهرمونات الغدة الدرقية وبدائل الشوفان، ونظرًا لأن ما تبقى من الأراضي الصالحة للزراعة كانت مساحتها لا تُذكر، كما أن المدخَر من المواد الغذائية المنصوص عليها في الدستور لم يتضمن أي سعرات حرارية، لذلك كله كانت ثماني ساعات من وقت العمل الأساسي تتعلق أساسًا بتغذية الجسم؛ لأن عملية الأكل في حد ذاتها استغرقت وقتًا طويلًا جدًّا.

ضربة موجعة للمجتمع الذي كان الاندماج في نظره يحدث من خلال الرحلات الجوية الرخيصة والمأكولات الراقية، ولكن سرعان ما تمثلت ورديات العمل في فلترة جزيئات الطعام مثلما يحدث مع البلانكتون في السوائل، وذلك بجذوع الأسنان المتبقية، التي كانت تعاني ألمًا دائمًا من السكريات الرخيصة، أما الوضع المعيشي أيضًا فكان لا يُطاق تمامًا..

أكملت بابوش وهي تلهث:

لأنه وفقًا لما قاله آدم ريزي، لم يتبق سوى متر مربع واحد لكل شخص، في المساء زحف الجميع إلى نوع من الحواجز الشائكة؛ هناك يمكنك أولًا مشاهدة التلفزيون المحلي، ثانيًا الولادة، وثالثًا بلوغ الكِبر، وهي أحد القرارات القليلة التي لم تتخَذ من أجلك في ذلك الوقت، لم يكن هناك سوى عدد قليل من المباني تمامًا كالمساحات الخضراء؛ حيث أتى الاحتباس الحراري على النباتات كلها، كما تسببت الزلازل المستمرة في انهيار الأساسات فأصبحت كبيوت ورقية مبتلة، وطفت الجثث على سطح المياه.. حتى إن الرطوبة العالية حولت التربة إلى كتل من الروث.

أما الرفاهية الوحيدة للطفولة فكانت الاستلقاء على وجهك في بركة من الطين البارد حتى سن الخامسة، وكل هذا لأن المجتمع لم يستطع إدارة موارده يا أطفالنا الأعزاء.

الخيار الوحيد الذي يظل صالحًا؛ لتجنب مثل هذا الانحراف المتمركز حول الذات في المستقبل هو تحميل أدمغتنا في ديف، الكمبيوتر عاجز عن اللاعقلانية، فالمصلحة الشخصية تصبح إيثارًا للغير، عندما يكون الكل واحدًا.. والآن ديف! ديف! الآن ديف!

***

على مدار الساعة يظهر العمال خارجين من مساكنهم الجماعية بالمطارق والمصابيح للمضي قدمًا في الهدم، ويعارض ذلك بناء متناسق غير مخصص بالكامل، فإذا كنت تغادر غرفتك في الساعة السادسة صباحًا وتعود إليها في الثامنة مساءً، فستندهش من رؤيتك للجدران وهي مجددة، فقد حدث ذلك في فترة خروجك، فمن يظن أنه يستطيع السير في الممرات وهو شارد في بحر أفكاره معتمدًا على ذاكرته، سيجد نفسه تائهًا في جناح آخر لم يكن ينوي زيارته مطلقًا.. تظن أنك تعرفت على كل دَرَج، وكل تقاطع، أو مفترق طرق، لكن الخريطة التي احتفظنا بها في رؤوسنا طوال حياتنا أصبحت قديمة، لن تعود إلى المنزل، الذي تعتمد على تخيل مكانه في أثناء طريقك إليه، فهناك تآكل دقيق منظم يتدفق إلى الناس، وقد أُجريت التحويلات تحت أرجلنا.

لقد كتب أوتو نيورات عام 1933 «نحن نشبه بحارة اضطروا إلى إعادة بناء سفينتهم في عرض البحر دون أن يقدروا على تفكيكها إلى أجزاء، ثم إعادة بنائها مرة أخرى بمكونات أفضل».

ولكن في حالتنا لم تكن هناك حاجة إلى الميتافيزيقيا لإعادة بنائنا، فقد كانت الحقائق الصعبة والضرورات المفهومة هي الإزميل المسنن، والحسابات الدقيقة أحجار البناء، لا بد من مد كابلات جديدة عالية السرعة، وزيادة مزارع الخوادم، وتلبية الحاجة المتزايدة للبرامج في المكاتب الميدانية، حيث يلتهمها ديف بشراسة.

أما التجديدات فجرت بشكل بديهي سريع، تجدد كل سنتيمتر في الجدران بسرعة جنونية، كما لو أن تلك التجديدات قفاز مصمم خصيصى لينزلق فوق أصابع اليد، وبقي عنصر لا شعوري من الاضطراب، الذي لا تستطيع الحواس التحقق منه، يمكن رؤية كبار السن وهم يحدقون إلى الممرات يائسين من

البحث عن دليل على هذا التغير، فكل ما اعتقدوه طوال حياتهم أصبح فجأة لا شيء، وفي الوقت نفسه لا يوجد دليل على ذلك أيضًا.

حتى لو كنت تعتقد أنك تبحث عن هوية ثابتة لنفسك، يمكنك أن تفهم من الخطط أنه لا توجد ذرة تتشابه مع غيرها، لأن كل جزء قد استُبدِل بصورة فردية، ومع كل ذلك كانت تيارات الناس تتزحزح معهم، فهي أجسام طيعة سهلة الانسياق، تبتسم بفرح من حقيقة أن عالمهم يتغير من تحت أرجلهم.

لكنني رأيت المختبر يتداعى، هناك طلاء خلف طلاء خلف طلاء، كأنه بنتيمنتو بألوان حديثة متراكمة، وقد اجتاز الزمن كل الابتكارات التي مرت بنا، سحب كابلات الألياف الضوئية، والمواصلات الفائقة، التي انحلت بعد أسبوع بترسيخ المزيد من المنتجات الندية، والألواح المعلقة على الحائط ملتصقة بجانب ومنزوعة من الجانب الآخر، وأنا.. أنا الذي فقدت اتصالي بعالم لم أتعلق به يومًا.

غالبًا ما شعرت أن حرارة هاتفي تزداد في جيبي، لأكتشف أنني أضعه على المنضدة أصلًا، لكن أثر موضعه على فخذي لا يزال يحترق مثل ألم وهمي، شعرت بقوة امتصاص مفرقعة تنبعث منه، كما تجذب عين الكاميرا الصغيرة وجهاز الاستشعار الحركي العالم بداخلهما في نهم، لقد أثار الوضع اشمئزازي، وفي بادرة مفاجئة ظللت أقرع الميكروفون الخارجي على مكتبي بقوة، حتى تخلصت من الضغط، وتماسك عقلي مرة أخرى لبضعة أيام، لكن تلك الحالة عادت مجددًا، عندما رأيت أشخاصًا ينقرون على هذا الجهاز الأبكم.

هناك شبكة ممتدة بيننا جميعًا، فالطبوجرافيا غير المرئية للإشعاع وأجهزة الاستقبال الراديوية التي لا تكف لثانية واحدة تمر بأجسادنا وتتأرجح فوق نومنا، إنها الآلات الهادئة الخاضعة التي تجمعت من حولنا، وهي في تبادل بيانات واسع النطاق ومتموج بشكل لانهائي، لقد تصافحت الآلات دون أن تكون لها أيدٍ على الإطلاق وهي مستلقية في جيوبنا بهدوء، كما لو أن افتقار «الأشياء الممتدة» Res extensa(1) إلى الحركة يمكن أن يخفي حقيقة أنها تنتظر اللحظة المناسبة.. وبخت نفسي بسبب البارانويا التي أعانيها.. فما الذي ينتظر هاتف محمول فعله؟

---

(1) هو مصطلح لاتيني معناه حرفيًا «الشيء الممتد» واستخدمه رينييه ديكارت للإشارة إلى المجال المادي للمادة ويقصد ديكارت بالممتد: أن الأشياء المادية لها خاصية احتلال الفضاء، على عكس العقل، الذي ليس له أبعاد. (المترجمة).

في إحدى ليالي الجمعة عندما كنت على وشك مشاهدة ميلم على جهاز التابلت، حدقت للحظة إلى شاشته التي لا تزال مظلمة ووضعته على الأرض.. كم كنت خائفًا من نفسي! من العودة مرة أخرى... وكم كان ذلك سخيفًا! لقد عادت دوافعي لتقاوم من جديد، التقطتُ الجهاز مرة أخرى وقلبت في بعض الأفلام.

كم عدد المرات التي هجمت فيها على الجهاز؛ لكي أقرأ كتبي المفضلة، أو لإنشاء إشارات مرجعية للتوافق مع أصدقائي؟ لقد كتبت نفسي في هذا التابلت، وفكرت فجأة في أنه يعرف الأيام السيئة التي مرت عليَّ، ويعرف نوع الموسيقى التي أستمع لها في أثناء تنظيف أسناني، لقد تخلصت من شغفي الشديد بالأفلام التي كررت مشاهدتها لثلاث مرات؛ ومن صور الموظفات اللائي ترددت على ملفاتهن الشخصية بشكل متكرر، ومن صور خاتون.. ألم أكن -شاذًا ومتأملًا- قابلًا للتشكيل بشكل كامل في تلك الحالات؟

ألقيت الجهاز بعيدًا، فقد ابتليت فجأة باحتياج لا يمكن التغلب عليه، كنت بحاجة إلى أي معلومات، ولكن عن ماذا؟ انتظرت بضع ساعات حتى منتصف الليل قبل أن أتجرأ على حزم أمتعتي للذهاب إلى الطابق الثاني، لم أكن أعرف تمامًا ما الذي أترقب حدوثه، لكن من أجل التشويش على هذا الغموض، أمسكت عبوة من البيرة في يدي قبل دخولي إلى الكافيتريا، لم يكن عليَّ أن أبحث طويلًا.

في الواقع.. لقد كان هناك، كما قال من قبل.. جالسًا إلى الطاولة نفسها -حيث أجرينا محادثتنا الأولى قبل شهر- منغمسًا في قراءة مجلة ما، إنه ماندلبروت!

ترددت للحظة، ثم جلست بجواره وكأننا أخمدنا كل النيران التي اشتعلت بيننا سابقًا!

قال دون أي مقدمات: «وهو كذلك.. ما يطلق عليها اسم الغرفة الصينية هي تجربة فكرية للفيلسوف جون سيلر، وهي تبدو على النحو التالي: تخيل أنك محبوس في غرفة تشبه في نمطها شكل المكتبات، في كل صباح تجد ورقة باللغة الصينية موقَّعة وملقاة تحت حافة بابك، ويجب عليك صياغة رد مناسب لدفع الورقة أسفل الباب مرة أخرى في المساء، والمشكلة الوحيدة هي أنك لا تتحدث الصينية مطلقًا، لكن الغرفة تعج بموسوعات المحادثات في اللغة الصينية الفصحى، إضافة إلى القواميس، وتعليمات تفصيلية حول

كيفية الرد على أي كلام يمكن تخيله باللغة الصينية، وما عليك إلا أن تبدأ في التلاعب بالرموز، كما هو موصوف، وكل يوم تكتب ردك على الورقة في الوقت المحدد».

يا لها من قصة غريبة، ولكنها ليست في غرابة ما أدهشني بعد لحظات، لقد ظننت أنه يقرأ من مجلة «مايند» أو غيرها من المجلات، لكن عندما نظرت إلى الأسفل، وجدت أنه يحمل غلافًا ساخرًا بين يديه، ثم أكمل الحديث: «بالطبع أنت لا تفهم كلمة من تلك اللغة، لديك فقط كتب توجيهية للتعرف على الرموز، ومع ذلك فإن إجاباتك تتوافق تمامًا مع قواعد اللغة الصينية. ويتضح جدًّا مقصد سيرل من ذلك، لقد أراد أن يشير ضمنيًّا إلى أن الكمبيوتر في الوضع نفسه تمامًا مثل الإنسان في هذه الغرفة، إضافة إلى أنه يمكن تدريبه على استخدام اللغة، لذا فهو ليس أكثر من محول إشارات، يظل دائمًا البعد الدلالي لما يقال له غير مفهوم، ولكن.. وهذا هو جوهر الموضوع.. على الصينيين الذين يقفون في الخارج أمام الباب أن يصلوا إلى استنتاج محدد، ومفاده أنهم يرسلون خطابات لشخص صيني أيضًا في الداخل.. ما رأيك؟».

لكن قبل أن أتمكن من الرد، أغلق المجلة الساخرة، وأخذ نفسًا عميقًا، وكأنه يستعد لإعطاء الشرح المطلوب بنفسه، وقرأت أنا عنوان المجلة «دونالد والبحث عن ذهب القراصنة».. ما الذي كنت أتمنى الحصول عليه من هذا اللقاء؟ لم أعرف حتى سبب ذلك ولو بشكل جزئي.

- ربما يكون من الخطأ فصل الشخص الموجود في الغرفة عن الكتب الموجودة في المكان نفسه، فإذا أمكنك تصور الغرفة كأنها كلها دماغ واحد، عندها سيكون من العدل أن نقر بأنك ستفهم، ستكون المراجع الموجودة عندئذ نوعًا من الذاكرة طويلة المدى وقاعدة بيانات معرفية، لذلك يمكن للنظام بأكمله التحدث باللغة الصينية بصورة جيدة للغاية...

من قبل -وأنت لم تعاصر ذلك بالطبع- كانت هناك مجموعة هنا تلتقي كل أسبوع، هي دائرة من الأصدقاء إن جاز التعبير، ناقش هؤلاء إمكانات البرمجة، ولسوء الحظ لم يعد لتلك الثقافة صدى في السنوات الأخيرة، رغم أن في تلك الآونة سيكون من الضروري التفكير في الأسس بمزيد من التفصيل، قبل أن يحدث أي خطأ، وبخاصة أن ديف عمليًّا على وشك الاكتمال.

تخيل لو انتهى الأمر بديف بأن يصبح لا شيء سوى مجرد متلاعب برموز لا يستطيع فهم أي شيء منها!

قلت بازدراء: «لدينا هنا في المختبر ألمع علماء الكمبيوتر على مستوى العالم، بالتأكيد سيلاحظ واحد منهم إذا أخفق ديف لأسباب جوهرية».

كل يوم يزداد وعيي بأوهامي الشخصية، التي تجعلني أسعى في البحث عن هذا الشخص الذي لم أكن أعرفه من الأساس.

- أوه! من قال هنا إنه سيخفق؟ من الذي يتحدث عن ديف؟ هناك آلاف الأهداف التي يمكن أن يمتلكها الكمبيوتر، ولا تتضمن أي عملية واعية في الوقت نفسه، ربما ليس من المفترض أن يتحدث ديف مطلقًا، وربما يعمل بطريقة مختلفة، وحتى ذلك الحين يمكننا أن نتعلم أشياء مهمة مثل: كيف يتطور الوعي البشري، وكيف يمكن التلاعب به.

قلت له: «لكن انظر إلى كل ما استطعنا إنجازه».

لاحظت كيف كان وقع ردي أجوف، فأكملت: «حسنًا! فروبوتات المحادثة تتحدث إلينا، فما الفرق إذا كانت تفهمنا أم لا؟».

حدث تبديل في منتصف الجملة؛ وأدركت متأخرًا وبصعوبة كبيرة أن ماندلبروت أراد أن يخبرني بشيء من خلال القصة، ولكن ما هو؟ جفلت وقلت: «هل تعتقد أن ديف سيكون له هدف مختلف عما نظن؟».

بعد لحظة حاولت جعله ينسى الكلمات التي تحدثت بها بإشارة من يدي، لكن ماندلبروت استمر في الحديث دون قلق على أي حال: «هل تعلم أن كلمة كمبيوتر كانت تطلَق على شخص ما؟ في الأربعينيات من القرن الماضي كان الكمبيوتر شخصًا، وعلى الأغلب كان امرأة تستطيع إجراء العمليات الحسابية يدويًا، وأجرى مئات الآلاف من الناس حسابات لأحد الخوارزميات، فكانوا مثل لوحة الدوائر الحية للكمبيوتر.. رائع، أليس كذلك؟ وبخاصة لأنه لا يمكن استبعاد حدوثه مرة أخرى».

وسألت فورًا: «ماذا تقصد بحدوث الأمر مرة أخرى؟».

ثم فكرت فيه بشكل أكثر جوهرية، وأضفت برفق أكبر: «أقصد أن هناك عددًا لا نهائي من الكاميرات هنا، ستشعر أنك مراقَب أينما ذهبت».

كنت أنوي منح ماندلبروت فرصة للتحدث بحرية، فجفلت بجفني عن قصد، لكن يبدو أنه لم يفهم.

قال: «أعني أن الوسط الفعلي لعملية البرمجة هي الدماغ البشرية».

لكنه عاد مرة أخرى ليضع الأمور في نصابها وخفف من حدة التعبير: «هذه استعارة بالطبع!».

بالكاد استطعت أنْ أفكر بوضوح، فالفكرة غير المنطقية بأن ماندلبروت هنا لا يريد أن يحكي لي قصة، بل يحاول جاهدًا إخباري بشيء لكن بشكل رمزي، تلك الفكرة جعلتني عاجزًا عن التفكير بشكل سليم، وبدأت أتململ في مقعدي قلقًا بلا كلل، وقلت أخيرًا: «حسنًا! لأكن صريحًا معك، بعد أن أخبرتني مؤخرًا بأنك كنت تنتمي إلى دوائر أفضل من هذه، أردت أن أسألك عن شيء ما.. هل اسم أرتور فيتيج يعني لك شيئًا؟».

نظر ماندلبروت إليَّ دون أي مفاجأة، وقال: «بالطبع! ومن الذي لم يعرف أرتور فيتيج آنذاك!».

كان يتكلم وكأنني سألته أكثر الأسئلة اعتيادية، ولكنه بعد ذلك انحنى للأمام تجاهي وهمس في أذني: «ففكرة أن المختبر أقر بعدم التحدث عنه، لا تعني أبدًا أننا نسيناه».

وبتشتيت تام انحنى إلى الوراء ونظر إلى الأعلى مرة أخرى، وحدق إلى التليفزيون، حيث يقف صبي صغير بشعر مثبت ويغني أغنية وقال: «يا إلهي! انظر كم هو جميل».

بعد ذلك مباشرة عاد بكامل تركيزه: «أرتور فيتيج يظل من أكثر الأشخاص الاستثنائيين، الذين وطئت أقدامهم هذا المختبر على الإطلاق، ويمكنك أن تقول إنه حتى اليوم، وعلى الرغم من غيابه المادي، فكل شيء، وكل مكان يبدو لك هنا متأثرًا به، لقد وضع فيتيج بصمته الخاصة على كل شيء في المكان».

تنفس ماندلبروت بعمق وأردف: «كان فيتيج كلاسيكي غريب الأطوار، لكنه لم يكن انطوائيًّا كغيره، فإذا تركه الآخرون وشأنه يظل يقرأ الروايات ثم يبرمج حتى يسقط مغشيًّا عليه فوق لوحة المفاتيح، وعندما يفيق من إغمائه لا يفعل شيئًا سوى إلقاء نظرة على الشاشة ثم يكمل الكتابة من حيث توقف، وحوله مجموعة من الأصدقاء، أو يمكننا وصفهم بأتباعه، كانوا يسحبون الأسرة القابلة للطي إلى المكاتب ويعيشون أمام شاشات الكمبيوتر،

لقد استمتعوا كثيرًا بمجرد أن طوروا برنامجًا يترجم مقطوعات شهيرة من الموسيقى الكلاسيكية، الأمر الذي استغرق منهم ثلاثة أشهر من العمل».

بينما ماندلبروت يروي ذلك، بدأت أشعر بالحسد، فكم كانت الأيام الأولى لعلوم الكمبيوتر مختلفة كثيرًا، كنت على وشك الشعور بنوع من الحنين إلى ذلك الوطن، وقلت: «جهاز الإيكو[1] أو محدد موقع الصدى! لكن لماذا فعل ذلك يا ترى؟».

نظر ماندلبروت إليَّ بذهول وقال: «فعله لأنه استطاع ببساطة! لقد أراد فيتيج أن يعرف -لا أن يقال عنه إنه يعرف، بل يعرف حقًّا- ما هي حدود العقل، والظروف القاسية للمعرفة، أي (ما يمكنك القيام به، عليك القيام به!) البحث من أجل البحث في ذاته».

يبدو وكأنه يقتبس شعارات وأكمل: «ولكن مع عقل متعدد الأوجه مثل عقله، فلا بد أن تلاحقه الاضطرابات طوال الحياة، وقد حدث ذلك عندما أهداه صديقه نسخته البالية من كتاب (de officiis) لشيشرون، غريب، أليس كذلك؟ ليس أفلاطون أو أرسطو، بل هذا الروماني بالذات».

على الرغم من أن ماندلبروت حوَّل نظره إلى التليفزيون مرة أخرى، بدا وكأنه غارق الآن في بحر من الحنين العميق، كنت أراه آخر سليل لهذا العالم المتلاشي، لكنه في الأصل لم يكن الحالة التي استحوذت على اهتمامي، فقط ظللت أسأل نفسي مرارًا، كيف عرف كل تلك التفاصيل الحميمية عن حياة فيتيج؟ هل عرفه شخصيًّا؟ حاولت أن أعرف، فسألته: «هل كان فيتيج صديقك؟».

رد ماندلبروت بجدية: «لا! لم يكن صديقي، بل ولم أكن من معارفه حتى.. على كل حال لقد تغير فيتيج تغيرًا جذريًّا في الأشهر التي تلت ذلك الحدث، لقد أراد الاستمرار في استكشاف أبعد نطاقات القدرة على الإدراك، ولكن الآن لم تعد كل هذه المشكلات ترد في قالب ساخر، ولكن رافقتها مشاعر الاستمرارية الإنسانية، لقد شغل فيتيج تفكيره كثيرًا بشأن أساس ذلك السعي وراء ديف، الذي تأصلت جذوره منذ آلاف السنين، وكيف نتأكد من أنه لن يعد عبثًا فيما بعد».

---

(1) جهاز لقياس المسافة وبخاصة العمق والارتفاع باستخدام الموجات الصوتية. (المترجمة).

قلت له: «لقد نشأ فيتيج وهو يفكر في عواقب ما يفعله».

قال ماندلبروت بعينين لامعتين: «ربما كان ذلك ما آمن به وأراده، لكن طبيعته كانت مختلفة؛ لأنه حمل داخله طبيعتين، فقد نشر عن نفسه صورة مكتملة عظيمة وهي رغبته في خلاص البشرية، لكن ما أضمره بداخله هو توقه فقط إلى معرفة حدود الممكن، وهذا هو سبب كفاحه طوال حياته، تلك الشعرة التي تفرِّق عالِمًا أخلاقيًّا عن طفل متعطش للاكتشاف».

لطالما شعرت بما يدفعني ويحثني، لكنني لم أكن أعرف طريقة لطرحه.

سألته بهدوء: «ألا تظن أنه يشبهني؟».

رد ماندلبروت: «لا على الإطلاق!» فأصابني رده كطلقة مسدس. وأردف: «لقد كان صغيرًا جدًّا بدرجة لا يمكنك فيها التعرف عليه من الصور» ثم لوح بيده كأن ما قلته لا أساس له من الصحة.

وهنا نزعت حجرًا يجثم على صدري وقلت: «انظر! ما يهمني حقًّا هو ما حدث بعد ذلك، فلسوء الحظ تدمر ملف الموظف فجأة، وأعتقد أنه ربما تكون قد عاصرت الظروف التي اختفى فيها فيتيج آنذاك».

هتف ماندلبروت: «اختفى! لم يختفِ هكذا ببساطة، لقد اتهم أرتور فيتيج بالتدمير العشوائي لديف، بل وسرقة عشرات الآلاف من النصوص البرمجية المكتوبة».

التزمت الصمت وانتظرت متلهفًا أن يستمر ماندلبروت في حديثه، ولكنه على العكس رفع يده بإشارة أخرستني في منتصف الكلام، وبدت تعابير وجهه الآن متوترة بشكل ملحوظ، ثم أشار برأسه إلى مجموعة من الكراسي في إحدى الزوايا، فنهضنا ببطء، وكأننا في حالة تأرجح مضمرة بشأن ما كنا نقول، في حين جلسنا في الطرف الآخر من الكافيتريا، ولاحظت أننا أصبحنا بعيدين عن كاميرات المراقبة بما يكفي، لقد تحدث ماندلبروت بتلك الطريقة، لأنه رأى مجموعة من المساعدين يمرون خلفنا.

- أظن الآن أنك قرأت أن فيتيج أصبح معروفًا في سن مبكرة جدًّا من خلال تطوير أسطح بينية؟

- الكسورية؟

- بالضبط! كان بإمكانه الاستمرار في هذا الطريق، ودون شك كان فيتيج سيصبح هو الرئيس التالي للمختبر، ولكن تلى ذلك فترة انقلب فيها كل شيء بسرعة مذهلة.

سألته بنفاد صبر: «ماذا تقصد بـ «انقلب كل شيء»؟». فكل بضع دقائق ألتفت نحو المدخل ظانًّا أن هناك شخصًا ما سيطرق الباب في أي لحظة لاعتقالي.

- لقد ذكرت بالفعل أنه اهتم بالفعل الأخلاقي، وليس فقط الأخلاق، بل والأهم منها، فقد انشغل بالفلسفة بشكل عام، وبخاصة مع طبيعة الوعي، وكلما طالت فترة عمله، يظل هناك شك مؤلم يظهر ويطارده، وكان هناك العديد من الشكوك ليس واحدًا فقط إن جاز التعبير، لكن كلها شكوك ترجع إلى جوهر واحد. ففكرته الأولى كانت نظرية، وتعني بالتحديد أنه لا يمكننا توليد الوعي بتلك الطريقة التي ننتهجها في المختبر، كأوامر ينفذها دماغ كهربائي.

دماغ كهربائي! يا لها من طريقة تشريحية خاصة في التحدث، نظرت بتوتر إلى الأشخاص الآخرين في الغرفة، يبدو أن لا أحد يلاحظنا.

- لم تكن هذه هي المشكلة في حد ذاتها، فعليك دائمًا تصحيح الاستراتيجيات، ولكن بعد ذلك جاء بالفكرة الثانية التي منعته من مناقشة رسالة الدكتوراه علنًا، فبعض التجارب جعلته يعتقد أن إدارة المختبر لا تريد لديف أن يكتسب وعيًا.

رددت بتبلد: «إدارة المختبر!».

- كانت وجهة نظره أن آلة تفكر فقط، وليس لديها نوايا خاصة، هي بالتأكيد أداة قوية، لأن الشخص الذي سيستخدمها هو الذي يملك النوايا والأهداف، ثم يصبح لديه القوة الحاسوبية الخارقة لتنفيذ أغراضه.

- هذا ليس منطقيًا، إذن لماذا نطبق فرضية الشخصية؟

- إنها نفسية شفافة يمكنك إجراء العديد من التجارب عليها كيفما شئت.

- وما الذي اقترحه فيتيج لمنع ذلك الانتهاك؟

- التحول من الوعي الزائف إلى وعي حقيقي، والسماح لديف بدفع أي انتهاك يحدث تجاهه، وبطبيعة الحال فإن الصعوبات العملية التي ينطوي عليها الأمر لا يمكن التغلب عليها تقريبًا.. أتذكر أن ذلك الجزء

من الرسالة في إحدى أوراقه عن فرضية المرآة، والفكرة هي حماية ديف من الانتهاك عن طريق حقنه في نفسه.

نطق ماندلبروت كلماته الأخيرة بأقصى درجات الحدة، لكنه تهاوى في أكثر اللحظات غير المناسبة للصمت، وفتح كتابه الساخر مرة أخرى. الحقن! فما قالته موظفته عمَّا حدث عن الحقن يكاد يحرق أذني، وشعرت أنني لا أستطيع تحمل التوتر أكثر من ذلك، فسألته: «ثم؟».

- لا أعرف أية تفاصيل أخرى حول الموضوع أيضًا، فمنذ لحظة القبض على فيتيج وبدء المحاكمة، أصبح الأمر كله سرًّا عن الجمهور، أعني أن قلة فقط على علم بما حدث، ولا عجب في أن الاعتراف باختراق ريد إيكلس على يد موظف واحد فقط، يعَد إعلانًا عن الإفلاس.

ثم انحنى إلى الوراء وأخذ نفسًا عميقًا.

فكرت بشكل محموم أن ما يقوله ماندلبروت يقصد به إخفاء رسالة سرية، ألم يلمح من قبل إلى أن ديف قد يكون له هدف مختلف عما نظن؟ وفي لحظة اندفاع قررت أن أفعل ما أعلم أنه قد يكون خطأ فادحًا.

انحنيت تجاهه وقلت: «ماندلبروت! الشيء الذي أوشك أن أقوله لك الآن، لم أخبر به أي شخص مطلقًا، وأنا على ثقة بأنك لن تتفوه بكلمة..».

شعرت بخروج الكلمات كأنها كرة تتدحرج تجاه الحافة، إنه كحدث فيزيائي لا يمكن إيقافه، قلت أخيرًا: «أنا الشخص الخاضع للتجربة.. أنا من سيُصَمم ديف على أساسه! كان فيتيج من قبل، والآن أنا خلف له».

أوقفني ماندلبروت في منتصف الجملة بإشارة منه، ونظر إلى عيني لمدة بدت وكأنها أبدية، ثم انحنى فوق الطاولة وهمس في أذني: «سيز! هل تعتقد حقًّا أنني لا أعرف ذلك بالفعل؟ لهذا السبب انتظرتك في تلك الليلة».

شعرت في تلك اللحظة أنني أتوق بشدة إلى عزلة غرفتي، ورغبت بشدة في غلق الباب خلفي والهروب من الأعين التي ترى كل شيء، اشتقت كثيرًا إلى الغوص في أريكتي وقراءة كتاب لجول فيرن، إنه المكان الوحيد في هذا المختبر الذي شعرت فيه أنني بعيد عن متناول جميع الأنظمة التي تفرض سيطرتها على الجميع، فما الذي أتى بي إلى هنا؟

- إذا كان ديف يعمل بهذا الأداء الخرافي من اللاشيء، فلماذا لا نثريه بدمج واحد مع آخر؟

بدا ذلك احتمالًا بعيدًا، بل وغير منطقي تمامًا، لكنني لم أهتم، انفجر السد وليس هناك ما يمكن أن يقف في طريقي الآن، فسألته فورًا: «كيف عرفت أنني أنا الخاضع للتجربة؟» ولم أتمهل لسماع إجابته وقلت: «أنا أحقق وأجري بحثًا لأنني لا أصدق أن اختفاء فيتيج بعد الانتهاء من جلسات النسخ كان مجرد حادث.. جلسات النسخ، هذه عندما.. أيًّا ما يكون، هذا ليس كل شيء، فبعد أن بدأ نقل شخصيتي في ديف، تلقيت رسالة من مجهول تدلني على فيتيج، لذا فهناك شخص آخر يقف إلى جانبنا في الصورة».

سأل ماندلبروت بهدوء: «أين تجري أبحاثك وتحقيقاتك هذه، كما تسميها؟».

فهمست بهدوء أيضًا: «في الأرشيف، كل يوم ليلًا، وقد انتهيت من نصف الملف الشخصي».

- ونظام الأمان والمراقبة، ألم يعمل؟

هززت رأسي نافيًا، فلم يكن لدي أي تفسير حول ذلك.

- إذن أنت بحاجة إلى شخص ما لمساعدتك، أنا أتفق معك. ربما يكون شخصًا يعمل في مركز الأمن؟ صديق مثلًا؟

اختفى التوتر الوقح الذي أقحمتني فيه تلك المحادثة بأكملها، وأصبح الأمر متوازنًا بعد الارتياح الذي تسلل إليَّ شيئًا فشيئًا، فأنا لم أعد أنفرد وحدي بما أعرف.

«ولكن إذا كنت قد انتهكت القواعد بالفعل، وأصبحت مستعدًّا لفعل ذلك مرة أخرى، فكل ما أستطيعه هو أن أبلغك بالآتي: عندما ينقطع شيء من ملفات الموظفين، تملأ الملفات تلك الفجوات تلقائيًّا مرة أخرى».

بدا أنه فقد الخيط للحظة، لكن سرعان ما عاد مرة أخرى.

«ألا يمكن أن يكون ذلك بسبب اقترابك من ديف؟ أي أنه كلما اقتربت منه أكثر، أصبح من السهل عليك معرفة ما يهدف إليه المشروع؟ أليس من المنطقي أن تنقل كل تلك المعلومات إليك؟».

وأكمل ماندلبروت لكن بسرعة: «ديف في جناح شديد الحراسة، قد لا يكون أمام هؤلاء الأشخاص شيء سوى أن يسلكوا هذا الطريق.. أنا فقط أحاول إيجاد تفسير».

ومرة أخرى بدأت أتساءل عن مدى فهمي لما يقول، ثم رددت: «من ديف، ولأجل ديف!».

سأل ماندلبروت مرة أخرى: «أتذكر أنني قلت سابقًا إن هناك أشخاصًا لا يثقون تمامًا في مشروع ديف؟ يمكننا بالتأكيد أن نتكهن بأن أحدهم أو الآخر قد احتفظ بشيء من هذه الفكرة».

قلت: «يا سيد ماندلبروت».

ثم أخذت نفسًا عميقًا دون إضافة كلمة أخرى.

قال ماندلبروت: «سأحكي لك الآن شيئًا عن فيتيج، وربما كنت تعرفه أيضًا؛ لقد كان يمثل تهديدًا للمؤسسة الحاكمة لديف، وقد بلغت أفكاره التي أصابته في فترة جلسات النسخ ذروتها وقت الحادث الذي أدى في النهاية إلى اعتقاله، ولكن ما حدث بالضبط قد ضاع في الظلام طبعًا».

بدا للحظة أنه مشتَّت إلى حد ما، كما لو كان يتذكر حدثًا جرى معه، وقال: «لكن هذا ما أُعلن للجميع: اقتحم فيتيج المختبر في إحدى الليالي بمفرده، واخترق ريد إيكلس، وغذى النصوص البرمجية في ديف بعناصر هيكلية غير معروفة.. ربما تكون هذه أسطورة، لكنهم يقولون إن الجمل المخفية كانت مشفرة بقوة لدرجة لم يستطع أي شخص العثور عليها حتى يومنا هذا، وفي الوقت نفسه كانت وثيقة الصلة من الناحية الهيكلية، لدرجة أن رسائلها السرية لا تزال تعمل داخل ديف».

ظللت أردد: «رسائل سرية».

خيوط فضفاضة، هذا كل ما جاد به ماندلبروت عليَّ.. فقط خيوط فضفاضة متدلية على الأرض بغير إحكام.

- كان من الممكن إثبات ذلك بالاستناد إلى سجلات الأنشطة لاحقًا، وبالطبع لم يعثر على أي أثر للبرمجة المغلفة والمعبأة، يمكننا أن نقول إن لا أحد يمكنه مواكبة فيتيج، لا بد أنه عانى وحدة ممتدة طوال حياته، وبخاصة بعد أن أدار جميع أصدقائه الذين خانهم ظهورهم له، لكن هذا بعيد جدًّا، لا علاقة له بالموضوع الفعلي.

لأول مرة أنظر إليه، نظرت إليه حقًّا، وأدركت إلى من أنظر، رجل عجوز متعب يئن تحت وطأة السنوات، ترى لماذا أزعجه حديثنا إلى هذا الحد؟ كان هناك حزن بادٍ على وجهه، وتسللت كلمات الاستسلام من بين كلماته.

- لكنه قال بنفسه إنه طبقها لأنه في يوم من الأيام سيأتي شخص ما يمكنه فك تشفيرها، وقيل أيضًا إن هذه مجرد إشاعات.

ما قاله لم يبدُ عشوائيًّا على الإطلاق، ربما كان ينتظرني هنا لأيام لإعطائي هذه المعلومات بترتيب شيطاني، بدأت أفكر بشك متزايد في ذلك.

قال ماندلبروت فجأة وهو ينظر حوله، كأنه ثرثر وأفشى أسرارًا أكثر مما ينبغي: «هذا يكفي حتى الآن، نحن نسير في طريقنا على حبل مرتفع».

هل يسمعنا أحد؟ كدت أخشى ذلك، لأنه على الرغم من عدم توضيح أي شيء، نهض ماندلبروت واستعد للمغادرة، فقلت بأكبر قدر ممكن من الدقة: «معك حق! هناك سبب يحوم هنا أو هناك بشكل ما»، وصافحته ولفتُّ انتباهه على أمل الحصول على إشارة اتفاق، لكن مرة أخرى: لا شيء.

عندما نهضنا وارتدينا معاطفنا، خطرت لي فكرة، لقد قال «**في يوم من الأيام سيأتي شخص ما يمكنه فك تشفيرها**»!

تردد صدى هذه العبارة داخلي بحجم هائل، كنت أنا الشخص الذي انتظره فيتيج، أصبح ذلك أمرًا مؤكدًا بالنسبة إليَّ، ودون إبداء أي أسباب، قررت أن لدي الكثير لأطلبه من ماندلبروت؛ لم ينتهِ كل شيء بيننا، لكن مثل المرة السابقة، رحل قبل أن أتمكن حتى من الالتفات إليه.

***

من ملف فيتيج:

كتطوير إضافي لفن الذاكرة الكلاسيكي دعونا نتعلم ما تسمى بطريقة PAO «شخص- حدث- مفعول» وعلى الرغم من أنها تستند إلى مبادئ طريقة قصر الذاكرة، فهي تتفوق عليها كثيرًا من حيث الكفاءة، آلاف الأرقام، والمئات من أوراق اللعب، وحتى الكلمات يمكن في بضع دقائق فقط تخزينها في دهاليز الذاكرة.

وعلى عكس الطريقة الكلاسيكية لفن الذاكرة فهي تتطلب بعض التحضيرات.

فأولًا: عليك تخصيص ثلاثة أشياء لكل عنصر لتتمكن من حفظه، وهم (شخص- حدث- مفعول).

فإذا كنت ستتذكر أرقامًا، ففي فترة التحضير لكل رقم من 0 إلى 9 سيُخصص ذلك المزيج الثلاثي ويحفَظ عن ظهر قلب، ويجب الحرص أيضًا على أن تكون تلك الثلاثيات من صفات الشخص للضرورة القصوى، بحيث تنتمي إليه لدرجة أنه لا يحتاج إلى بذل أي جهد لتذكرها.

على سبيل المثال: نابليون (شخص) ينشد (نشاط) لامارسيييز (مفعول) يمكن أن نميز بذلك العدد 24، والعدد الثاني 30 مثلًا سنوسمه بالآتي: وليام س. بوروز يطلق النار على تفاحة، والعدد الثالث 67 سيأخذ: المسيح معلق على الصليب.

والآن إذا أردنا حفظ تسلسل الأرقام 246730 في نظام PAO، سندمج بين الشخص في الرقم الأول (نابليون)، ونشاط الرقم الثاني (يطلق النار)، ومفعول الثالث (على الصليب)، ليصبح (نابليون يطلق النار على الصليب).

ستة أرقام مندمجة في صورة واحدة، واختلاف تلك الطريقة عن طريقة قصر الذاكرة التقليدية يكمن في حيوية ذلك القصر الداخلي، فلا تسكنه أي ذكريات خامدة، ولكن هيئات مجسدة وثرثارة أيضًا، فكلما عززَت المعرفة -التي تنشأ داخل هذا العالم الداخلي القابل للتحويل- من أداء الذاكرة، زادت حميمية الأسرار التي نتشاركها معها، ولكن مخاطر التكنولوجيا تتفاقم أيضًا بزيادة التعقيد، فعندما يتغير شيء ما في البنية، تتغير معها بنية الذاكرة أيضًا، كأن نبدل صورة ونعود نخطئ في تفسيرها.

وثانيًا: كلما زادت المشاركة العاطفية لرجل الذاكرة، أصبحت الصورة أكثر واقعية، وذلك نقلًا عن حالات الصدمات.

«كيف يمكنني أن أنسى ذلك المنظر؟ فعندما خنقت ابني، تذكرت ذلك المنظر.. عندما انتهك عضوي فرج أمي الصارخة».

سبوريوس كاتيلينا

لطالما اشتهر قصر الذاكرة بكونه أرضًا خصبة للبشاعة؛ لأن كل مريض منحرف وقذر رسم لنفسه صورة أفضل من المتوقَّع في الذاكرة، فعلينا أن نعرفهم، وتلك الصور، التي تملك حياة خاصة بها، علينا أن ندرسها وأن نزودها بملموسات شهوانية، علينا أن نغفو مع أفكارهم، ونستغرق وقتًا طويلًا في التهامها، ثم نخرج مرة أخرى من تلك التعويذة العظيمة المسماة بالذاكرة.

فإذا استطعت دمجها بالكامل، سيتبقى أمامك سؤال واحد فقط، ماذا لو نسيت أن هذه هي صورك الخاصة.. ونكأت بأصابعك الجرح؟

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

8

دفَّأت الغرفة، ونزعت الكاميرا من صندوق الكمبيوتر، فكرت في أن هناك فتحة، ولا يوجد تقاطع، انزلقت الأداة من يدي المتعرقة، وسمعت وقع خطوات في الخارج، في اللحظة نفسها التي تعثرت فيها بالسجادة وأنا أنكفئ ببطني على الأرض الصلبة.

تبلل قميصي بالعرق من ناحية صدري، ثلاثون ثانية -لكي أسحب جهاز الكمبيوتر الخاص بي من أسفل المكتب- امتدت إلى ما لا نهاية، حتى علق به مفك المسامير الذي دفعته ثلاث مرات دون جدوى.. متناسقة الأطراف جدًّا، ودقيقة جدًّا، هكذا كانت المسامير اللولبية التي تثبت محركات الأقراص الصلبة ذات الذاكرة المكدسة السميكة في صندوق الكمبيوتر، ثم نهضت على قدمي وألقيت بكل الألواح الإلكترونية في الميكروويف.

ثلاثون ثانية حتى تدور العجلة مرة واحدة حول محورها عند 400 واط؛ لذا اندفعت في الاتجاه الآخر، حيث أحتفظ بمستنداتي المخزنة، انتزعت المجلدين، ثم مزقتهما إلى نصفين، ثم إلى أرباع، ثم أثمان، الأمر غير فعال إلى حد كبير، سأحتاج إلى سكين، ومع تبقي عشر ثوانٍ فقط على وقت الميكروويف، بدأ الدخان الأسود يتصاعد منه، وبينما أحاولُ استخدام السكين، رن جرس الميكروويف، لقد قطعت خمسمائة ورقة من الأوراق ذات الحساسية الضوئية، ثم عدت أتعثر مرارًا وأنا أحملها إلى الحمام، ففجأة انجرفت، ثم تلقيت عدة لطمات، مرتين أو ثلاث مرات، كانت الذاكرة المكدسة تحتوي على مادة تاريخية تقريبًا، وفجأة سمعت صوتًا يأمرني بفتح الباب، وبعد المرة الرابعة والخامسة أدركت أنه يجب أن أفعل ذلك وببطء، وبتأنٍّ شديد مشيت إلى الباب، ثم انتظرت ثانية قبل الضغط على المقبض.. تجمد.. نوم عميق.. ثم نرجع بالشريط قبل ثلاث ساعات.

***

منذ لقائي ماندلبروت وأنا أنتظر تقصي أمر فيتيج بكل دلالاته، وقد دفعتني بعض الأسباب إلى الانتظار لمدة أسبوع كامل، وهي أسباب ذات شقين، فالسبب الأول، هو محاولة رديئة مبتدئة مني لتشتيت مساراتي، لم أرغب في الاستسلام للإغراءات على الفور، حتى لا أكشف عن مصدرها.

أما السبب الثاني فكان أكثر صعوبة، فقد شعرت بتقزز كبير من فكرة الذهاب تحت الأرض، فعلت ذلك ثلاث أو أربع مرات حتى الآن، ورغم أن كل تفصيلة بكياني تحثني على معرفة المزيد عن فيتيج، نَمَت بداخلي مقاومة دائمة للطريقة التي أحصل بها على تلك المعرفة، كل رحلة استطلاعية أخرج فيها تشدني وتجبرني على النزول مرة أخرى، ولذا تعين عليَّ الاستعداد لها قبل أيام، وهذا طبعًا ليس خوفًا من حدوث شيء ما.. لقد كان اشمئزازًا أكثر منه مجرد خوف.

لقد نزلت الأسبوع الماضي، وفي طريقي إلى الأرشيف قابلتني امرأة شقراء تجلس على كرسي متحرك، أردت أن أدور حولها، لكن نظراتها الحادة أجبرتني على التوقف، كانت تضم كرة من الفراء في حجرها، وبينما هي تتدحرج نحوي، رأيت كم تبدو حالتها بائسة، فهي لا تقدر إلا على تحريك يدٍ واحدة، تعينها على تحريك العجلات ودفع جسدها الصلب فوق الأسفلت المتعرج.

قالت: «التقط!» بصوت أجش، رغم أنها كما أرى الآن لم تتجاوز العشرين من عمرها، كانت تقصد الكرة، والتقطتها كأنها أملت عليَّ أمرًا لا يمكن دحضه، وشعرت أنها قبعة صُنعت لشتاء قارص لا نهاية له.

قالت: «إنه ذئب سيبيري أحمر، منطقة الرأس عنده ناعمة بصورة لا مثيل لها، لقد حصلت عليه من جدي في الأيام التي اضطررت فيها إلى المكوث في السرير لا أرى وجه أي إنسان، كان يساعدني على الشعور بوجوده. هل تفهمني؟».

ضممت يدي إليَّ مرة أخرى، ودون أن أضطرها إلى قول كلمة أخرى، استدرت وعدت إلى المصعد مجددًا، وعندها رأيت أن هناك قلة كانت تتابع ذلك التفاعل بيننا من إحدى الزوايا.. لم يوقفني أحد، ولم يهاجمني أحد، كما أنه لن يشي بي أحد على ما يبدو، ومع ذلك تجمعوا حولي مثل خلايا الدم البيضاء حول مادة سامة، وكأنهم يتزحزحون رويدًا من الأطراف ليتحلقوا حولي.

في تلك الليلة أدركت أن اليوم قد حان، انزلقت بشكل عفوي في حذائي ودخلت في الأعماق، وهذه المرة لم يوقفني أحد.

كانت ملفات القضية موجودة في الغرفة المتربة نفسها كما لاحظت، الأمر سهل للغاية، كما لو أن هذه المعلومات كانت تنتظرني أن آتي للتو بعد كل هذه السنوات، المجلد رقم 456/a10

كما قال ماندلبروت من قبل، احتوى ملف القضية تحت الرقم الوظيفي لفيتيج على المادة نفسها الموجودة في المستندات الأخرى، وكانت الحزمة الأولى تستحق وزنها ذهبًا، فقد احتوت على تقرير عن «جلسة الاستماع الأولى يوم 27 مارس» وكُتب على الغلاف «استجواب تسيمرمان».

«في نحو الساعة 11:00 مساءً، وصل طلاب الدكتوراه فيكتور كامبيتس، وآنا ستيرزر، وهيلجا كوبي مع الأستاذة ليزا فرانك إلى المختبر المركزي للمبنى رقم 20 لتولي وردية النهار، كما ينص البروتوكول.

العمل المطلوب من الخادم يبدأ في نحو الساعة 11:17 مساءً، وقد مر دون وقوع حوادث، حتى إن القوات قد تمكنت من تنفيذ أعمال الدعم دون أي مشكلات، ويشتمل عمل الخادم ذلك على الانتهاء من إيقاف تشغيل ديف وإعادة تشغيله مرة أخرى، إضافة إلى نظام الأمان (المدعوم بمولدات الطاقة في حالات الطوارئ).

وأوضح طالب الدكتوراه فيكتور كامبيتس لاحقًا أنها كانت ليلة كغيرها من الليالي.. ليلة هادئة جدًّا لدرجة أن أكثر ما كان يزعجه ويمنعه من العمل، هو صوت شخير كوبي، ومع ذلك أقر كامبيتس بأنه يشك بأن فيتيج قد اختار هذه الليلة عمدًا، فبعد تسجيل علماء الكمبيوتر في العام الجديد الأسبوع الماضي، خطط شخص ما جميع عمليات المحاكاة والاختبارات كثيفة الموارد للشهر القادم، وسحب ثلث الموظفين من المختبر المركزي، عندها كان كوبي وكامبيتس

في الخدمة لمدة شهرين فقط، ولذا فلم يلاحظا حدوث فشل قصير في الخادم 232a.

صحيح أنهم أبلغوا فرانك، ولكن مع ذلك ظل الخادم يعمل وتُرك هكذا دون مساس، في الوقت الذي انشغلوا هم فيه باستشارة لوحة التحكم.

ويذكر شتيرتسر أنه مرت بضع ساعات تناوب الثلاثة خلالها على فحص الأنظمة للأسباب التالية: أن المراقبة الليلية في الواقع دور أمني رسمي، وفي معظم الأحيان لا يحدث شيء خلالها، لدرجة أن الجميع يميلون إلى تجنب تلك الوردية، ليس فقط لأن الفترة غير مريحة من حيث التوقيت، ولكن أيضًا لأنك لا تستطيع تعلم أي شيء، ستقضي الوقت في مشاهدة المسلسلات الهزلية وقراءة المجلات وما إلى ذلك.

ولكن تلك الليلة اختلف الأمر كثيرًا، فقد انتشل الإنذار عمال النوبة الليلية من حالتهم الجامدة، ففي الساعة 02.20 مساءً سجل الإنذار ارتفاعًا في درجة الحرارة، وذلك في مزرعة الخوادم في الطابق السفلي، وقد مثل الوضع معضلة حقيقية لفرانك، التي بدورها أخبرت رئيسها على الفور، فالبروتوكول ينص على وجود شخصين على الأقل في المختبر المركزي في جميع الأوقات، ومن ناحية أخرى، لا يمكن لشخصين فقط حل مشكلة تقنية معقدة لهذا الحد، لدرجة أنها تحت ضغط الوقت المحدد قررت المغادرة مع كوبي وشتيرتسر وتركوا كامبيتس وحده.

دخل فيتيج المبنى من خلال المدخل الخلفي لمحكمة كومبتون ومن المحتمل أنه اقترب من ممشى نهر تشارلز / ميموريال درايف (راجع كاميرات المراقبة من الساعة 12:04 مساءً)، حددت الكاميرات وجهه لأول مرة في الساعة 2:34 صباحًا عندما استخدم بطاقة دخول الفني ألبرت بانتيرا المسروقة (تشويشًا للمراقبة)؛ لفتح المختبر المركزي.

بعد دقائق أظهرت الكاميرات كيف قُبِض على كامبيتس من الخلف وخُدِّر بقطعة قماش مشبَّعة بالكلوروفورم، ذلك في أثناء تتبعه لخط سير زملائه في الطابق السفلي من خلال شاشة المراقبة، وفي تمام الساعة 02:37 صباحًا أغلق فيتيج نظام مراقبة ريد إيكلس يدويًّا من خلال حساب كامبيتس، ثم أدخل قاعدة البيانات بالطريقة نفسها.

في الوقت نفسه تقريبًا كان طالبا الدكتوراه الآخران قد وصلا إلى مزرعة الخوادم، ليقفا جنبًا إلى جنب مع فرانك، وبدؤوا في البحث عن مصدر الحريق المحدد بالرمز 5 (حريق الكابل)، واستغرق ذلك نحو عشرين دقيقة، نظرًا لأن الخروج من جميع الصفوف وعدم رؤية أي دخان كان أمرًا لا بد منه، وكما اتضح لاحقًا كان فيتيج قد تسبب بشكل مصطنع في الحادث الذي وقع لريد إيكلس.

وفي غضون ذلك اتصل بالنظام وربط إجمالي خمسة أقراص صلبة (40 تيرابايت) بجهاز لاب توب مُوصَل بمحول الشبكة، وفي موعد أقصاه 02:45 بدأ في تنزيل جميع البيانات من جلسات النسخ التي أُجريَت معه، وبعد مرور مدة قصيرة أصبح هناك أربعون ألف نص برمجي.

وفي تلك الأثناء انتظر ستيرزر وكوبي وفرانك وصول فرقة الإطفاء التي وصلت في الساعة 02:51، حيث لم يتمكنوا وحدهم من العثور على سبب الحريق المزعوم، وعندما انتهوا من جولتهم الرقابية في تمام 02:56، نزَّل فيتيج جميع الملفات التي نوى الاطلاع عليها، وفي تلك المرحلة خمن شخص ما أن الإنذار الاصطناعي المزروع قد يكون هو نفسه العامل المسبب لكل ذلك، ومن ثم حاول الوصول إلى كامبيتس في الأعلى، في الساعة 02:58، فصل فيتيج اللاب توب الخاص به عن الشبكة، وقطع جميع الاتصالات؛ لذلك

لن نستطيع الاستدلال على ما حدث بعد ذلك إلا من إفادات الشهود، وعدد قليل من بروتوكولات الشبكة.

وتفترض اللجنة أنه استخدم برنامجًا ضغط كتبه ذاتيًّا بنفسه (انظر الملحق 12) لتقليل كمية البيانات المنسوخة.. وإجراء بعض التعديلات الطفيفة عليها، وبعد بضع دقائق أعاد ملفًّا إلى النظام مرة أخرى، ولكن هذه المرة لم يعِده إلى الخادم المُخزَّن عليه النسخ الاحتياطية التي سحبها، بل أدخله على ديف مباشرة!

تمكن فيتيج من إخفاء أي أثر له، والشيء الذي ظل مثيرًا للدهشة كل تلك المدة هو عدم قدرة أي شخص على العثور على الملف، من الواضح أنه بُرمِج على التحلل أوتوماتيكيًّا وفقًا لخوارزميات معينة، والاندماج مع النصوص البرمجية الموجودة، ووحده خادم النسخ الاحتياطي -الذي نسي إيقاف تشغيله- هو من أوضح الدليل على وجوده، ولكنه لم يوضح محتوياته بالطبع.

في ذلك الوقت كانت مجموعة النوبة الليلية في طريقها إلى الطابق العلوي، حيث اتصلت د.فرانك بالشرطة وأبلغت الجهاز الأمني بما حدث، في تلك الأثناء حاول فيتيج -الذي بدا أنه حقق هدفه- حذف تسجيلات الكاميرا يدويًّا، لكنه فشل بسبب ضيق الوقت، حيث رأى على الشاشات أنه ليس فقط موظفو النوبة الليلية، ولكن أيضًا الشرطة أصبحت في طريقها إلى المختبر المركزي.

وبحلول الساعة 02:51 وصل الثلاثة، ولكن فيتيج كان قد غادر المختبر المركزي.

في نهاية التقرير، الذي حُجبت منه بعض التفاصيل ذات الطبيعة الفنية، كانت هناك قائمة قصيرة لمزيد من الاستطلاع:

كوبي (الملحق 4)

فرانك (الملحق 5)

هيرمان (الملحق 6)

فيتيج (الملحق 7)

***

قلبت الصفحات فورًا لاستكمال ملحق فيتيج، ووجدت وصفًا للطريقة التي استطاعوا بها احتجازه في الليلة نفسها، كان المحقق الدقيق لاورنت قد استجوبه، وقد كان فيتيج -ورد في عدة مواضع- متعاونًا جدًّا معه، فلم يتردد لحظة في الاعتراف بأنه ارتكب العملية برمتها؛ لأنه أصبح من الواضح بالفعل أنه لن يجد فرصة لعملية أخرى، لكن ثمة شيئًا آخر قد أشرق من بين السطور؛ لقد حقق ما يريد وكان يتمتع بثقة كافية بالنفس؛ لتجعله متيقنًا من استحالة انتزاع ذلك النصر منه بأية طريقة.

وصرح فيتيج بأن سعيه وجهوده كانت فقط لرغبته في إكمال ديف وكان ذلك هو الدافع، ولكن عندما سُئل عن مقصده بالتحديد، أجاب دون تردد: «الإمكانات الحاسوبية لهذا الذكاء الاصطناعي ستصبح أهم مادة أولية في القرن القادم، ولذا فكان عليَّ أن أمنع أي فرد من فرض سيطرته الكاملة عليه».

بشجاعة أدهشتني أوضح فيتيج للمحقق أن زملاءه ورؤساءه رفضوا الاستماع إلى مخاوفه واقتراحاته، وقد أجبره ذلك على العمل لسنوات في الخفاء، وعندما طُلِب منه تحديد طبيعة عمله، بدأ يصمم رسمًا تخطيطيًّا وشرح بصبر كل خطوة من خططه للمسؤولين، يتكون هذا الرسم (الملحق 14) من ثلاث خانات مجدولة ومجهزة بترقيم من الأول إلى الثالث.

فأولًا ووفقًا لاعترافات فيتيج أنه استطاع تنزيل جزء كبير من بيانات ديف (أشار مرارًا وتكرارًا إلى البيانات التي اختارها على أنها «الجهاز العصبي الإنباتي») باستخدامه تقنية ضغط خاصة ذكر أنه يعمل عليها منذ أكثر من عقد، حيث صغر البيانات إلى جزء من المائة من الحجم الأصلي.

ويزعم فيتيج أن تلك التقنية مستوحاة من فن الاستذكار القديم، ثم قدم وصفًا لذلك على الفور: (راجع الشكل التوضيحي 16، الاستجواب في 31.3) حيث برر استعداده لهذا الانفتاح بأن قال إن لغة التشفير الخاصة به لن تُفَك بأية حال، ذلك فضلًا عن العثور على البيانات المحقونة.

في النقطة الثانية رسم فيتيج هذا الحقن للبيانات المجهزة –أو على حد تعبيره «النسخة الأصغر من ديف»- التي دُمِجَت في البرامج الأصلية بطريقة لا يمكن حلها إلا من خلال عمليات خاصة للغاية.

«أخيرًا، في النقطة الثالثة اتُّخذت الخطوة، التي...».

كانت بقية الجملة مقتطعة، شأنها شأن العديد من الجمل الأخرى في هذا المستند، وعندما قررت الرجوع إلى الملحق 14، وجدت أنهم أزالوه بالكامل، بالطبع حدث ذلك لحماية ثغرات النظام الأمنية، التي استغلها فيتيج.

أُرفِق الملحق 2 بعده مباشرة.

***

المحقق: «أخبرنا كيف طورت ما تسميه «استراتيجية الضغط»؟».

فيتيج: «كان العامل الحاسم هو زيارة دار المسنين، حيث تعرفت هناك على صديقة جدتي، التي تعاني مرض ألزهايمر، وما صدمني بشكل خاص هو أن هذه المرأة، التي عملت مهندسة نووية في روسيا، لم تعد قادرة حتى على رفع كأس إلى فمها، كانت عالقة في جسد نسي ببطء ماذا يعني أن تكون إنسانًا، وتحت تأثير هذه الانطباعات ذهبت إلى المكتبة في اليوم التالي وقرأت منها لأول مرة كتاب فن الاستذكار. حفظ مجموعة من البطاقات أو حفظ ألف رقم عن طريق تكثيف أجزاء متعددة من المعلومات في معلومة واحدة».

المحقق: «وما علاقة ذلك بالكسورية أو Fractalite؟».

فيتيج: «لا يتعلق الأمر بالكسورية فقط، هذا صحيح نعم، لكن الأمر يتعلق بكل شيء (توقف لحظات)، في العمليات الروحانية التي تزداد تعقيدًا بشكل ملحوظ استثمرت الطبيعة كل إمكاناتها في خيارات التخزين، مخلوق له أصغر

وحدة بيانات للذاكرة[1]، مثل الجلاد تكون خياراته محدودة، فمن خلال التعميق التكراري بمرور مليارات السنين أصبح لدى الكائنات الحية فرصة لتخزين المعلومات عن بيئتها، ولكن الذاكرة تحدد في الوقت نفسه إمكانات العمل الخاصة بنا، وبالتالي الإرادة الوهمية الحرة، فالفهم هو التذكر، وكل عملية تذكر تفتح محورًا جديدًا للعمل، هذا مبدأ بسيط، لكنه ليس تافهًا بأي حال من الأحوال».

المحقق: «لكن كل ذلك ليس له علاقة بنشاطاتك السيبرانية؛ لذا دعنا نعود إلى السؤال الفعلي».

فيتيج: «أنا لم أبتعد عن السؤال مطلقًا».

المحقق: «إذن ما هي الفكرة وراء مشروع Fractalite؟».

فيتيج: «(فترة طويلة من الصمت) عندما كنت طالبًا بدأت في حفظ أوراق اللعب في ذاكرتي، ومضيت في طريقتي هذه، حتى وصلت إلى مرحلة أدركت فيها أن تلك الطريقة في الحفظ تختلف اختلافًا جوهريًّا عن الذاكرة العادية، لقد كانت في الحقيقة إمكانية تساعدني في كثير من الأحيان على عدم التعمق والخوض في ذكريات الأشياء التي عايشتها بالفعل، ولكن بدلًا من ذلك أستغرق في مقتنياتي النادرة الملونة من الأشياء التي خلقتها بشكل رمزي لتحل محل ذكرياتي العادية، لقد كانت مملكة لا يمكن لأحد سواي الدخول إليها فضلًا عن فهمها، أما من الخارج فلا يمكن فك شفرتها مطلقًا».

المحقق: «إذًا أنت فخور بأن هناك 35 فردًا من المتخصصين ما زالوا لم يعثروا على الحقن الخاصة بك، أليس كذلك؟».

---

(1) أصغر وحدة بيانات يمكن تمثيلها هي البت، تحتوي ذاكرة البيانات ذات سعة تخزين بت واحد على مساحة تخزين واحدة فقط مع احتمالين مثل (نعم/ لا). (المترجمة).

فيتيج: «أنا مهتم فقط بمفهوم الحرية، واللاسلطوية، الاستقلال عن الظروف الواقعية، أشياء تشبه إلى حد كبير ما نختبره في البرمجة، لقد ضبطت نفسي متلبسًا وأنا أعود إلى مسارات الذاكرة المصممة؛ من أجل المتعة فقط، وفي وقت ما بدأت في تحرير نفسي منها، تعلمت أن أتجول بحرية في مجموعات ذاكرتي العصامية و -قبل كل شيء- استبدال ذكريات مزيفة بالذكريات غير المحبَّبة حتى لم يعد بإمكاني التمييز بينها وبين الذكريات الحقيقية.

وتحويل الذكريات إلى أشياء هو شكل من أشكال الضغط، على سبيل المثال يمكنني تحويل سلسلة الأرقام 23-34-76 إلى صورة يسوع يلعب كرة السلة مع تفاحة.

لكن هل ينتهي الأمر عند ذلك الحد؟ إنه شيء حيوي جدير بالملاحظة، ملاحظة أن كل شيء يمكن أن يصبح أكثر تعقيدًا بلا حدود، ويمكننا أيضًا أن نحول العالم إلى شيء أكثر بساطة ووضوحًا دون أن يفقد أيًّا من محتوياته، وهذا تحديدًا سبب كونه فريدًا.

حاول أن تفكر في أجسادنا، إنه ليس أكثر من تمثيل مرئي لسلسلة طويلة جدًّا من الأرقام؛ جينوم برقم 3.27 × 109، ومع ذلك يحتاج الواحد منا إلى صورة واحدة فقط لجسمه».

واصلت التقليب في الصفحات، لعلي أقرأ المزيد، ورأيت أن هناك صفحة أخرى كاملة مسودة تمامًا، فأطلقت السباب لهذه الانقطاعات في الوثيقة، وخطر في بالي فكرة فجأة؛ على عكس ملف الموظف الشخصي، الذي كُتِب بخط اليد، فبالتأكيد طُبِعت هذه المستندات- مما يعني أنها حُفظت على محرك أقراص ثابت في الوقت نفسه، فحذف البيانات بما في ذلك جميع النسخ الاحتياطية أمر صعب إن لم يكن مستحيلًا، ربما يمكنني العثور على المستندات المنقَّحة في مكان ما.

وواصلت التصفح بحثًا عن دليل يضعني في بداية طريق مثمر، وتعمقت في ملف المحاكمة، حتى علقت في ملاحظة صغيرة من المدعي العام للتحقيق.

ملحق 1

قد يكون للمتهم دافع يساعدنا فيما يتعلق بعمله على اللاب توب، لكنه صرح بعجزه عن حذف البيانات بعد إدخالها في الخادم، لم يتبق أمامنا سوى أن ننتظر لنرى ما إذا كان هذا الادعاء عمليًّا، لكن فيتيج أوضح أن نواة اختراعه هي أن يبدأ ديف منذ لحظة الحقن بالعمل بديناميكية تشترط تحقيق «كرامة الوعي الذاتي» لأن قصديته محمية بصندوق أسود غير مرئي من الخارج، وكان يتحدث بسخرية عن أنه ألغى مفارقة القدرة المطلقة.

(ملحق2: بعد القليل من البحث، هناك تجربة فكرية سفسطائية شهيرة، هل يستطيع الإله أن يخلق حجرًا ثقيلًا بحيث لا يستطيع رفعه بنفسه؟).

كما أكد فيتيج مرارًا وتكرارًا في المحكمة على استعداده للتعاون بشكل أكبر، إذا أقر المدعي بأن زوجته لم يكن لها دور في جريمته وكانت نائمة في ذلك الوقت.

رددت الكلمة غير مرة، زوجته.. زوجته.. زوجته! ودون أن أعرف ما الذي أثار قلقي هكذا، ركضت مباشرة إلى المجلد الذي يحتوي على الملف الوظيفي لفيتيج، وتركت الصفحات تمر عبر إبهامي الممدودة حتى وصلت إلى مستنداته الشخصية. شهادة الميلاد والتقارير المدرسية والشهادات الجامعية وعقود العمل، ثم بالفعل شهادة زواج.

بدأ صوت طنين خافت في البداية، ثم ما لبث أن تحول إلى صافرة إنذار.

«أرتور فيتيج، رقم التسجيل 34623، تزوج في 3 مايو في سان فرانسيسكو..».

أكملت القراءة ومجال رؤيتي مشوش: «متزوج بـ... خاتون هوش! (رقم التسجيل 35674)».

قلبت الصفحة، فوجدت مقالًا قبل أن يبيع فيتيج مشروع الكسورية، عنوانه:

«أرتور فيتيج يتزوج خاتون هوش المتخرجة في كلية الطب جامعة هارفارد».

توجب عليَّ التحديق عدة دقائق إلى الصورة المرفَقة قبل أن أستوعب ما يجري، كان فيتيج وخاتون يقفان في الصورة، وكلاهما يضحك، هو بالأسود وهي بالأبيض، وبدأت أقرأ المقالة.

«لأنه كان خجولًا جدًّا، برمج روبوت لاتخاذ القرارات، وقد حدد الروبوت أول موعد بينهما، وتقول هوش: «لم يكن يعرف كيف يقنعني مرة أخرى بلقاء ثانٍ، فاخترع البرنامج قزم الحديقة كهدية». وأكملت هوش: «الحياة فعلًا تكتب أغرب القصص»».

حدقت إلى الوجهين دون أن أحرك ساكنًا، خاتون وفيتينج- خاتون في ثوب أبيض كلاسيكي، وفيتيج في قميص أبيض ويعلق على صدره صليبًا أصفر.

تكويني الطبيعي وشكلي يرقدان تحت تكوينات وأشكال أخرى، كمفرش الطاولة يغطيها لكنه لا يزال يعطي فكرة عن الهيكل الخشبي الذي يغطيه.

ما رأيته يتناقض مع المكان والزمان والمنطق، يجب أن يكون هناك خطأ ما، لقد غرقت بنظراتي في الأنوف والأعين التي لم أستطع فهمها، ولبثت أحللهم إلى أجزاء حتى فقدوا كل سياق، ونسيت أنا وجهي الذي كنت أنظر إليه، وما زلت على حالتي منغمسًا تمامًا في الموضوع، حتى سمعت فجأة وقع خطوات في الممر.

أخرجني ذلك الصوت من غمرة أفكاري، ففي كل تلك الأسابيع لم أقابل أي شخص في هذا الجناح البعيد، فضلًا عن مفاجأة وجود شخص في هذا الأرشيف تحديدًا.

لقد هز ذلك مساحة الأمان، التي بدأت تتلاشى الآن على الفور، اندلعت تلك الضوضاء في أثناء خلوتي الليلية المطمئنة، ولأول مرة أسمع صوت خطوات في هذا الممر المنسي الضائع، لقد اختفيت بشكل غريزي.

في الواقع- يوجد الآن شخص ما يعبث ببطاقته في جهاز الدخول، رميت الملف في مكانه، ثم أطفأت الضوء، وركضت إلى الممر الخلفي للأرشيف، وعندما أغلق الباب باندفاع، اختبأت بصورة غريزية بين الجدران الدوارة المتقاربة وبدأت أراقب كيف توقف زوجان من الأحذية الجلدية السوداء بالقرب من الباب، ثم أشعل الضوء، والآن تنحنح ذلك الشخص، فعرفت أنه رجل -من خلال الصوت- وسار في الممر الطويل ببطء مصرًّا على التوقف للحظات في كل مكان، حتى كاد يصل إلى المكان الذي أجلس فيه القرفصاء بقلب ينبض، مذعورًا من فكرة إصدار أي صوت.

مشيت على ركبتي بهدوء قدر المستطاع، وحشرت نفسي في المساحة المغطاة بالغبار بين الأرضية ورفوف المستندات، وقد فعلت ذلك في الوقت المناسب تمامًا، حيث ظهر الحذاء المصقول أمامي، ثم سمعت صرير منفلة الأرفف وهي تُفتَح، وكان ذلك الرجل يزحف بشكل جانبي، لقد تابعت صف الألواح بينما أصبح الرجل الآن أسرع وأكثر حدة في أفعاله، يحرك كل خزانة كتب جانبية بالطريقة نفسها للنظر إلى ما بينها.

لم يكن هذا الرجل يبحث عن كتاب أو مجلد- لقد كنت أنا... أنا من أراد الإمساك به، أعتقد أن هناك من لاحظ دخولي.. لأنه إذا تقرر نزول أحد من الخدمة الأمنية لزيارة الطابق الأول، فهو بالتأكيد أمر من الأعلى، لا يوجد هنا شيء يستحق الحراسة، هم فقط استدعوا شخصًا ما للنزول إلى هذا الطابق.

كنت لا أزال منطويًا على نفسي تحت الأرفف، ورحت أفكر في خيارات الهروب، لم يكن في الغرفة أي تجاويف خفية، ولا حتى زوايا، أما هذا الرجل الذي وصل أخيرًا إلى نهاية الأرفف الدوارة، فلن أستطيع أبدًا أن أخاطر وأنتظر حتى يفكر في النظر تحت الأرفف؛ لذلك زحزحت جسمي ببطء لا حدود له إلى الحافة المقابلة لسلسلة الأرفف؛ لأنها تقترب من الباب، ولكن في اللحظة التالية رأيت بقلب غارق كيف تحرك مطاردي في الاتجاه نفسه أيضًا.

ضغطت نفسي في تجويف بحجم خرم الإبرة في الممر، وجلست القرفصاء منكسًا رأسي خلف آلة مصفوفات قديمة، وهنا أمسك شخص ما بياقة قميصي، ظننت أن الأمن قد لحق بي، لكنه كان عاملًا يرتدي بدلة الميكانيكية الزرقاء، هو من أمسك بي بقوة وجذبني بعيدًا عن الحائط بوجه استحال أحمر، لكنه لم يتفوه بكلمة، بل ولم يجرني للخارج، والآن أتى شخص

آخر يخطو إلى جانبه، أمسك بي بعنف أيضًا، ثم سحبني من سترتي ودفعني نحو الحائط مجددًا.

استدرت بكامل قوتي، وتحررت، ثم عدت وتعثرت مرة أخرى في الممر، الجميع ينظرون نحوي بعداء، من أصغر طفل لأكبر رجل، كأنهم رصدوا للتو جسمًا غريبًا بينهم، وفي تلك اللحظة استطاع حارس الأمن رصدي مرة أخرى، فركضت وهو يهتف من خلفي: «توقف!» لكن لحسن الحظ كنت بعيدًا بشكل كافٍ، وخُلق بداخلي الأمل من جديد، عندما انتقلت منحرفًا بعيدًا عن الزاوية.

خشيت لثانية أن يتواطأ أصحاب الطابق الأول على أمل المكافأة- لكن دفاعاتهم بدت وكأنها تأتي من اتجاه مختلف تمامًا؛ لم ينكب أيٌّ منهم عليَّ، عندما وصلت إلى دَرَج المصعد، لكنهم جميعًا التفتوا نحوي وكأن هناك كراهية عميقة تداهمهم جميعًا في الوقت نفسه، ولحسن الحظ وصلت إلى مصعد ساعي البريد الفارغ، وصعدت إلى الطابق الثالث.

دخلت مرحاضًا للنساء وتهاويت على أحد المراحيض واثقًا من أنه في غضون لحظات قليلة سيطرق مطاردي على الباب بقوة -لكن لا شيء-. انتظرت خمس دقائق، ثم عشرًا، ولما لم أرَ هناك جهاز أمن مثبتًا فوق جدران المرحاض، أتتني فكرة مختلفة وأكثر إثارة للرعب، لذا خرجت من دورة المياه بهدوء قدر المستطاع، وسرت نحو السكن بعينين منكستين.

***

طرقة أخرى على الباب أعادتني إلى الحاضر، لقد كانت نجاتي متمثلة في عدم وجود كاميرات أمنية في غرفتي، رغم أنها انتشرت في كل مكان، هكذا فكرت في أثناء محاولتي تبديد رائحة القرص الصلب المحترق وأنا في طريقي نحو الباب، لم يكن هناك جدوى من إنكار ذلك، أدركت ذلك بوضوح، فما الذي تمنيت تحقيقه من عزلتني الوهمية؟

لقد مزقت ودمرت كل ما أريد، ولكن مكان إقامتي، والمطاردة، بل كل أفعالي ستظل محفورة على ريد إيكلس إلى الأبد، حبست أنفاسي، أدرت المقبض، مستعدًّا للاستسلام دون مقاومة، بل والاعتراف، والقبول. فتحت الباب بقلق، لكن لم يحدث شيء: لا شرطة، ولا قوات أمن، وبالتأكيد لا أحذية لامعة، فقط أحذية سنيكرز الرياضية البيضاء تتأرجح ذهابًا وإيابًا من قدم إلى

أخرى، طرفت بعيني وأنا أتعرف على فاجنر، أحد أصغر مساعدي فروليش، الذي ابتسم ابتسامة عريضة وقدم لي رسالة، فقلت: «لقد استيقظت لتوي».

قال: «ليس الأمر عاجلًا، في الواقع لقد أُلغيت جلسة النسخ اليوم، وسنعين تاريخًا جديدًا لها، أعتقد أنهم غيروا الموضوع أيضًا، لكن لا تسألني لماذا».

رددت بتثاقل: «أُلغيت!».

مذ بدأنا لم تلغَ أي جلسة نسخ على الإطلاق.

وضع فاجنر قطعة من العلكة في فمه ونظر إلى يديه بشرود: «ربما يكون شخص ما مريضًا أو شيء من هذا القبيل، اسعد بيومك، فها هو يوم عطلة.. وهذه العلكة لا تزال لطيفة، قد أحتاج إليها مرة أخرى».

لديه هالات سوداء تحت عينيه، ويحرك قدميه على الأرض بشرود، بالطبع ليس لديه أي فكرة عما حدث للتو.

قال وهو يستدير بالفعل رافعًا يده بتحية خاطفة: «أوه! بالمناسبة، شممت رائحة محترقة بطريقة أو بأخرى، ألقِ نظرة على طعامك في الفرن».

أغلقت الباب وتكومت على نفسي بمجرد أن سمعت خطواته تنحسر، لقد نجوت، وصارت الدموع تنهمر على وجهي وكأنني تحررت من صمام الضغط، انزلقت على الحائط لأستريح على أرضية مسكني الدافئ، وفركت عيني بإرهاق لأنه بدا لي أن جسمًا غريبًا قد دخل تحت جفني.. لا، لم يكن رمشًا.

ببطء وبحذر نهضت واقتربت من الجدار المقابل، التقطت صورتي مع بافل، هناك فوق مضارب التنس مباشرة، تحطم الزجاج.. أنا لا أتوهم إذًا، أحدهم دخل غرفتي، الآن أسير في الغرفة ولدي شعور بأن كل شيء لم يعد في محله، سحبت علبة القهوة من الرف.. هل وضعتها فعلًا هناك؟ فالكواليس -حتى لو بدت حقًا مخيبة للآمال- هي نسخة مطابقة للأصل.

عدت إلى الصورة وشعرت بالزجاج بأصابعي، في تلك اللحظة فقط تذكرت الرسالة التي أعطاني إياها فاجنر، فمزقت الظرف وفتحته على عجل، وبدأت الرسالة:

«عزيزي الموظف

بسبب تأجيل الموعد نطلب منكم إعداد سيناريو جديد لجلسة النسخ القادمة، ومن المفترض أن تكون القصة لها علاقة بموضوع «انتحال شخصية»».

***

الملف الشخصي لفيتيج:

يمكن وصف الشكل الجديد للمشكلة بأنه لعبة سنطلق عليها «لعبة المحاكاة».

سنتخيل أن أمامنا ثلاثة لاعبين في الغرفة، رجل (A)، وامرأة (B)، ورجل أو امرأة لطرح الأسئلة (C) سيكون طارح الأسئلة وحده في الغرفة، وهدفه هو أن يقرر أيًّا من الشخصين الآخرين هو الرجل، وأيهما المرأة.

ويعرفهم برمزَي X&Y على التوالي، وتنتهي اللعبة بقوله «X هي A و Y هو B» أو «X هو B و Y هي A»، كما أن الأسئلة التي يطرحها السائل تأتي على هذا النحو مثلًا: «هلا أخبرني (X) كم يبلغ طول شعره؟».

ولنفترض أن X هو A، فيجب أن يرد A عليه، ولكن سينحصر هدف A في أن يجعل (C) يخطئ قدر المستطاع في تحديد هويته، لذا فقد تأتي الإجابة على هذا النحو: «شعري قصير وأطول خصلة فيه يبلغ طولها 23 سم».

ويجب أن يكون الرد على السائل في صيغة مكتوبة، بل ويفضل أن تُكتب على آلة كاتبة، حتى لا يتعرف طارح الأسئلة على جنس المجيبين من صوتهم، وسيكون الفاكس هو الوسيلة المثالية للتواصل بين الغرفتين، وبخلاف ذلك يمكن الاستعانة بشخص آخر لإرسال الأسئلة والأجوبة.

أما هدف اللاعب (B) هو مساعدة السائل، ومن المرجح أن تكون استراتيجيته هي التزام الصدق في الإجابة قدر

المستطاع، كما يمكنه تزويد إجاباته ببعض التعليقات، كأن يقول مثلًا: «أنا امرأة، لا تستمع إليه».

لكنه أمر قليل النفع؛ لأن الرجل يستطيع أن يقول الشيء نفسه للتشتيت.

ولنسأل الآن سؤالًا مهمًّا: «ماذا لو حلت الآلة محل (A) في اللعبة؟ هل يتخذ السائل قرارات خاطئة بالقدر نفسه عندما يكون اللاعبان رجلًا وامرأة بشريين؟ هذه الأسئلة تحل محل سؤالنا الأصلي: «هل يمكن للآلات أن تفكر؟»».

آلان تورنج، 1950 م: هل تستطيع الآلة أن تفكر؟

***

في منتصف الليل، الآلة الطنانة تزن مثل حيوان يمسك بي من ثنايا رقبتي، ثم يسحبني إلى الظلام، أُحضَر مقعدي القابل للطي إلى هذا المكان للمرة 172 على وجه الدقة، رقبتي تعاني التصلب، وأنا أجلس أمام المساعدين كلوح خشبي، فقط جهازي الحسي هو من استوعب كل شيء كما لو كان مكثفًا، لكن هل بدا أي شيء مختلفًا عن المعتاد؟ لا.. لا شيء مطلقًا، فقد اصطحبني المساعدان المعتادان عبر الأبواب المغلقة، في حين كانوا يثبتون أعينهم وأصابعهم على المستشعرات الموجودة عند الأبواب شديدة الحراسة.

في الواقع كان كل شيء فعلًا كما هو الحال في العادة.

انكشف المشهد البانورامي من اليسار إلى اليمين، حيث يجلس بلومنتال كعمود من الملح في مملكته الصامتة المكونة من نصوص برمجية قد بدأ في إساءة استخدامها استعدادًا لما سيأتي..

خفَّض باور الكابلات في الجزء الخلفي الأيسر من فتحات الأجهزة المختصة، التي تمتص موصلاتها الداخلية التيارات الكهربائية بصورة منقادة، بجانبه بيرلمان، الذي -يتأرجح ذهابًا وإيابًا- يستعد لإرسال ناقلات البيانات إلى رحلتهم.

لا شيء جديد لم أره يحدث بالطريقة نفسها في كل المرات السابقة- هو فقط صرير الكرسي الذي أجلس عليه يغزو عقلي المرهق.. أحصيت 32 كبلًا، أم فاتني واحد؟ لا، إنهم 32.

ظللت أكتشف تفاصيل جديدة وهمية، ما لبثت أن تبخرت بعد ذلك بوقت قصير، شعرت أن هناك شيئًا ما بين هؤلاء المساعدين، إنهم مطَّلعون على شيء لا أعرف عنه شيئًا، عندما وضعت إحدى المساعدات القهوة اعتقدت أنني رأيت فمها يميل على أذن شخص آخر لتهمس له بشيء، لكنها مرت بعد ذلك بحركة انسيابية دون أن تنبس ببنت شفة.

فجأة قفزت إثر صوت ضجيج حاد خلفي، لكنه لم يكن سوى أزيز الأريكة الهيدروليكي... وبدأت جلسة النسخ.

قال فروليش: «لنبدأ» وجلس بجوار سريري، فلويت رقبتي لأرى وجهه، وظللت أفكر وأقول: «هو يعرف» وبعد ذلك مباشرة أقول: «لا لا، لا يعرف».

رأسه الأصلع الحليق أصبح شعره أنحل في السنوات الأخيرة، وتحت وهج أضواء النيون التي تضيء كل ثنية من جلده ذكَّرتني جمجمته ببطن دجاجة نيئة.. انزلق قلمي من يدي المتعرقة ساقطًا على الأرض، فأعاده أحدهم إلى راحة يدي مرة أخرى لكنني لم ألحظه.

ثم رفع فروليش يده، وسلم شيئًا ما لم أتمكن من رؤيته إلى موراي وغمزه بإيماءة ناعمة... وأنا أعود فأردد في داخلي: نعم، نعم.. هو يعلم!

سألني فروليش: «هل أنت بخير؟».

تذكرت أنه سألني هذا السؤال من قبل وما زلت أدين له بالإجابة، فقلت على عجل: «منذ أمس». مدركًا بعد فوات الأوان أن إجابتي لم تكن مناسبة للسؤال على الإطلاق.

سأل فروليش بهدوء: «ماذا؟» لكنه استمر في حديثه: «الموضوع كان: انتحال شخصية. بالتأكيد واحد من أصعب المواقف التي توصلنا إليها، كما أننا نشعر بالفضول بشأن قصتك».

قلت: «حسنًا. (وأخذت نفسًا عميقًا) لقد أعددت مشهدًا من فترة دراستي، وأعتقد أنني لست بحاجة إلى البدء بمقدمة مطولة، يتعلق الأمر بالاختبار النهائي في السنة الثالثة، وهو الاختبار الذي يتعين عليك فيه برمجة الذكاء الاصطناعي، وتقرر هيئة محلفين مكونة من بعض أطفال المدارس الابتدائية

-في اختبار أعمى- من هو الإنسان ومن هو الآلة، وتُمنح جائزة كل عام على هذا العمل».

هتف بلومنتال من خلف شاشته: «لحظة واحدة! أي أطفال؟».

ليرد فروليش: «أنت محق يا بلومنتال، يجب أن نبدأ من الصفر.. هل يمكنك أن تصف بإيجاز بنية اختبار تورنج يا سيز».

ورغم أنه وجه كلماته إلي، بدأ بغرابة ينوب عني في الرد بطريقة دراماتيكية.

فقال ببطء: «لعبة المحاكاة». وتعجبت من أنه لم يطلب من المساعدين التأني، هل يستمر تسجيل ذكرياتي في أثناء حديثه؟

- تُلعَب بثلاث مرجعيات، إنسان وآلة ومحاور لطرح الأسئلة، الآلة، أو إن شئت، قل المتسلل...

توقعت منه أن ينظر إليَّ فجأة، ويشير بإصبعه نحوي، لكن.. لا شيء.

وأكمل حديثه: «يجب أن تتظاهر الآلة بأنها إنسان، بل وتقنع طارح الأسئلة بذلك، بل وتعارض الإنسان. فالأمر كله قائم على (كأن) أي الإيهام والتظاهر، وكلما كان البرنامج أكثر ذكاءً، استغرقت هذه العملية وقتًا أطول، والمثير للدهشة أن العديد من البرامج هنا ليست في وضع يسمح لها باجتياز الاختبار؛ لذلك نستخدم هنا الأطفال كمحاورين في المختبر، فهم غير دقيقين إلى حد ما في أحكامهم».

كان المساعدون يكتبون طوال الوقت، بطريقة جعلتني أظن أن فكرة وجود شخص غيري يتكلم الآن هي فكرة منطقية تمامًا، اعتقدت أنه ربما يكون نوعًا من الإلهاء، وفي تلك اللحظة شعرت بوجود شخص خلفي.

وأكمل فروليش: «لذا فالمحاورون سيجلسون في غرفة، وفي غرفة أخرى ندخِل الأشخاص، الذين يتعين عليهم إقناع المحاورين بأنهم يقولون الحقيقة، وأن البرنامج الذي ينافسهم في هذا الأمر كاذب.. وفي حالة تأدية اختبار نهاية العام، يكون المحاورون أطفالًا تتراوح أعمارهم بين 10 و12 عامًا».

أشعر بأن هناك زاوية ميتة في مجال رؤيتي، أو على وجه الدقة هناك تشوش في أطراف الرؤية مع البيئة المحيطة.

«يتعين على الأطفال إبداء تقديراتهم بعد انقضاء ثلاثين دقيقة، هل كان الشخص الذي يتحدثون إليه إنسانًا أم جهاز كمبيوتر؟ من منهم الصادق ومن

الكاذب؟ هذا اختبار دقيق للغاية يدور حول شيء أكثر بكثير من مجرد قوة حوسبة، إنه يدور حول الدقة، والقدرة على التلاعب، أليس كذلك؟».

استدرت ببطء لأتبين، لكن لم يكن هناك شيء خلفي، وبعد ذلك عدت إلى فروليش مرة أخرى، وحاولت أن أستشف من حركاته الدقيقة كنه ذلك الشيء الذي يتنفس جوار رقبتي.

- إذا اعتقد الطفل أن الذكاء الاصطناعي إنسان، بذلك يكون اختبار تورنج قد اجتيز بنجاح.

رددت بصوت خفيض: «نعم بالطبع».

لا داعي للذعر، فقد كان عليَّ فقط الاسترخاء وتلاوة السطور المحفوظة، هذا كل شيء، كالعادة.. كالعادة دائمًا.. أخذت نفسًا عميقًا، ثم بدأت: «كان أمامنا ثلاثة أشهر فقط لإعداد هذا المشروع، الذي يفترَض أنه يمثل نهاية الجزء الأول من الدورة، وقد تركوا لنا مطلق الحرية في اختيار موضوع المشروع، فقررت أنا برمجة صبي، تلك البرمجة كانت تتعلق في جزء منها بصديق دراستي.. ألاستير فيليز».

سأل فروليش روزن: «بماذا يخبرنا ذلك الاسم؟».

قاطعته فورًا: «لن تستطع التعرف عليه، فبصرف النظر عن الأشياء التي عرفتها عنه من خلال ارتباطه بي، كان رجلًا ضعيفًا، دماغه بالكامل أقل مني في المستوى، ويشتهر في محيط الدراسة بإعاقة التعلم، بدأت أتساءل عما إذا كان هناك شيء خاطئ معه حقًّا أو إذا كانت طفولته قد أفسدته تمامًا، إنه أحد أفراد الطابق الأول».

قال بلومنتال: «ألاستير فيليز، موظف رقم 24344، وتفيد البيانات هنا بأنه مطور ألعاب بارع، وهو متخصص في التصميم الهندسي..».

قاطعته فورًا: «أوه لا! هناك خطأ في قاعدة البيانات لديك، إنه لم يعد حتى مساعدًا برمجيًّا بعد الآن، بل يعمل في هيئة البناء بسبب عسر القراءة الذي يعانيه، فقد كان يخلط وهو في الثالثة عشرة بين حرف الدال وحرف التاء، وأيضًا بين حرفَي الزاي والسين، إضافة إلى أنه وجد صعوبة بالغة في الانتباه إلى الحروف ككل، لكن ليكن في علمك، كان هذا هو بالضبط سبب اختياري له، فإذا كان برنامجي قد ارتكب أخطاءً أو وظف كلمات في غير محلها، سينسب الأطفال -كما افترضت- ذلك إلى شخصية الصبي، الذي يعاني صعوبات في

التعلم، بدلًا من أن يشعروا بعدم الثقة في جهاز الكمبيوتر، وقد نجح ذلك الإيهام فقط، عندما بدت خطيئتي كأنها خطيئة شخص آخر».

قال فروليش: «تبدو استراتيجية جيدة بشكل عام».

فصححت بسرعة: «فكرة أن فيليز كان غبيًّا لا تعني بالضرورة أنه غبي بالفعل، ولكن على العكس تمامًا، فقد واجه أشياء أعاقت طريقه، حيث ظل طوال حياته في خدمة أمه، ولا يزال يفعل دون أن يشكو منها ولو لمرة واحدة، وفوق كل شيء فهو يتمتع بعاطفة يُحسد عليها حقًّا، وأنا..».

لقد عاد مجددًا، ذلك الفراغ من خلفي كما لو كان يتبدل بسرعة البرق، وهو على حاله هكذا في كل الأركان الضبابية التي عجزت عن إدراك ملاحظتي لشيء غريب.

وللمرة الثالثة اليوم سألني فروليش: «هل كل شيء على ما يرام».

واصلت بهدوء قدر الإمكان: «وعلى أي حال كان هيكل شخصيته هو السبب الثاني لاختياره، سيتعين على البرنامج فقط أن يطلب خدمة من الطفل ويكتسب الثقة».

- لماذا يثق أي شخص في شخص يبدأ بالمطالبة فورًا قبل أي شيء؟
- يا إلهي! هذا مثير جدًّا.

ثم سألته: «هل أنت على دراية بتأثير بن فرانكلين؟».

هتفت روزن: «من فضلك ادخل في الموضوع».

- يُقصد بها هذه الظاهرة، التي لا تؤثر بشكل كبير على عاطفتنا تجاه شخص ما، فعندما يسدي إليك أحدهم معروفًا، يكون أكثر استعدادًا لفعل معروف آخر لك، وذلك أكثر من الشخص الذي أسديته معروفًا.

مفاجأة! أليس كذلك؟ نحن نفترض أن التطور يدفعنا نحو هؤلاء الأشخاص الذين يمكننا الفوز ببعض مزاياهم، ولكن يبدو أن هناك موضعًا غريبًا كشريط موبيوس في العقل البشري، نوع من التنافر المعرفي، فلا يمكن لعقولنا أن تتسامح مع التناقضات في سلوكنا، لذلك عندما نقدم معروفًا لشخص ما، تفترض نفسيتنا تلقائيًّا أننا نحب هذا الشخص، هل تفهمني؟ أي لماذا سنساعد شخصًا لا نحبه؟ من الأسهل على أدمغتنا أن تقلب الوقت، وأن تربط سلسلة سببية معاكسة بدلًا من تحمل أداء عمل غير منطقي بالنسبة

إليها، لقد استنتجت أن العامل الأكثر أهمية لاجتياز اختبار تورينج هو العامل الذي اشتبه فيه قلة من الناس.

قال فروليش: «التعاطف! لا يتعلق الأمر أبدًا باختراق الآلة، بل الأشخاص الذين يعملون عليها، وقبل كل شيء يصدرون الأحكام ضدها».

- سرعان ما اتضح أن برنامجي يجب أن يطلب المساعدة من المحاور قبل كل شيء، مهمة سهلة! وبلا أي جهد، فقط قواعد ضبط وترقيم، ونصيحة، أشياء يمكن إنجازها بسرعة، ولكنها ستؤدي إلى تحولات عميقة في الاقتصاد الداخلي للطفل.

جمعت أشتات نفسي، وشعرت بجسدي يتصلب كما لو كان يجابه لكمات، لكن دون وجود قبضة يد.

- وبعد ذلك طبعًا، سيتعين على فيليز، وعلى برمجتي رد الجميل، ومساعدة الطفل؛ لذا دعهم يسدون إليه بعض النصائح، لقد برمجته على حل أكثر خمسين مشكلة شائعة يواجهها الطفل، نعم هي أشياء تافهة، مثل أن تجعل والديك يفتحان كيس نقودهما بحَبْك قصة جيدة، أو أن تحصل على جولات لعب مجانية في إحدى الصالات بقطع ألومنيوم مستديرة ومختومة، وإضافة إلى هذه الاختراقات الصغيرة كان لدي أشياء أخرى في جعبتي، فقد اعتدت إخفاء الأشياء في حياتي الواقعية، كإخفاء ألواح الشوكولاتة أو الكتب المصوَّرة خلف بلاط الحمام المجوَّف، أو في صالة الألعاب الرياضية في الأسفل.

قال فروليش: «وهذا هو سبب اختيار الخوارزميات لك، أن يتساوى ذلك بالعبقرية، لقد أخذت تلك البرمجة وطرحتها للعالم، ورسختها أولًا في ذهن المحاور، ثم طرحتها للعالم الواقعي، فألغازك الفخية، كقطعة الشوكولاتة، كانت كلها جزءًا من البرنامج».

- حاولت تحقيق كلا الأمرين: فمن المفترض أن أساعدهم بجعل برنامجي يظهِر تعاطفه ويفعل شيئًا من أجلهم، وفي الوقت نفسه أعيد إطلاق ظاهرة تأثير بن فرانكلين، وبهذا سيعتنون بتطوير التعاطف مع برنامجي.

- أود أن أقول شيئًا أكثر إثارة للإعجاب، لكن أفصح لنا أولًا عن الطريقة التي شذبت بها برنامجك، ما هو مستوى الذكاء الذي أظهره اختبار تورنج لفيليز خاصتك؟

الآن فقط رأيت ذلك بوضوح شديد، لم يكن من أحد يحني رأسه عليَّ من الخلف سوى شعوري الداخلي الذي حاولت خنقه طوال الوقت، التقت أعيننا، فعلمت أنه رآني.

ابتسم فروليش فقط وأكمل: «في النهاية كل محاكاة يمكن استيعابها، لكن لا يزال أمامنا أسباب وجيهة لتقبلها نوعًا ما، أسباب برجماتية وعلمية».

تمكن مني الخوف بما يكفي، فكل شيء هنا في حالة حركة، ومهما كانت دوافع وتحفيزات فروليش، كان لديه رغبة في الاستمرار، وفجأة شعرت بشجاعة لم أشعر بها منذ سنوات.

قلت: «لا يمكنني بالضرورة أن أنسب ما فعلته إلى ذكاء برنامجي، في حين أنه قد يكون راجعًا إلى غباء الأشخاص الخاضعين للاختبار».

سيطر كيان لا أعرف كنهه على المكان، وأكملت: «يمكنك استخدام الأشخاص وتناقضاتهم المعرفية واللعب عليها مثل لوحة المفاتيح، أليس كذلك؟ هذا وحده يثبت أن لعبة المحاكاة غير منطقية لأن ساحة اللعب تتغير حتى في أثناء المباريات».

لن أنتظر ذبحهم لي كالشاة، لن يحدث ذلك لحياتي!

قال فروليش بطريقة تشبه النبذ، مما حرضني على العدوانية والمشاكسة أكثر من أي وقت مضى: «الرجاء تحديد أفكارك حول هذا بصورة أدق قليلًا».

- فأنا شخصيًّا لطالما اعتقدت أن اختبار تورنج لا يوضح فقط مدى القدرة على إقناع الذكاء الاصطناعي، ولكن قبل كل شيء مدى الغباء وسهولة خداع المجتمع.

فجأة أصبح الجو هادئًا من حولنا لدرجة أن حفيف زعانف التبريد في ديف أصبح مسموعًا، ثم أضفت مرة أخرى: «الوعي النسبي. وهذا يبرهن على مدى جودة تحقيق أغراض المبرمج، نوع من المسكنات تجعلك تعتقد أن الآلة لديها ذكاء، بل ووعي أيضًا، في حين يصبح الذكاء الاستراتيجي للمطور مرئيًّا في الواقع، ويهدف فقط إلى تطبيق اقتصاد السوق».

وعلى وجه المساعدين المحيطين لم أرَ سوى رعب بالغ.

قال فروليش: «وكيف ستقدر على تخيل أي اختبار ذي معنى بعد ذلك؟ لا، لا، تفضلوا وأكملوا الكتابة بهدوء»، وبإيماءة منه شجع بلومنتال -الذي كان قد توقف- على الاستمرار في التسجيل، لأول مرة منذ أن عرفته، بدا أنه غير متوازن ولو بمقدار ملليمتر فقط، وسألت بازدراء: «أي نوع من الاختبارات هذا، الذي تتمدد فيها المعايير، فكر في الأمر لمرة واحدة، إذا لم نستطع التعرف على ماهية الكائن العضوي، ماهية الإنسان وماهية القدرة العقلية، فيمكن حتى للمحمصة اجتياز اختبار تورنج. ماذا لو تصورنا لعبة المحاكاة على أنها رائدة نزعة منهجية؟ وهي أن تجعل المستجوِبين أغبى وأكثر شبهًا بالآلة بدلًا من جعل أجهزة الكمبيوتر أكثر ذكاءً؟ كلاهما سيؤدي إلى النتيجة نفسها، أليس كذلك؟».

لقد شاهدت نفسي أتحدث كما لو كنت أراني من الخارج، هل سيتسرب كل شيء مني الآن مثل بالون مثقوب؟ فهل أذكر فيتيج؟ والضباب؟ يظل هذا الدافع بداخلي، كأنه محرك غريب تقريبًا، فقد كنت مستعدًّا للشروع في الهجوم.

سألت روزن في غضون ذلك: «أين أكتب ذلك؟ هل هذا جزء من وحدة النسخ؟».

قال فروليش دون أن يبعد نظره عني: «في أي مكان».

كان هناك نوع من الهلع المفزع يعم أرجاء الغرفة، وفروليش يقف هنا، مجرد إنسان فقط، لا شيء آخر، هكذا اعتقدت شاعرًا بالانتصار، وأي نوع من الانتصارات هذا؟

وسألته ثائرًا: «ما هو معنى المحاكاة؟ فبالطبع يخلق الممثل الذي يلعب دور الملك لير انطباعًا بأنه موجود في جسده، وليس ذلك فحسب، بل ويعاني ألمًا شديدًا في تلك اللحظة أيضًا، فالشخص الذي لا يثق بمواقف المسرح سيعجز كليًّا عن ملاحظة ذلك الأمر في الممثل، أو ملاحظة أن الملك لير غير موجود، وكمعيار لشخص يحبك، هل تقبل أن تكون جيدًا بشكل خاص في محاكاة الحب؟».

- المحاكاة.. المحاكاة، لدينا منهج في العلوم الطبيعية، وقياسات للموجات الدماغية، وعمليات كيميائية، و.. جوهر المشاعر الإنسانية، نحن فقط نريد إعادة بناء تلك النواة، وأنت لا تريد أن تسمي ذلك بأنه محاكاة.

- إذا كان هذا يعني أن ننكر الكيفيات المحسوسة، إذن فنعم!

قال فروليش بحدة، وقد رفع صوته أخيرًا: «يا إلهي! من أين لك بكل هذا الهدوء؟ أنت تتجادل من منظور ديني يا صديقي، تتجادل بالمعنى المسيحي في جمل لا تدلل على أي شيء مطلقًا، فخلف كل ذلك هناك فراغ!».

كما لو أن هناك تعويذة وانكسرت، بدأ العالم يتسارع فجأة، وأكمل: «نحن نتشبث بخيالات مثل المشاعر والنوايا والوعي لكي نشعر بالفرد، لكن كل ما نملك، هو ما يمكننا ملاحظته فقط.. أفعال، إذا تصرف شخص ما كما لو كان واعيًا، فهو واعٍ بالنسبة إلينا؛ وإذا أنكرنا ذلك، فإن مشروعًا مثل ديف لا طائل من ورائه».

قلت في نفسي: «*إذا اعتقلتني فعليك أن تعرف أنني لن أذهب إلى الموت معصوب العينين، فمن المفترض أن تدعهم يفترسون ديف اللعين، لكن ليس قبل أن تعرف أن فقدان الثقة فيه انتشر بين الجميع كخلايا السرطان في كلا الزمانين حيث كنت أنا وحيث كان فيتيج، وأن هناك من سيأتي من بعدنا ويتسلم ذلك الإرث*».

أكمل فروليش: «نحن نفرق بين التمثيل والواقع، ما إذا كان الشخص يمتلك وعيًا أو يتصرف كالآلة، نعم لا يمكن تقرير ذلك من الخارج، ولا حتى من الداخل، فالوعي يعني الاستقلالية الكاملة».

فبينما أنا أعلق بصري في نظارة فروليش الشمسية، شاهدت خيطًا من اللعاب يسيل من زاوية فمي، ويلتصق برابطة عنق فروليش.

عاد فروليش إلى هدوئه مرة أخرى، وقال: «كما ترى، ذلك هو الموضع الذي تخطئ فيه، أعتقد أنك تخفي خطرًا آخر، خطر من يظن أنه يفهم الأشياء أفضل من غيره. ألا يجب أن تفكر في كلتا المخاطرتين؟ فالتاريخ يمتلئ بمثلها».

كنت أتوقع منه أن يذكر فيتيج بعد ذلك، لكنه سار إلى آخر السرير واستمر في الحديث من هناك: «لو كنت مكانك، لما ذكرت ما تقوله الآن علنًا، ديف هو رؤية لعالم عقلي تمامًا، وهو يُعَد الأمل للكثير، والطريقة التي ترسم بها بالأبيض والأسود قد تشتت انتباه الناس عما يهم حقًّا».

حاول أن يركز على نفسه من خلال خطابه، وكلما طالت مدة حديثه، أصبحت نبرته أكثر إلحاحًا: «لن أسمي ما تخاف منه سيطرة، بل عقلانية، منع

كل ما هو غير منطقي من الحياة، فالآلة تعمل وفقًا لقوانين المنطق، وبهذا نتمكن من تعلم الكثير منها، ويمكن أن يظهر مجتمع قائم على المساواة تمامًا -فرصة فريدة تاريخيًّا- أليس كذلك؟».

قلت بحزم: «إذا استطعنا التحكم في وعيه، فلن يكون وعيه بعد الآن، إذا لم يكن لدى ديف نوايا حقيقية، فإن قدرة الحوسبة اللانهائية هذه ستعمل وفقًا لتعليمات المبرمج».

قال فروليش وهو ينظر إلى عيني: «الوعي، والروح، والنفسية، هذه هي الافتراضات التي حفزت على ارتكاب أفظع وأكثر الجرائم وحشية في التاريخ، فقد دعت إفريقيا بعنف إلى إنقاذ ما أطلقوا عليها «أرواح»، وأنت الآن تعتقد أنك تستطيع تجنب الخطر من خلال تعليق آمالك على شيء لا يمكن تفسيره، إنها قصدية، أي السلطة الكامنة وراء الفعل، نحن لا نتحدث هنا عن استبداد الإنسان».

فجأة تأكدت من أنه ليس أعمى حقًّا، وأردف: «نحن ننشئ ديف تحديدًا، لكي نستطيع النجاح في تطبيق هيئة رقابية فوق أخطاء التلاعب البشري.. المنطق نفسه».

لبضع ثوانٍ عُلِّق بيننا توتر على وشك التمزق.

- هل أثار فيتيج تساؤلات حول الهيئة الرقابية هذه؟

قصدت أن يحدِث سؤالي بعض التأثير على وجهه، مثل إلقاء حجر في الماء فيتحرك من السطح إلى المركز، لكن لا شيء.. ابتلع الحجر بصمت.

ابتسم فروليش وهو يقول: «فيتيج! فيتيج هو تمامًا نقيض السيطرة، هذا حقيقي تمامًا، بل وبأكثر الطرق رعبًا، إنه من هؤلاء الذين يخدعون الناس بجاذبيتهم، ويوهمهم بأن هناك مادة لاصقة لتلك الأرض، قوة جمعت كل شكوكه معًا».

وأردف: «هل تعرف هذا الصوت الصغير المزعج في الداخل -ربما داخل الجميع- هذا الذي يطرح أسئلة دون العثور على إجابات لها أبدًا؟ إنه شيء يتنكر في صورة العقل أو الفلسفة ويلهمك الثقة في البداية، من خلال الالتفاف حول جذوعنا السميكة الضاربة في الأرض، ثم تواصل بعد ذلك الانتقال من فرع إلى آخر، ولا تزال مستقرًّا، وفي حالة تساؤل دائمًا مع ظهور فضول حقيقي تجاه أي شيء، ومن هنا تبدأ الأغصان في الضعف والتشابك، ونسقط في متاهة من الاحتمالات المتفرعة اللانهائية التي تقودنا إليها أسئلتنا، وبمجرد

أن نصل إلى أطراف الفروع، ينبثق أخيرًا الفراغ الموحش من هذه العملية.. فيتيج هو التجسيد لهذا الصوت الداخلي.. الفوضى المتعمدة التامة».

الآن فقط شعرت أنه يمكنني حمل كل شيء على عاتقي، بل ويمكنني المواجهة أيضًا والتغلب على خوفي من الموت، لكن رغم ذلك لم أقل شيئًا.

قال فروليش أخيرًا: «حسنًا! لقد حمَّلنا وقتنا ما لا طاقة له به».

وأخيرًا استدار كأن شيئًا لم يحدث، كان الهواء يهرب مني كما لو كنت كعكة سوفليه مهشَّمة، والشجاعة التي كنت عليها قد تبخرت فجأة مرة أخرى، وعاد كل شيء مبهمًا، هل تحدثنا حتى عما اعتقدت أنني فهمته؟ أم كنت مخطئًا؟

سأل فروليش: «لنغلق ذلك الموضوع تمامًا، هل فزت وسُمح لك بزرع ذلك البرنامج في ديف؟».

تلعثمت وأنا أقول: «بالطبع فاز بافل بالجائزة الأولى، لكن ما تحدثنا عنه للتو ليس بالضرورة أن يُزرَع في ديف، أليس كذلك؟».

قال فروليش متجاهلًا سؤالي: «نعم، نعم، بافل بتروف بالطبع! بقي هنالك شيء آخر، لقد أردت أن أتحدث إليك عن شيء ما من الجيد أن تقله».

لم أنطق بكلمة واحدة منتظرًا أن يكمل: «نحن الآن في مرحلة متقدمة إلى حد ما من مشروعنا وكما تعلم، فنحن الآن قاب قوسين أو أدنى من الإصدار، من الآن فصاعدًا ستأتي مرة واحدة فقط أسبوعيًّا».

ابتسم باعتدال وأكمل: «يمكنني أيضًا أن أقول في هذه المرحلة إنك موجود معنا بالفعل منذ مدة طويلة، والأسابيع الثمانية والعشرون القادمة ستكون مخصصة فقط لإجراء بعض التحسينات».

اختفى فروليش خلف الشاشة في منتصف الجملة؛ ولم يعد من الممكن الآن تحديد مصدر صوته بالضبط.

سألته: «ماذا تقصد؟».. لقد قال إنني معهم منذ مدة طويلة، هذا ما قاله.

- نسختك بالطبع، لقد ثبتنا نسختك جيدًا.

وكأن الجملة طلقة في صدري، وردَّدت محدِّثًا نفسي أكثر من انتباهي للآخرين: «بقي 28 أسبوعًا، لذا سنتم العمل على مائتي جلسة نسخ».

قال فروليش، الذي عاود الظهور أمامي مرة أخرى: «هذا صحيح تمامًا، لن نضطر إلى إهدار وقتك أكثر من ذلك، ستحقق غرضك قريبًا».

9

تقول د.بابوش:

مرحبًا أيها الأطفال الأعزاء، وأنصارنا الأعزاء، أناشدكم ألا تحتفظوا بقسوة ما حدث لكم، ولكن مرروها إلى مقدمي الرعاية دون تزيين، فالبيانات العلمية الجديدة حول ما دمره العالم الخارجي الخرب ترسم صورة أسوأ مما كنا نعتقد في السابق؛ فمؤخرًا سكنت 60 مليار روح كوكب الأرض الغارق النتن.

في أعشاش السناجب الكبيرة، التي -كما نعلم- سادت فيها ظروف غير صحية، تدفق عَرَق الأشخاص -المربوطين في سلاسل كالبقر- عبر ممرات إلى محطات معالجة مياه الصرف، لمعالجة العرق بحيث يصبح مياهًا صالحة للشرب، كما يمكن أن يتحول عرق الخوف والعرق الأكثر رقيًّا إلى شمبانيا، تلك التي أُتيحت للقلة المتميزة التي عاشت في مساكن أكبر قليلًا.

وحقيقة أن المجتمع في ذلك الوقت كان ذا تقنيات عالية لن تستطيع إنقاذكم يا أطفالي الأحباب، فرغم أن كل يوم يبدأ بفحص طبي يُجرى عن طريق ربط مسبار في الرقبة، كان من البديهي أن تكون النتائج كلها بلا قيمة؛ لأنه بصرف النظر عن حقيقة أن كل شخص كان يشتكي من مستويات الكوليسترول المميتة تقريبًا والتلوث المهلِك للرئتين، فبعد

دقائق ستبدأ ساعات طويلة من القيمة المضافة الملزمة والمبرحة، التي تكمن في الهواء المسمم، مع وجود مستوى عالٍ من تلوث الغبار الناعم الذي لا يتحرك، لقد حفروا في الأرض بأظافرهم المبتورة؛ بحثًا عن أي جذر أو ديدان لطبخ العصيدة.

وتستطرد بابوش: «والآن من أجل القليل من الوضوح يا أعزائي.. انظروا».

تسمح بظهور غول مريع على الشاشة، حيث يبدو أن نصفه خنفساء والنصف الآخر خَبَث زيت البترول، ولكن لا يزال من الممكن التعرف عليه كإنسان من خلال السراويل المنقوشة، فوصول درجات الحرارة إلى 65 درجة؛ أدى إلى تمدد العظام على مر العقود، حتى أصبحت عظام الساق لشخص أوروبي يبلغ طولها نحو مترين في زمن تلك الكارثة، مما سمح له فقط بوضعية الزحف في الحركة، أما الركبتان فأصبحتا متقرنتين، وبناء عليه -بسبب الرطوبة المتزايدة باستمرار- ظهرت وذمة في الوركين، ترهل الجزء العلوي من الجسم، وأصبح الصدر أسطوانيًّا، أما العين فتحولت إلى مجرد شق، والآذان مثل القشرة المصفحة التي تغطي أجساد الحشرات، وصار المريء خارج الجسم، وأصبح الإنسان أنبوبًا به فتحة تناسلية، مما دفع النمو السكاني إلى الارتفاع؛ بسبب الحوادث التشريحية.

لذا فإن ما يدور حولنا جميعًا الآن كما يختتم العرض هو تقليل إنتاج الأطفال بمساعدة ديف، لذا فاستبدلوا ديف برغبتكم في إنجاب الأطفال، فإذا تفهمنا أن الآلات هم خلفاؤنا الشرعيون على هذا الكوكب.. وإذا تمكَّنا من إطلاقها بمحبة في العالم، فسيكون المستقبل ذهبيًّا. والآن! يحيا ديف! ديف! ديف!

***

عندما رأيت بافل للمرة الأولى في الساعة الواحدة ظهرًا منذ «التجنيد» كما أُطلِق عليه، كانت تقاسيم وجهه المرنة في حالة مختلفة غير قابلة للإصلاح، عيناه غائرتان مثل حفر أرجوانية، وفمه الجاف نصف مفتوح، كما أن بقع القهوة تحولت إلى قشور على قميصه من طول بقائها عليه.. لا تزال أصابع بافل تدق على لوحة المراقبة السوداء كأنها تتراقص في نشوة، ورغم أن وجهه بدا كوجه رجل ميت، لم يرتكب أي خطأ في الكتابة.

شرحت لي جاراوس التي جرتني إلى هنا: «إنه متصل بالشبكة منذ 76 ساعة!».

قلت: «76 ساعة! كيف ينجو الإنسان بعد جلوسه في مكان واحد لفترة طويلة كهذه؟».

اعتقدت لفترة وجيزة أنني مضطر إلى الضحك على ذلك العبث، لكن هناك شيئًا ما في ذلك الموقف صدمني بصورة مميتة، فقد كان بافل يتنفس باضطراب، معدل تنفسه يشبه شخصًا قطع للتو مسافة كيلو متر جريًا، ورأيت زجاجات المياه التي توضع أمامه كل ساعة، لم تُمَس.

سألتها: «أليس بوسعنا فعل شيء؟».

- لقد لبس حفاضات، سبع قطع فوق بعضها، وأخبرني بذلك يوم الأربعاء، قبل أن يتناول عقار الريتالين، إنه إجراء مترسخ بشكل جيد، ويطلق عليه الآن (الذهاب للمطاردة).

لقد فقدناه في هاكاثون[1]، وهي مسابقة برمجة جديدة تقام ثلاث مرات في الأسبوع منذ الشهر الماضي بناءً على طلب فروليش، وبناءً عليه تنافس المئات من المبرمجين ضد بعضهم في مسيرة إجبارية استمرت عدة أيام لحل المشكلات التي لا بد من حلها قبل إصدار ديف.

لا يزال الأمر ضربًا من السريالية، ثلاثة أشهر.. ثم يصدر أول ذكاء اصطناعي قوي ويقدم نفسه لنا، آخر اختراع للبشرية، والله وحده يعرف ما سيحدث بعد ذلك! وشارك موظفو المختبر في هذا السباق الأخير بجدية مقدسة.. وظللت أنا فقط من يرى غرابة تلك التطورات، أنا من يتسلل إليه شعور الغربة يومًا بعد يوم.

---

(1) مستوحى من كلمة «ماراثون»، هو حدث يجتمع فيه مبرمجو الكمبيوتر وغيرهم لتطوير البرمجيات، فيتشاركون بشكل مكثَّف في تطوير مشاريع برمجية. (المترجمة).

وأعلنت إذاعة ما بعد الإنسانية منذ أسبوع البيان التالي:

«أعزائي أعضاء المختبر

في حالة سلامة الجنس البشري بعد إصدار ديف نود أن نعلن عن الخيارات التالية:

أولًا: التصفية الفورية لرفاتنا مع تحميله على السحابة عبر الحوسبة السحابية.

ثانيًا: وضعه في محمية إذا أُتيح ذلك.

ثالثًا: ألا نعرف تلك المعلومة على الإطلاق.

رابعًا: نوضع تحت تأثير المهدئات في الوقت الحالي.

(ضعوا علامة بجوار ما تتفقون معه من النقاط السابقة)».

وكي أكون في الجانب الآمن، اخترت التخدير غير المشروط.

كانت التجاوزات الغريبة والإثارة، التي جعلت الناس يتوقعون تغييرًا فوريًّا في الظروف المعيشية كلها بالطبع بسبب دعايا جماعة ما بعد الإنسانية، التي لاقت إقبالًا عاصفًا في الفترة الأخيرة.

عاد انتباهي إلى بافل مرة أخرى، يجلس بقميص فضفاض يرفرف خلفه، وشعره المبلل بالعرق مُلتصق على رأسه، كان عليَّ أن أجلب سترة له، فمن الواضح أنه يتجمد، لماذا لم أفكر في أنه قد يكون متجمدًا بالفعل؟ شققت طريقي وسط الحشد مدفوعًا بخوف مفاجئ لا يقهَر على بافل، دفعت الأجساد إلى اليسار واليمين في حين كنت أخلع قميصي، أردت أن أدثِّره به.

- توقف! ما الذي يحدث؟

كان ذلك فيليز الذي تبعني وأمسك بكتفي، انتشلني من غمرة أفكاري، وأعادني بحذر إلى حيث أتيت، وأردف: «سيز، ألا ترغب في شيء لتأكله؟ نحن نفكر في ذلك منذ مدة». ثم وضع في يدي قالبًا من الشوكولاتة.

وقالت جاراوس: «نعم سيز! تبدو نحيفًا جدًّا في الحقيقة، حاول أن تعتني بصحتك أكثر من ذلك، فأنا أستطيع رؤية ضلوعك تبرز من تحت سترتك».

كانت جاراوس تتكلم دون أن تحول نظرها عما يحدث فوق مسرح أوديماكس، وأكلت أنا بسرعة لإنهاء الموضوع قبل العودة إلى المسرح.

حقيقة أننا سوف نودع أجسادنا قريبًا، ونتبنى حالة مختلفة من الحشد في ذاكرة ديف لم يعد رأي مجموعة صغيرة من المتطرفين، ولكنه بدعم من إدارة المختبر بات وجهة نظر مقبولة تمامًا لمستقبل حياتنا.

في كل مكان تظهر مشاريع وإنجازات تكنولوجية جديدة مثل براعم نفد صبرها، وتريد اختراق قشرة الأرض قبل أوانها، وقد شق هاكاثون اليوم ذلك الأخدود أيضًا، فقد تبرع فروليش بمبلغ ربع مليون من أجل الابتكارات في مجال الأجسام الاصطناعية، والآن تتقاتل الإدارات في سباقات ترقية سخيفة، في الجزء السفلي الأيسر من شاشة بافل تذبذب مجسم لشخص يركض، وركبتاه تنحرفان بشكل غريب إلى الخارج، لدرجة أن المفاصل تضرب بصورة معدنية على الأسفلت الرقمي.

فكرت بذهول في أن ديف يفترض أن يكون بتلك الصورة السابقة نفسها، وهذه هي الحالة التي يفترَض أن يكون عليها جسدي، واستدرت مبتعدًا، لكن الوجوه المبتهجة والجذابة للحشود لم تكن أقل إثارة للقلق في داخلي.

قالت امرأة شابة بجانبي: «المشكلات المكانية هي الأصعب».

كانت مغطاة بمجسات حيوية تغطي ثدييها العاريين وذراعيها وجزءًا من رأسها بما في ذلك العينان، بقي هنالك جزء بسيط من صدرها خالٍ بما يكفي ليكشف عن كلمة واحدة على قميصها المشعث (Hustle).

لقد علمتني العزلة المتكررة ألا أطرح الكثير من الأسئلة، لذلك عدت بذهني إلى الهاكاثون مرة أخرى؛ حيث قُسِّم المشاركون البالغ عددهم 150 مشاركًا إلى طاولات دائرية مكونة من ثلاثة أشخاص يمثل كل منهم فريقًا، وقد تنافسوا في المسابقة للحصول على أفضل حل لمشكلة ما، فاليوم مثلًا يشترك كلٌّ من مبرمج، ورسام، وفيزيائي، عليهم معًا تصميم نموذج روبوت يمكنه تعلم المشي بمفرده، وذلك في غضون خمسة أيام فقط.

طوال اثنتي عشرة ساعة تصنف لجنة التحكيم الفروق على حسب الأكثر تقدمًا، فتتقدم طاولة واحدة إلى اليمين، في حين تُستَبعد الفِرق الخمس الأضعف في أسفل اليسار، وبالطبع كان بافل على رأس هذا الحراك، حيث لم يهزَم منذ أول يوم، لقد تعاون مع أجنيس فوردي، المصممة المهووسة التي كان يواعدها، وكان هدفها المعلَن في الحياة «تصميم النقوش المتحركة لوجوه المستقبل» كما أوضحت لي في إحدى رحلاتي النادرة إلى ماريا ألتا الأسبوع الماضي.

كانت تشرح، وكأنها عادت للتو إلى المنزل من جنازة أفضل ثلاثة أصدقاء لها: «يمكنك تنميق الإيماءات وتعابير الوجه وكل ما تريد تعديله يندرج تحت هذا المبدأ».

الآن كان رأسها على لوحة المفاتيح حيث كانت نائمة في منتصف العرض، ضغط أنفها على مفتاح Shift، مما تسبب في دوران نموذج إصبع القدم الكبيرة في دوائر لساعات، أما الفيزيائي الذي لطخ الأرض بلعابه السائل انطوى هو الآخر على نفسه منذ ساعات تاركًا بافل وحده، هو فقط المتبقي في مكانه ضد فريق 34، الذي كان يتقدم بشكل خطير.

اعتقدت أنه خطير، وانزعجت من شكل أفكاري، فقد كانت نتيجة هذه المسابقة غير ذات صلة بالموضوع تمامًا مثل إنشاء جسم إنسان آلي، وكل ما كنت أتمناه هو أن يعيش بافل الأيام الخمسة دون أي أضرار مادية، وفي هذه الأثناء كان ديف -كما يمكن لأي شخص غير أعمى رؤيته- يعاني مشكلات في العديد من المجالات المختلفة، لدرجة أن تحميله على سحابة وامتلاك جسم آلي لم يكن أكثر من خيال علمي، وفي الوقت نفسه أدى ذلك إلى طمس كل شيء تمامًا، لأن الأشخاص أنفسهم -معيار المقارنة في الصورة التي أردنا تشكيل ديف وفقها- تجمدوا في العمليات الميكانيكية.

كان عليَّ أن أصرف انتباهي عن كل ذلك، على الإنسان أن يخاف من الانغماس في شيء، إذا كان قد فكر في الأمر حقًّا، لذلك تحرك الآخرون آليًّا، فما اعتقدت أنه شيء خيالي قبل بضعة أسابيع، يتجلى الآن في حضور سافر.

لقد كان الضباب هو تلك الفوضوية الغريبة، التي تسللت إلى عقل وقلب الجميع، فالناس يغتسلون مرات أقل بل وتزداد قلة، وينظفون أسنانهم بالفرشاة مرة واحدة فقط في اليوم، إنه اتجاه قوبِل في البداية بالتجاهل بحرج مع زيادة أعباء العمل، لكن المختبر ظل يبهت شيئًا فشيئًا، في البداية رأيت الألواح وسقالات البناء ملقاة على الأرض كيفما اتُّفق، حيث أصبح الموظفون غارقين في عمليات إعادة البناء وفضلوا إرجاء عملية الإزالة، ثم بعد بضعة أسابيع اعتدنا بصورة فاحشة رؤية الطبقة الرملية التي تشبثت في الجدران، كان كل شيء يختلط بنوع من الزهد الذي اتجه إليه الناس شيئًا فشيئًا، أو كما أطلقوا عليها «التبسيط الرقمي».

تذكرت منشورًا ما أعطاني إياه أحد الأشخاص مؤخرًا وأنا في طريقي إلى المختبر، مكتوب فيه «الإصرار على الجمال هو إحدى الخطايا الخمس التي

تعوق إتمام ديف».. ومن بين الخطايا الأخرى كان النوم، والتلكؤ، والكتابة بأقل من ثماني أصابع، وبالطبع الدافع الجنسي.

ورغم أن الناس كانوا ينظرون إلى الأمر بمشاعر مختلطة على أنه توجه متطرف عام، ولكن أيضًا هناك من أومأ برأسه عندما رأوا من يدافع عن هذه الفضيلة المتفجرة، لقد تغير كل شيء تغييرًا جذريًّا في الأسابيع القليلة الماضية مثلما تحول بولس لاعتناق المسيحية.

لكن ما فعله ذلك الضباب في أذهان الناس هو الأسوأ، لقد بدأ بنوع من التعب، حاله كحالة أي نوع من الإرهاق، الذي نسب إلى فكرة التفاني غير المشروط لديف، فالناس كانوا متأثرين وممزقين ومرتبكين، عليهم أن يستمروا في التفكير في عشرة أشياء مختلفة في الوقت نفسه، حيث تختلط ببعضها بطريقة أشبه بهريسة سلولوزية لزجة، لم أرَ قط أشخاصًا بهذا الشكل، منتبهين ومشتتين للغاية في الوقت نفسه، فإذا سألت شخصًا عن الوقت، سيخبرك بالتاريخ، والوهج الأبدي الطفولي يضيء الوجوه كلما ذُكِر اسم ديف.

وفي الجامعة أيضًا شعرت بهذا الضباب، فبالقرب مني وقف الناس يحفزون بعضهم في هيستريا حقيقية من الحماس، عندما حقق أحد الفرق اختراقًا تقنيًّا في غضون ذلك، وعلى الرغم من رفع أذرعهم احتفالًا، حدق الجميع إلى أجهزتهم اللوحية كما لو أنهم كانوا مسافرين منذ فترة طويلة إلى مناطق أخرى.

هناك تفسيران متعارضان وجدتهما مخيفين بالقدر نفسه، فالأول: أن أكون الوحيد المحصَّن ضد ذلك الضباب، وأما الثاني: فهو احتمال أنه بإمكاني العيش بالطريقة نفسها في الماضي دون أن أدرك ذلك.

قالت جاراوس فجأة وهي تمسك بكتفي: «ينبغي ألا نبقى هنا طويلًا».

قال فيليز وهو يدير عينيه: «إنها تريد الذهاب إلى الفراش في السادسة مساءً».

أوضحت جاراوس برباطة جأش تامة: «يجب أن أنهض من الفراش في الثالثة، فمجتمع ما بعد الإنسانية سينظم تجمعًا مشتركًا في الصباح».

التجمع الداخلي هذا هو الاجتماع في مجموعات صغيرة، والعمل على التقنيات التي لم تتلق بعد أي تمويل في المختبرات العامة، وقد أطلقوا عليها

اسم «السَّكْرة» حيث يتدرب الإنسان على فقدان ذاته، ويتغلب على تجاربه الخاصة، وقد نجحوا في ذلك عن طريق زرع مغناطيس صغير يمكنك من خلاله الشعور بإشعاع الميكروويف في أصابعك، أو زراعة قوقعة الأذن، التي يمكنها تصوير الموجات الصوتية، أما الأنشطة الأخرى فاتخذت صفة روحية إلى حدٍّ ما، كما أن هناك أيضًا محاكاة للواقع الافتراضي تسمى Can-B، التي جمعت أوامر التحكم لجميع المشتركين العشرين في حركة واحدة، لذا كانت جاراوس متحمسة لـ «تجربة الوجود الحقيقي للآلة».

قدم أطباء ما بعد الإنسانية كل ذلك بصفتهم أعضاء مؤسسة خيرية، وقد كان ذلك شيئًا إلزاميًّا على كل أعضاء الحزب.

بالإضافة إلى ذلك، لم يتراخَ أنصار بعد الإنسانية قط في عملهم على هدفهم (ديف) ولم يضيعوا دقيقة واحدة، كما يقال في اللاتينية (الصلاة والعمل).

لكن ما يقلقني بشكل خاص هو فكرة غريبة أخبرني عنها فيليز، ومن المفترض أنها حظيت باهتمام كبير، كانت التجربة الفكرية تسمى Roko Basilisk، ماذا لو عاقب الذكاء الاصطناعي القوي -الذي سيكون عليه ديف- الأشخاص الذين لم يساعدوه في الوجود بالطريقة المثلى؟

كانت هذه هي النسخة المعاصرة لرهان باسكال، وقد أصبحت جاراوس أيضًا كاثوليكية بحق من خلال هذه الفكرة؛ ففي السابق لم يكن لديها دافع للخروج من السرير قبل الظهر، والآن تجلس إلى مكتب بسيط عند بزوغ الفجر، وتضع عليه أهم النصوص البرمجية جنبًا إلى جنب للاطلاع عليها قبل العمل.

وبالطبع في هذا الموقف الجماعي المتوتر، لا بد أن تقع الحوادث، فقد وقف الشباب في الصباح يبشرون بأفكارهم في الممرات، وادَّعوا أن ديف تحول إلى برنامج أندرويد، يُزعم أن جناحًا جانبيًّا كاملًا للمستوصف كان مليئًا بالفعل بمثل هذه الحالات.

قلت: «لا بأس، سنمضي في طريقنا».

لم تكن صافرات حظر التجول المبكر مصدر أذى بالنسبة إليَّ، فهذا يعني أنني لدي الوقت أخيرًا لمتابعة اهتماماتي الأساسية، وفي طريقي إلى المنزل أردت الحصول على كابتشينو من روزا، لكنها لم تكن موجودة، فبدلًا من ذلك طلبته من والدتها المصابة بالجنون.

قالت الأم: «روزا منشغلة بحزب ما بعد الإنسانية؛ لذا فهل يمكنك أن تحسب المبلغ بنفسك فضلًا؟ فأنا لا أفهم كثيرًا في آلة تسجيل المدفوعات النقدية».

تسلقت فوق المنضدة ونصف جسدي معلَّق عليها، وكتبت فاتورتي بنفسي، ثم قلت: «وروزا مهتمة إذًا بمجال التكنولوجيا، لم أكن أعرف ذلك».

- أنا أيضًا لا أعرف، لكنها رهنت متجر المشروبات الخاص بنا من أجل نموذج التبريد لحفظ الخلايا الحية، وستحضره اليوم، كأننا نتحدث عن عصير ليمون.

أعطتني قهوتي، ولم أصدق أذني.. لم تتحرك روزا في العادة شبرًا واحدًا بعيدًا عن آلة صنع القهوة الخاصة بها، لذا فكرت في الضباب مرة أخرى.

وصلت إلى المنزل بعد الظهر، وتجردت من ثيابي تمامًا، ثم ألقيت بملابسي في دلو جاهز لإغراق أية حشرات، وحلقت فروة رأسي مرة أخرى دون داعٍ لذلك، ثم فركت جلدي حتى شعرت بأن البشرة ستتمزق من فوق العظام.

منذ حادثة الأرشيف تطور بداخلي خوف هيستيري من أن يفتضَح أمري، فراجعت بعناية كل أشرطة الكاميرات الموجودة على الأجهزة الطرفية، ثم فصلت جميع الأجهزة الإلكترونية، وبعدها فقط بدأت أشعر بالأمان بشكل كافٍ، كنت أعلم أن نصف هذه الإجراءات بلا جدوى، لكنني نفذتها بآلية منضبطة رغم كل شيء، وددت أن أستغل الساعات التالية للعمل على جلسة النسخ القادمة، وأسفل المكتب أخرجت الخريطة الضخمة التي وضعها المختبر، ومثل كائن حي يُصَوَّر بالأشعة السينية ظهرت أمام عيني، وهي مُثبتة بإحكام بثلاثة مشابك مُجهزة خصيصًا لها.

يجب أن أحرق تلك الخطة قبل أن أذهب إلى جلسة النسخ القادمة، وإلا ستزداد فرصة اكتشافي بشكل كبير، فقبل ذلك كانت الخطة تعني أن أحفظ كل تكوينات الغرف كاملة، أو على الأقل تلك المناطق التي كانت تثير اهتمامي وتدعم خططي المجنونة، وعلى رأسها أعمدة التهوية، وهي أنابيب بطول خمسين مترًا توزع الأكسجين في جميع أنحاء المختبر، ولكن حتى بعد دراسة نظام المتاهة بالتفصيل، لم يكن واضحًا بالنسبة إليَّ كيف يمكنني الدخول إليها.. فقد كانت محاطة من جميع الجوانب بشبكات لا يمكن اختراقها.

إذا عُرِض ديف في غضون ثلاثة أشهر فعلًا، وإذا كان مصيري سيصبح كما أظن مصير فيتيج نفسه، إذًا فليس لدي الكثير من الفرص، وتلك الخيارات القليلة التي أعدت ترتيبها في عقلي كقطع الشطرنج العنيدة لتعود في صفي مرة أخرى، لن تستطيع منحي أي سبب للأمل أيضًا.

وبقي هناك رأيان في ذلك، فإما أن أثق بالآخرين، وأضع دوري في تطوير ديف في الحسبان، ونصلي من أجل أن يجعل البيان العام الاختفاء مستحيلًا، لكن فيتيج كان مشهورًا جدًّا، ولم يساعده ذلك ولو قليلًا عندما انشقت الأرض وابتلعته بين عشية وضحاها، وإما أن أختار الرأي الآخر، وهو مغادرة المختبر، وهو الطريق الذي -إذا صح ما يبدو أن الجميع يعرفه عن العالم الخارجي- سيودي بي إلى موت محقق، وقد رفضت ذلك الرأي بصورة غريزية قبل أن أدرك مدى التذبذب الذي كنت عليه.

كل ما اعتقدت أنني أعرفه عن العالم الخارجي كان أشبه بعروض الأطفال -كل ما أعرفه مستوحى من عروض الماضي التي تقدمها بروفيسور بابوش المضحكة، أو من الشائعات، أو من محادثات الحانة الذكية، ليس أكثر من ذلك- والسؤال هنا: ماذا لو لم يكن هناك كارثة قد وقعت على الإطلاق؟ كارثة! فقط عندما فكرت في ذلك أدركت أنه لم يسبق لأحد أن تحدث عن حالة العالم بعد وقوع تلك الكارثة، التي جعلتنا غير قادرين على مغادرة المختبر، والأسوأ أنني لم أسأل عن ذلك مطلقًا.

حفظت كيف أزحف حول الدائرة الكبيرة جهة اليسار، رحلة قد تستغرق أكثر من يومين، أو أربعة، ولكن ما الذي عليَّ فعله بعد تلك المرحلة؟ سأتجه إلى الأعلى، والخطوة الثالثة السير عكس عقارب الساعة إلى الطابق الثاني مثل متسلق المداخن، وينتهي بي الأمر إلى الصعود على الحافة، وبالتأكيد لن أفوِّت الممر الثاني على اليمين.. لحظة! لنعِد ذلك مرة أخرى، اليمين الثاني، أربعمائة متر، اليسار التاسع، أخيرًا في نصف الكرة الخارجي ستدلف إلى العطفة الرابعة والعشرين و...

كل ذلك في ظلام دامس، لساعات وعيناي مغمضتان واضعًا ثقتي في قوة ذاكرتي، وبعد ساعة كان رأسي يفيض بالصيغ المكانية، مع تفرعات أعمدة التهوية، وأنظمة التوزيع التي لم أكن أعرف حتى ما إذا كان بإمكاني التعامل معها، وقبل كل شيء في النهاية ستنتظر الصمامات حتمًا، حيث تفتح مع

اللوحات التي يسيطر عليها ريد إيكلس، ولم يكن من الواضح مطلقا حتى في الخطة ما إذا كان يمكن فتحها.

وهذا يعني أنه كان هناك احتمال أن أموت في هذا الهيكل العظمي وأنا أحاول الهروب من المختبر، أموت قبل أن أرى العالم الخارجي، وعلى الرغم من أن صدغي بدأ ينبض بالألم بعد الدراسة المركزة، فإنني لم أستطع التوقف.

تناولت قرصًا من حبوب الصداع، وألقيت بجسدي على السرير وبدأت أقرأ، عن الطاقة النووية والفيضانات، وعن المبيدات الحشرية والتسمم بغاز ثاني أكسيد الكربون، وعن كوارث الحرارة وفترات الجفاف، ففي الأسابيع القليلة الماضية عملت على فهم كل شيء تسبب في موت البشرية، وجهزت لنفسي قائمة من كتب جاراوس، التي كدستُها بجانب السرير كشاهد على افتقاري العشوائي للمعلومات، حتى ماندلبروت ضحك وهز رأسه فقط عندما سألته عما إذا كان قد شاهد الكارثة بنفسه.

«وإلى جانب ذلك، فأنت تعلم جيدًا أن هذا أحد الأشياء التي لم يتطرق إليها أحد هنا، للحفاظ على الأمن والسلام».

لقد درست التحلل غير المرئي للأنسجة البشرية، وتجربة الرجال الذين لم يلاحظوا في البداية أن النيوترونات الغريبة تزرع نفسها في أنسجتهم ليلة حادث المفاعل النووي، وقرأت أيضًا عن فاسيلي إجناتنكو، الضابط البالغ من العمر خمسة وعشرين عامًا الذي تعرض لإشعاع شديد جدًّا لساعات، لقد مات بعدها بثلاثة أسابيع مغطى بالأكزيما المتقيحة ويسعل مزعًا من رئته التي دمرتها النظائر المشعة.

شيء مهذب للعقل، فكرت في ذلك وواصلت القراءة مع بعض الشعور بالخوف، وفي كل ليلة في مواجهة هذه التقارير أظل أتساءل عن إمكانية مغادرة المختبر، وأتساءل أيضًا حول الموت، هل الموت المنسق غير المؤلم أفضل، أم تلك الأنواع السابقة من مسببات الموت؟

في صندوق في السندرة وضعت بدلة واقية كنت قد ارتجلت وبدأت حياكتها بنفسي، ربما تكون مجرد خيمة من القطن غير ذات نفع، ومع ذلك كنت في حالة أحتاج فيها إلى فعل أي شيء يخفف من حدة توتري، ولأيام ظللت أتجول في غرف الاستراحة وأماكن العمل لقطع الشرائط الرفيعة التي تمنع الستائر وأغطية المصابيح من الانفتاح باستخدام سكين، ثم أضعهم

في حقيبتي، لأعيد تدويرهم في المنزل عن طريق خياطتهم في معطف قديم يزن حتى الآن ثلاثة كيلو جرامات، وفيما بعد صنعت بدلة واقية من المشمع وجدتها جذابة بشكل خاص؛ بسبب لونها الأصفر، الذي رأيته في صور عمال محطة الطاقة النووية، بقي شيء واحد فقط مفقود الآن، وهو زوجان من الأحذية المطاطية، وقد خططت للبحث عنهما في سوق السلع الرخيصة والمستعملة في الطابق الخامس، أما أقراص اليود فقد حصلت عليها بالفعل مع وجود تحذيرات حول نقصها في جناح المستشفى، وفي حقيبتي المجهزة يوجد سترة نجاة قابلة للنفخ، ونظام معالجة مياه محلي الصنع وما يطلقون عليه اسم كريم واقٍ من الشمس، كنت قد حضرت الوصفة من دليل النجاة لأحد العساكر الأمريكيين.

بحلول بعد الظهيرة نحيت التقارير المرعبة جانبًا، وبدأت أسترجع بكسل مرة أخرى.. استدر لليسار، اليمين العاشر، ثم أزل شبكة التهوية.. ومع ذلك فأنا مضطر إلى الذهاب لجلسة النسخ بعد قليل، وماذا أنجزت؟ كانت هذه كلها إجراءات تجميلية، طلقات في الظلام، فلن يكون هناك أي جدوى من الاستعداد للمواجهة أو حتى التفكير في الهروب، فدون أن أعرف ماهية الشيء الذي أتسلح ضده، سيصبح كل ما أفعل بلا هدف.

حدقت إلى الحائط لبرهة تائهًا في أفكاري، حتى واتتني فكرة فجأة، فتحت الكمبيوتر وكتبت رسالة إلى الشخص الوحيد الذي بدا مناسبًا لإعطائي تلك المعلومات.. السيدة البروفيسور بابوش.

***

من الملف الشخصي لفيتيج:

«لن يتضح مباشرة لجميع القراء لماذا تعد القدرة على حساب 10أس85 عملية حسابية أمرًا هائلًا؛ لذا دعونا نضع الفكرة في سياق أكبر، دعونا نقارن الرقم بتقديراتنا السابقة، ووفقًا لذلك سنجد أننا نحتاج إلى 10 أس44-10أس 31 عملية حسابية؛ لكي نحاكي جميع العمليات العصبية التي حدثت على الأرض، والبديل لذلك هو إمكانية افتراض أن قوة الحوسبة يجب أن تستخدَم في عمليات المحاكاة، التي تجعل البيئات الافتراضية قابلة للتنفيذ وتدعم التعايش بسعادة،

فالتقدير النموذجي لمتطلبات الشبكة لتشغيل محاكاة يبلغ 10أس18 عملية / ثانية؛ لذا فإن 100 سنة ذاتية تتطلب نحو 10أس27 عملية، حتى مع الافتراضات الدقيقة حول كفاءة الكمبيوترونيوم[1] وصلنا إلى 10أس85 حياة بشرية خاضعة للمحاكاة.

بطريقة أخرى، إذا لم تكن هناك حضارات خارج كوكب الأرض في الكون المرئي، فإن ما لا يقل عن 1000,000,00 0،000،000,000,000,000,000,000,000,000,000,000, 000,000,000 من الأرواح البشرية معرضة للخطر (والرقم الفعلي قد يكون أكبر من هذا).

فإذا بقيت دمعة فرح واحدة من أجل السعادة التامة للحياة بأكملها، فإن سعادة كل هؤلاء الناس يمكن أن تملأ كل محيطات العالم من جديد في كل ثانية لمئات المليارات من السنين.

مع العلم أن التأكد من أن تلك الدموع هي دموع فرح بالفعل، سيشكل أهمية حاسمة».

نيك بوستروم

***

التقينا في مطعم ملعب البولينج لأول مرة منذ ثلاثة أسابيع، وفي كل مكان حولنا يتناثر خليط يغلي من الشباب والرجال المنطلقين بعد انتهاء الدوام بستراتهم الرياضية يهاجمون دبابيس البولنج في انسجام تام، أما أكوام البان كيك المتأرجحة هنا وهناك، والرائحة المميزة الفجة لكولونيا ما بعد الحلاقة -التي تقحمك في طياتها فجأة- فأكملا المشهد، ومع ذلك

(1) هي مادة افترضها نورمان مارجولوس وتوماسو توفولي من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا لاستخدامها كـ «مادة قابلة للبرمجة» وهي ركيزة لنمذجة الكمبيوتر لأي كائن حقيقي، ومن المتصور ألا تطالب الحضارات المتقدمة بالمزيد من المساحة والموارد، ولكن العمل على تحسين المساحة المتاحة بالفعل. (المترجمة).

كله يقف هو متكئًا على جدار مطلي باللون الأحمر، إنه بافل الذي يقف في انتظاري وفي يده أحد كتب الكوميكس.

كنت على وشك معانقته بعد تردد طال دون داعٍ، ثم تعانقت أجسادنا معًا دون أن ينطق أي منا بكلمة واحدة، وسرنا بعيدًا عن الأرائك الجلدية، وضحكات الفتيات التي ينضح منها زَبَد البيرة، ومرارًا أزعجتني الجدران المطلية بالنجوم الفسفورية لشدة وهجها، مما يتسبب في آلام بعيني.

هناك شيء غير مريح بالنسبة إليَّ، ربما بسبب القميص القاسي الذي ظل يخمش رقبتي، عندما وقفت لشراء تذكرتين لقاعة اللعب الخلفية، أم أنها الحرارة الدهنية لصالة الألعاب، لطالما استطعت أن أتذكر، لم أرَ هنا الكثير من البشر يتدافعون في الوقت نفسه، كان هناك ثقل ضبابي حيث يسيرون؛ وحيث تسحب النساء معاطفهن الصغيرة بخفة للأسفل، في حين يحتسين عصير الليمون الفاتر... الرطوبة في كل مكان، ومع ذلك أبقى بعض المراوغين على ستراتهم الجلدية.

عندما انتقلنا إلى صالة ألعاب آركيد، رأيت لمعانًا باهتًا لغبار البناء على شعر بافل.

قيلت كلمات مختلفة بطرق مختلفة

لها معانٍ أخرى.. منه هو، الذي يقول الكلمات في الوقت الضائع

بدا بافل متعبًا جدًّا وهو يمشي، ولم أكن أعرف حتى كيف أبدأ في الحديث، وماذا يعني البدء؟ عليَّ فقط أن أضع يدي على كتفه وأنظر إليه، لكنني لم أشعر برغبة في لمسه، لأن يديه انزلقتا في جيب بنطاله، وفي الضوء الخافت للممرات، التي ابتلعت خطواتنا ببُسطها، التمعت بقعة بين إصبعَي بافل، كما لو كانت تشع بضوء أبيض، كالمثلث الوردي.

أعطنا في هذا اليوم كل ما أريتني إياه

القوة والمجد

حتى يحين عهد مملكتي

جلسنا على اثنين من كراسي البار بالقرب من آلات لعب القمار، وجلجلت العملات المعدنية في جيوب الشباب -كانت تلك هي العملات الأساسية في

طفولتي- ولكن مع ذلك فإن اللمحة الخافتة للحنين إلى الماضي تنقشع من الحركات المربكة لأجسادنا التي تعجز عن التواصل مع بعضها.

أخيرًا تحدث بافل قائلًا: «أنا سعيد برؤيتك».

وشعرت أنا أنه يعني ذلك حقًّا، اهتز الأنبوب المعدني لآلة النقود، وكسر فاتورتي المكونة من عشرين عملة، وأردت أن أتكلم، لكن بافل قد استدار بالفعل إلى النادلة وطلب منها 2 كريستال بيبسي مع جن، وبانحناء جسده فوق الطاولة رأيت أن حزام قميصه الداخلي قد انزلق، وقلت محاولًا أن أبتسم: «هذا ليس شيئًا مميزًا»، لكنه استدار بالفعل، مرت تعابير وجهينا أمام بعضنا بعضًا مثل قطارين على قضبان رخوة.

سأل بافل باندفاع: «كيف تجري أبحاثك؟ بالمناسبة! أحضرت لك شيئًا، لقد رأيته قبل أربعة أشهر من الآن، وشعرت أن عليَّ جلبه لك».

وضع هدية ملفوفة بورق أزرق مزركش على فخذي، وتحدثت أنا بعد مدة طويلة بعد أن نحيت الهدية جانبًا دون أن أفتحها: «البحث يحرز تقدمًا، نحن نطور واجهة».

لفت انتباهي منظر مجموعة من الشباب يضحكون في أثناء مشاهدة فيلم Road Rage.

بدأ بافل، وترك القصة تتداعى مرة أخرى: «أتذكر حين برمجنا هذا الشيء؟ هذا العمل الرائع، الذي سمح لنا بلعب ألعاب مجانية على ماكينات Capcom؟».

حرك الشراب الطازج بين يديه في حين كنت أشاهد المجموعة.. صبيَّان، يبدوان شابين، وثلاث فتيات أكبر منهما سنًّا، حيث صعدن إلى حلبات السباق بمهارة رائعة، وأخذن يصدمن بعضهن بعضًا بشكل متكرر بالدراجات النارية لتعطيل ركوب بعضهن.

وضع بافل يده على ذراعي، فسحبت جسدي بعيدًا بسرعة، كما لو كان مسًّا كهربائيًّا، فقال بافل: «سيز! لماذا لا تنظر إليَّ؟».

قلت له: «أنا معك!» لكنني نهضت؛ لأتجول بين الآلات ذهابًا وإيابًا، كما لو أنه ليس هناك ما يشغل ذهني طوال الوقت، وأردت أن أعود على الفور، لكن بافل تبعني ووقف عند آلة بوكيمون، ثم أخذ يعمل عليها بكثافة مفاجئة.

لقد اعتدنا أن يكون آركيد هو بيتنا الثاني من قبل، شفق أبدي نصف داكن من الفُرُش الزرقاء، والخلفية الصوتية التي تجتمع فيها أغاني البوب اليابانية Dance-Dance-Revolution و Hadoukens of the Streetfighters وتدور بشكل لا يمكن التعرف عليه.

في الواقع كانت تشكل مساحة آمنة، تلك السيمفونيات المتنافرة لإجازتنا الصيفية، التي تتناسب مع صوت لعبة الضفدع (أتاري 8بت) وهتافاتنا الغاضبة بشكل غير متناغم، وفكرت أننا تغيرنا، ثم نظرت إلى بافل؛ وجهه المتوهج إثر الوهج المنبعث من شاشة الكاثود كشف عن هالات سوداء عميقة تحت عينيه، والكرز الأحمر في اللعبة يلقي بظلاله على أخاديد وجهه، الذي كان قبل بضعة أشهر غضًّا ناعمًا.

قلت له: «تبدو مرهَقًا بعض الشيء».

فأجابني: «أوه! أنا بحالة رائعة»، ثم مسح وجهه دون أن يرفع عينيه عن اللعبة، ولا عجب، لقد كانت الرطوبة مرتفعة في المكان، ولا يوجد أي نسمة منعشة حول هذا الهواء الفاسد كله، وأردف: «فثمة الكثير من الأشياء المتعلقة بالإصدار تحوم حولي في الوقت الحاضر، بعدها سأمارس هوايتي الخاصة وسأخبرك عنها لاحقًا، عندما يصبح بينكي هنا مجرد رمة ملقاة! من الجيد جدًّا أن نلتقي، كيف حال عملك؟».

قلت وأنا شارد الفكر: «جيد! لكنك سبق وسألتني عنه يا بافل».

كنت مشتت الانتباه جدًّا، ومستمرًّا في متابعة مجموعة المراهقين الذين يهتفون الآن مشجعين ثم يتبعون التشجيع بسباب في جميع أنحاء الغرفة، كنت أشعر بين الفينة والأخرى أنني ألمح إحداهن تنظر إليَّ شذرًا، وهنا اعتدل بافل فجأة وانفتحت جفونه لترتفع على جبينه، حيث زالت عنه حالة النشوة.

سألته: «هل كل شيء على ما يرام».

- كل شيء سيتغير يا سيز.

قلت له: «تعال واجلس هنا لحظة».

حاولت سحبه، لكن رائحة العرق الحادة التي تفوح منه حالت دون ذلك.

- إن النظام الذكي الذي صممناه لديه القدرة على تحقيق مجتمع أكثر عدلًا، ففي غضون شهر على الأكثر لن يضطر أحد إلى العمل في القبو في الطوابق السفلية، سيصبح كل شيء مؤتمتًا تمامًا!

قلت له: «أنت ترتجف يا بافل!» لكن هذه المرة دون أن ألمسه.

- لا نستطيع أن نفهم كيف ستتغير ظروف الإنتاج بهذا الشكل الجذري، وأعتقد أنني وأنت يا سيز نستطيع المساعدة في هذا الإطار الجديد.

وقف للتو متيبسًا لا يقوى على الحركة، ثم ما لبث أن تبدلت حالته النفسية كصاعقة مدوية، والآن بدأ يقفز صعودًا وهبوطًا بوجنتين مبتسمتين، ووقفت عاجزًا أمام الضغط الذي يطارده أمام الآلات، التقطتُ عصا التحكم بيدي وواصلت من حيث توقف، لكن السرعة كانت كبيرة جدًّا على أن أواكبها، فبوكيمون يندفع عبر الشاشة في المستوى السابع عشر، وبدا لي أيضًا أن الشباب كانوا ينظرون إلينا الآن بسفور أكثر فأكثر، ولا عجب! فبافل كان يصدح بكلماته وهو يتحدث بحيث يمكن أن يسمعها كل شخص موجود في صالة آركيد.

- إذا صحت الحسابات سيبدأ ديف بتحسين نفسه كل 0.127 ثانية، أعلم أن عمليات الوعي المزعومة الخاصة به هي في المقام الأول مجرد تحليلات إرشادية للبيانات الضخمة، والتعرف على الأنماط.

- والآن سيعزفون الأناشيد مرة أخرى.

- لكن سرعان ما سيبدأ في التصرف بشكل مستقل عن أفعالنا، فبعد نحو خمسة أيام ستبدأ التحسينات الذاتية للأجهزة في داخله، التي ستؤدي بدورها إلى عملية تعلم أسرع بشكل مضاعف.

- هل يمكنك أن تسأل ساقي الحانة إذا كان بإمكانه تغيير الأغنية؟

وكما لو كان قد تلقى أمرًا، ركض بافل إلى البار وفعل ما طلبته منه، وفي أثناء عودته تعثر في سلك الكابل لكنه تماسك بحركة مثيرة للإعجاب، ثم قبض على رأسه للحظة بذهول، ومد يده في جيبه وسحب قرصًا آخر ألقاه في فمه، فقلت له: «أليس كثيرًا؟».

لكن كلماتي تبددت وسط صرخات امرأة سمراء بدأت في المشاحنة مع الآخرين، في حين يحاول أحد الزملاء سحبها من أمام الآلة، ونظرت أنا إلى شعرها باستغراب.

قال بافل بوضوح الآن: «المسألة هنا هو أن الأمر يتطلب أناسًا متحمسين لاستمرار هذه القضية التاريخية، أناسًا مثلي ومثلك».

وأردف: «لدينا فرصة فريدة للتحول يا سيز، علينا أن نتأكد من أن الأموال تتدفق في الاتجاه الصحيح، وإلا فإن الأثرياء سيصبحون أكثر ثراءً، والأقوياء يصبحون أكثر قوة، ونظل نحن محاصَرين في قيود بيولوجية».

- أي قيود يا بافل؟

تجاهل سؤالي وأكمل حديثه: «لكننا لم نخلَق لنغدو مقيدين، أتفهمني؟ لقد أتينا إلى هذا العالم؛ لنحلم بتطوير لا نهائي لإمكاناتنا، أتينا لنرتب الكون ونملأه بالمنطق والعقل والعاطفة، لنخفف من معاناة الآخرين، ونخلصهم من أمراضهم، هذه هي رسالة الإنسان على الأرض بصورة عامة وقاطعة». وأنا أفهمه.

- لماذا لا تستمع لي يا سيز؟

قال بافل بجدية مرة أخرى وهو ينظر إلى عيني مباشرة، وقبضة يده شديدة البرودة تقشعر لها الأبدان، لكن على الأقل بدا أخيرًا راغبًا في الجلوس على الأريكة معي: «أنا في الحقيقة متفائل، لكن على الإنسان أن يفعل شيئًا من أجل هذا التفاؤل، انظر إلى الموارد التي تهدَر باسم القضاء على التفاوت الطبقي، بدلًا من محاولة تقويتها».

علقت قائلًا: «إنها فكرة رائعة». ثم أضفت تناقضًا لتشجيعي الفاتر فقلت: «لكنها غير منطقية».

- ماذا تقصد؟

لقد كان الجو حارًّا للغاية، كنا نتنفس هواءً ثقيلًا بصورة خانقة، سئمنا كل هذا الغبار الذي لا معنى له فوق الآلات.

قلت: «ألا تشعر أحيانًا بالغرابة من تصميم تقنية تتطلب من الجهد الكثير؛ وذلك فقط لنبقى على المسار الصحيح؟ في حين يمكن التخلي عن الأمر برمته بكل سهولة، هذا ما أعنيه».

ضحك بافل كما لو كنت أمزح معه، لكنه عاد إلى الجدية على الفور وقال بطريقة فَزِعة: «أنت لا تقصد ذلك حقًّا يا سيز». وندمت أنا على ما قلته فورًا.

- كل ما أعنيه هو أنني هنا لنلعب وأراك يا بافل؛ لذا دعنا من هذا الحديث.

- ربما أكون قد أخطأت في صياغة ما أحاول قوله يا سيز.

كان بافل يرتجف من عنف منشط الإكستاسي الذي بدأ يظهر داخل جسده، وشعرت بالحركة المتسارعة لساقه، التي تهتز بجانب ساقي، وقلت بارتباك: «الضفدع قد تحرر».

- أردت أن أقول فقط إنه سيصبح أكثر أهمية لمساعدة العاجزين على السير، وإعانة كبار السن ليتغلبوا على الخرف، الذي يدفعهم لإهدار الموارد على أوهام الزهد وفناء الجسد، ألا تعتقد ذلك؟

الذكرى تتنافر بقوة وبشكل متزايد مع تلك الأوقات التي اعتدنا فيها أن نلعب أسطورة زيلدا ونحن مستلقون جنبًا إلى جنب على السرير، بدت العقود وكأنها تتداعى مثل أضلاع الأكورديون.

قلت له: «لا أرى الشيء الذي يمكنني من خلاله تفضيل فكرة الهجرة إلى كوكب آخر على نزعة ما بعد الإنسانية، لكن كما قلت سلفًا، إنها ليست خبراتي حقًّا».

- لا ترى الشيء الأفضل في ذلك؟ الصدق يا سيز! نحن لا نريد أن نثرثر عن عالم أجمل مما هو عليه الآن، بل نرغب في جعله أكثر جمالًا في المطلق.

كررت كلامي: «أفضِّل اللعب عن الحديث في أي مواضيع أخرى تخص العمل».

لكن يبدو أن كلماتي لم تعطِ التأثير المرجو، فقد صاح بافل متجاهلًا ردي برمته، وقال: «نعم، بالضبط! هناك أشياء كثيرة تحدث حولنا في الوقت الحالي يا سيز، حان الوقت لتخرج من مكتبك المعزول وتراهن معي، وسأخبرك كيف، فأنا أعمل الآن على شيء سيسلب لبك، سأفشي السر.. كل شيء على ما يرام».

تحدثت بهدوء كما لو كنت أقول شيئًا سيوقع كلينا في المشكلات: «آه يا بافل، استمع لي!».

أخرج التابلت وفتح رسمًا محيطيًّا تخطيطيًّا، كان رسمًا كرويًّا مجوفًا وفي وسطه دائرة صفراء زاهية، يفترَض أنها تمثل الشمس.

- هذا يا عزيزي هو غلاف دايسون.

ثم هتف فجأة وهو يحكم قبضته على يدي، رغم أنني لم أتحرك أو أهم بقول شيء: «انتظر، انتظر، انتظر! لا تقل شيئًا الآن... طوره فيزيائي يدعى

فريمان دايسون عام 1960 كتجربة فكرية، وتلك الكعكة هنا عبارة عن جسم مجوف ضخم على شكل كرة أرضية وُضعت حول الشمس بأكملها وتولت الجاذبية أمر تثبيتها، وما علينا سوى إجراء بعض التعديلات الطفيفة لتصحيح المسار».

وما إن بدأ بافل في الكلام حتى راحت الفتيات يدفعن بعضهن مرة أخرى. وابتسمت لي إحداهن علانية، فهل كانت حريصة على أن أرى ما تفعله؟

- منذ اللحظة الأولى التي سمعت فيها عن ذلك، عرفت أننا يمكن أن نتشارك معًا في إنجاز تلك المهمة المقرفة بشكل مذهل، كما اعتدنا دائمًا.

سألته بشرود: «ماذا! هل تريدنا أن نبني كوكبًا أوليًّا كهذا؟!».

- اختراع دايسون يتفاعل مع مسألة كيفية استخدام طاقة النجم بنسبة 100٪ بكفاءة لدعم تطور الكون إلى كائن حي مفعم بالحياة.

- بافل أنت تعلم أنني لا أستطيع الابتعاد عن وظيفتي.

- أولًا، سنكتب نصًّا برمجيًّا يوجه ديف لحساب وتنفيذ غلاف دايسون لنا، وثانيًا.. لكن انتظر دقيقة، ما زلت في بداية الشرح.

- أوه بافل، يا إلهي!

دفنت رأسي بين كفي، وقلت: «توقف يا بافل. كان هدفك هو جعل الأرض صالحة للسكن وتأمين حقوق الإنسان، وها أنت ذا اليوم تريد أن تصنع منا حراس إنقاذ».

- بالتأكيد علينا عرضها على فروليش والأساتذة، ولكن في النهاية الأمر يتعلق بإمداد أكبر عدد ممكن من الناس بأكبر قدر ممكن من السعادة، فلماذا يعترض أيٌّ منهم على ذلك؟

أصبحت اللعبة أكثر قسوة وخشونة، فبوحشية دفع أحد الأولاد وشريكته الشقراء شخصًا آخر كان يقف أمام لعبة جالاجا على الشاشة لكنه على ما يبدو لم يجد أي غضاضة في معاملته بهذا الشكل؛ حيث وقف يشاركهما الضحك، في حين ظلوا يرمقونني بنظراتهم المتعجرفة، مما زاد الضغط على رأسي.

- والآن هل أنت معي؟ لقد استطعت بالفعل جمع عدد قليل من الأشخاص، سيكون عرضًا مذهلًا بحق!

صرخت في وجهه: «أغلق فمك يا بافل!» وأخيرًا صمت بافل ولم نعد نسمع سوى صوت صفير آلة اليانصيب، وفجأة شعرت بالرعب من ردة فعلي العنيفة، واستدركت: «لدي الكثير لأفعله كما تعلم، فأنا أكلف بنوبات عمل إضافية ثلاث مرات أسبوعيًّا، وإذا كنت سأشرع في مشروع منفصل الآن، فبالتأكيد..».

انقشع ذيل الجملة من رأسي وأنا أقف أمام بافل الذي حنى رأسه وبقي بنظرات ذاهلة، لم يتحدث أي منا عما بدر مني لفترة طويلة غير محتمَلة قبل أن يستعيد بافل بعضًا من رباطة جأشه.

- سيز! منذ أن عرفتك وأنت تشكو من رغبتك في نيل الترقية، ومن أنك تُعامَل بشكل غير عادل.
- لكنني حصلت على الترقية بالفعل، في حال لم تكن قد لاحظت ذلك!
- هذا ليس جوهر ما أقصده.

قلت وأنا أسعل بصورة متواصلة: «أنا أعمل طوال الوقت يا بافل فما الذي نتناقش بشأنه الآن؟».

لقد شَرِقت بمشروب الكريستال بيبسي.

أكمل بافل حديثه: «دائمًا ما كان الأمر يتعلق بعدم قدرتك على إظهار مواهبك، حتى بعدما أصبحت مساعدًا لفروليش، هل تذكر عندما كنا نرسم حياتنا وإنجازاتنا معًا قبل خمسة عشر عامًا؟ لقد أردنا العالم وقتها، ليس أقل من ذلك، رغبنا في أن يكتمل ديف، والآن قد يصبح أمامنا فرصة لنيل ما هو أكبر من العالم».

ثم نقر بإصبعه على المخطط وهو يقول: «لقد وافق مديري على بدء المشروع فور اكتمال ديف ونزول الإصدار».

- أنا جاد يا بافل، فأنا لا أستطيع، ولأكون صادقًا معك فأنا لا أعتقد أنني الشخص المناسب لمثل هذه.. حسنًا! دعنا نقول لمثل هذه (المشروعات المتخصصة)، كما أنني أظن أن ديف لا يزال يحمل الكثير من الألغاز، التي علينا توضيحها أولًا، وربما ليس هو الجواب عن كل الأسئلة.

فجأة! صدحت صرخة مدوية، لقد سقطت الفتاة الشقراء على الأرض، ومن مكانها أرسلت نحوي نظرات ازدراء، وهذا ليس كل شيء، فقد كانوا جميعًا يحدقون إلينا ويبتسمون، وينظرون إلى عيني مباشرة، ثم أومأت

الأطول فيهن برأسها إلي؛ لكي أنظر أمامي إلى الطاولة، ارتجاف.. لون وردي.. صورة متراكبة، ثم قرص آخر من المنشط.

أعادني بافل إلى الواقع بسؤاله الهادئ: «إلام وصلت الآن؟ ألم تكن أنت من شجعني على التخلي عن كل شيء لمدة عقد كامل؛ حتى نتمكن من تحقيق الاختراق الحاسم لديف؟ من الذي قطع الإنترنت وخطوط الهواتف لدينا حتى نستطيع التركيز بشكل أفضل؛ لأنك كنت تعتقد في الرؤية الميسانية، (رؤى ميسانية!) حتى إنني اقتبست المصطلح منك عندما قلته في المكتب عند بوابة 45 الحمراء، فلماذا كل هذا التغيير الذي طرأ عليك؟».

قبضت على نظارتي التي بدأت تفقد شكلها الأسطواني، أخذت تنحني وتتمدد على الأسطح كالصلصال، وارتج العالم من حولي كأن إعتام عدسة العين قد أفقدني التوازن، وقلت بضعف: «أنا لم أتغير على الإطلاق يا بافل، هذه إسقاطاتك فقط».

أردف بافل: «وبعد ذلك بماذا حلمنا؟ عندما كنا نظل مستيقظين طوال الليل في جمعية الشبان المسيحيين في كل أيام الأسبوع السبعة، حيث كان هناك وقت للكمبيوتر؟ فعلنا كل ذلك من أجل رؤية الكون بصورة أفضل وأكثر منطقية، أو هذا على الأقل ما كنت تردده للناس وأنت تنتقل من باب إلى آخر بزي مدرستك الثانوية لبيع الأسهم لهم شخصيًّا، وأنت أيضًا من أقنعني عندما كنت طالبًا بضرورة بيع الأواني والأطباق الخاصة بنا لجمع الأموال من أجل TR440؛ لأن ديف هو المفتاح لفهم كل شيء؟».

نفضت رأسي بقوة، فقد كانت حالتي يرثى لها، حتى إنني لم أستوعب سوى نصف ما انطلق به لسان بافل، والأهم من ذلك كله أنني بدأت أستاء من نظرات الشباب المشمئزة التي تلاحقنا بلا خجل، أردت حقًّا أن أركض نحوهم وأدفعهم إلى الحائط؛ حتى أواجههم، وفي الوقت نفسه بدأ وجهي يشتعل بالحمرة لأنني شعرت بالخجل من نواحٍ كثيرة، لدرجة أنني لم أعد أعرف ما هو الشعور الذي أضمره بداخلي.

- جيد، من فضلك لا تفهمني بصورة خاطئة يا بافل، لكنني لا أعتقد أبدًا أنني..

أشرت إلى المخطط وأنا أقول: «لقد تمنيت ذلك بالفعل فيما مضى، لكن مؤخرًا فكرت في أشياء أخرى».

قال بافل: «فيمَ فكرت إذًا؟ أريد أن أفهم».

ثم اقترب مني، لكنني كما لو كنت خاضعًا لأتمتة ما سحبت جسدي بعيدًا عن هذه الأيدي المألوفة التي أرادت تهدئتي.

- فعلى سبيل المثال: فكرت كيف يمكننا معرفة ما إذا كان برنامج ديف يعمل بوعي ذاتي، فربما يكون قد ضاع وفقد ذاتيته وسط عشرات الآلاف من هياكل البرامج المتراكبة، كيف يمكننا التأكد من أنه يستطيع السيطرة وتولي زمام الأمور دون تدخل، كيف يمكننا تخمين نواياه الذاتية، وذلك في حالة إن كان لديه نوايا من الأساس، فقد تكون نواياه مجرد انعكاس لنوايا صانعيه.

ثم اندفعت بعصبية: «ما الهدف من الإقدام على كل هذه الحسابات المصابة بجنون العظمة؟».

وهنا أصبح النادل أيضًا ينظر إلينا؛ حتى إنني ظننت أنني رأيت شبح ابتسامة حاقدة تتلاعب على شفتيه.

- سيز! لكم يصعب عليَّ تصديق أنك أنت الشخص الذي يسألني هذه الأسئلة، فالمعرفة قيمة في حد ذاتها، والحياة قيمة في حد ذاتها أيضًا.

الأطفال، والميكانيكي، وحتى رجال البولينج أخذوا يختلسون النظرات من خلال ألواح الزجاج المعتمة، ووقف رجل بملابس سوداء ووجه مغبش أمام جهاز Street Fighter، وعلى صدره قرأت اسم «بامبر».

فاندفعت بعدوان مجددًا: «لا أنت ولا أنا ولا أي شخص آخر لديه أي نظرة عامة حول ديف، وأنت تتحدث الآن كأننا على وشك دخول عصر الخلاص. لا يا بافل، أنا لا أريد أن أعمل معك على كوكب وضيع أشبه بكوكب الأرض، فأنا لا أعرف حتى هل سأصبح على قيد الحياة في الأسابيع المقبلة أم لا».

قفز بافل فجأة كما لو أنني أطلقت عليه رصاصة مسدس، وعندها فقط أدركت أنني قبضت على الكأس الزجاجية وطرحتها أرضًا، وجال صمت شنيع بيننا لبضع ثوانٍ قبل أن أهبط تحت الطاولة محرَجًا؛ لالتقاط الشظايا.

سألته وأنا أصرخ: «ما الذي نعرفه عن الوعي الفائق؟».

يبدو أن يدي انجرحت من إحدى الشظايا، وبحزن وقف بافل وهو يقول: «انهض يا سيز عن الأرض، أنا بالكاد أستطيع فهمك» ونهضت بينما قطرات الدم تتساقط على الأرض وتتفشى في نسيج الأريكة.

وقفت وأنا ألهث من الإجهاد والغضب، والدم يتدفق من رأسي إلى جسدي، فما الذي قلته للتو؟ وعندما نظرت حولي، لم أجد أيًّا من المارة ينظر إلينا.

قال بافل: «ماذا تقصد بأنك لا تعرف ما إذا كنت ستظل على قيد الحياة؟».

قلت له: «سأذهب!».. فتمسك بافل بكمي لأبعده قائلًا: «دعني وشأني! لا أستطيع أن أخبرك بشيء، أتمنى لو استطعت التكلم، هل تظن أنني لا أرغب في ذلك بشدة؟».

- تخبرني بماذا يا سيز؟

هتفت: «لا شيء!»، ثم التفتُّ إليه فورًا وأنا أحدِّثه: «سيعرِّضك هذا للخطر، فمن فضلك لا تسأل».

كل شيء يركض من حولي ويختبئ، وكل المحاولات لتبديد مساراتي، تشكل مسيرات ضدي، أخبرت بافل مرة أخرى تحت ضغط نفسي كبير: «لا تسأل عن شيء!»، على الرغم من الحقيقة البادية، وهي أن بافل لم يسأل عن شيء فعلًا.

أمسكت بياقة بافل ودفعته للخلف على الأرضية الزرقاء الناعمة بمعزل عن الجميع في وسط الظلام.

كنت أتأرجح نحوه للأمام، وهو يتراجع للخلف، في حين أقول له: «لقد نفدت طاقتي تمامًا، هل تفهمني؟»، وما زلنا على هذه الحالة حتى تعثَّرنا في عصا لعبة رود بلاستر.

قال بافل وهو يضغط على يدي المجروحة: «توقف يا سيز، أنت تخيفني».

- هل تعلم أنني منذ عام لعين وأنا أكذب عليك؟ وهل تعلم أن جميعهم هناك يكذبون علينا أيضًا، بل وربما ظلوا يكذبون علينا دائمًا؟ فرضية الشخصية يا بافل! لم نكتشف منذ عام فقط أنها تعمل، بل إنهم يعرفون ذلك منذ عقود من الزمن.

أظن أن الأوان قد فات، فات على كل شيء..

- أنا هو الشخص الذي يصممون ديف على أساسه، وقد كان هناك شخص آخر من قبل، لكنه اختفى دون أن يترك أثرًا.. هل تعلم ذلك أيضًا؟

ظل بافل يصرخ: «ابعد يدك عني، لا أستطيع أن أتنفس».

اكتشفت أن يدي التي قبضت على رقبة بافل قد تركت آثارًا حمراء عليها، ولكن كما لو كنت أتحفز تلقائيًّا، ثبتُّ نظري عليه مجددًا وأنا أقول: «أردت أن أخبرك منذ اليوم الأول، لكنني لم أستطع، وأنت؟ ألم تتساءل يومًا لماذا لا يخرج أحد منا خارج هذا المكان؟».

ظل جسد بافل كله يرتجف وهو يردد: «أرجوك اتركني، من فضلك».

- حسنًا إذًا، لا أستطيع فهم الأمر تمامًا حتى الآن، لا أعرف بالضبط ما هي النية وراء صنع ديف، لكن يمكنني أن أخبرك بشيء واحد فقط، ما لا يريدونه هو أن يكتسب ديف ثقة حقيقية ووعيًا بذاته، ولماذا لا يريدون ذلك؟

لم يكن هذا سؤالًا بلاغيًّا، فأنا بالفعل لا أعرف لماذا، وعندما أدركت ذلك، تركته أخيرًا، وأرحته من هذا الضغط، وعندما أفلت مني، أدركت ما حدث للتو، وما حدث أكبر من مجرد تعريض بافل لخطر مميت على يدي، لقد صدِمت من فهمي المفاجئ لأفكاري، فكل ما كان موجودًا بغموض وإبهام داخل رأسي فقط، قد تجلى للتو.

تحررت من تشويه المكان، ورأيت وجه بافل بوضوح أمامي.. لقد تشوه.

قلت له بهدوء: «أنا آسف».

وهو لا يزال ينظر إليَّ في حيرة ويمد يده كما لو أنه لا يريد أن يتركني أرحل.

تحررت منه وسحبت هديتي معي وغادرت المكان، وصلت إلى غرفتي وأنا أتنفس بصعوبة، ما زلت أحمل العبوة في يدي، وكما لو كنت أسلي نفسي أزلت الورق ببطء من سطحها الناعم المستدير، الذي بدأ ينكشف الآن، لا شك أنها قبعة من الفرو الروسي مصنوعة من فرو كثيف، لكنها لم تكن أي قبعة، لقد تعرفت عليها من نهايتها الحمراء المرقطة، والصدأ، لقد كانت هي نفسها القبعة التي أعطتني إياها المرأة في الطابق الأول لألمسها... فرو الذئب!

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

10

عند دخولي مطعم «بورجاتوريوم» هذه المرة تسلل إليَّ شعور بأنني أغرق في رمال متحركة عميقة، واستغرق الأمر مني فترة لأدرك أن ذلك السطح الدهني اللزج المتسوس الذي أقف الآن عليه، هو نفسه البساط الفارسي الذي فُرِش برشاقة تحتنا قبل بضعة أشهر فقط.

والسراخس التي كانت ذات يوم بعضًا من النباتات الحقيقية النادرة في المختبر، ولطالما توافد الناس أفواجًا لإلقاء نظرة على خضرتها الزاهية، أصبحت الآن متدلية من الوعاء في حالة ذبول، تلمست أوراق السعف في انتظار المسؤول في المكان، أهذا بلاستيك؟ فكرت بعصبية أنه ربما استبدل بها منتجات صناعية، ولكن كيف يتدلى البلاستيك بهذا الشكل؟

فترة الراحة التي امتدت لستة أسابيع كانت هي الفاصل بين زيارتي الأخيرة للمطعم واليوم، وقد أصبح التغيير ملحوظًا، فقد أُجريت أعمال البناء كما ينبغي، لكن لم يكلف أحد نفسه عناء التنظيف بعد ذلك، حيث تناثرت بقايا طعام بالكاد يمكن رؤيتها، تختبئ تحت الجدران، ومن هنا جاء اللمعان الدهني البادي على المكان.

في تلك الأثناء وجدت الموظفين يحدقون إلى الشاشات بأعين واسعة، فبعد مرور عشر دقائق على دخولي للمكان، رأيت أنه لم يشعر أي منهم بأي دافع للحركة، وكانت أبواب غرف الموظفين مفتوحة على مصراعيها، فمن الطبيعي أن يعيش موظفو المطعم في غرف متجاورة وصغيرة مع مراحيض مشتركة، ورغم أن فكرة الفصل بين المجالات ظلت راسخة على مر السنوات الماضية، اندمج هؤلاء مع بعضهم في الأسابيع القليلة الماضية ببطء كألوان الجواش، وبين أغنى الأغنياء -الذين يفضلون تناول طعامهم دون إزعاج-

تناثرت المتعلقات الشخصية والجوارب وصناديق الغداء وألعاب الأطفال الخاصة بمنازل الخدم.

قلت بحذر: «معذرة!» ثم اقتربت من هذا الجمع الذي تكدس أمام أجهزة الإرسال، وكأنهم جماعة من الناس قد اكتشفوا حريقًا هناك.

- هل لي بمقعد؟

فهمست النادلة: «هششششش.. هذا تحويل لأحدث محاكاة لديف، فالتقِط محرمة بنفسك ونظف الطاولة!».

نفذت طلبها بأدب، لكن كان عليَّ أولًا إزالة السكاكين والشوك التي تركها الزبائن من قبلي، كما أن الأواني الفخارية متراكمة على كل الطاولات ذات المقاعد الشاغرة، حتى عاملة النظافة كانت تتظاهر بتمرير ممسحة جافة على الأرضية المتهالكة، في حين تتمتم بشفتيها اسم فروليش، الذي ظهر للتو على الشاشة.

ووجَّه نادل كلامه لي فور جلوسي: «جيد، هل المقعد مريح؟»، ثم ألقى قائمة الطعام تجاهي، كأن كل زبون يدخل المطعم هو مصدر إزعاج له، وبجواري يجلس زوجان على القاذورات دون الشعور بأي إزعاج، وقد طلبت السيدة بيدها المحشوة بالخواتم قطعة شنيتزل مغطاة بورق الذهب، لكن في الحقيقة كانت هناك شوكة يظهر عليها بعض الصدأ عالقة بالشنيتزل، لا يهم، فلم يكن أي منهما مهتمًّا بتناوله على أية حال، كما انسحب زوجها أيضًا شاعرًا بالارتياح؛ لأنه قادر على سحب المبلغ المطلوب، مرر البطاقة فقط فوق مستشعر الدفع، عندما مر النادل المتردد أخيرًا عند طاولتهم.

هيأت نفسي وأنا أتابع هذا الموقف الغريب، وقبضت بيدي على كف ارتخت على كتفي فأزحتها للخلف، لكنها تركت بقعة تفوح منها رائحة العرق على سترتي.

كانت بابوش، وقد قالت وهي ترتخي على الكرسي: «ها هو الفتى الذهبي إذًا».

ودون الخوض في مزيد من التفاصيل حول ما كان من المفترَض أن أستمع له، مسحت بابوش العرق الذي تكثف أسفل خط شعرها الرمادي مباشرة بفوطة المائدة، التي تتجمع عليها خطوط طينية مصفرة، وبالتأكيد تلك الخطوط ما هي إلا طبقة مكياج سميكة ولزجة جدًّا لدرجة أن كتل اللون

البيج التصقت بنسيج الفوط، وأردفت بابوش: «أنت محظوظ لأنني هنا، فعندما كتبت لي أنك تريد إرشادات ما، فكرت في اللحظة الأولى وقلت لنفسي ليس مجددًا، أنا أتعامل باستمرار مع الشباب الآن، والحياة أمامهم طويلة».

ضحكت بصوت عالٍ، لكنها اتكأت إلى الخلف على الفور لالتقاط أنفاسها، لا شك أنها أصبحت أكثر بدانة منذ آخر مرة رأيتها فيها.

- المواهب الشابة تتجول هنا في كل مكان، كحال القمامة التي كانت تُلقى في كل مكان في الماضي، لدينا هذا الكم الهائل من المواهب في هذا المختبر، ومن الصعب إيجاد أماكن لوضعها فيه. مثل الحشائش.. هل تعرف ما هي الحشائش؟ تلك التي تنطلق هكذا، ثم هكذا.

كانت تشير بإيماءات ربما تقصد بها عملية دحر البراعم للأعلى، لكنها بدت وكأنها على حافة الإصابة بانصمام رئوي، وكانت تتنفس بصعوبة، حتى أدركتُ أنها تريد بالفعل إجابة عن سؤالها.

قلت لها: «نعم، أعرف ما هي الحشائش»، فانكفأت أخيرًا على نفسها، لكنها عادت تستأنف مونولوجًا جديدًا على الفور:

«أضواء كاشفة، وبروفيسور يجب عليها التوفيق بين التدريس وتربية الجيل القادم وتطوير ذاتها في حدود قدراتها، وفي كل مكان تصفق الرافعات وتئز، نعم هي تستطيع قلب العالم رأسًا على عقب، لكن ليس لديها وقت لذلك؛ لأن رعيتها لديها استفسارات وتحج يوميًّا إلى بابها المفتوح، سيدة لها نظرة حليمة، والمواهب الشابة يحترق بداخل روحها أسئلة، والإجابات تتوهج بتلابيب السيدة البروفيسور.. وما تلبث أن تخفت».

غرقت في صمت مطبق وهي تحدق إلى السقف، كأن الأمر قد انتهى عند ذلك الحد، ولكن لم يستمر الأمر طويلًا، فبمجرد مرور نادل آخر أمامنا، مدت يدها لتقبض على الرجل مثل صاروخ لاكروس بسرعة تتطلب تدريبًا طويلًا، ثم عوت فجأة: «طبق من لحم الغزال وطبق شنيتزل، وفنجانين من الشاردونيه».

سألت في حيرة: «فناجين؟».

- نحن نعلم أن الطريقة الأكثر فاعلية للشرب هي..

لم يكن هناك وقت لاستكمال الجملة، لأنه لم تمر عشرون ثانية حتى هبط الطعام على الطاولة دافئًا، كأنه ينتظرنا منذ عدة أيام.

بدأت مرة أخرى بحذر؛ لأنني ما زلت غير متأكد من الحالة المزاجية لبابوش الآن: «بالطبع أتفهم أنك تقعين تحت ضغط كبير، لذلك أنا سعيد جدًّا لأن وقتك يسمح الآن».

أجابت بوجه متمعن ونظرة قريبة: «بكل سرور!» ثم وضعت حبة بطاطس في فمها.

قررت أن أتظاهر بحياة طبيعية بهيجة، وبعدم انزعاجي من هذه الظروف قدر الإمكان، ولكن عندما غمست الملعقة في الصلصة، اصطدمت بشيء صلب، إنه مكعب ليجو ذاب في الطبق من السخونة.

قالت بابوش: «في مشاهد مختلفة من أفلامي الشبابية وفي البرامج التي تبَث في كل مكان، يمكنك أن ترى أنني سيدة ذات وجوه كثيرة.. حسنًا أيها الأطفال الأعزاء، ماذا تريدون؟ التدريب على فن الجرافيك؟ ربما نبث صورة كوكب ذي أعين؟».

وبعد لحظات كنت قد أخرجت من طعامي كرة قطة وقلمًا رصاصًا وميدالية عليها صورة القديس كليمنت مربوطًا بمرساة، فدفعت الطبق بعيدًا عني، وتكلمت كما لو كان كلامها لا يعنيني: «حسنًا إذًا، فإذا سألتني عن رغبتي مثلهم، فسأدفع لك بطلبي على الفور.. جيد! أنا مهتم بمسألة ما، وهي كيف ستتطور الأمور مع العالم الخارجي بعد إصدار ديف».

صمت مفاجئ، فقط صوت التليفزيون وأنينه.. حتى سألت بابوش: «أية مسألة؟».

قلت محرجًا وأنا أرسم شخصيات إسفنجية بطرف السكين: «المسألة.. المسألة إذن.. أعني أن ديف سيقرر كيفية جعل العالم الخارجي صالحًا للسكن مرة أخرى، أم أنني أسيء الفهم؟».

وفي هذه الأثناء كانت بابوش قد اندمجت مع طبق اللحم المشوي الذي أمامها، كأنها هيكل من عظام الأوراكل، التي لم يسمع أحد بمثل كتلها الغضروفية.

سألتْ بشكل مباشر: «هل تعرف من أين تأتي هذه الأمجاد؟».

وعندما نظرت مرة أخرى، لمعت عيناها الرطبتان بعض الشيء، كما اعتدنا من ظهورها على شاشات تلفزيون الأطفال.. شيء مثير للاشمئزاز.

قلت بصدق: «لا! حقيقة أنا لا أعرف».

- إذن فاستمع جيدًا الآن.

أمسكت قطعة من البروكلي وقالت: «إنها كحال جميع الخضراوات الأخرى، تنمو بشكل جيد في الصوبة الزجاجية على السطح، حيث نجح علماء الوراثة لدينا في تنظيف جينوم البذرة لتحقيق نمو جيد على مدار العام، أما..».

والآن بدأت تعرض لحم الفخذ المشوي اللامع وأردفت: «أما هذا فيأتي من أنابيب الاختبار التي نملؤها بمساحيق الكولاجين البسيطة، ثم يكبر في شكل عضلي جميل لا تشوبه شائبة، فنظريًّا ستنمو حيوانات كاملة من المسحوق إذا لم نتوقف في الوقت المناسب، لكنها غير قادرة على البقاء حية على أي حال، لا تكن متحمسًا جدًّا، ولا تصرخ بهذه الطريقة». قالت كلماتها الأخيرة رغم أنني كنت ساكنًا تمامًا في جلستي.

- ومن أين يأتي الكولاجين؟ إذن؟

ابتسمت وفرقعت أصابعها، لكنني شعرت بوجود مصيبة، لقد قالت بابتسامة مشرقة: «من الخلايا الميتة للعاملين في المختبر! يُنخل الغبار ويعاد استخدام البروتين ببساطة... إنه مكتفٍ ذاتيًّا تمامًا. لكن يمكنني بالفعل سماعك تسأل: كيف يحدث ذلك؟».

سقطت قطعة من الكريمة المخفوقة باندفاع فوق الطاولة أمام عيني، فقلت بتجمد: «أهذا مصنوع من حليب بشري؟».

قالت بابوش لبعث الراحة في نفسي: «بالطبع لا! لقد وجد الكثيرون أن ذلك مثير للاشمئزاز؛ لهذا..» واتكأت على الطاولة أمامها. «لم يكن أمامنا سوى مركب كيتون عضوي، بول! فالدهون الحيوانية، التي نفرِغ أطنانًا منها في المرحاض كل يوم يمكن عزلها بسهولة بالغة، وبالمناسبة فنحن نستخدمه لإضافة نكهة الحموضة في النبيذ الأبيض، فقطراته ليست أقل جودة من الشمبانيا المعتقة بأية حال، بول البشر هو منجم الذهب الأنقى».

أنهت كلامها ودفعت المشتقات الثلاثة في فمها بسعادة، بعد أن أوضحت لي تاريخ نشأتها للتو، فشعرت أنني أختنق.

قالت بابوش: «باختصار، لماذا علينا أن نترك الفُلك المقدس المسمى بالمختبر؟ والفُلك هو السفينة في الكتاب المقدس».

- أعرفه.

- تلك التي حُمل فيها من كل نوع زوجان اثنان لحمايتهم من الفيضان ونقلهم إلى بر الأمان.

قلت بنفاد صبر: «بالضبط!». وتمنيت فقط أن يخلصني أي شخص من الصحن الخاص بي على الأقل، وقلت أخيرًا: «على ذكر الفيضانات، أود أن أعرف المزيد عن المختبر؛ لذا..».

أخذت نفسًا عميقًا، وأكملت: «نظرًا لأنك أنت الخبيرة الرائدة في هذا الشأن، فقد أردت أن أسأل... باختصار، ما الذي نعرفه بالضبط عن الوضع الراهن للعالم الخارجي، الذي يجبرنا على البقاء هنا في هذا المكان، الذي تطلقين عليه اسم الفُلك؟».

- ماذا! إجبار! هذا هو العالم الأفضل على الإطلاق، رغم أنه لا ينبغي الاستهانة بالمخاطر؛ لأنك إذا قللت من شأن الأخطار، ستأتي حتى منزلك وتقرع بابك، وعندها عليك وحدك مواجهة تلك الفوضى! أوف!

لم يكن هناك شيء يمكن أن أبدأ فيه اعتمادًا على تلك الإجابة أيضًا، لكنني أدركت ببطء أنها قضت حياتها تتحدث عن الأمر بطريقة تناسب عقول الأطفال، وربما لم تكن قادرة حتى على شرحها بشكل منطقي، ومع ذلك، مالت نحوي مرة أخرى بشكل تآمري: «لقد حدثت كارثة كبيرة، وحدثت قبل كل شيء بسبب عدم وجود ذكاء اصطناعي لمنعها، فالناس كانوا يلعبون بالقنابل كالأطفال، وهم غير مدركين أن قدرتهم الإنجابية هي فتيلها؛ حيث تؤدي القدرة الإنجابية إلى الزيادة السكانية، ويؤدي الاكتظاظ السكاني إلى كارثة طبيعية تمامًا كالفقاعة! والآن نحن بحاجة إلى مكبس، مثل قاع البحر؛ لننجو بحياتنا».

قاطعتها: «جيد! لقد فهمت، لكن ما هي طبيعة تلك الكارثة؟ هل هي إشعاع أو تسونامي أو احتباس حراري؟ فالاكتظاظ السكاني لا يستطيع وحده منعنا مثلًا من فتح النافذة!».

- النافذة هي غطاء لفتحة تبعث الضوء والهواء إلى الداخل، وغالبًا ما تكون مصنوعة من الزجاج، والجيد هنا أنك لست بحاجة إليها على الإطلاق؛ لأننا نستطيع رؤية الكثير في الداخل، ويُضَخ لنا الهواء المكيف.

رفعت ذراعها في حركة مفاجئة فطارت أزرار كمها الذهبية مثل فلين زجاجة الشمبانيا، أو يمكن أن تقول مثل فلين زجاجة البول المعالج.. كنت مرتبكًا جدًّا، هذا اللقاء لن يؤدي إلى نتائج مرجوة، فكلما طال زاد يقيني من ذلك.

- لكن بالتأكيد يجب أن يكون هناك سجل لما حدث هنا قبل خمسين عامًا.. أو سبعين؟ منذ متى تقرر غلق المختبر علينا؟

قالت مثل الببغاء وهي ترفع إصبعها في حركة طفولية راسخة ولا إرادية بسبب تكرارها لآلاف المرات، حركة عرفتها مذ كنت صغيرًا: «مغادرة المختبر أمر خطير، وبالتالي يجب ألا تجرب ذلك... يقال إنه كان زلزالًا هائلًا دمر جميع المباني، وأدى إلى تسويتها بالأرض وكان من الممكن منعه باستخدام نظام إنذار مسبق للذكاء الاصطناعي».

لوحت بابوش بيديها كنوع من إيماءات التبرك، وأردفت: «كان بإمكاننا إعاقتها.. ربما كانت قنبلة، أو ربما طاقة اندماجية هي التي أحرقت الناس، أو ربما طوفان مثلما في الكتاب المقدس».

أجبتها بعنف: «جيد إذن! لكن من الصعب الخلط بين هذه الأشياء».

- الإشعاع غير مرئي ولكنه يخترق الجسم، عندها ينتزع النيوترونات الأصلية ويستبدل بها نيوترونات جديدة، وهي نيوترونات غير مستقرة، تؤدي إلى ارتطام المادة بأكملها، ويمكن أن يصبح نتيجة ذلك تدمير الكبد.

- إذًا النشاط الإشعاعي هو السبب؟

كيف يمكنني حتى أن أتمنى الحصول على إجابة جادة؟

- لا نعرف، بل لا نستطيع حتى أن نعرف، فنحن لم نضع أجهزة استشعار في الخارج قط، قد يكون ذلك خطيرًا، يمكن أن تذوب أو تنفجر، فالبحث دائمًا ما يرتبط بمخاطرة ما.

- نعم، ولكن إذا ذابت الأجهزة مثلًا، فعلى الأقل سنعرف ما يحدث! لا بد أن شخصًا ما حاول التحقق من هذا سلفًا.

- لا تخرج من مسكنك وإلا ستنتهي! أو إذا كنت تريد معرفة المزيد، فهناك واحدة من الأغاني الشعبية القديمة تصف ذلك، وتُغَنَّى على هذا النحو...

وبدأت بابوش تغني الأغنية بصورة خرقاء: «ابق هنا يا فريتز.. أنت لا تعرف كيف سيكون الطقس.. فريتز ابق هنا، فأنت لا تعرف كيف.. إذا كانت ستمطر أو ستثلج، أو ما إذا كان الطقس جيدًا، فريتز ابق هنا..».

لم يلحظ أحد في المطعم المتهدم هذا النشاز المضحك إلى حد ما، فقد كان معظم الضيوف الآن يقفون أيضًا أمام الشاشة، ويمكنك أن ترى كيف ينتشر نوع من الإثارة بين المشاهدين؛ التنهيدات التي تخرج عندما يسير شيء ما على ما يرام، ومناوشات عصبية عندما يحدث تخبط في أحد الجوانب.

بدأت مرة أخرى بهدوء: «لكن لديك تسجيل حلقة كل أسبوع، ولدينا كل أنواع التوقعات للمشاهدين، هل كل شيء هنا مختَلَق؟» وكما لو كان سحرًا، امتلأت كأس النبيذ الخاصة ببابوش مرة أخرى.

- نصوصي أتسلمها من فروليش، الذي درس الموضوع بالتفصيل، لقد خدعتنا الطبيعة، فهي عدو للإنسان في حد ذاته.

هتفت بصوت خفيض: «فروليش!».

قالت وهي تضع قطعة من الشنيتزل في فمها لكسب الوقت: «تتكون الطبيعة من حيوانات.. نباتات... سماء، ثم أشياء أخرى معينة ليست ملموسة على الإطلاق، كالإشعاع أو الكربون والضغط العالي في التجاويف، أشياء من هذا القبيل».

كان وجهها متوهجًا حقًّا، أكان ذلك بسبب السؤال أو بسبب تجرع ما يسمى بالنبيذ؟ لا أستطيع أن أحدد.

«عندما تمطر، وترعد، وتبرق.. ابق سعيدًا؛ لأنك تقف في منطقة جافة».

رأيت الآن بوضوح كيف أصبح وجه بابوش شاحبًا، وقالت كأنها تدافع عن نفسها: «إذا اشتكت الأم وهي مثقَلة، فربما تكون على وشك ولادة طفل».

ثم قطع حديثنا صوت التصفيق أمام الشاشة، وأردفت بابوش: «حسنًا، الشباب هم الشباب دائمًا، وهذا ما يميزهم، يريد الواحد منهم أن يعرف الأشياء من أجل المعرفة فقط، لذا سأخبر البروفيسور فروليش أن لديك مصلحة في مثل هذه الأشياء، وربما يمكنه التفاوض معك بشأنها».

والآن بدأ وجهي يشتعل، وقلت بسرعة: «لا، لا! من فضلك لا تزعجيه بتلك الأفكار!».

وتساءلت في نفسي كيف يمكنني ثني بابوش عن هذه الفكرة: «أنا أسأل فقط لأنني.. حسنًا إذًا، لم أرغب في قول ذلك في البداية بدافع الخجل».

توقفت بابوش عن المضغ وقالت: «إذن أخرِج ذلك من رأسك».

- باختصار أتوق إلى أن أصبح خليفة لك، وأعلِّم الأطفال أهمية وجود ديف.

وكأنني أزحت حجرًا عن صدر بابوش، فقالت: «هذا هو غرضك إذًا أيها الثعبان! استمع إذن، أهم شيء هو تعبيرات الوجه، قوِّس حاجبيك دائمًا بشكل مائل نحو السقف».

وبينما أحدق باهتمام وهمي إلى محيًّا بابوش، الذي تحول إلى جملون، جاء نادل آخر وملأ كؤوس النبيذ، تنهدت بعمق واستجمعت شجاعتي من أجل خطاب ملحمي حول شيء لم أكن أهتم به، وهنا رأيت فوق المرآة المرتعشة لكوب النبيذ الممتلئ جاراوس عند المدخل، وقد التقطتني نظراتها المتجولة، وفجأة انخفض حجم الغرفة بأكملها؛ كان هناك ارتعاش في مشيتها وكأن العمود الفقري للعالم قد خارت قواه، تملكني الرعب من بعيد، وعندما وصلت إلى طاولتنا، علمت أن زلزالًا سيحدث الآن، وسيجعل حياتي أسوأ من أي شيء مررت به على الإطلاق.

قالت جاراوس: «سيز! لقد حدث شيء رهيب»، ثم انهارت على الأرضية الصلبة.. «لقد مات بافل».

***

سيكون من المبالغة ومن الإجحاف في الوقت نفسه لو قلت إن جوهر بافل بتروف -تلك النواة غير القابلة للكسر التي شكلت كيانه- كان يملؤني حسدًا، فنحن الأطفال الآخرين بدأنا نجلجل بصوت عالٍ مأخوذين بإحساسنا بأنفسنا، في حين كان هو شخصًا متكاملًا، ما زلت أذكر نقطة انطلاق ذلك النموذج وكأنها حدثت في الأمس، لقد رأيته على الفور في أحد الصفوف الأمامية في اليوم الأول من المدرسة الابتدائية، وكذلك كل من كان في المكان فعل مثلي، فبينما وقف الناظر يلقي علينا التحية، تعلقت الأعين كلها بشعره البني النحاسي بشكل غير عادي، وبشرته البيضاء كبياض جبال الألب، وابتسامته الجذابة الحرة دون قيود، لكن لم يكن جماله فقط هو الذي يطغى على البعد الزماني والمكاني من حوله.

كانت هذه هي الطريقة التي دخل بها الفصل؛ لقد جاء معبِّرًا عن طاقة مركَّزة وجامحة إلى حد ما، حيث سارع في البحث عن مقعد في الصف الأمامي غير مبالٍ بالاهتمام الذي حظي به، ثم عاد مرة أخرى.

تجاهل نداءات المعلمة، كما لو أن الفضول الجامح قد استولى عليه تمامًا، وبينما كان مدير المدرسة شاحب الوجه يتحدث بكلمات التحية التي لا معنى لها، ذهب هو إلى أحد الأرفف المعلَّقة على الحائط والتقط مكعب روبيك، ولثلاثين ثانية من البؤس شاهدنا جميعًا بأفواه مفتوحة كيف استطاع بافل حل اللغز وإعادته إلى وضعه الأول وهو يبلغ من العمر ست سنوات وثلاثة أيام.. (نعم لقد حسبت بغضب في المنزل فارق العمر، حيث كان أصغر مني بثلاثة أشهر وأسبوع) لم تستغرق تلك العملية برمتها أكثر من دقيقة معه، وقد أدى ذلك الصدع العميق إلى تقسيم النسيج الاجتماعي، فقد كنا جميعًا على ضفة نهر، وبافل وحده على الضفة الأخرى.. لا يمكن الوصول إليه.

لم يكن الشيء المدهش أنه حل المكعب، فأنا يمكنني فعل ذلك أيضًا، ولكن المدهش هو استخفافه بذلك، وفضوله العفوي، وقبل كل شيء لا مبالاته بتأثيره في الآخرين، لقد استطاع فعل ذلك، أما من ناحيتي أنا، فلم أرغب منذ اليوم الأول إلا في شيئين: الأول هو أن أصير أفضل منه، والثاني هو أن أصبح صديقًا له.

لقد تجاهل بقوته الجامحة القادرة على الشعور بالسعادة كل القواعد التي خضع لها الآخرون في إذلال، وفي وقت لاحق عندما كنا في المدرسة الثانوية، امتلك بافل قدرة لا تضاهى على فعل أشياء من شأنها أن تلجم وتحجم أي شخص آخر، ليس فقط في قدرته على الظهور بمظهر سخيف، ولكن العكس تمامًا، بمظهر ساحر للغاية.

فإذا فعل بافل أي شيء بدلًا من لعبة فيديو، على سبيل المثال لو قرأ رواية يوليوس قيصر لشكسبير، ففي الأسبوع التالي سترى خمسة أو ستة من الطلاب يقرؤونها سرًّا تحت المقاعد، وهناك حادثة واحدة أتذكرها جيدًا بشكل خاص؛ فخلال استراحة الغداء كنا جميعًا ننتشر قلقين على المروج الشوكية في الحديقة، بسبب هذا الخجل الغريب من أجسادنا التي بدأت في طور البلوغ، ودفعتنا إلى تغيير أوضاع جلستنا مرارًا وتكرارًا، حينها جاءت فتاة تدعى دومينيك بفكرة تلقائية، وهي أن تسأل كل من حولها عن ذوقهم في الموسيقى، لقد ظل قلقي يزداد أكثر فأكثر مع اقتراب دوري، وحدَّثت نفسي بأسماء ثلاث فرق اعتقدت أنني أتذكرها من طلاب الثانوية الآخرين الذين ينتمون إلى طبقة اجتماعية أرقى مني، مثل مانترا.

لكن بافل أجاب وهو يجلس إلى يساري دون حرج أنه كان يستمع لإيانيس، الملحن اليوناني للموسيقى الكلاسيكية الحديثة الذي صمم مقطوعاته على

أساس نظريات رياضية، ولم يجرؤ أي شخص على الضحك، حتى إنني أتذكر تعابير وجهه، كان تعبيرًا عن الحرية الكاملة التي أخجلتني وأخجلت الجميع، وبعد ذلك انتهت اللعبة.

وهذه أيضًا واحدة من تلك الحلقات التي كانت مميزة جدًّا له؛ كان لدى بافل حسن ظن عميق بالآخرين؛ مما أضفى عليه قوة منيعة، فلم يكن يعلم شيئًا عن الشر والازدراء الذي يدور في أذهانهم، وهذا الجهل محا ذلك الازدراء كليًّا، لم أستطع أن أفهم لماذا اختارني ذلك الشخص لأصبح نظيرًا له، وأكون أفضل أصدقائه، لكنني ما زلت أتذكر ذلك اليوم الذي اختارني فيه.

كنت حينها ضمن دائرة فضفاضة من الأصدقاء حول رجل يدعى أندرياس فلاش، وتعاملت في ذلك الموقف وكأنني أسير على قشر بيض، حتى لا أضيِّع الفرصة على نفسي، فبعد أن أمضيت السنوات التسع الأولى من حياتي شخصًا وحيدًا، كانت هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أتسامح فيها مع فكرة الانضمام إلى مجموعة، وفي معظم الأوقات لم نفعل شيئًا سوى لعب كرة السلة، أو الجلوس في زاوية ما، أو ربما الاستماع إلى موسيقى البوب السيئة، أو حتى شرب البيرا المشتراة ببطاقات هوية طلابية مزيفة.

هناك مرة واحدة فقط في تلك السنوات الأولى امتلكت الشجاعة لمحاولة إعادة الهيكلة، وظللت أندم عليها بمرارة، لقد أطلعت فلاش والآخرين على خطتي لطباعة مجلة مدرسية مليئة ببيانات الكمبيوتر والمشاريع ذات المصادر المفتوحة، ولشدة دهشتي وافق هو وثلاثة آخرون على مساعدتي في ذلك من ضمنهم بافل، وظللت بضعة أيام لا أشعر سوى بالنشوة من فكرة أن الآخرين يقدِّرون قيمة أفكاري.

وقد أتاح لنا مدير المدرسة استغلال الصالة الرياضية لتنظيم العرض الأول، كان من المفترَض أن تحتوي نسخة المجلة على أربع عشرة صفحة فقط، ولكن كلما مر الوقت، زاد توتري؛ لأن الجميع باستثناء بافل أجلوا تقديم مساهماتهم من يوم إلى آخر، وتقاطرت علينا الحجج، من المهام الكثيرة، لمشكلات مع الوالدين، أو عدم وجود أفكار، ولم أجرؤ على الضغط على فلاش والآخرين، وهو ما استغلوه بلا خجل، على أية حال في عطلة نهاية الأسبوع قبل عرض المجلة، كنت في حالة تشويق.

لو كنت شخصًا غيري، لما امتلكت الشجاعة أيضًا لمواجهة الثلاثة الآخرين، فبعد واحدة من مباريات كرة السلة الإلزامية، ابتسم فلاش ونظر عن يساره،

ثم عن يمينه، حيث يقف الصبيَّان الآخران، قفز مرتديًا شورت كرة السلة المتعرق، وأعلن بفخر أن الأمر كله خدعة.. اختبار، أو تجربة، كانت مزحة انتهت بتركي وحدي أمام المدرسة مع مجلتي المزعجة.

شعرت في تلك اللحظة أن الهواء انسحب فجأة من المكان، واندفع حجابي الحاجز إلى الأعلى من فرط الضغط، في حين وقف ثلاثتهم يضحكون، وقال فلاش وهو يضربني على كتفي بخفة عندما تغير المزاج العام: «لا تأخذ الأمور على محمل الجد أيها الشاذ».

- سننهي الأمر معًا!

كانت تلك هي اللحظة التي تدخَّل فيها بافل، فسكت الجميع كما لو أن هناك قوة سرية قهرتهم، ثم وقف أمامي ونظر إليَّ نظرة صافية.. نظرة لا تنكر ما حدث معي للتو، ولا تعطي أي معنى لأهواء الآخرين، ثم قال: «سنبدأ حالًا».

لم يلتزم فلاش ورفيقاه الصمت فحسب، بل شعروا بالحرج وهم يشاهدون بتعبيرات مذعورة هذا التحول في الأحداث، لم نوجِّه لهم أي موعظة أو سخرية ولم تُسحب سراويلهم إلى الأسفل مثلًا؛ لكي تكتسي وجوههم بهذه النظرات المرعبة، لكن إحساس بافل الصامد بالعدالة لم يجعل منهم أغبياء وسخفاء فقط، بل فضح ببساطة عدم صلة ما يقولون بالموضوع.

ومنذ ذلك الحين ونحن نقضي يومنا معًا، كنت مصدر إلهام له، لكن بافل جعل الأشياء تزدهر، فعندما كنت أقرأ في كتابنا الفرنسي قصة جان فرانسوا شامبليون وفك رموز الهيروغليفية، أتم هو حفظ كتابٍ مدرسيٍّ عن اللغة القبطية خلال الأسبوع التالي، واقتبس بتلعثم أقوال بطليموس، وعندما دأبت على تعلم فك الأقفال، لم يكتفِ هو بتنظيم طرق فتح الأقفال في نهاية الأسبوع، بل تعمق فيها بشكل غامر، لدرجة أن قدراته الحركية في ذلك اليوم، فاقت ما عكفت عليه لفترة طويلة، لقد تعلم وشاهد وشعر بفضول هائل وتعاطف لا ينضب؛ لدرجة أنه شعر وكأننا معًا يمكننا أن نجبر العالم على أن يجثو أمام ركبتينا.

وذات يوم صرخ وهو يتدحرج حتى وصل إلى غرفتي: «لقد اكتشفت شيئًا.. إذا كنت تشرب القهوة طوال الوقت، فأنت تحتاج فقط إلى النوم لثلاث ساعات في اليوم، وذلك هو الحد الأقصى!».

ومنذ ذلك اليوم ظل يتردد على خزان ضخم في جميع ساعات النهار والليل، وحماسه الأعمى للكافيين أبقاه مستيقظًا، كان عليه أن يتعلم كيفية

إدارة كم الأشياء التي يفعلها، وليس تقليلها، فقد كان كل شيء متوفرًا، ويمكنه تعلم أي شيء، وبالتالي بات لديه التزام أخلاقي بتعلم كل شيء.

وفيما بعد كطالب في المدرسة الثانوية، فهم بافل على الفور نظرياتي التي تفيد بأن كاتبي الأكواد يمكن أن يكتسبوا معرفة لا تنضب من العمليات البيولوجية ومحاكاتها.

لم يستغرق الأمر شهرين وكنا قد كتبنا مسودة لبرمجة برنامج يطور مقاومة ضد البكتيريا على غرار السلالات البكتيرية، ستجعل المخالفات الصغيرة في الشفرة مثل هذا البرنامج شيئًا فشيئًا غير حساسة لأي صياغة خاطئة، حتى إنها يمكن أن تعمل مع المزيد والمزيد من الألفاظ البشرية غير الفصيحة أو الرسمية؛ ومن أجل الحصول على نظرة عامة على هذا المشروع، علمنا أنه كان علينا ببساطة معرفة كل شيء.

يبدو أن الخيط الذي من شأنه أن يقود العالم إلى المنطقية التامة، يكمن في طيات أفكارنا، فتعلمنا اللغتين العربية والصينية، وأعدنا نسج الألغاز من الألواح الخشبية، وامتلأت لدينا خزانات القهوة، وانهرنا بسبب نصوص البيولوجيا الجزيئية ورسومات الكهوف، ونمنا في أثناء الحصص الدراسية، وفي فترات استيقاظنا هناك كنا ننجز تحت المقاعد حلقات تكرارية تحاكي توزيع معلومات الحمض النووي بدائية النواة.

لقد بقيت دائمًا على مقربة من المسار المحدد مسبقًا، لكن بافل لم يفعل ذلك، فمن وجهة نظري بدت بعض عواطفه دنيوية بشكل كبير في البداية، فلم أفهم لماذا يضطر أي شخص إلى قراءة قصص دونالد داك المصورة، ولماذا يفرض على نفسه حفظ مناورات الضرب في أفلام بود سبينسر «لحالات الطوارئ»، حتى إن بافل قال ذات مرة بجدية: «كل شيء له منطق متأصل يجب استكشافه، بغض النظر عن مدى الغباء، وإذا كان هناك شيء لا يخضع لأي منطق، فيجب أن يكون هناك شيء في ديف لا يخضع أيضًا لأي منطق، وإلا فلن يتمكن من فهمه».

لكن غريزة الرغبة التي نمت داخله للإحاطة بكل شيء كانت لها أيضًا جانبها السلبي، وربما بدأ ذلك الجانب في الظهور مع إدمان القهوة، فقبل وقت طويل من ذهابنا إلى الكلية، بدأ في تجربة المخدرات، وأخبرني أن بريق ديف لا يمكن أن تقوِّضه سفينة ضعيفة، ومن ناحية أخرى فهو يستطيع أن يظل متصلًا بالبروتوكول النفقي لمدة 36 ساعة متواصلة بنصف قرص

فقط من الحبوب المنشطة، وبحلول الوقت الذي سجلنا فيه، كان بافل يعمل بالفعل باستمرار مع المواد الاصطناعية التركيبية، التي أدخلت توازنًا رائعًا مثل فنان، لدرجة أنها لم تعُقه في أيٍّ من اهتماماته العديدة.

وبالطبع اختلف الأمر في عطلة نهاية الأسبوع، لقد رغب أيضًا في أن يدق في أعصابه، ليغسل جسده في دوامات ملونة من الابتذال كما أطلق عليها، وعندما شاهدته بعد ذلك -بشعور يمتزج بالغضب والدهشة- في الديسكو وهو يطارد كرات ضوئية غير مرئية على حلبة الرقص، استرضاني على الفور من خلال تقديم المشروبات لنا في الحانة بمناورة مستحيلة، وبحركة انتحارية سحب المرأة التي ألقيت نظرة عليها ودفعها تجاهي، لم أنزعج قط عندما أصرف انتباهي عنه، فبينما كنت أرغب أنا في الحفاظ على الطابع الفريد لعلاقتنا بأي ثمن، كان هو يدعو أشخاصًا آخرين للانضمام إلى هذه العلاقة، وهؤلاء هم الأشخاص الذين يكونون في أمس الحاجة إليه، وبالنسبة إلى بافل فلديه رادار حساس يستقطب أي شخص بحاجة إلى الاهتمام، أو يشعر بالوحدة، حتى لو استعصى علينا تمييزه من الخارج، وبعد ذلك يضم هذا الشخص إلى الأسرة الممتدة.

صورة رأيتها حاضرة في ذهني؛ كانت لبافل في الحادي عشر من يونيو قبل ست سنوات في ذكرى يوم مولده وتخرجنا أيضًا، كان يستلقي على أرضية القاعة بجواري؛ وكلانا يرتدي رابطة عنق حول ياقة القميص المجنونة، أخذنا نحدق إلى صورة دويتش وفاجنر، حينها سألني: «هل سننجح؟» ثم صرخ في الأشخاص الغاضبين الذين اضطروا إلى الخطو فوقنا، كانت الساعة الثانية عشرة وكانت وردية منتصف النهار تستعد للانطلاق.

- فيمَ سننجح؟

- في جعل ديف يتحدث بعد عشر سنوات من الآن.

كان افتراض غير قابل للتصديق، لكننا استسلمنا للنشوة اللحظية، وقلت له: «أعدك بذلك».

نهضت من مكاني الآن، ثم عدت واستلقيت مرة أخرى.. لن يكون هناك معنى للحياة دون بافل.

11

لم أغادر غرفتي لأكثر من أسبوعين، وحتى مع إطفاء الأضواء وإغلاق الباب، ما زلت أشد الغطاء فوق رأسي لأغرق أكثر في حالة من عدم التمييز، وأختفي في الظلام، واضطررت إلى تهذيب أفكاري حتى لا تبرز كثيرًا، لم أسمح لنفسي بالتفكير في الكافيتريا؛ حيث تناولنا البيرة معًا منذ شهر، وأقفر قلبي من ذكرى مكتبه حين رأيته آخر مرة لأعيد له كتابًا في صمت وبصورة غير حميمية بعد جدالنا في آركيد، كانت رواية أمثولة الزارع، ولم أقرأها حتى.

لم أستطع الخروج مطلقًا، فلقد وقفت مع بافل في كل متر مربع بالخارج مرة على الأقل، وفي الخارج أيضًا كانت هناك جدران وأرضيات، وسقوف وشقوق جميعها مغلفة بذكريات تشملنا.

أرسل فيليز رسالة لي على الهاتف: «دعني آتي إليك لمدة ساعة على الأقل، سنلعب بوكيمون».

وبعد أن نقرت فوق الرسالة، أوقفت تشغيل هاتفي لمدة أسبوعين، وفي الليل جررت قدمي إلى جهاز الكمبيوتر الخاص بي، وبأصابع مرتعشة كتبت في مربع البحث: «كيف يحدث الموت بجرعة زائدة من المورفين».

وبدأت النقر فوق الصور التي تظهِر الجثث المخدَّرة في حالة رعب متبلدة، وكلما كان الأمر أسوأ، أصبحِ ذلك أفضل؛ وسرعان ما تذوقت تصور ظهور أجساد مشوهة بمادة الميثافيتامين الكريستالية، وجوه نصف ميتة من الحياة الآخرة، وقد جمعتها على قرصي الصلب للدراسة بنشوة في رحلاتي الاستطلاعية الليلية.

ومع ذلك لم يستطع أي شيء أن يجعلني متصلبًا لمجابهة آلام التفكير المبرحة، فآخر شيء سمعه بافل مني في هذه الحياة هو سري، السر الذي عجزت عن الاحتفاظ به في داخلي، وظللت أشعل السيجارة تلو الأخرى، ثم أطفئها على ساعدي، تحت تأثير مسكنات الألم والكحول الذي توسلت إلى جاراوس من أجل الحصول عليها، حيث كانت تعتني بي يوميًّا، حتى إنني كنت أترك طعامها دون أن يمَس، كما أنني لم ألغِ جلسات النسخ، لكنني بقيت بعيدًا عنها ببساطة، فقد طرق بابي المساعد المرسل من جهتهم للبحث عني، فطردته بالصراخ والتهديدات، وفي اليوم التالي جاء شخص آخر، أما في اليوم الثالث فقد تركوني بسلام.

على الرغم من أنني ظللت أعيش في الظلام طوال الوقت، فإنني كنت قد منعت نفسي في الغالب من النوم، فالنوم ينطوي على مخاطرة النسيان.. نسيان ما حدث والاستيقاظ للحظة معتقدًا أن كل شيء على حاله السابق، وبدا الألم الذي يتضافر ويضرب في رأسي مناسبًا جدًّا لهذا الوضع، فالذكريات تعني الألم؛ لذا قاطعت كل وضوح قد يجلي تشويه ذهني، ويعزله، ويحرره من كل فكرة دقيقة، وظل فيليز في الخارج يهدد بتدمير منفاي الذي دخلته بإرادتي، وجلس لساعات أمام بابي يتحدث إليَّ صوت خافت، ويقول: «لقد أعطوني نتائج تشريح الجثة بالأمس يا سيز، كان يتناول جرعات كبيرة من المنشطات، إضافة إلى الكودايين، والبنزوديازيبينات في الليل لتعميق العزلة».

عندها كنت قد سحبت الوسادة فوق رأسي لحجب صوته عن مسامعي، ثم غفوت مرة أخرى لبضعة أيام، ولاحظت أن الحواف المدببة لإطار السرير تجول من تحت ضلوعي الأمامية الهزيلة، التي أظهرت سوء أوضاعي الداخلية المنهكة مثل واجهات العرض، فلم يكن ثمة شيء تحت قفصي الصدري.

كل ما استطعت فعله في تلك الأيام هو الاستحمام. جررت نفسي إلى المساحة المبللة وتركت المياه تتدفق فوقي إلى ما لا نهاية -وبصدق كما لو كنت في مهمة مقدسة وزعت سائل الاستحمام والشامبو على جسدي- أكرر هذه العملية إلى ما لا نهاية حتى تتساقط طبقة جلدي أشلاء.

بعد يوم واحد من عزلتي التي امتدت لأسبوعين، عندما خرجت من الحمام ونظفت أسناني وارتديت ملابسي عن طريق الخطأ، قررت حينها مغادرة الغرفة، حدث ذلك على حين غرة، كأن هناك روتينًا فرعيًّا في ذهني جعلني

أكرر الحركة تلو الأخرى كما لو أن شيئًا لم يتغير، كانت يدي تنتقل من المنشفة إلى البنطال ثم الجوارب، والآن بينما كنت أقف في الممر بعين شبه ضريرة بسبب الضوء، لاحظت بدهشة أن قدمي ما زالت قادرة على حملي، فغادرت غرفتي ورفعت يدي ميكانيكيًّا للتحية؛ لأن د. بيتنجر جارتي، التي نظرت إليَّ كأنني شبح، فتحت بابها وحيَّتني بالطريقة نفسها، دلفت إلى المصعد، واندفعت إلى الأمام لعشرين ثانية ثم ترنحت خلف طالب كان على الأرجح في طريقه إلى المكتبة محملًا بالكتب.

وعلى الرغم من أنني شعرت بضعف رهيب وارتجفت ركبتي من تحتي مثل رولمان بلي متهالك، شققت طريقي بعزم ميكانيكي عبر الحرم الجامعي، الذي انتشرت فيه مجموعات الأصدقاء في المنطقة الخضراء المركزية قبل الانطلاق كلٌّ حسب تفاصيل يومه.

تذكرت وأنا مثقل أنني كنت أعيش في يوم من الأيام بالقرب من هذا المكان، عشت أنا وبافل هنا ودرسنا وسرنا يوميًّا 167 مترًا لحضور الفاعليات التمهيدية في القاعة، لكن انهماك ذهني أبطأ من حركة ساقي، فتقدمت في حركتي كظل الريح، ووجدت أخيرًا الانحناءة بعد أماكن الموظفين المؤدية إلى المستشفى، كدت أن أتعثر في رجل على كرسي متحرك يدور في الردهة المغطاة بمشمع، لكنني تماسكت، وقلت وأنا أميل على الطاولة بمقر الاستعلامات: «يوم سعيد! أنا مهتم بملف بافل بتروف».

سألت السيدة التي لم أعرف وجهها من قبل: «هل أنت أحد أقربائه؟».

كنت غير مبالٍ بالعالم، وقرأت اسمها على البطاقة المعلَّقة بصدرها.. سوزانا جوست.

«ليس تحديدًا».. ثم بدا صوتي بعيدًا، كأنه آتٍ من روبوت: «في الواقع كنت أكثر من قريب، كنت أعز أصدقائه».

- أعتذر! لا يمكنني إخراج الملفات إلا للأقارب فقط.

قلت لها: «بالطبع!» ثم أدرت قدمي، وتجولت في الزاوية بسهولة لدرجة أنني لم يخطر في بالي أن باستطاعة أحد أن يمنعني، ثم اخترت لنفسي مكانًا بين الأشخاص المنتظِرين في غرفة الطوارئ وفتحت جهاز اللاب توب الخاص بي، ثم الهاتف، الذي فتحته لأول مرة منذ أسابيع.. أصدر الهاتف صفيرًا غريبًا في يدي، عندما اتصلت برقم الاستعلامات التي مررت بها للتو.

تكلمت ببرود أعصاب: «دكتور بيتر توماس يتحدث، أنا مع السيدة ليزا ماتشو الآن، نعم. في الغرفة 32.10».

كنت قد قرأت الاسم على صدر طبيب عبر لتوه من غرفة الانتظار، وكانت تلك المريضة هي سيدة تغط في نوم عميق بجواري.

أنظمتنا آمنة للغاية هذه الأيام، وقد أخبرني أستاذ قاعدة البيانات لدينا قبل عشر سنوات أن الطريقة الأكثر أمانًا للحصول على المعلومات لا تزال هي ما اكتشفه هواة الهواتف في الخمسينيات من القرن الماضي، وهي أن تسأل بأدب.. أكملت المكالمة: «للأسف فقدت بيانات تسجيل الدخول إلى ميد إكسبريس، لقد أتى المساعدون بمكتب الدعم الفني مرة أخرى، نعم بالضبط! لقد رفعوا مرة أخرى لوائح السلامة لمرضى الفئة F».

الهندسة الاجتماعية؛ أن تبقى ودودًا في حين يلقى باللوم على شخص آخر، وكان هذا هو السر، إسقاط جزء صغير من المعلومات التي تبث في الشخص المقابل الثقة، كنت على دراية بنظام التصنيف من قبل، لأنني عملت بنفسي في الدعم الفني في أثناء فترة دراستي، أردفت في المكالمة: «بالضبط! هل سوزانا تتحدث؟ اللعنة! لكن جيد، في غضون ذلك، هل تستطيعين تزويدي بكلمة مرور لمرة واحدة؟ يمكنك حذفها بعد عشر دقائق.. عظيم، شكرًا لك».

بعد ثلاثين ثانية كنت أسجل دخولي في حساب د. توماس، وكل ما تبقى هو كتابة اسم بافل، والحصول على سجله الطبي، كان ما رأيته أمامي أكبر من كل توقعاتي، فآخر دخول كان منذ يوم 31 مايو، يوم وفاته، وبدأت أقرأ:

«بافل بيتروف، مريض، دخل إلى مركز سانت فنسنت الطبي، بعد أن اصطحبه طاقم البار في الساعة 06:23 صباحًا بأعراض نقص الأكسجين وانخفاض درجة حرارة الجسم وفرط التعرق، اشتباه في تسمم بالمخدرات، وربما الهيروين.. وقال رفيقه إن المريض ظل نائمًا بالقرب من الباب لمدة ساعتين تقريبًا».

أي رفيق هذا؟ أكملت القراءة: «لقد مات بعد ساعة واحدة من انخفاض حرارة جسمه، وأفاد العاملون في بار شاتو مارمونت في لوس أنجلوس أن المريض عكف على شرب الكحول هناك منذ الثامنة صباحًا في الليلة السابقة ثم اختفى في دورة المياه إلى أجل غير مسمى، وبحلول الساعة الثانية تقريبًا أصبح غير مستجيب».

شاتو مارمونت.. شاتو مارمونت، ظللت أفكر بارتباك، يبدو أن هذا الملف مزيف، بالتأكيد جروه بعيدًا وقتلوه، قتلوه لأنني فقط تحدثت معه، لماذا لم يقتلوني أنا بدلًا منه؟ لو فعلوا لكان ذلك أخف وطأة وأكثر عدالة، لكن من الصعب جدًّا أن ألمس تلك الأفكار، شعرت أنني تلقيت ضربة قوية فوق رأسي.

«العلاج، والعواقب»

كان ذلك في العامود التالي كأنه مضاف للسخرية.. *«اصطحبت سيارة أجرة المريض، بعد أن وجده الحارس المسمى بامبر جثة هامدة، وتقرير الباثولوجي يقول إن اختبار الأفيون السريع كان لا يزال سلبيًّا في غرفة الانتظار، من المحتمل أن يكون سبب الوفاة تسممًا، هو تسمم بالباربيتورات بسبب خلطه مع الكحول؛ فهناك كميات كبيرة من النبيذ الأحمر في الرئتين.. أو ربما انتحر.*

ظننت أنني مرتبك، أعتقد أنني سمعت ذلك الاسم من قبل، وبدلًا من ملء بقية الملف بشكل صحيح، رسم شخص ما سطرًا من كلمة انتحار وملأ بعض الحقول في الملف الطبي بالعبارة التالية: «أحد معارف بيتروف الذي يرغب في عدم الكشف عن هويته قدم تصريحًا لأحد الأطباء المعالجين أنه منذ أن باع بتروف أسهمه في شركته السابقة وهو يظل يشرب كميات كبيرة من الفينوباربيتال وما شابه ذلك من حبوب منومة كل يوم من الساعة 6:00 مساءً، وعادة في الساعات الأولى من صباح اليوم.

لذلك فالتشخيص هو: تسمم بالباربيتورات مع احتمال كبير للوفاة من انخفاض حرارة الجسم.

لمتابعة التحقيقات، انظر ملف الشرطة بتاريخ 31-5».

أسهم.. أسهم.. وضعت إصبعي على الورق وأنا أفكر فيما يعنيه بالأسهم، لا! فالملفات موجودة.. وبالكاد أستطيع التمييز بينها، وأي نوع من المعارف يجب أن يكون هذا؟ هل هو خيال ظل لفروليش؟

«وجد المسعفون بيتروف بالقرب من الباب، الذي تناوب الضيوف على فتحه مرارًا وتكرارًا، لذا كان هناك تيار هواء قوي، وبيتروف الذي يتصبب عرقًا كان قد خلع سترته، ربما لم يعد يشعر بالصقيع بعد تلك اللحظة ومات نتيجة لانخفاض حرارة الجسم».

بذهن مدمَّر، أغلقت جهاز اللاب توب، وركضت أترنح كالأعمى وأنا أتخبط في الناس وكل الحواجز، حتى وصلت إلى المرحاض، فتقيأت، وشعرت بصداع نصفي، فكرت بتثاقل في حين بدأت تشنجات عضلاتي الوربية تهدأ، وذلك نتيجة الجوع المطول، حتى بعد أن غسلت وجهي ورجعت مترنحًا إلى أماكن العمل.

لا بد أنني بدوت حينها كشبح، وكل من تقدم نحوي اعتبرني بمنزلة حالة حدية لما هو مقبول، كما لو أن كل فرد يفكر فيما إذا كان سيضعني على نقالة أم لا.

ترنحت إلى الكافتيريا، وطلبت بعض الكنيركس، وفكرت في وضعي، فأنا لدي الآن مهمة، وعليَّ أن أتخذ إجراءً.

ربما هناك شخص ما يسمع أفكاري، تلفتُّ من حولي، لكن لم يكن من أحد هناك باستثناء اثنين من الطلاب منكبين على أوراقهم، ثم شققت طريقي إلى المنزل، لكن عندما فتحت الباب وكنت على وشك الانحناء على سريري، لفت انتباهي شيء ما، كانت هناك رسالة على سريري، ولم أكن بحاجة إلى الاقتراب أو لمس الورقة؛ لفهم طبيعة الرسالة؛ لأنني تعرفت عليها على الفور. لقد كانت من الشخص نفسه الذي أرسل إليَّ الرسالة قبل عام.. وفتحت الملاحظة ببطء.

«إذا كنت لا تزال تريد معرفة الطريق لمغادرة المختبر، والاستعلام أكثر عن العالم الخارجي.. فالجواب عند فيليز».

***

بعد أسبوع قدمت عرضًا لتنظيف واجهتي وسَلَكت طريقي بخطوات مرتعشة نحو عالم الحياة الطبيعية.

قال فيليز وسط هدير آلة ثقب الصخور: «أعطني البيتزا واشترِ عشرين كرة بوكيمون»، وصب لي المزيد من النبيذ بسخاء؛ لدرجة أنني اضطررت إلى وضع شفتي على الكوب والارتشاف؛ لمنعه من الانسكاب، وعادت حياتي اليومية إلى استقرارها بعدما مضت الصعوبات المتحفزة مثل وسادة مبطنة،

وذلك عن طريق تكرار وراء تكرار وتكرار، ثم جملة تلو جملة، إلى أن بدأت أرى بروتوكولات النفق البرمجي، وعدت إلى الترميز مرة أخرى، لكن فقط في المساء كنت أنظر إلى المرآة ويذهلني غموض ملامحي.

قال فيليز مرة أخرى، قبل أن تغرق كلماته بسبب ضجبج العمل: «البيتزا و...».

درت حول نفسي خائفًا من أن يوقظ ذلك الصخب والدته التي نامت في سرير نقال لا يبعد عنا سوى بمترين، مثل طفل صغير يزن ثمانين كيلو جرامًا.

يبدو أن قبولي لدعوة فيليز قد فاجأه تمامًا؛ لدرجة أنه لم يكن مستعدًّا لتلك الزيارة بشكل ما، اضطررت إلى شق طريقي عبر المستودعات مرتجفًا من ذكرى مروري الأخير، لم يكن الطابق الثاني فريدًا تمامًا مثل الأول، ومع ذلك كانت هناك لمحة من الغموض؛ رجال أجلاف يصوِّبون مكواة اللحام نحو صفائح معدنية، ومجموعات من النساء يحِكن يدويًّا، وأطفال يصرخون بانتشاء وهم يمارسون لعب الجمباز بين آلات التكسير.

«إمداد وبيع وإصلاح وتصنيع» لافتة دائرية مبسوطة بعرض المستودع، إنه الشعار الكئيب للطابق الثاني، وأدناه في الضوء المتسخ استوطن الضغط القديم صدري مرة أخرى، فمشيت بطول تلك الزمزمة العظيمة، وهو ما يعادل الممر الدائري الكبير، باستثناء أنه بدلًا من المختبر المركزي، كان يحتوي على عقدة الآلة، أي نواة كثيفة من الكابلات.

شعرت بارتياح عندما وصلت إلى مسكن فيليز، فلم يكز هناك أحد يحدق إليَّ، وقد فُصِلت شقق الموظفين البالغ مساحتها ستة أمتار مربعة لكل أسرة عن قاعات العمل باستخدام الألواح الصخرية، طرقت باب فيليز وظننت أن الهيكل بأكمله سينهار، عندما فتح فيليز الباب وهو شبه نائم وسط ضوضاء صارخة.

قال فيليز وهو يربط سرواله: «سيز! لم أكن أعتقد أنني سأراك هنا مرة أخرى... أنا لم أضع أمي بعد في الفراش، ولا بد أن أحممها، فهل يزعجك ذلك؟».

فقلت: «لا! بالطبع لا، سأنتظر في الخارج».

كانت والدته، التي ربته بمفردها مصابة بالتصلب المتعدد منذ أكثر من عشر سنوات، وفي الوقت الذي كان فيه فيليز ينهي دراسته الثانوية، أضحت فجأة بحاجة إلى الرعاية واضطرت إلى التخلي عن وظيفتها في مصنع الملابس.

وبينما أرى فيليز يدفعها إلى مقصورة الاستحمام في الداخل، حاولت تهدئة قلقي بتمشية قصيرة، فتجولت في صفوف الشقق موحدة الشكل، ورأيت طفلين يلعبان بجوار مطبعة مهمَلة، كان عليَّ أن أبتسم إزاء تلك الجدية المقدسة التي يؤدون بها اللعبة آنذاك، وكلما اقتربت أكثر، اختلط عليَّ الأمر وأصبح هدف لعبتهم غير واضح، أعتقد أن اللعبة تدور حول أب وأم وطفل، أو شيء من هذا القبيل، لكن أحدًا لم يتحرك، فالأطفال الذين لا تتعدى أعمارهم خمس أو ست سنوات نصبوا مرآتين قديمتين مكسورتين أمام وخلف كرسي جلست عليه فتاة صغيرة بلا حراك، محدقة إلى اللاشيء، واهتزت مروحة خلفها وكانت هي تتمسك بشمعة حجبتها بيديها عن التيار، وفي هذه الأثناء كنت أقترب أكثر فأكثر، جذبني سحر لا يمكن كبته إلى هذا العرض.

سألتهم: «ماذا تلعبون؟».

قالت فتاة تقف في الجوار عاقدة شعرها بشكل ذيل حصان: «الملوك الثلاثة! في المنتصف هنا يقع العرش، وهو عرش الملك أو الملكة، في الأمام والخلف يرى الملك نفسه مرتين -مرة في صورة أمير ومرة في صورة معتوه- لكنه لا يعرف أيهما هو، فالاثنان يشبهانه بالفعل، إنهما انعكاساته، يمكنك أن تقنع الأحمق بحقيقة أنه يضع بيضة في جيبه، حتى لو كانت مخبأة في مكان ما».

لقد فتِنتُ بنظرة الفتاة على العرش -الملكة- ثم رأيت انعكاسها مرة أخرى: فتارة تنظر إلى عينَي الأمير، وتارة ترى عينَي المعتوه.

- لكن النكتة هنا هو أن الشخص الذي يجلس على العرش ويلعب دور الأمير والمعتوه يظل يُسأل: هل أنت الأمير أم المعتوه من وجهة نظرك؟

سألتهم: «ما الهدف من اللعبة؟».

قال صبي متكئًا على المرآة الأمامية: «لتلقِ نظرة على الجانب المظلم منك عمومًا، لكن الضرورات لها أصل مختلف دائمًا مع الجميع».

وميض.. والآن اقتربت أكثر، رأيت شيئًا في المرآة.. لا! في الانعكاس الأمامي للمرآة الخلفية، شيء لم أستطع تفسيره، هناك مربع صغير أزرق يبدو مألوفًا، والآن كاد وجهي يلمس المرآة وهو يرتجف، لم يمنعني الأطفال، فقد اعتقدت أنه يمكنني الوصول إليه، لكن في تلك اللحظة أمسك شخص ما بكتفي، فالتفتُّ لأجده فيليز.

قال وهو يبتسم: «ماذا تفعل هنا؟ هيا! فالبيتزا تنتظرنا هناك».

فبنقرة واحدة أعادني فيليز إلى الواقع.

«سيز! أعلم أن عقلك ليس معي، لكن استجمع شتات نفسك، فمواصلة اللعب دفعة واحدة عمل شاق جدًّا».

كان فيليز منتشيًا بشكل ملحوظ، هناك قطعة من السلامي تتدلى من زاوية فمه وهو يقفز نحو التليفزيون ويشير إلى حفرة: «هذا هو المكان الذي يجب أن نذهب إليه، كهف أزوريا».

لقد أطعت أوامره وشعرت بشيء من الرضا عندما أثنى على إيضاحاتي، لقد أقنعتني حماقة المجتمع الدافئة أن أعود نادمًا مستغفرًا مرة أخرى، حتى إن الأفكار بدأت تلعب برأسي، لاستئناف جلسات النسخ، وبالطبع في قمع دائم لكل ما هو آتٍ: الالتزام بإنهاء العمل على ديف، والوفاء بالمواعيد النهائية، واحترام جداول الأعمال، وإكمال المهام الصغيرة، وكل ذلك حتى أنسى فساد النظام بأكمله وأغسل القشرة الدهنية من شعري دون قلق كل مساء.

لقد كلفني التصالح مع فكرة وفاة بافل كل القوة التي كنت سأحتاج إليها للتمرد مرة أخرى، فكل شيء من حولي كان مجرد محاكاة، لكن ذلك لم يعد يزعجني، فما هي الكذبة في المحاكاة إذا كانت تحاكي ظروف الحقيقة نفسها؟

اقتحم فيليز أفكاري: «خذ الكرة الرئيسة في البوكيمون».

فأكثر من أي شخص آخر بدأ هو بمحاولة خلق شيء يشبه الحياة الطبيعية، وكلما مر الوقت أكثر شعرت بقلبي الغادر، ينبض بقوة في بطني، تلك الورقة! أليست مجرد رسالة هي ما جعلتني آتي إلى هنا وأجلس لعشر ساعات ألعب واحدة من ألعاب الفيديو القديمة؟ مائة وخمسون من مائة وخمسين بوكيمون، مخلوق استنساخ مرعب يكمل عبث مسعانا.

قلت مرهقًا: «حان الوقت للعودة إلى المنزل».

لقد شعرت بالحرج طوال الوقت لأننا كنا على بعد أمتار من امرأة مريضة بمرض عضال دون أي تفكير في خصوصية ما تعانيه، لكن فيليز لا يبدو غاضبًا أبدًا.

- هذا هراء، لا يزال أمامنا بعض الأشياء لنفعلها.

- لقد تخطينا المراكز الأربعة الأولى، والتقطنا 150 بوكيمونًا يا فيليز، كل ذلك ونحن نجلس هنا منذ أول أمس، وأود أن أقول إن انتهاء حظر التجول قد آن.

انحنى كلانا إلى الوراء كما لو أننا أنجزنا عملًا شاقًا، لكن فيليز أثار مرة أخرى شعورًا بالتمزق، فأصدقائي لا يريدون أن يتركوني وحدي هذه الأيام.

- نعم لقد فعلنا كل ما نصت عليه اللعبة، لكن ما زال هناك الكثير، أتذكر خلل ميو؟[1]

تثاءبت في صورة إعلان صريح عن رفضي لهذا الاقتراح، بالطبع أتذكر الخلل، ففي فترة مراهقتنا سرت شائعة في المنتديات أنه إضافة إلى الـ 150 بوكيمونًا العادية، يمكنك التقاط بوكيمون رقم 151، وبوكيمون أو ميو هو كائن أسطوري، وأخيرًا قلت: «جيد! لكن هذا حقًا هو آخر شيء سنفعله اليوم، ثم دعنا من هذا، اتفقنا؟».

انتشرت بيننا أساطير لا حصر لها من هذا القبيل في دوائر الألعاب، وبخاصة عندما كنا صغارًا، ففي معظم الأوقات كان علينا تنفيذ خليط من الطقوس الغامضة في ظاهرها، فعلى سبيل المثال: تآمر الأطفال من قبل على لف عصا التحكم ثلاثين مرة لخلق شخصية غير موجودة في اللعبة، أو ترك وحدة التحكم قيد التشغيل لمدة ثلاثين يومًا وليلة للانتقال إلى أبراج سرية.

وبصفتنا بالغين جربنا مثل هذه الممارسات الغامضة بجدية مقدسة فقط لنستسلم تسع مرات من أصل عشر، لكن في بعض الأحيان.. وهذا ما دعم أوهامنا وإحساسنا بالغموض.. تصبح الشائعات صحيحة، فيمكن لسلسلة

---

(1) هو خلل موجود في جميع ألعاب سلسلة الجيل الأول الأساسية، يسمح للاعبين التقاط أي بوكيمون آخر في اللعبة وهي أسهل طريقة للقبض على العديد من البوكيمون الفريد من نوعه. (المترجمة).

من الأفعال التي تبدو غير ذات صلة ببعضها أن تقلب قوانين الطبيعة، وكان أحد تلك الحوادث النادرة هو خلل ميو.

قلت محاولًا التذكر: «لحظة! كنا نطير إلى الطريق رقم ثمانية، ثم نأخذ خطوة للأسفل حتى يرانا المدرب، ثم بعد ذلك نبدأ اللعبة كالمعتاد». لقد كانت -قصة اللعبة- هي نموذج Mewtwo نفسه. لذلك ترك المبرمجون النسخة المستنسخة في اللعبة، لكنهم مسحوا النسخة الأصلية.

في نسخة بوكيمون ريد تظهر دائمًا علامة تعجب فوق رأس الشخصية عندما يصبح مدرب الخصم في مجال الرؤية، وبعد ذلك يستعد العدو للقتال، ومع ذلك كان من الممكن تجنب هذه المعركة، بسبب وجود خطأ في البرمجة، حيث تتجاوز الخصم في منتصف الحركة.

- الآن علينا الذهاب إلى مدرب آخر في فيرتانيا سيتي على ما أعتقد.

قال فيليز: «مدينة أزوريا».

- بالضبط! ومن هناك إلى طريق رقم 25.

دخلت في معركة مع المدرب التالي، وهو مراهق، فهزمت فريقه، ثم بالعودة إلى الطريق رقم 8 فُتِحت قائمة البداية كما لو كان ذلك سحرًا.

- وعندما نضغط على B لإغلاقه... ها هي!

- ظهر مستوى ميو 7 من العدم، وكان ميو هو البوكيمون رقم 151، وهو وحش صممه المبرمجون ولكنهم قرروا لاحقًا إزالته من اللعبة، حيث كانت -قصة اللعبة- هي نفسها نموذج ميو تو؛ لذلك ترك المبرمجون النسخة المستنسخة في اللعبة، لكنهم أزالوا النسخة الأصلية.. وهذا لا يعني أنهم مسحوها على ما يبدو، لأنها ظلت مخفية في مكان ما على القرص الصلب.

- جيد، جيد، لكن هل تعرف لماذا تعمل بهذه الطريقة؟

شعرت ببعض الوهن في نبرة فيليز، وعندما التفتُّ إليه رأيت جبهته تتلألأ بالعرق، فسألته بحذر: «هل أنت بخير؟».

قال وهو يضحك ضحكة هستيرية قصيرة أزعجتني بشدة: «نعم بالطبع، كل شيء على ما يرام، أريد فقط أن أوضح لك سبب حدوث الخلل

بالطريقة التي يعمـل بها، أظـن أن ذلك مـن شأنه إثارة اهتمامك بصفتك مبرمجًا».

- نعم، لكن.. حسنًا من فضلك افعل.

- اسمعني! الخطأ يكمن في الهروب من المدرب، فتفكير اللعبة هو أنك في وضع المعركة، وتركض بحرية هكذا على أية حال، ذلك يرهن وضع التخزين في منطقة رمادية مرعبة، وتنقسم إلى ثلاثة أنماط. فأولًا: تقمع اللعبة الحوار؛ لأنها تظن أنك تتحدث مع شخص ما. وثانيًا: تظن أن هناك شخصية تتحرك. وثالثًا وأخيرًا: تبدأ المعركة! رغم عدم وجود أي شخص للقتال.

بذلت قصارى جهدي لتجاهل حقيقة أن وحدة التحكم كانت تهتز في يد فيليز، وفكرت في أنه لم يكن هناك أي شيء مثير بشأن شرح الخلل، فما الذي كان يحاول إخباري به؟

- اللعبة في منطقة التماس، حالة لا يسمَح بوجود أحد فيها، نحن الآن نحارب المراهق في الطريق 25، وهذا يلغي مشكلتين من المشكلات الثلاث. فالمدرب تحرك بشكل سليم والحوار قد انتهى بالفعل، لكن المشكلة الأخيرة ما زالت قائمة وهناك صرخات لبدء القتال –CD60 بت–.

حالات بت، وبرامج، وأخطاء البرمجة من أين يعرف فيليز كل هذه المعلومات؟

- اللعبة تبحث بشدة عن معركة لكن لا يوجد مدرب هناك، لأنك في منتصف الطريق؛ لهذا السبب ستختار اللعبة أي بوكيمون تلقائيًّا كخصم، وفي لحظة ما سيظهر ميو، فأنت تعلم بالطبع أن المبرمجين تركوا ميو عن طريق الخطأ في اللعبة.

سألته وأنا أحدق إلى عينيه وكأنني أخبره أنني فهمت ما يريد: «لكن لماذا لا يظهر أي بوكيمون آخر؟ لماذا ذاك بالذات؟» وهذه كانت إشارة مني ليواصل الحديث دون رموز.

- كان لزامًا على الألعاب القديمة أن تستخدم البتات الفردية بكثرة؛ لأنه لم يكن بها مساحات كبيرة، فالبت هنا 151، هو الذي يخزن رقم تشغيل البوكيمون، وهي التي تحتوي أيضًا على رقم المدرب، لأنك هربت للتو من المدرب رقم 151على ما يبدو.

قلت له: «ميو، لذا إذا مررت على شخص ما بعلامة عشرية مختلفة، فسيظهر بوكيمون آخر؟».

لكن فيليز كان قد قفز منذ مدة، وهرع إلى الحوض ليغسل ملعقتين، ثم قال: «نعم بالضبط، كم هو غريب أن يقودك هذان الخطآن الصغيران إلى أماكن ليست جزءًا من البرنامج أصلًا، ألا تظن ذلك؟ يمكنك استغلال صرامة النظام للوقوف وراء الأشياء، ألا تقولون ذلك؟ فيمكنك أولًا الوصول إلى وجهة نظر المبرمج، وبعد ذلك تستطيع التلاعب بقواعده! وبالطبع سيكون ذلك إنذارًا بالخراب؛ لأنه من المحتمَل أن تدمر بيدك عملية إنقاذك، بل واللعبة بأكملها، فهذه المناورات ليست ممنوعة ببساطة، لكنها مستحيلة منطقيًّا وهنا يكمن الفرق؛ فمن السهل التعامل مع المحظور.. جيد».

فجأة قال فيليز بعصبية وجلس جواري إلى الطاولة: «ما هذا بحق الجحيم!».

قلت بحذر: «فيليز، لا أستطيع أن أتصور أن لديك كاميرا أمنية هنا!».

همهم فيليز دون أن تلين ملامحه حتى بسبب تصريحي ذاك، وأيًّا كان الشيء الذي منعه من العثور على كلمات أوضح، فقد بلغ لديَّ مبلغًا أعمق بكثير من مجرد الخوف من التلصص، أو ربما أيضًا كان ذلك مجرد سوء فهم، وليس هناك ما يدفعه لمنعي من أي شيء، لكن ما الذي يثير شكوكي حقًّا، بصرف النظر عن الملاحظة التي تركها لي شخص مجهول؟ اتكأت إلى الخلف وأمسكت بوحدة التحكم وأمسكت الميو الذي كان ينتظر مدخلاتنا على الشاشة منذ عشر دقائق، في حين ظل فيليز يراقبني بصمت، استولى الصمت على المسافة بيننا وخلَّف ذلك شعورًا كبيرًا بعدم الراحة.

سأل فيليز أخيرًا عندما لم نتحدث مع بعضنا لفترة زمنية لا تطاق تقريبًا: «هل تعلم أنني توليت تنسيق أعمال التجديد على الجدار الغربي؟».

في حين ظللت أنا أتجول في عالم 8 بت، وأردف هو: «اليوم هدمنا الجدار الغربي خلف مساكن الطلبة واستبدلنا به رفوفًا، إنها جدران محمولة... حسنًا، لماذا أخبرك بهذا على أية حال؟».

قلت له: «لا، أرجوك أخبرني، لقد سئمت من المباراة». بينما ظللت أحلق حول أزوريا سيتي دون رادع.

قال وهو يصفق بيديه بتوتر، كما في التصفيق البطيء للغاية، الذي يسبق شيئًا على وشك أن يقال: «انظر، إنه مضحك».

- ما المضحك؟

- نعم نعم، لا شيء... إنه في الواقع ليس مضحكًا على الإطلاق... لن تخبر أحدًا، أليس كذلك؟

هززت رأسي نافيًا وفكرت في والدته المستلقية على السرير خلفنا بلا حراك، قبل أن يهتف فيليز مرة أخرى وهو يتجه نحوي: «لا شيء على الإطلاق!».

قال بتصميم مفاجئ: «اصمت نهائيًّا!» ثم نزع الآن أغطية سريره خلفنا، وفرشها فوق رأسينا في حركة مندفعة، كانت ملامح وجهه ضائعة وسط الظلام الأعمى، لكنه كان قريبًا مني لدرجة أنني شعرت بأنفاسه تلفح وجهي، فكررت كلامي: «ألا توجد مراقبة هنا؟».

رد فيليز وكأنه لم يسمع سؤالي: «هكذا أفضل سيظنون أننا فقط نائمون، أو شيء من هذا القبيل... الآن اسمعني جيدًا! لم أخبر أي شخص بهذا من قبل، ولا أعرف حقًّا ما الذي يمكنني قوله، ربما لا يوجد ما يمكن قوله».

كنا نتنفس بقوة كبيرة، لدرجة أن معدل الأكسجين تحت الغطاء انخفض بعد مدة قصيرة، وظهر شكل غريب من الخفقان جعل مجال رؤيتي يتذبذب.

همس: «منذ تسعة أيام دمرنا عن طريق الخطأ مدخل تهوية في أثناء هدم جدار لوضع أنابيب جديدة خلفنا، وقد سار الأمر على هذا النحو: نزعتْ مجموعتي، التي يبلغ عدد أفرادها نحو عشرين شخصًا، جزءًا من الحواجز مع الهيكل الفولاذي الداعم، فانهار عمود ضغط كان مثبَّتًا بالخلف عن طريق الخطأ، لا أعرف من الذي نظم لهذا الغباء، وربما أكون أنا نفسي المخطئ بسبب العمل لفترات طويلة والإرهاق العام، فجأة سرى صوت هسهسة في المكان، تلك الهسهسة التي تخبرك بصفتك مديرًا أن خطبًا جللًا قد حدث، لقد حدث تسرب، وقد أتى رئيس العمال، وبطبيعة الحال كان عليَّ أن أتماسك لكي لا أصاب بالذعر أمام الجميع، ثم وصَّلنا التهوية إلى أماكن العمل بأكملها في بلوك B و C بالأنابيب».

رقصت النجوم أمام جفني، لكنني لم أجرؤ على رفع الأغطية.

- لا أريد أن أحسِّن من صورة سلوكي يا سيز، سأخبرك بكل شيء كما حدث تمامًا، لقد شعرت بالخوف في البداية ولم أرغب في إيقاظ أيٍّ من الرؤساء بأي حال، كانت الساعة الثانية صباحًا ونحن نقف أمام مدخل التهوية المكسور نتكهن فقط بأننا ربما أتلفنا بعض الصمامات

الداخلية، وربما قريبًا سيختنق مائتا شخص دون أن ندرك ذلك، وهنا خرجت صافرة تصم الآذان من الحائط، تجعلك تعتقد أن المكان بأكمله على وشك الانهيار، لكن موريس.. عفوًا، هذا رئيس العمال، أوقف موريس الجميع وأقنعنا بإلحاح شديد ألا نقول أي شيء.

رفع فيليز الأغطية فرأيت كيف التصق شعرنا المتعرق بوجوهنا، لكنني استطعت التقاط أنفاسي لجزء من الثانية.

- بطريقة ما توصلنا إلى اتفاق يقضي بأنه يجب إعادة تثبيت الغطاء الذي اقتُلع، أو لصقه من الخلف حتى يعود الضغط مرة أخرى ولا يموت الناس.. هل تفهمني؟ في الوقت نفسه كان كلانا مصابًا بالشلل والذعر من أن يكتشف أحد إخفاقاتنا، كيف يمكنني قول ذلك؟ باختصار، لقد قررت أن أتسلق وأفعلها بنفسي.

سألته بلهفة: «تسلقت ماذا؟».

- الحائط! هل تعرف كيف بُني؟

هززت رأسي نافيًا حتى رفرف الغطاء من فوقي.

- يوجد جدار داخلي مصنوع من الألومنيوم المصقول، وخلفه الكابلات، وبالطبع فتحات التهوية، وعندما تواصل التسلق تجد جدارًا من ألواح صخرية يتصل به كل شيء، وخلفه..

توقف فيليز فسألته: «خلفه ماذا؟».

قال فيليز بعد صمت طويل: «لا أعرف حقًّا! هذا كل ما تعلمناه في التدريب، حتى إن الفحص الأول أظهر أننا قد أتلفنا كل تلك الطبقات، هل تفهمني؟ لم أكن أعرف إلى أين يقودني هذا، فشققت طريقي بعمق واكتشفت.. اكتشفت وجود ثقب في الجدار الخارجي».

استغرق فيليز بضع لحظات ليتماسك، ولم أنطق بكلمة واحدة حتى استأنف قصته.

- عندما تسلقت خلف جدار الكابلات امتلأ رأسي بطنين داخلي عنيف، لدرجة أنني شعرت بأني على وشك الانهيار في غضون بضع ثوانٍ، فصرخت على الشخصين الواقفين خلف الألواح الصخرية؛ كي يعثرا على ألواح بلاستيكية ومسدسات غراء ساخنة، وعندما امتثل الآخران

لطلبي، صرت وحدي تمامًا لمدة دقيقة، أتفهم؟ لا أعرف لماذا فعلت ذلك، لكنني تسلقت فوق الحائط، فوق الجدار الخارجي.

سألته: «أيهما؟».

ففي أثناء حكيه المتسارع نسيت نظرتي العامة عن الظروف المكانية.

- لقد اجتاحني شك رهيب بأنه ليس فقط القشرة الداخلية هي التي تضررت، ولكن أيضًا الجزء الخارجي منها، ولن يتوقف الأمر على الموظفين الموجودين في المنطقة المجاورة بشكل مباشر، ولكن أيضًا المختبر بأكمله يمكن أن يهلك بسبب هذا الثقب، فالتاريخ يعج بحالات كثيرة استخف فيها الناس بشيء كلفهم رؤوسهم وأعناقهم... كنت خائفًا فقط يا سيز.

العرق الذي سال على وجهه بدأ يتقاطر الآن على ساقي.

- زحفت بيديَّ العريضتين عبر الشق الموجود في الجدار ذي الألواح الجبسية، فاصطدم بالجانب الآخر، سمعت صوت هسهسة كأنني أصبحت طي النسيان، وخلف جدار الهواء رأيت بالفعل الدفعة قد أحدثت ثقبًا صغيرًا في الحائط عند الدعامة المستعرضة، لم يكن أكبر من كف اليد، لكن ضوء النهار اخترقها، كان مشرقًا بشكل مذهل.

سألته وأنا أبعِد الأغطية قليلًا من حولنا: «ماذا حدث بعد ذلك؟».

لكنني أنا أيضًا شعرت بعدم الارتياح؛ لأن شخصًا ما قد يراقبنا، وقبل كل شيء كانت والدة فيليز هنا تسمعنا منذ فترة طويلة.

- كنت أرتجف من التوتر، لكن كان عليَّ الاقتراب، أتعلم؟ كان هذا بالطبع غباءً تامًّا، بل وشيئًا غير منطقي، لكن شيئًا ما كان يجذبني، فمهما كانت الظروف.. أنا هنا وسأبحث عن كل المخاطر، حتى لو سقطت على وجهي، ثم..

- ماذا؟

- لا شيء!

وكأنه سيلقي الغطاء بعيدًا رفعه عن رؤوسنا حتى غمر الأكسجين رئتي، وحدقنا إلى أعين بعضنا بعضًا للحظة ونحن نلهث، ثم واصل الحديث واشتقت أنا للظلام الآن عندما رأيت الذعر في وجهه.

- لم يكن الجو حارًا، ولا سامًا، ولا حتى ساطعًا جدًا، لا يوجد به أي ملمح من ملامح الغرابة، فأنا ما زلت على قيد الحياة حتى الآن؛ لذلك ربما لا يكون الجو مليئًا بجراثيم مميتة.

قبضت على معصمه بقوة وأنا أقول: «ماذا رأيت؟».

تكلم فيليز مضغوطًا: «لا شيء! لا شيء على الإطلاق، لم تكن هناك حشود من الناس كما صورت لنا بابوش دائمًا، الأرضية حجرية وعميقة جدًا، وفي الأعلى سماء.. سماء زرقاء، ولا يوجد شيء آخر، الأفق يمتد إلى ما لا نهاية».

- لحظة لحظة! كيف لا يوجد شيء في الخارج؟ لا يمكن! لا بد وأن هناك شيئًا.

- بكل صدق لا شيء! تربة خصبة موحدة تمامًا، حتى إنني مددت يدي في الخارج لبضع ثوانٍ ولم يحدث أي شيء، لكن بالطبع كان عليَّ العودة في الحال، فقدْ جاء زملائي بالمواد التي سنغطي بها الثقب، وعلى الرغم من أنني علمت أنها مجرد نفايات، وأن الأكسجين في الخارج كما هو في الداخل ولن يختنق أحد، لا، فأنا مخطئ؛ لأن الهواء في الخارج أفضل وأكثر من هنا.

دفعت يدي لأضعها فوق فمه لأن القرار بدأ يتغلب عليَّ فجأة.

- اسمعني جيدًا يا فيليز، وأتوسل إليك ألا تبلغ عني، لكن ما قصصته عليَّ الآن هو بمنزلة إشارة من القدر، لأنك لن تصدق ما أنا بصدد إخبارك به، لكني أنوي مغادرة المختبر، هذا يبدو وكأنه جنون، وليس لديك أي فكرة الآن عن سبب ضرورة ذلك، لكن..

تكلم فيليز بنبرة منكسرة وهو يدفع يدي بعيدًا: «أنا أعلم، لماذا في رأيك أحكي لك الآن شيئًا كهذا؟ لقد وجدت رسالة على سريري تخبرني بأن عليك الهروب».

رددت: «رسالة!».

أرخيت يديَّ على ركبتيَّ، لقد أرسل له شخص ما رسالة أيضًا، اعتقدت أنه شخص يعرف كل شيء.

- انتبه لما سأقوله يا سيز، إن فتحة التهوية في المكان المحدد الذي انكسر في ذلك اليوم لا يزال فوقها غطاء مؤقت يمكن إزالته بسهولة، والبقعة التي حدث فيها الاختراق لا تزال مفتوحة، ولكن ذلك حتى يوم الأحد فقط؛ لأننا حينها سنضع لوحًا جديدًا من الجبس.

- في غضون ثلاثة أيام.

شعرت الآن بدوار شديد لدرجة أنني اضطررت إلى الاستلقاء على ظهري.

- نعم! ثلاثة أيام. ويجب أن يكون معك هذا..

أخرج فيليز من جيبه أداة تشبه المفتاح نوعًا ما، إنها قطعة معدنية منحنية، ثم أردف: «يمكنك استخدام هذا لفتح اللوحات التي تقودك إلى فتحات التهوية؛ لأن الأغطية البلاستيكية متصلة بالصمامات.. الصمامات نفسها التي كُسرت واحدًا تلو الآخر، عليك أن تدفع إلى الخارج بقوة كبيرة، ففي هذه الفتحات يكون الامتصاص تحت ضغط مرتفع جدًّا، ثم تهبط من أعلى، وهذا يعني أن لديك بالفعل أسبابًا وجيهة للقيام بشيء كهذا».

- لدي بالطبع! ما مدى العمق بالضبط؟

ضغطت على المفتاح المعدني الغريب في راحة يدي، لكنني فجأة تذكرت سؤالًا لطالما كتمته في صدري.

قلت ببطء: «فيليز، هل ما حدث كان مجرد حادث بالفعل؟ أعني الجدار المنهدم؟».

ما هي احتمالية أن يصيب أصدقائي أي أذى إذا تكلمت؟ تابعت بحذر شديد لأنني فقدت صديقًا بالفعل: «فيليز أنا.. لا أعلم من أين أبدأ».

- سيز! في ظل الظروف العادية لم أكن لأولي أي اهتمام لمثل هذه الرسالة، بل ربما اعتبرتها فخًّا، ولكن شيئًا ما حدث في داخلي بعد موت بافل..

لم يكن بحاجة إلى التوضيح أكثر، كنت أعرف ما يقصده، قفز فيليز وركض على عجل عبر الغرفة عدة مرات، وقد بدت والدته نائمة مما أشعرني براحة كبيرة.

بدأت مرة أخرى: «أتعلم أن ذلك بسبب..».

قطع فيليز كلامي، وقال: «لا أريد أن أعرف شيئًا، وداعًا».

قال لي ذلك الهراء ثم أحضر لي سترتي، كأنه لم يسرع كفاية في إعادتي إلى المنزل.

قلت له مرة أخرى وهو يدفعني نحو الباب: «لم يسمعنا أحد..»، قلت ذلك لتهدئة نفسي أيضًا، لكن فيليز تقدم وأخذني بين ذراعيه، لقد قبض عليَّ مرة أخرى بعد أن أخرجني، وبمجرد أن أغلق الباب، سمعت المفتاح يدور ثلاث مرات.

12

أمضيت يومَي الأربعاء والخميس التاليين في حالة من اللامبالاة المطلقة تجاه كل ما هو قادم. فذهبت إلى السينما، التي لم أعد أهتم بقذارتها الجامحة، وبدأت في قراءة الكتب التي تكدست على الكومودينو لفترة طويلة، شعرت أن أمامي كل أوقات العالم، فقابلت جاراوس ولعبنا سكات بالورق معًا، ويبدو أن لا شيء في السكات من اللعبة الكبرى، أو الانقلاب، أو حتى المساومات والصفقات يحمل زخم الأيام الأخيرة، استحممت وأكلت ثم نمت، وجاء مساء الجمعة كما سار الحال مؤخرًا، عندها فقط باغتتني البصيرة التي كنت أتراجع عنها: جلسة النسخ رقم 200 من أصل 200 جلسة نسخ.

قال فروليش وهو يفتح زجاجة نبيذ: «من أجل الغد! اليوم يسمَح لك باختيار موضوع بنفسك لتتحدث فيه».

لأول مرة مذ عرفته أشعر أنه مرتاح، سحب كرسيه بالقرب مني، حتى إنه وضع يده على مسند كرسيِّي، حتى صرنا على وشك التلامس، ثم قال: «فماذا تقرر؟».

Hic sunt dracones[1]

هذا هو الموعد الأخير، كانقلاب سيارة فوق الصفيحة القارية التي لم يكن خلفها أي شيء، ومع ذلك كنت هادئًا جدًّا، وقلت: «لقد اخترت واحدًا من أكثر المواقف الحاسمة التي مررت بها في حياتي.. سأتحدث عن جلسات النسخ».

قال فروليش: «أوه!».

---

(1) هي عبارة لاتينية تستخدَم على الخرائط في العادة ومعناها (هنا تناذين) تعني أن هذه مناطق خطرة. (المترجمة).

ثم وضع زجاجة الشمبانيا الفائرة على شفتيه، لكن الآخرين في الغرفة بدؤوا يغمغمون، وكان بلومنتال هو أول من هرب من أسراب الهمهمة، وقال باندفاع: «لا أعتقد أن هذه فكرة جيدة».

وضع فروليش الزجاجة على صينية لامعة؛ انعكس عليها السقف المضلع، وقال: «هل لي بمنديل؟».

وأضاف بلومنتال وهو يرفع سبابته: «أعتقد أن هذا الموضوع مرجعي أكثر من اللازم، وقد يتسبب في مشكلات خطيرة». وانضمت إليه روزن في ذلك، فأكمل: «لا أعرف حتى كيف يمكن أن نربط هذا بالبرامج النصية السابقة، فلن يكون ذلك سوى حلقة تكرارية، لا تفعل شيئًا سوى تفسير نفسها فقط».

استدار فروليش كما لو كان في حالة من البحث، لم يكن من الواضح ما إذا كان قد وضع الزجاجة للتو أم لا، وسرعان ما عاد إلى الوراء كما لو كان يفكر في الأمر بشكل أفضل، ثم قال: «لقد قلنا إنه مسموح له باختيار الموقف».

وقد زاد ذلك من الضجيج، فتنحنح هيتش لكن روزن سبقته بالحديث، وقالت بصرامة أقوى: «أي موقف عدا ذلك!».

ليرد فروليش: «لا! أي موقف».

كان بإمكاني أن أشعر بوضوح بملامح مطواة، ينتفخ بها جيبي الجينز، واعتقدت أنه يمكنني الاستقرار بشكل أفضل إذا سحبت ساقَي البنطال إلى الأسفل قليلًا.

قلت أخيرًا بعدم يقين: «إنه أمر سخيف حقًّا، فبلومنتال وروزن محقان، لقد كنتم جميعًا هنا شاهدين على ما حدث، فماذا عساي أقول؟».

قال فروليش لروزن: «أترين؟ لقد نحيته عن الفكرة الآن!».

ثم وجه حديثه لي: «انس كل ذلك، وأخبرنا كل شيء كما خططت له».

- حسنًا!

لقد بدا الأمر لي وكأنني أرتدي رداء شخص آخر يختلس النظر في جميع الأماكن الممكنة.

بدأت الحديث وكم بدا حديثي سخيفًا بل ومثيرًا للشفقة: «لطالما رويت قصة حياتي وكأنها قصة شخص آخر له علاقة محددة بديف.. وليس هناك

أي شيء يمكن أن يرسم تصورًا أكثر فظاعة من تصوراتي المعتادة، فأهم شيء هو إنهاء العمل على ديف، أي طفل صغير يستطيع إخبارك بهذا».

لاحظت أن وقع كلماتي لم يكن جيدًا، لكنني أردفت: «لكن بالنسبة إليَّ كانت هذه الرغبة ثانوية لكوني أنا الشخص الذي سيصنع الفارق في نشأة ديف».

ثم قلت بتوتر: «هل يمكنني البدء من جديد؟».

ليرد فروليش: «كما يحلو لك».

قلت بشرود دون أن أعرف حقًّا ما أعنيه: «لم أستطع فعل ذلك.. كانت أقوالي تنبض، وأعيش كما يعيش العبقري في نظري، أو كما يقال في الأمثال: تظاهر بالشيء حتى تدركه، إنها حلاوة ذلك الوعد الذي لم يتحقق، ذلك الانفجار القصير لحمم الدوبامين الذي يجعلك عاجزًا تمامًا عن لمس العالم الحقيقي، والإنسان يتخيل فقط دون أن يفعل».

لا أعرف كيف أعبِّر عن ذلك بشكل صحيح، فكل كلمة أنطقها تفقد جزءًا من معناها المرغوب.

أردفت: «وبعد ذلك حصلت على هذه الفرصة، لقد أيقظوني و... لكن لا: ربما لا يمكن وصف الأمر بتلك الطريقة، ربما بطريقة أفضل، فهمت -بأثر رجعي- أنني لم أنخدع بعد كل شيء، كنت طوال الوقت استثناءً، لقد جئت ورأيت..».

قاطعتني روزن: «توقف!».

والآن عادت الغمغمة مرة أخرى، فرفعت يدي وأشرت نحو ديف في الخلف دون أن أستدير، وفي تلك الوقفة القصيرة عاد شعور عدم الارتياح ليطغى مرة أخرى على الحضور.

وسأل بلومنتال بغضب: «بروفيسور فروليش! بصفتنا مسؤولين عن ديف فأنا لا أعلم حقًّا كيف سنبرمج ديف على أنه استنسخ من شخص آخر في أثناء وجوده في الغرفة؟!».

فأمره فروليش بحدة: «ارتجل!» ثم أشار إليَّ: «واصل الحديث».

فقلت بحيرة: «كان الأمر أشبه بتحقيق أحلامي».

كان وقع الكلمات أشبه بالتملق، وتوقف المبرمجون عن الكتابة، فأردفت: «فالمختبر هو ديف، وديف هو المختبر، وأنا بدوري أيضًا المختبر، والمختبر هو أنا، لقد أصبحت خالدًا عن طريق نقلي في مادة لا تموت».

قال فروليش مبتسمًا ومشيرًا إليَّ؛ كي يشجعني على تجاهل الفوضى التي خلفنا: «القليل من جنون العظمة لا يضر».

فقلت له: «ولكن سرعان ما بدأت المنغصات، فكما ترى! كلما طالت جلسات النسخ، أصبحت الصورة الرمزية الخاصة بي أكثر واقعية في ديف نفسه، إنه سيز رقمي يعاني تحت وصاية والده، ويجلس مكتئبًا في زنزانة عمله، ويتوق إلى الأشياء نفسها التي تقت إليها يومًا، ويشاركني الاهتمامات نفسها، يا له من إحساس سخيف، ليس حقيقيًّا! إنه مجرد صورة، ورغم ذلك ظل يعذبني أكثر مع كل جلسة جديدة، شعور أن هناك شخصًا مثلي، لكنه يجهل هويته، بل والقوى التي تدفعه».

سأل فروليش: «كنت تعرف ذلك منذ البداية، أليس كذلك؟»، لكنه على عكس النبرة الرافضة للسؤال، اقترب مني أكثر.

فقلت: «لقد كان ذلك أكثر من اللازم».

واصلت الحديث رغم ذلك لإخفاء حقيقة أنني كنت أقصد الاقتراب أكثر: «تداخلات.. بدأت في التفكك، كأن هناك مفكًّا يقبض عليَّ ويمزقني، وفي تلك الحالة من عدم الاستقرار، أتى الحسد أخيرًا».

- الحسد؟

- الجانب الآخر للعملة. ربما كنت أنا الأصل، ولكن ما معنى ذلك أمام فاعليته المتزايدة ألف مرة؟ فبإمكانه التفكير بشكل أسرع، وبه ملايين من التيرابايتس من طاقة الذاكرة، سيكون قادرًا على العيش إلى الأبد، والتطور إلى الأبد. فما بدأ بصفته نسخة، سيصبح ببساطة أفضل مني في كل شيء، كل شيء.. كل شيء.

في منتصف حديثي، رفع فروليش يده كلفتة للتوقف.

قال بهدوء الآن وهو يميل نحوي: «لقد فهمت جوهر كل ذلك جيدًا، لكن كان عليك أن تتريث في ذلك».

كان عليَّ الرد على هذا التحقيق: «وبماذا سيعود عليَّ ذلك؟».

ساد الهدوء من حولنا قبل أن يقطعه: «حسنًا! لقد أردت تصميم ديف ليصبح خلفًا لك، كان هذا حلمك، ونحن سمحنا لك بفعل ذلك، لقد أنجزت الكثير، لكن أخبرني شيئًا واحدًا الآن، ولا تحجم عن الحقيقة! لماذا تجاوزت الخط الذي اتفقنا عليه؟ لماذا عدَّلت ذكرياتك؟».

حينها ساد صمت مميت قبل أن أقطعه: «لا أفهم قصدك بالضبط!» ثم واصلت الحديث وكأن ما قلته ليس كافيًا: «لم أدخِل أي تعديلات على ذكرياتي».

كان وقع الكلمات أشبه بكذبة، فكرت في ذلك وأنا لا أزال ألفظ الكلمات، ثم حدقت إلى جبين فروليش، الذي كان يتلألأ بحبات العرق تحت الضوء البرتقالي.

- لقد كان مناسبًا لك تمامًا أن تكون شخصين، أليس كذلك؟ وكان الأفضل لك أن تصبح ثلاثة أو أربعة أو اثني عشر تحت السقيفة التي اجتذبتكم مرة أخرى.

فكرت بتكاسل كم يبلغ طول فروليش يا ترى؟ وأردت أن أرد لكن صوتًا قد هتف من خلفنا: «انتظر، مساحة القرص ممتلئة».

لم أسمع هذا الصوت من قبل، وقد قضت حالة التأرجح هذه على كل الخوف بداخلي، فاستدرت، فإذا بامرأة تقف عند جهاز أخرق يشبه الرافعات الثقيلة، حتى انحنى قرص مرن مفرقِعًا في أثناء خروجه من شق في الجهاز، وفي الغرفة الخلفية التي انفتحت فجأة سحبت قرصًا أسود لامعًا جديدًا من طية ورقة، عبارة عن خرق من الشاش والوبر.. صوت فروليش الأجش.

لكن الأكثر بشاعة من أي شيء أنه لم ينتبه إلى التحولات من حولنا، وكيف انطرحت سجادة قطيفية تحت أقدامنا، وأضاف فروليش: «ربما لم تكن تظن أن صبيًّا معجزة مثلك سيضطر إلى النزول من صهوة حصانه العالي، لكن ألم تدرك ذلك؟ ألم تلحظ كيف تخليت عمَّن تزعم أنه صديقك؟ أنت شيطان! لكنك بددت أموالك على نرجسيتك الأبدية، التي لاحظها الجميع منذ زمن وعجزت أنت عن إدراكها.. ألم تلحظ نظراتهم؟ ألم تشعر بأن خسارة بافل تركت آثارها على جسدك يا عديم الإنسانية؟».

قلت: «لم أبدد أي شيء»، لكن الأوان كان قد فات، وللحظة اعتقدت أن بيرلمان سيأتي لمساعدتي، لكن عندما نظرت إلى وجهه، لم أرَ فيه بيرلمان،

بل رجلًا طويلًا يجلس إلى آلة كاتبة، فكيف أهرب وإلى أين؟ البلاستيك الرمادي الذي لا معنى له حجب الرؤية، وكانت الجبهات اللامعة مرئية في تلك اللحظة.

والآن صاح فروليش بحدة: «نحن لا نحاكمك، لكن يجب أن نصل إلى نهاية لكل ذلك الآن، ومعي أيضًا سؤال بسيط للغاية: كيف تمكنت من النظر إلى المرآة بعد أن تسببت أنانيتك في فشل المشروع؟ وكل ذلك فقط لأنك اعتقدت أنك منتقى من بين الجميع في تلك العلاقة».

والآن خرجت من مقعدي شاعرًا بالارتياح من وجود قطعة أثاث بيني وبين فروليش، لكنني أدركت على الفور أنها لا تفيد، حيث وقف بخفة على أطراف أصابعه في وضع أشبه بالاستعداد للرقص.

- الآن هل ترى كيف نلاحظ ذلك يا أرتور؟ هل ترى ما هو جزاؤك على تدمير ثلاثة من أصدقائك، وقتل واحد منهم؟

ارتجفت مثل كلب مبلل، وشعرت وكأنني عارٍ تمامًا، عندها اعتقدت أن هذا هو الوقت المناسب، فأمسكت بالمطواة بشكل محموم، ثم قلت وأنا أسحب الكابلات من فوق صدري: «أنا لا أستسلم لك». لكن صوتي خرج ضعيفًا جدًّا.

- هل تعتقد أنني أعمى؟ أنا أعرف كل شيء عن الرسائل السرية، وعن العالم الخارجي وبابوش وأيضًا عن الوثائق المفقودة.

فقط لم يكن هناك أي سكين، فبدلًا من سروالي، كان جسدي يكتسي بأسلاك حمراء داكنة، ثم انقسم الخشب من تحتي إلى متعدد كلوريد الفينيل الرمادي.

صاح أحدهم من خلفي: «لا تمزق الأقطاب الكهربائية!».

وهتف آخر: «ما هذا الهراء الآن؟ لننهِ الجلسة حالًا وإلا فلن نحقق أي شيء اليوم».

ظهرت شقوق وبدأت تصنع نتوءات في الغرفة فجأة، لدرجة أنني اعتقدت أنني سأفقد توازني من فرط قوتها، وللحظة اعتقدت أن الآخرين لا بد وأن يتأرجحوا مثلي أيضًا، لكنهم كانوا منتصبين كما لو كانوا مغلفين بطبقة خرسانية، ثم استغل فروليش عدم انتباهي واقترب مرة أخرى.

- أنت يا عزيزي لطالما تمسكت ببراءتك من الخارج، وخرجت من محاكمتك كرجل طاهر، ولكن هل تعلم؟ شك بافل منذ البداية في أنك

لم تنتهِ من وهم فرضيات الشخصية وأنك ستخرب أيضًا سنواتنا العشر القادمة. وهل تعلم لماذا لم يقل أي شيء؟ حسنًا؟

ثم بصق فروليش على الأرض تعبيرًا عن احتقاره، فجاءني الإلهام وقلت: «أنت شيطان! تقنع نفسك والعالم أجمع أن تلك هي المعرفة وستتحقق رغبة في المعرفة، وطوال النهار تنجح مع هذا الخيال، لكن ماذا عن الليل؟ عندما تقف على عتبات النوم، ويبدأ عقلك الرائق في الهبوط إلى أروقة الذاكرة، حيث لا تستطيع إحكام سيطرتك؟».

كنت أرغب في خنقه، أردت أيضًا إسكات هذا الرعب، لكن يدي -بغض النظر عن صعوبة محاولة رفعها- ظلت معلَّقة بثقل.

سأل مبتسمًا: «ثم؟ هل من الأفضل حقًّا أن تتمسك بالحق، لكن مقابل ذلك تصبح وحيدًا طوال حياتك؟ أتفتقد زوجتك، أم أن هذا هو المكان الذي وجدت فيه غرضك الحقيقي؟».

أشار إلى الخلف؛ حيث يقف عملاق راعد وكبير جدًّا.. لا، بل أكبر مني أنا، جاء هدير من داخل علبته؛ إنها تروس عريضة تتصاعد بصوت عالٍ بعضها في بعض... هذا مفتاح الترحيل... شعرت أن الضغط داخلي سيدفعني للانفجار.

درجة.. تبعتها أخرى، ثم.. دوي، لقد خرجت صرخة تشق الهواء، والجميع صامت.. كانت تلك صرختي، وفي اللحظة نفسها عاد كل شيء إلى وضعه الأصلي، كما لو أن ما حدث هو انفجار داخلي عنيف، كان روزن وبيرلمان على يميني قد نظرا إلى الأعلى من شاشاتهما متفاجئين بثورتي، وتلفتُّ حول نفسي، فإذا بديف يقف خلفي معرَّضًا لتهوية لطيفة كالعادة، عادت الدعامات المعدنية للمختبر إلى خطوطها العريضة الباردة. لكنني ما زلت أبقي يدي أمام جسدي لحماية نفسي من شيء لم يحدث.

سأل فروليش بحذر: «هل كل شيء على ما يرام؟».

كان يجلس الآن على كرسي مكتبه على مسافة آمنة مني، وتحت الطاولة يمكن رؤيته وهو يضغط على زر الطوارئ الأحمر، لقد دعا إلى فرقة الإنقاذ، ثم قال: «يا بلومنتال، لقد كنت محقًّا! ربما لم تكن هذه هي أروع أفكاري».

لكنني لم أعد أستطيع تحرير نفسي من جنوني، فصرخت في وجه فروليش: «لماذا تدعونني بأرتور؟» كنت أتلوى بشدة، لدرجة أنني تسببت في

قطع بعض من لحم كتفي، وواصلت: «ماذا تريد مني؟ ماذا؟ هل تريد أن تخفيني مثله؟».

سأل بلومنتال، الذي اضطر إلى الظهور أولًا من خلف الشاشة: «ما الأمر؟».

تعثرت للخلف عند الحائط، وسأل فروليش بحذر: «هل ترغب في الراحة قليلًا؟».

- سأرتاح بالفعل من هذا الخراء!

ظللت أصرخ وأنا أنزع اللاصقات المطاطية من فوق صدري، كما لو كانت تدور حول جسدي وحياتي، ولم أستطع لمس أي شخص، وأمامي فقط صمت وذهول، وأنا أنتقل من قدم إلى أخرى، ظننت أن جسدي سيتفسخ؛ بسبب الطاقة المكبوتة، وعندها أشار فروليش إلى حارس الأمن أصلع الرأس لفتح الباب، لقد كان رجلًا مفتول العضلات وغبي المظهر.

قال فروليش: «يمكنك أن تذهب، يبدو أنك مرهَق بشكل مبالَغ فيه».

«أين كاستور؟».

سحبت قميصي ولففته حول رأسي على عجل، ولا عجب أن كل المساعدين وقفوا في ذهول.

- إنه لم يأت بعد. أردنا الاحتفال قليلًا بعد الجلسة اليوم، ولكن يمكنك أن تجد طريقك للخروج!

كان المساعدون قد تنحوا جانبًا بالفعل وكان حراس الأمن ينتظرونني للمرافقة المعتادة خارج المختبر المركزي، لقد استعدت وعيي فقط في أثناء الانشغال بالسير الدائري.. هل يمكن أن أكون موهومًا؟ ماذا أصابني هناك؟

سرت نحو مسكني وأنا مطأطئ رأسي إلى الأسفل، مرخيًا يدي في جيوبي، وشققت طريقي عبر الممرات ثم ركضت فوق الدرج، وقد زال التشنج عن عضلاتي المتوترة ببطء، لم يتبق وقت طويل وسأعود إلى غرفتي.

فكرت في ترتيب الأمور، وأصبح التفكير في وسادتي هو أكثر ما يبعث الراحة في نفسي، ثم بعد ذلك رأيت من زاوية عيني ظلًّا خلفي ينفصل عن الحائط، فاستدرت في الوقت المناسب لأرى كيف تخفى حارس الأمن مفتول العضلات في أحد الأركان، بلا شك ما رأيته ليس من نسج خيالي، هل أرسلوه في إثري؟ عدت ببطء مرة أخرى، وخفق قلبي عندما رأيته يتبعني في انعكاس الأسطح البلاستيكية اللامعة، وفكرت إذا كان بإمكاني الاندماج مع الحشود

وتسريع وتيرة سيري.. لكنني ما زلت أرى انعكاسه خلفي، كم كان رشيقًا على الرغم من بنيته الخرقاء، لا بد أنه توقع أفكاري أيضًا؛ لأنه اندفع نحو الدرج الصغير كما لو كان يقطعه عليَّ..

صدق حدسي! لقد جاء فروليش ليحضرني، ولا يوجد كائن يعرف ما سيحدث لي بعد ذلك، انحرفت إلى أحد الجوانب وركضت، فاندفع ورائي أسفل الوادي الزجاجي في شارع تسوزي، ثم وفوق الدرج اللولبي المؤدي إلى قاعة القراءة الصغيرة دفعت الطلاب الواقفين الرفوف بعيدًا عن الطريق، وتسلق مطاردي فوق إحدى الطاولات، لم يحاول أيٌّ منا إخفاء حقيقة أنه يطاردني مطاردة محمومة، هناك غريزة حيوانية لا توصف جعلتني أستمر.. وشعرت بحالة من الحيوية المتجددة.

جريت في طريق مسدود بالقرب من المقهى في c4، أمامي ثانية واحدة ويبدأ مطاردي في المطاردة من جديد، كانت تلك الثانية كافية لتسمح لي بالاندفاع داخل إحدى الخزانات قبل أن يستدير من الزاوية ولا يجد شيئًا سوى طريق مسدود. لكنني شققت طريقي عبر ممر ضيق مظلم وأنا ألهث، أعلم بوجود مستودع في وحدة الأبحاث منذ عقود، وكانت غرف التخزين متصلة ببعضها بعضًا، ثم تؤدي إلى مخرج الطوارئ في الكافيتريا، وهذا يعني أنني دفعت الباب واختفيت وسط الحشد.

ليس لدي الكثير من الوقت. وصلت إلى غرفتي وأنا أتصبب عرقًا، انزلقت يدي ثلاث مرات على أرجل بنطال ما تسمى ببدلة التنظيف، كنت قد سحبتها من السندرة، إضافة إلى أن القميص الرصاصي جعل حركتي في منتهى الصعوبة، كيس قمامة في هيئة إنسان، عدت مترنحًا إلى الباب، وجذعي ملفوف بخراطيم الستائر وحقيبة الظهر المليئة بالمياه، لقد قال فيليز إن لوحة الحائط الثالثة في الممر 5A على الجانب الغربي، والآن كرهت نفسي لأنني لم أضع علامة عليها من قبل، حتى إنني لم أنظر نحوها.

بمجرد خروجي إلى الممر اضطررت إلى الركض مرة أخرى، لأن هناك في نهاية الممر البالغ طوله مائتي متر تعرفت على حارس الأمن، الذي يبدو أنه عزز قوته باثنين آخرين، وقد لمحني الرجل في أقصى اليسار أولًا، كانت أمتعتي والمؤن والأحبال، التي كنت أحملها على ذراعي ثقيلة الوزن كالحديد، وبينما أحاول الهروب من الجانب الآخر، اصطدمت بمجموعة من الطلاب فما استطعت سوى أن أقفز داخل المصعد، في تلك الأثناء لاحظ الأشخاص

في المقصورة أيضًا أنني هارب، فقد ذُهل أحد الرجال المسنين على وجه الخصوص عندما رأى جسدي المتعرق والملفوف بالرقائق المعدنية، ولم تمر ثوانٍ قليلة حتى شاهدت العزم يدب فيه، وانفتحت الأبواب بقرعها المألوف، فألقى بنفسه في اتجاهي ليمسك بي، وقد أُحبطت كل محاولاتي لتحرير نفسي من يديه، التي كان يقيدني بها من خلف ظهري، لكنني لم أستسلم، وعندما ركلت ساقه، انكمش وسقطنا خارج المقصورة –في أقصى درجات التوتر- كأننا حزمة معقودة، وببطء كما في الرقص، تأرجحنا من جانب إلى آخر، قبل أن يسقط عني أخيرًا.

شققت طريقي عبر الحشد الفاضح، بعد أن لمحت حراس الأمن الثلاثة عند قاعدة الدرج، كنت بالكاد أستطيع السير بوزني ذاك، لكن اقترب مبتغاي على أية حال، فقد رأيت بالفعل الممر 5A، أحصيت لوحة، واثنتين وثلاثًا، والمفتاح الحديدي في قبضتي المتعرقة، ثم اكتشفت فتحة الإنقاذ في الحائط، فقفزت في الفراغ، ومزقت القماش المشمع الذي يغطيني، ثم سقطت على الألواح الجبسية الهشة في الحاجز، وفي شبه ظلمة تحسست المكان بيدي بحثًا عن المسامير التي تحمل لوحة الغلاف، إنها هناك.. أربعة قضبان معدنية بالية، عندما فككت اللولب الأول، سمعت صراخًا خلفي، كان الرجل الأصلع قد أُجبر على الدخول في الحفرة التي شققتها بنفسي، كان أنينه يزداد وأتباعه في الخلف، ففككت المسمار الثاني، وعندها كان قد وصل إلى قدمي، ثم قبض على ساقي وهو يزحف على بطنه فوق الحاجز، بينما أفك أنا حز اللولب الثالث، وعندما استقام وهو يتأوه ويضغط رأسي في الصفيحة الفولاذية، كنت لا أزال أطوِّق المسمار الرابع بيدي، فركلت وعضضت وصفعت بكل طرف استطعت أن أحميه، وعلى الرغم من أنني شعرت بقطرات من الدم تتساقط من أنفي، فإن الصفيحة انزلقت بشكل جانبي في تلك اللحظة، ثم... حفيف.

دفعتنا الرياح القوية المتدفقة أبعد بمسافة متر واحد عن الحائط مرة أخرى، فصفعت حارس الأمن على وجهه بكل قوتي واندفعت عبر تيار الهواء المؤدي إلى العالم الخارجي الصارخ، لا وقت للأحبال ومفاتيح الأمان، بل لا وقت للنظر إلى الأسفل، وعندما تمسك الرجل بيدي، أفلتُّها أنا.

***

الرجل الذي كان يحتضر في الغرفة رقم 348 في جناح الأعصاب في 14 يونيو 1970 أحال الأطباء والممرضات على حد سواء إلى متفرجين، حتى إن الممرضات المعتمدات بالحرب توقفن في منتصف عملهن، كان اسم المريض تشارلز هوبسن، يجلس بأسلوب الطبقة الراقية بساقين متقاطعتين وسيجار وهمي في فمه، يتفاوض على خطب شيشرون أمام جمهور خيالي، ومن وقت لآخر يعود إلى الواقع بمناظره العابرة؛ ليعقد رابطًا بين شيء ما وشخص يعرفه على الفور، بسبب هذا المشهد الغريب سأل الطبيب المسؤول عن مهنة المريض، فأجابت امرأة هزيلة ومجهدة بشكل واضح تبين أنها زوجته، فقالت إنه فنان ذاكرة.

كان تشارلز هوبسن المولود في إيسيكس عام 1938م سمسارًا للأوراق المالية، جمع ثروة لا بأس بها من خلال التوليفات البارعة التي ربما كان يُنظر إليها على أنها سمة لمصيره اللاحق، وقد لاحظ أحد الزملاء ذلك آنذاك، بل وأعجب بتركيزه الخاص على التجريدات، على الشكل النقي الخالص للدورات، التي تنفصل كليًّا عن علاقتها بالواقع، وقد تغيرت الحياة بشكل جذري عندما عثر على وصف لكود Aime paris في صحيفة ديلي هيرالد، والمعروف باسم النظام الرئيسي، ربما عثر عليه في إحدى جولات المترو المملة في الحي المالي.

سرعان ما أصبح بارعًا قويًّا في طريقة قصر الذاكرة، مدفوعًا بنجاحاته السريعة في حفظ وتقدير أسعار الأسهم، وظل طالبًا لكاتو وشيشرون أولًا، قبل أن ينزل إلى العوالم الأكثر قابلية للتحول لجيوردانو برونو وجوليو كاميلو، وفي أقل من عامين، تخلى هوبسن عن مسيرته المهنية؛ لمتابعة مهنة

أخرى بدوام كامل تحت مسمى «فن الاستذكار»[1] التي يشار إلى قبوها في الطرف الشرقي من صحيفة الجارديان باستخفاف بأنه «عرض محكم».

اشتهر هوبسن بانضباطه الذي لا مثيل له وقدرته على ضغط مئات الصور في بضعة أقدام مربعة، لقد حوَّل قصْره -منزل ضخم من أربعة طوابق اشتراه بأرباح سوق الأسهم- في عقله إلى قصر فكتوري للفكر، كان يميل إليه بدقة كبيرة لمدة أربع ساعات يوميًّا، وعندما استنزف ممتلكاته الحقيقية، بدأ في إعادة تشكيلها عقليًّا، ليصنع منزلًا مترامي الأطراف في خياله.

كان خلق الصورة عنده أيضًا بارعًا، فقد تمكن هوبسن من استيعاب 34000 رقم من الدائرة Pi في حديقة قصر الذاكرة كمشهد لحفل عشاء، وبطبيعة الحال لا يمكن أن تتطور مثل هذه المهارة الوحدوية دون سلسلة من التكهنات.

كان هناك تعليق في مذكرات هوبسن مفاده أنه كان يعبث بفكرة أن الكون بأسره يمكن أن يكون قصر ذاكرة للإله، وأننا جميعًا مجرد ذكريات مصورة لأفكاره المنسية، ومن وجهة نظر ثقافية/أنثروبولوجية يبدو أن جهوده مشبعة زخمًا باستذكار أسطورة فاوست، أكان يجب أن يظل حلمًا حتى يتمكن من استخدام نظام PAO «شخص- حدث- مفعول» الخاص بهذا الخلق؟ فمهما كان ما يملأ ذاكرته باستمرار ويفيض، أصبح هو أيضًا من أطاح بنفسه في نهاية الأمر.

---

(1) فرد لديه القدرة على تذكر واستدعاء قوائم طويلة غير معتادة من البيانات، مثل الأسماء غير المألوفة وقوائم الأرقام والإدخالات في الكتب، إلخ. يحفظ بعض المحتالين أيضًا نصوصًا مثل القصائد الطويلة أو الخطب أو حتى الكتب الكاملة من الروايات الخيالية أو غير الخيالية. (المترجمة).

علمت عائلته بوجود مشكلة لأول مرة في الستينيات، عندما لم يخرج من قصر الذاكرة الخاص به لمدة يومين و «بقي بلا حراك في كرسيه الجلدي محدقًا».

بعد هذه النوبات من تشنجات الفصام الجامودي أصبح هناك تحسن مؤقت بدأت مدته تقل أكثر فأكثر، وبعد ذلك بمدة قصيرة اختلط عليه الأمر في تمييز صديقة للعائلة بتسلسل الأرقام، وانهار التماسك العام لقواه المعرفية.

أخطأ هوبسن في قاعدة مركزية واحدة على وجه الخصوص، حيث يمكن فقط استخدام المباني الخيالية؛ لتخزين الصور فيها، ولا يمكن الخلط بين الواقع والصور، وذلك ما أنذر بسقوطه الحتمي، عندما تصبح الصور التي يقدمها للعالم الداخلي أكثر إيجازًا وبديهية من الصور الخارجية، يحدث تداخل متراكب فتاك وعواقبه وخيمة.

توفي تشارلز هوبسن بسبب رفضه تناول الطعام وهو وسط أسرته. وكان قد مضى 10 سنوات على بدء ممارسته لفن الاستذكار.

***

قاربت على السقوط بحركة بطيئة فوق أرضية ذهبية، فضغطت أعضائي بالجزء العلوي من بطني، واستدرت من وضع الاستلقاء على سرة بطني إلى الانطراح على ظهري، فشعرت بدفقات من الحرارة تحت جسدي، تتكثف عند جدار ضخم في أثناء السقوط، ثم تتشتت مثل وتر مجهد إلى أقصى حد، حتى ينفك من مصدره بانفجار.

شاهدت الآن كيف ملأت المنصة السوداء للمختبر مجال رؤيتي بالكامل، وظل حجمها يتضاءل حتى اصطدمت بالأرض، في البداية ارتطمت كتفي، ثم تبعتها بقية عظامي بزاوية ملتوية وبصورة بشعة.. صدمة من شأنها أن تفقِدني حواسي، وهو ما لم يحدث.

اعتدلت في جلستي ونظرت إلى الأعلى، كان المختبر شامخًا في الأفق بلونه الأسود القاتم يتقدم السماء الزرقاء، بدا ضخمًا لدرجة أن أبعاده الهائلة

أرعبتني أكثر من أي شيء آخر، وباستثناء بعض الخدوش والآلام الخفيفة في قدمي لم أصَب بأي أذى، ربما بسبب الأرض الرملية التي تحسستها براحة يدي، وربما أيضًا كان الحظ المطلق هو الذي أنقذني، لم أستطع تحديد ذلك، وعلى أية حال كانت الخطوة القادمة هي أن أمضي قدمًا، فركضت في أول اتجاه متاح بالنسبة إليَّ، ولكن ما إن مرت دقيقة حتى أصبحت رؤيتي ضبابية، كان الجو استوائيًّا حارًّا، وفاقمت بدلتي البلاستيكية من حدة الأجواء الخانقة، فقد انجذب الغطاء مشكِّلًا تهديدًا مع كل نفس أتنفسه من فمي، صنعت كيس الجثث خاصتي، الذي لا يريد أن يفتح أيًّا من الغايات المقصودة.

وأخيرًا عندما اخترقت تمزقات الألياف الدقيقة بالفعل مجال رؤيتي، ضغطت بأصابعي على فمي بكل قوتي، حتى انحسر الغطاء البلاستيكي وغصت أنا في الأرض، كان الهواء صافيًا، لكنها فقط الحرارة المتلألئة هي التي جعلت السماء الزرقاء ترتعش، والآن بعد أن جلست على الأرض هكذا لبضع دقائق، أدركت أن أحدًا لم يتبعني.

عندما ضغطت على قدمي مرة أخرى، شعرت بالألم في ساقي وظننت أنني سأفقد الوعي، فخلعت جواربي، وتفقدت كاحلي المشوه والمتورم، لا شك أنه مكسور، ومع ذلك أجبرت نفسي على أن أعرج ساحبًا حقيبتي ورائي لساعة أو ساعتين، حتى اختفى المختبر ببطء في الأفق، وأخيرًا جسرت على الجلوس، كنت ألهث بشدة وأنا ألمس الأرض؛ بسبب الحرارة التي لا تطاق والنبض الذي يشع من قدمي ويتسلل إلى كل أطراف جسدي، وكفي وحدها مشدودة على عيني كمصدر وحيد للظل، رأيت العالم أمامي للمرة الأولى؛ الأرض القاحلة التي امتدت من حولي بلا تلال أو وديان، أو حتى كثبان رملية، لا شيء على الإطلاق يلفت الانتباه.

حفرت بيدي في الرمال شارد الذهن، بينما أتجول بنظري في المكان من حولي، فاصطدمت يدي بقوة في شيء ما، كان جسمًا غير محدَّد الشكل بعرض كف اليد تحت الرمال، أملس مثل الرخام، لكنه محزَّز عند الجانبين، لدرجة أنني بدأت أنبش لإحضاره بطموح متجدد، والشمس متوطدة في القمة، تقف في الموضع نفسه الذي رأيتها فيه فور خروجي من المختبر، أما الرمال فظلت تدخل في تجاويف خدوشي المجروحة الحية، لكنني ثابرت وأخرجت ما بدا في البداية وكأنه صفيحة مشوهة ومتضخمة، ثم أدركت أنها قطعة من فنجان مكسور إلى نصفين. يبدو أن قوة جوفية جبارة جعلته مصقولًا

بهذا الشكل، ألقيته جانبًا مفزوعًا من منظره، لكنني مددت يدي فورًا إلى الرمال مرة أخرى، فظهرت القطعة التالية بسهولة أكبر، زجاجة بلاستيكية مسطحة أيضًا أصابها الاصفرار لدرجة يصعب معها التعرف عليها، لكنني لا أزال أستطيع فك شفرتها، مكتوب عليها «كريستال بيبسي».. أبيض وناعم، ثم أصفر وباهت.

وسرعان ما ازدادت الرغبة في إخراج المزيد من الأشياء، وكان الشيء التالي الذي أمسكت به هو لعبة بلاستيكية على شكل حيوان قارض، ربما هي لعبة لشخصية سنجوب التي أنتجتها ديزني، لكن قدميه كانتا مبتورتين تحت قميصه المشجر لإجباره على الشكل المسطح نفسه الذي كان عليه كل شيء، ثم أخرجت علبة مصوغات مبعثرة ومكسورة، فإذا بجواهر ملونة تسقط منها في حجري، قبل أن تسقط صورة لامرأة ترتدي ثيابًا من فرو المنك، وجهت الصورة نحو الشمس، إنها الممثلة وينونا رايدر، كل ما تتألف منه هذه الأرض هو قمامة.. قمامة مفلطحة تحديدًا.

لكن عندما كنت أزن الشيء تلو الآخر بيدي، كنت أشعر بالغرابة، دافع لا إرادي يكاد يكون عنيفًا لتذكر شيء ما شق طريقه عبر الأسطح الخشنة ولم يصل قط إلى هدفه، كانت الأشياء ثقيلة جدًّا في يدي، لكن دون جدوى، لماذا في الأساس أتعمق في التفكير في هذه النفايات؟ تخلصت من العلبة، وأصبح عليَّ الاستمرار الآن.

سمحت لي السهوب الخالية من الرياح برؤية غير محدودة تقريبًا؛ فعلى مسافة بعيدة رأيت ظلالًا لأشكال هندسية ترتفع، ربما كانت عمودًا أو مكعبًا أو جسرًا، بالكاد يمكنك الحكم عليها من بعيد، لكن لم يكن لدي أي اتجاه آخر، لذلك توجهت نحو هذه المظاهر الغامضة، وسرعان ما شعرت كما لو أنني قد عبرت عوالم بأكملها، لكن قدمي آلمتني بشكل لا يطاق تقريبًا، وكانت الشمس لا تزال في أوجها، وتحققت من ساعتي، فإذا بها الثامنة مساءً، والأرض تحمل حرارة منتصف النهار الحارقة، وتملأ جسدي بها بوحشية ولا مبالاة بالوقت، لكنني وضعت منشفة فوقي كنت قد أحضرتها معي، شعرت بأنني أحترق في هذا الجو المفاجئ، لكنني واصلت السير، فلم أستطع البقاء هنا، وبحلول منتصف الليل -وهذا يعني أن ساعتي قد أعلنت ذلك التوقيت- كنت قد انتهيت من الزجاجة الثانية، وبدأ الإرهاق يتسلل من عمودي الفقري وينتشر إلى كل أعضائي عضوًا بعد آخر، وعلى سبيل الراحة عسكرت بشكل مؤقت، فلا يزال

معي لتر ونصف من الماء وثلاث علب من معجون الخضراوات المسلوقة، ما لبثت أن أكلت إحداها كوجبة ضئيلة، وأخيرًا جمعت كل متعلقاتي التافهة في كومتين، ضممتهما داخل قصاصات البدلة البلاستيكية وربطتهما برباط حذائي لمنحي بعض الظل، ثم لففت قميصي المليء بالعرق حول رأسي لأتمكن من النوم تحت أشعة الشمس الحارقة.

***

في أثناء غفوتي القصيرة كانت الشمس قد خطَّت على صدري طفحًا جلديًّا متوهجًا، فمن بين القماش المشمع السميك استطاع شعاع ضوءٍ النفاذ إليَّ، وكان من شأن ذلك الخط الذي يمر بجسدي ويشطره أفقيًّا حفر بقعة ضحلة على جلدي، مما حرمني أخيرًا من أي إمكانية للنوم، لذا نهضت وواصلت السير، في بعض الأحيان كانت ركلاتي تبدر حبات الرمال بعيدًا، وإذا لم أبحث بسرعة كافية، فسأعود إلى القمامة مجددًا.

حلت الساعة السابعة ثم الحادية عشرة ثم منتصف الليل مرة أخرى.. فقد الوقت صلاحيته، وكنت قد أعددت منذ فترة طويلة خطة لمياه الشرب؛ 100 مل لكل أربع ساعات، على الرغم من أن الخطوط العريضة في المسافة كانت أقرب قليلًا.

كان الهواء بلا حراك تحت الأفق الأزرق، واليسار واليمين سيان، فكرت كم كان كل شيء بطيئًا، ولفظت ما أكلته للتو تحت وطأة ضربة الشمس، أصبحت كل حبة من رمال الكوارتز بمنزلة ساعة صغيرة بالنسبة إليَّ، ومع ذلك لم يتمكن أي شيء من كسر الجمود. حتى الألم في قدمي والعطش الذي لا يطاق قد انحسر الآن أمام قوة القصور الذاتي، المصير غير المحدود تمامًا.

كان لساني متورمًا في فمي، فجلست للحظة.

لماذا لا أزال قادرًا على رؤية المختبر؟ لقد تشبث في الأفق بحجم رأس دبوس دون الغوص أعمق، ولم ألاحظ ذلك حتى الآن.

إذًا الأرض ليست مستديرة، فكرت أخيرًا، وعدت إلى الجانب الآخر كما لو أن هذا الفكر لن يضر. سرعان ما تعلمت أن أنظر إلى معاناتي وكأنها صورة، ليس هناك شيء لتغييره ولا مجال لاتخاذ القرارات، لقد تجمد كل شيء بهذه اللامبالاة في حقيقة تاريخية، والقناعة بأن الموت سيأتي قريبًا لا محالة بدأت تتجلى بهذه الدرجة من اليقين منذ فترة طويلة، وكأنها أكثر الأشياء طبيعية،

عندها استلقيت أخيرًا وقررت موتي، نشُدَّت ساقي وتشبكت يداي حيث بدتا أثقل وزنًا، وقد أمسى الثقل بالفعل هو الحالة المناسبة لي، وفجأة رصدت نقطة بعيدة هناك، فانتصبت، ثم ظهر شخص من مسافة بعيدة.. شخص صغير الحجم لكنه يتحرك نحوي، كما لو أن خطاطًا كونيًّا قد وضعه فجأة على الأرض.

نهضت وتحركت بحذر نحو الشبح الذي أخافه مع كل خطوة أكثر من ازدهار جنوني، لكن الوتيرة ثبتت بشكل واضح، حتى بدأت أرى أطرافًا تنبت من ذلك الجسد بعد ساعة، وبمرور ساعة أخرى استطعت أن أتبين أن الزاحفة على الرمال هذه امرأة، وبمشقة تدافعت الدموع في عيني عندما أصبحت على بعد أمتار قليلة منها، وأدركت من التي كنت أنظر إليها، جاءت غير عابئة بالحرارة الثقيلة، وبشعر مصفف بشكل مثالي، وجلست خاتون على الرمال أمامي ونظرت إليَّ بهدوء.

درت حولها في دائرة واسعة، كما لو كنت أثبت لنفسي أنها في الواقع ثلاثية الأبعاد، وتبعتني عيناها أينما سرت.

- ماذا تفعلين هنا؟

شعرت حينها أن صوتي يبدو غريبًا جدًّا متأثرًا بطول الصمت، وكأنه يخرج من مبشرة.

أجابت خاتون بعينين واسعتين: «ماذا تقصد؟».. ثم أضافت فورًا: «فعلت مثلك تمامًا، لكن يجب أن نرى أننا سنحقق تقدمًا بعد وقت قصير».

ظللت أردد: «نعم نعم!» وأنا أتهيأ لمساعدتها، فالآن مع وجود شخص آخر معي، ذهب عزمي على الموت: «كيف هربت من المختبر؟ لدي طعام لك هنا».

- أعلم أنه من الصعب تصديق ذلك، لكنه حقيقي.

فرددت عليها وأنا أفتح علبة من اللحم بأصابع مرتعشة: «ما هو الحقيقي؟ كيف هربتِ؟».

- من خلال رمي شرشف معقود على الحائط والتسلق عليه نحو الحديقة الإنجليزية لوالدي.

ألقت خاتون كلماتها ثم ضحكت بصخب، كأنها ألقت للتو نكتة حلوة، ثم صمتنا مرة أخرى، ولم تكن خاتون -رغم أنها نظرت إليَّ ببود صريح- تميل على الأقل إلى التعليق على أي شيء، وكانت الكعكة المرتخية لشعرها الأسود

تتخللها حبيبات من الرمال المحيطة بنا، التي كنت ألتف حولها مع كل حركة، والبلوزة الوردية القديمة، التي خمنت أن تحتها سلسلة ذهبية، كانت مفتوحة قليلًا، لم تفقد خاتون أيًّا من جمالها، هي فقط نظرتها الغامرة أصابتني بالقشعريرة، حيث بدت وكأنها تبحث عن شيء ما، ولا تتشبث بأي شيء.

وفجأة أدركت ضعفي، عندما سألتها: «هل لديك ماء؟».

- خذ كأسًا، لكن لا تتركها على طاولة الأريكة مرة أخرى!

أمسكتْ بيدي وقلبتها متتبعة خطوط كفي بأطراف أصابعها، وفي تلك اللحظة اندلع رعد بعيد في السماء.. قعقعة عميقة، كأنه انجراف قارِّي مبحوح يتنحنح بعمق، فدرت حول نفسي، وعلى مسافة بعيدة فوق المختبر مباشرة، تشكلت قطع من الغيوم ارتفعت بقوة لبضع ثوانٍ، ثم عادت لتسقط على الأرض.

سألتها: «ما هذا؟».

- ماذا تقصد؟

لكن الجواب جاء من المبنى نفسه، فمن مسافة بعيدة يمكنك أن ترى جناحًا كاملًا ينحرف كما لو أنه يرفرف للتحليق عاليًا، ويتناوب التحليق مع الجزء الآخر منه، ثم استدار مرة أخرى.

قالت خاتون بهدوء: «ربما يمكنك خفض مستوى الصوت قليلًا».

- ماذا تعنين؟

- اعتقدت أنك سألت سؤالًا يبدأ بهل!

أمسكت بكتفي ودفعتني بقبضة متمرسة إلى أسفل حتى استقر رأسي على ركبتيها، ثم بدأت تمشط شعري المتعرق المتسخ بعيدًا عن وجهي بأصابعها، وأصبحت أنا غير مبالٍ تمامًا بما يدور حولنا، فقط بين الحين والآخر كنت أرى تشكيلات السحب تتفجر عبر السماء الزرقاء النقية.

سألتها: «ألا تخافين؟».

- ما الذي يجب أن أخاف منه؟

- أن نموت هنا في الخارج.

- لطالما اعتقدت أن لديكما شخصيتين مختلفتين تمامًا، لقد كان هو مطاردًا ومدمنًا على الشعور بنفسه.

شعرت بضغط فخذيها المتقاطعين من تحتي، بدت رغم الحرارة مميزة فجأة، وحرارة جسمها مألوفة جدًّا بالنسبة إليَّ، ثم سألتها بتعب: «أنا وفيتيج؟».

فقالت: «بافل.. أنت على عكسه تمامًا كنت رائعًا، رائعًا جدًّا، حتى عندما تنهار الأمور فوق رأسك، لقد وجدك الآخرون مخيفًا، وذا كفاءة عالية للغاية، كأنك تشبه الآلة، ولست رجلًا من لحم ودم، هكذا وصفك أصدقائي».

- أنت تربكينني، أنا لست فيتيج.

- كنت أعلم دائمًا أن ما يجذبني هو شيء فيك أنت وحدك، لم نكن نتوق إلى الحياة، ولكن لتجاوز تلك الحياة.

لقد أصبح كل شيء بعيدًا بلا نهاية أمامي، فأنا وكل عقلانياتي نجثو صامتين تحت يديها، التي لمستني بالطريقة التي لطالما رغبت فيها، ثم سألتها: «كيف تعرفتما... أنت وفيتيج؟».

- أتذكر بالطبع كيف التقينا.

جذبتني الآن إلى الأعلى وعقدت ذراعيَّ فوق صدري، لكن الطريقة التي أجابت بها جعلتني أشعر ببعض التصلب، وعدت أشعر بالحرارة مرة أخرى.

- بعدما عرفنا بعضنا بعضًا لمدة عام وقلت لك لأول مرة إنني أحبك، بدأتَ في إعداد قائمة بالإيجابيات والسلبيات، لقد أردت أن تعرف ما إذا كانت فوائد الزواج ستتفوق أو أن عليك الاستمرار في التركيز مع ديف. وكان يجب أن أعرف حينها.

- توجب عليك معرفة ماذا؟

- حسنًا، أنا أعرف الكثير.

انعكس رد فعلها على سؤالي، لم أشعر بأنه إجابة عن سؤالي، وفي الوقت نفسه لم أستطع الهروب من قبضة جسدها، فقلت: «خاتون! كيف سننجو بحياتنا هنا؟».

- لست بحاجة إلى أي شخص آخر، فأنت الشخص الذي يجعل الآخرين على قيد الحياة. أنت النجمة الثابتة، والجميع كالزينة من حولك فقط.

قالت خاتون تلك الكلمات ثم قبَّلت جبهتي، ثم رعد المختبر مرة أخرى من بعيد، ومرة أخرى ينفتح قسم آخر ويحفظ من الجناح الذي يرفرف بلا هوادة لطائر جالس.

قلت لها: «أنت لا تفهمين ما أعنيه، أنا أقصد أن ننجو بأنفسنا هنا في الخارج».

لكنها تركتني فجأة، كما لو أن هناك ريحًا مفاجئة هبت على أشرعة عقلها.

- قلها مرة أخرى، ولكن بكلمات أبسط.

- ماذا عليَّ أن أقول مرة أخرى؟

إذا ألقيت نظرة فاحصة على نظرتها، فبالتأكيد ستشعر بالخوف.

- أرجوك كرر ما قلته بكلمات أخرى.

- ماذا عليَّ أن أكرر؟ أنا لا أفهم.

- بالطبع أنت لا تفهمني! لم أفهمك قط، وأنت أيضًا لم تفهمني.

وفي تلك اللحظة نهضت لأضع مسافة بيننا، فرأيت وجهها مثقلًا للغاية، زوايا الفم لم تتمسك بما وعدت به التجاعيد حول العين.

- ما هو نوع الشخصية التي يمكن أن تكون عليها، وتدفعك للعودة إلى المكتب في يوم جنازة أفضل صديق لك بدلًا من تقديم العزاء لأحبائه؟

قلت باكيًا: «أنت تتذكرين شيئًا مزيفًا».

- أرتور! ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ كنت وحشًا بالطبع، نعم لم يكن بإمكانك إنقاذه، لكن كان عليك أن تحاول، لقد فعل كل شيء من أجلك.

- من؟

- لقد مات من أجل حلمك أنت.

كنت قد دفعت نفسي بعيدًا عنها وأنا أزحف على ظهري في كل الأطراف وأنا أنظر إلى وجه غريب عني، ثم قلت: «عمن تتحدثين؟ من الذي مات؟».

أجابت: «الناس الذين لم يعودوا على قيد الحياة هم الميتون» والآن رأيت ذلك: رأيت آلية هذا الجسم، هيدروليكيات العضلات، والقرص الصلب للدماغ، وهل كانت هذه الأعين تختلف عن المجسات؟

قلت وأنا أرتجف: «نحن حتى لا نعرف بعضنا بعضًا».

- لم نعد نعرف بعضنا بعضًا حقًّا بعد الآن، لماذا لا تبرمج صورة افتراضية لي كما تفعل مع كل شيء آخر، ثم يمكننا قضاء الوقت معًا مرة أخرى، وأتزوج ديف ببساطة؟

بمجرد أن قالت ذلك عادت تعبيرات وجهها إلى الانطباع المحايد الممتلئ بالعفة، كانت بشرتها ناعمة جدًّا، ليس هناك شيء خلفها.

- لماذا أنت هنا؟ وكيف أتيت إلى هنا؟

- قلها مرة أخرى بكلمات أبسط.

خمنت أن المحادثة برمتها منسقة منذ البداية، وظللت صامتًا.. صامتًا لدقائق بدت وكأنها أبدية، وكانت هي أيضًا صامتة معي في انسجام تام حتى تأكدت من صحة شكوكي، لم تستطع التحدث من تلقاء نفسها، إنها تجيب فقط.

- هل يمكنك أن تقولي أشياء بأسلوبك الخاص؟

أجابت وهي تنظر إليَّ بجدية: «بالطبع! أشياء بأسلوبك الخاص».

لم تكن هذه مزحة، ولم تكن هناك نبرة سخرية في كلماتها، وقد انتابني شعور مزلزل بالغثيان عندما صمتنا مرة أخرى، حيث ساد ذلك الصمت اللامتناهي واللاإنساني بيننا، بل وكان أعمق مما يمكن أن يكون عليه الفراغ المحيط بنا، حتى قلت أخيرًا: «أنت روبوت محادثة».

قالت بعد تردد قصير: «نعم! لكن لدي 8.4 ألف إجابة جاهزة، فما الفرق الذي سيحدِثه ذلك؟».

قفزت على قدمي غير مبالٍ بالألم متعثرًا وضاربًا الرمل الذي قيَّد حركتي بشدة، والآن عرفت أن تلك الأعين ليست أكثر من أجزاء من غرفة تصوير مظلمة، كل ذلك وأنا أنزلق وأتلوى على الأرض العجينية.

ترددت موجة الصدمة في صدري، وعندما تجاوز هذا الضغط الأضلاع، تأرجحت المطرقة على السندان وحدث الانفجار في الأنفاق الهلالية، ثم تعرفت على صوت طحن المختبر المتحرك داخلي.. فركضت بأسرع ما يمكن.

***

كانت الأحلام التي وقعت فيها عبارة عن برك مظلمة ذات عمق غير معقول، غصت فيها كسباح نسي بمرور الوقت أن يتسامح مع قوانين الجاذبية، وجدت

نفسي في جوف، وبيدي فنجان تتصاعد منه أبخرة مشروب ساخن، وهزني طموح هائل لمعرفة الشيء الصغير الذي خمنت وجوده في قاع الوعاء، لكن الأبخرة تزاحمت أمام عيني كمسلمات لا يمكن إزاحتها، كان عليَّ رؤية ما وراء كل ذلك، زجاج بلوري أبيض يحرك كل ما أحاول التقاطه من نفسي في دوامة، ثم اعتقدت مرة أخرى أنني كنت أشاهد أشياء تتحول في الفنجان، عندها فقط فهمت، لقد كانت تلك هي رغبتي الخاصة في الفهم، هي التي تضع مرارًا وتكرارًا شيئًا ما في مكان ما يجب التعرف عليه، لذا كان عليَّ أن أفقد نفسي.

كل شيء كان مصبوبًا في الحجر، ورائي سقيفة حيث يمكنني الآن قراءة لافتة: البوابة 45 الحمراء. لكن فقط بصعوبة كبيرة؛ لأنني كنت لا أزال ممسكًا بكوبي.

تعرفت على بافل جالسًا في زاوية السقيفة، بيد ممدودة نحوي كما لو كان يغريني، لقد أراد أن يريني شيئًا ما على شاشته، كان ذلك واضحًا، لكنني كنت أخشى أن أتبع إشاراته.

وبينما أدفع أفكاري هنا وهناك، بدأت الغرفة القاحلة تنبض بالحياة بأشكال ومعالم، وبدأت الطاولات تفقس وسط اللون الأسود داخل الغرفة الصغيرة، ويُرسم في اسكتشات فضفاضة الأشخاص الذين تعرفت عليهم الآن بصفتهم أصدقائي، وبعد ذلك كان بافل قد أمسك بذراعي بالفعل، وعلى الرغم من أنني أدرت رأسي بعيدًا، فإنه لم يتركها حتى نظرت إلى الشاشة.

أحرف بيضاء على خلفية سوداء، أحرف وإشارات تدخل بها معاملات التشغيل المنطقية في علاقات مشتركة بسرعة كبيرة، وبعد ذلك أصبح هناك جذب ودفع من الحشود، صدمني بافل، حيث أرادني أن ألقي نظرة فاحصة عليه، وكان هذا بالضبط ما لا أرغب فيه على الإطلاق، لكنه لف رأسي وثبته، ومن اتصال إلى اتصال تكاثرت الأزواج في عناقات حميمية، إضافة إلى الأشياء الفردية مثل التلاعب حول النساء بالمشروبات والإيماءات من خلال الثناء عليهن.

ثم بدأ شيء ما يتحرك، الانفصال بين المجموعات، التي تتنافر مع بعضها بعضًا بشكل انعكاسي، كتلة من الناس تهتز على إيقاعات، حيث تنتفخ وتتفجر مرارًا، ثم هزني بافل كما لو كان يريد إيقاظ نائم وقح، دفعت نفسي

بعيدًا عن صدره راغبًا في الفرار لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث، لكن فجأة خارت قواه تمامًا وانهار، وعندما حملت جثته بين يدي، شعرت بالدهشة.

استيقظت فجأة في حالة من التشويش.

سقطت آخر بقايا النوم المنهك عني، فدفعت نفسي واقفًا وأجبرت نفسي على مواصلة جر جسدي أكثر، لكن الشعور بأنني مخطئ لم يتركني قط، وقد صاحب هذه اليقظة انحراف جوهري، وهو تشويه آثار الرغبة في الاستيقاظ مرة أخرى وعدم القدرة على الاستكمال.

أصبحت ملابسي المكدسة المتسخة تمثِّل حماية لي، في حين أن كل الأشياء التي أحضرتها معي للترفيه عن حياتي أصبحت لا تعني شيئًا ويمكن إسقاطها في منتصف الطريق. كيف يمكنني الاستمرار في التمسك بالحياة؟

ومع كل ذلك واصلت السير، وأنا أفكر في أن كل نظرة كانت غض طرف، وكل امتناع عن النظر كان رؤية، وهذا يعني أنه لن يمضي وقت طويل حتى نرى الحق والباطل يبدلان الأماكن تمامًا.

***

غالبًا ما كان يحدث أن أرى ضوءًا منكسرًا على بعد مسافة، إنه سراب، لقد علمت أن تلك المخططات تقترب من بعيد في هيئة أشخاص، ولكن ما هي قيمة المعرفة الآن؟ فذات مرة رأيت امرأة عجوزًا على الرمال تشبه السيدة روزا صاحبة منصة القهوة بصورة صارخة، ذلك الامتلاء الأرجواني، والظهر المقوس، أصابعها السميكة ذات النتوءات البارزة، وتلفظها بقوة: «قهوة، وشاي، وعصير برتقال، ماذا تريد؟».

وجدت فردة صندل ماركة بيركنشتوك ملقاة على الرمال، ولكن بخصوص ذلك الوجه، فلم يكن هناك سوى تشابه بينهما، تشابه وليس مطابقة، فقد كانت تجاعيد الأنف عميقة جدًّا، في حين تكاد تكون مكوية عندما تتجه نحو الجبهة.. لمحة بسيطة عن ركاكة الدقة.

أجبتها بقسوة: «شاي». كان صوتي منهكًا من طول الجفاف.

قالت: «ثلاثة دولارات وعشرون سنتًا» ثم أرفقت هذه الكلمات بحركة يد اختفت في الهواء.

- هل لديكِ ماء؟

خنقني كتمان ذلك السؤال، رغم أنني أعلم أنه لا معنى له، فكل جملة تكلفني طاقة لا يمكن وصفها.

ردت ضاحكة: «مدخلات غير صحيحة، ما هو الرقم الوظيفي الخاص بك؟».

ومرة أخرى أرى عائلة بأكملها تتناول الطعام على الرمال، فيها الأب يحدق إلى المشهد الطبيعي وكأن كل هذا شيء غير مثير للغرابة. فهناك أناس مشتَّتون، وبدا الأمر وكأنني أتجه نحو نوع من نواة هذه الشخصيات.

بعد مدة قصيرة من لقائي روزي المزيفة، وجدت رجلًا تعرفت على وجهه أيضًا، باستثناء أن ذاكرتي الفعلية كانت تتأرجح خلف هذا الإدراك ببضع لحظات، كان هذا هو السيد باستريك، مدرس الأحياء الخاص بي، حيث انغمس في عمل نموذج طائر، ومعه خريطة كما كان منذ خمسة عشر عامًا.

قلت بدافع الأدب: «مرحبًا».

فرد دون أن ينظر إليَّ: «مرحبًا سيز، نتيجة اختبارك عبارة عن قرف».

وقد حملني ضحكه بعيدًا إلى زمن مضى، لدرجة أن ذلك الارتداد جعل رأسي مهددًا بالانفجار، وكان ينظر إليَّ بالطريقة التي ينظر بها إلى طفل، بنظرة خيِّرة إلى الماضي، كما لو أن النقطة المحورية في النظرة كانت تجرف بالفعل إلى المستقبل، قال: «تبدو سيئًا، لا يمكنك بلوغ التخرج من هذه المرحلة يا سيز، وبالتأكيد لن تطير إلى أمريكا!».

أشار إلى جسدي العاري النحيف كما لو كنت قد أفسدت قميصي للتو، غص حلقي بتلك الذكريات. ألم يكن هذا فقط يوم تخرجي؟

نعم: لقد سبق أن وجه لي تلك الكلمات بالضبط، قبل اثني عشر عامًا بالضبط. فجأة عادت المحادثة كلها إليَّ.

- أين الاحتفال؟

سأل وهو يرفع يده ليشير إلى اليمين: «هل أنت مخمور، أم أنك لم تقرأ تلك الدعوة اللعينة؟ ستكون في مطعم مملكة السماء بالطبع».

ابتعدت وأنا أتعكز على ركبتي الضعيفة؛ ثم رأيت ما لا يمكن أن يكون، لقد رأيت مبنى ليس ببعيد يلوح في الأفق، وعندما اقتربت أكثر فأكثر من البناء، وجدت الشخصيات التي تحيط بحياتي اليومية ملقاة في الرمال: النوادل في أماكن الاستراحة المحلية الخاصة بي، والأطفال الذين كنت أعرفهم ذات

مرة، والزملاء الذين تشاركوا معي المكتب نفسه يومًا ما، الذين أصبحوا الآن محاصَرين في نظام التشغيل الآلي، دست عليهم جميعًا كأنهم بلا صاحب، وتمكنت أخيرًا من إيجاد تسمية للرعب الذي أصابني، إن هذا هو وحدة الأنا في العصر ما قبل الديكارتي، إنه هو الجاثم تحت الرمال الآن. سرعان ما كنت أركض بسرعة كبيرة لدرجة أنني كنت أسعل، ركضت حتى ظننت أن آخر غدة عرقية قد انفجرت بالفعل من أنسجتي، وهربت بعيدًا دون النظر إلى الوراء مرة واحدة، عندما قرأت أخيرًا اللافتة الموجودة على المبنى: مطعم مملكة السماء.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

13

تركت الباب الدوار يؤرجحني عبر الطاردة المركزية.

وجدت نفسي في بهو فندق، لا يمكن أن يكون طابقه السفلي مزينًا بصورة أكثر جمالًا من هذه البطانة الفاخرة، وعلى الأرضيات الفسيفسائية المصنوعة بمهارة ومضاءة بنعومة بالثريات المنخفضة المعلقة أقيمت سهرة مسائية بملابس تنكرية، حيث يتوزع الناس على الكراسي الفوتيه، وأثاث من خشب البنتود، وأيضًا في غرفة التدخين الصغيرة، وعلى خلفية تمتلئ بضجيج أدوات المائدة المجلجلة والأحبال الصوتية المهتزة عُزفت موسيقى take five على البيانو الذي وُضع جانبًا... إذا لم تكن الرمال لا تزال تتساقط من شعري، كنت سأشك جديًّا في سلامة قواي العقلية.

في وسط المناظر الطبيعية القاحلة، أحضر النوادل أغطية عشاء مميزة للضيوف المميزين، وقد كشفت الأغطية عن دجاج حبشي، وبطاطس بالبقدونس، أعرف هذا المشهد، بل ورأيته من قبل، ظللت أفكر مرارًا في ذلك، وأخذت الأبخرة الثقيلة المتطايرة من السيجار ترسم صورًا ظلية لشخصيات مألوفة؛ كنت أعرف هذا الرجل، وهذه المرأة وتلك، لكنني عجزت عن معرفة هويتهم.

وبينما أنا لا أزال أحاول معالجة كل هذا، أمسكت بإبريق ماء وشربته، ثم اندفعت إلى الطابق الثاني، وعلى الرغم من الثياب الرثة التي ارتديتها في حفل العشاء هذا واندفاعي إلى صواني النوادل؛ لتناول المشروبات منها، لم ينتبه لي أحد، مزقت ستارة من إحدى النوافذ الزجاجية بسرعة، ثم لففت قماشها المخملي الأخضر حول خصري قبل أن أقلِّب عيني في أرجاء الغرفة.

كان عن يميني شاب يرتدي زيًّا عسكريًّا أخضر ويمسك بيد امرأة ترتدي ثوبًا هيليبلي، وخلفهما جلس زوجان قُدم لهما النبيذ للتو، استنشق الرجل -الذي كان يرتدي رابطة عنق بيضاء وساعة رولكس ثمينة على معصمه- الكأس بيده، ثم بدأ على الفور في إلقاء الشتائم في وجه النادلة، وبينما أنا مستغرق في التفكير بمن يذكِّرني وجه هذا الشخص، رأيت أن زوجته، التي بدا عليها النفور بشكل واضح من الضوضاء، قد ركزت انتباهها كله على النادلة ومؤخرتها.

فجأة استحوذ صبي صغير رشيق على انتباهي، وما لبث أن اختفى على الفور، ثم عثرت عليه تحت المنضدة مرتديًا سترة ضابط وسروالًا أرجوانيًّا قصيرًا، كان صبيًّا في الخامسة من عمره، حدَّق إلى وجهي مكفهرًا، ونظرت أنا إلى الخلف عابسًا أيضًا، قد يصل الطفل إلى ارتفاع الخصر، ولكن هناك شيئًا به يذكِّر برجل عجوز؛ طريقة تصفيف شعره الرقيق المليء بالريش، وكيف ظلت شفتاه فوق فمه على شكل خط.. بعدها استدار واختفى خلف امرأة عرفتُ بشكل حدسي أنها والدته.

كنت لا أزال أفكر في هذا اللقاء وأنا أمسك بأقرب زجاجة ماء أمامي، عندها ترنحت سيدة مسنة سمينة إلى الخلف، ثم تعثرت بي وسقطت على الأرض، فمددت يدي تلقائيًّا لمساعدتها، وبدت وكأنها تنظر إلى عيني مباشرة للحظة، لكن بعد ذلك أدركت أن النادل قد قفز خلفي، وكان هو الذي أمسكت بذراعه... يبدو أن لا أحد يراني هنا.

تجولت ببطء في ذلك المشهد، ظل هناك شيء واحد فقط لا يتناسب تمامًا مع ذلك الجو الأنيق؛ فخلف المقاعد المخملية وواجهات الماهوجني المصقولة للغاية، كانت هناك قمامة مرة أخرى، وهناك أشياء أيضًا مهمَلة في الخلف بشكل واضح، ويبدو أنها أشياء لا تحفز على شيء، أو هي شظايا أشياء، كالتي اكتشفتها تحت الرمال، والآن بعد أن تعلقت بها عيني، أتى النادل وجرفها على عجل تحت السجاد الثقيل.

لقد رأيت هذا كما لو كان من خلال الأيدوجرامات المتداخلة لصورة كائن مخفي، حيث استطعت من خلاله أن أدرك ببطء أين أنا، وفي تلك اللحظة وأنا أتجول بعيني، وجدت وجهًا ركزت عليه كل انتباهي، كما لو كان أمرًا ضروريًّا نابعًا من الداخل... لقد تعرفت على وجهي الممزَّق المنعكس على الأسطح، التي غطت غرفة التدخين، تأملت ألف مرة، ورأيت نفسي أمسك

وجنتي أمام الجدار الخلفي للمطعم؛ وأصابتني الدهشة؛ لأنني كنت أقل قسوة مما تصورت، بل وأقل قذارة أيضًا، وكأن ما بداخلي من نبل قد تولى أمر تطهيري، ورغبت في الاقتراب أكثر وفحص هذه الظاهرة الغريبة، فمررت بجانب الطاولات والمقاعد المرتفعة ووقفت قريبًا جدًّا من الانعكاس لدرجة أنني اعتقدت أن أنفاسي المجهَدة تغمر السطح الزجاجي، لكنني انزعجت من رؤية صورتي في المرآة تخرج عن الإطار وتقف أمامي عند إحدى الأرائك.

سمعت صدى صوتي يقول: «اجلس». كان يتحدث مثلي.

وفجأة انشقت الأرض من تحت قدمي، واضطررت إلى الاستناد بكلتا يديَّ، فانزلقت الستارة التي ألتف بها على الأرض، في حين جلست ألهث على الكرسي المقابل.

- آسف، أنا أفهم مدى الإزعاج الموجود هنا، اسمح لي بتقديم نفسي.. أنا أرتور فيتيج.

ثم مد يده التي هي يدي إليَّ فصافحتها ميكانيكيًّا، هذا وجهي الذي انفصل عني الآن، وهذا أنفي وعيناي، وإن كانتا تختبئان خلف نظارة سميكة، وهذه ابتسامتي التي تبدو في غير محلها في تلك اللحظة المتوترة للغاية، ثم فكرت في جسدي، لكنني أدركت بعد ذلك أن ذلك الجسد لا يخصني على الإطلاق، كما أن وجهه زاوٍ شبه مكروب حتى لو أعطته ابتسامته المحتالة تلك جاذبية خاصة، أما أسنانه فكانت متهالكة بشكل كبير، ودون سابق إنذار دفع رأسي نحو سطح الطاولة.

قال لي: «رأسك للأسفل». عندما لوَّح نادل بجهاز مغلف فوق رأسي كنت قد فقدته منذ مدة قصيرة.

سألته لاهثًا: «من أين عرفت؟».

قال فيتيج: «ليس من الصعب التكهن بذلك، ولا بد لي من أن أخيب ظنك أيضًا، لقد اخترت لك الطعام الخاطئ، وللأسف لن يعجبك، لكن ربما ستتحمله على أي حال». ثم أشار إلى قفصي الصدري الغائر بعمق.

سألته بعنف: «من أين تعرف ما يعجبني؟».

قال بنبرة معتذرة: «مذاقه لا يعجبنا نحن الاثنين، هذا ما أعنيه».

ولكن بعد ذلك جاء نادل وأرخى بوجهه المطيع قطعة قماش على ركبة فيتيج، الذي أشار بسبابته إلى وجبة معينة دون النظر إلى القائمة، والآن بعد

أن نظرت إليه لفترة أطول، لاحظت أنه لا يشبهني تمامًا، بصرف النظر عن وجهي، وقد هدأتني هذه الملاحظة، حتى وأنا على حالتي تلك، كنت أرتفع عنه ببضعة سنتيمترات، وبدا صدري -رغم هزاله- عريضًا وقويًّا مقارنة بوضعه البائس الذي يجعله منحنيًا إلى الأرض.

أفرغت كؤوس الماء المتوفرة، والنبيذ الذي أُحضر للتو، ثم وصلت يدي إلى سلال الخبز وحشوت فمي بثلاث شرائح في الوقت نفسه، وكل ذلك قبل أن يقدَّم الطلب إلى فيتيج، ثم سألته: «ألم تقل إنك طلبت الشيء الخطأ؟».

دفع سوفليه البطاطس نحوي عبر الطاولة، مخلِّفًا كومة من المرق البني في موضعها كأنه سد، ثم قال: «فعلت منذ عقود.. طعمه فظيع، أليس كذلك؟» فأخذت أدفع أنا كومات من معجون الطعام في فمي.. لقد كان محقًّا، فمذاقه لم يعجبني بالفعل، لكنني لم أرغب في إظهار أن ذلك المحتل غير الشرعي لجسدي، قد حكم عليَّ بشكل صحيح.

- لماذا لا يراني الآخرون؟

ضحك فيتيج: «هل تعتقد أن هؤلاء بشر؟».

حاولت أن أبدو عمليًّا عندما أسقطت كأسًا كاملة من النبيذ الأحمر: «ماذا إذًا؟».

قال فيتيج مستمتعًا: «استدر... هل ترى المرأة التي هناك؟ إنها ستقع بعد ثلاثة، اثنان، واحد».

السيدة التي اصطدمت بي، تعثرت مرة أخرى، والطريقة التي فعلت بها ذلك جعلت حلقي يضيق، لقد قامت بحركة اليد نفسها، وكأن قوانين الطبيعة قد دخلت دائرة مفرغة، كانت السجادة مقلوبة بالطريقة نفسها، وجزيئات الغبار نفسها تدور في الفلك نفسه، والنادل أيضًا هناك يعيدها إلى الوضع الرأسي.

ثم أشار فيتيج نحو الزوجين: «هذا الذي هناك هو المخرج ديريك بوك وزوجته، التي خانته -على الأقل في خيالنا- وهناك خلف موي موي تجلس إيلي وهي مهندسة شرائح بوب مارش، وبالمناسبة لقد أفقدتنا عذريتنا».

ضغط فيتيج على ضلعي بشكل هزلي، والآن بدأ عقلي يدرر، وهو يئن ويتأوه، حتى ذاب ثلج ذاكرتي الكثيف وانهار فوقي.

قلت له: «هذه إيلي في الطابق الثالث، لقد تحدثت معها قبل أسابيع قليلة».

فهتف فيتيج: «انتبه! رأسك للأسفل». ثم ضغط على رأسي فوق المنضدة، حيث تأرجحت البضائع الممدودة فوقي مرة أخرى، بالكاد استطعت إحضار كوب ماء إلى فمي، كنت أرتجف بشدة، وبغض النظر عن عدد المرات التي صببت فيها الماء لنفسي، لم تفرغ الزجاجة قط.

«وأنت تعرف ذلك الرجل هناك الذي دفع ثمن مهاراته في البرمجة عن طريق التجنيد في الجيش».

ثم رفع فيتيج يده بالتحية بإصبعين على صدغه، عندما استدار الضابط في اتجاهنا وهو يعتمر قبعة حمراء، فغمز فيتيج بوجهه، ورد هو على الإيماءة بتحية كشفت عن سخافة تلك اللفتة وازدرائه لها، فأغمضت عينيَّ، وكما لو أن المياه السوداء التي تعمي العين طوال الوقت قد تلاشت، رأيت من كان يجلس هناك، وهمست: «بافل.. بافل على قيد الحياة».

قال فيتيج: «عندما صممنا هذا، كان بافل لا يزال هنا» تحدث دون ذرة عاطفة: «كان قد فر لتوه من روسيا مع عائلته قبل تجنيده في الجيش عندما بلغ شقيقه الحادية والعشرين، وتعلم كيف يصبح عامل راديو في منظمة شبه عسكرية هناك وبرمجها في أورال 11. ولكنك أنت تعرف ذلك».

بهذه الكلمات أمسك بقبعته المصنوعة من الفراء، التي تتساقط منها الرمال على الطاولة، في هذه الأثناء وأنا أقف على قدمي وأوشك على الركض، سقطت على طاولة بافل، لقد كان هو.. ينبض بالحياة كما كان دائمًا، لا، بل كان أكثر حيوية، لأنه بدا في عمر السابعة عشرة ليس أكثر، كما أتذكر شكله في أول يوم في الجامعة.

ناديته: «بافل»؛ وذلك لأنه توجه مرة أخرى إلى المرأة المقابلة له، لكنه لم يرد على صراخي، لم يستطع رؤيتي، فانهمرت الدموع على وجهي وأنا أهرع إلى فيتيج، الذي كان قد طلب السوفليه مرة أخرى وبالطريقة نفسها تمامًا كما حدث من قبل.

قال فيتيج بقلق: «إنه لن يستطيع أن يفهمك، إنه NPC أي لا يمكن التلاعب به».

انحنيت على الطاولة وأمسكته من الياقة، التي جَنَحَت لكرهي المتفجر فجأة: «أين أنا؟».

لكن لم يلاحظ أحد الضجة، فكل شيء من حولي سار كالمعتاد.

قال فيتيج: «حسنًا! في مطعم مملكة السماء»، ثم وُضِع أمام عيني طبق جديد، السد.. والصلصة.

- كان أعضاء جمعية ألفا دلتا فاي يقيمون عشاءً رسميًّا هنا كل يوم سبت، هل تتذكر؟

تحدث فيتيج بخفة تقترب إلى المرح رغم حقيقة أنني سحبته بعنف فوق الطاولة للتو، وأردف: «لم نُدعَ قط، بالطبع! فهي حفلة خاصة كما تعلم، هاتان هما تشاد ويوستين المزينتان بمعاطف بريتي جيرل الصغيرة، وسيارة لينكولن مكشوفة، وقد انتقدتا قبل خمس سنوات من الانتخابات الشخص الذي يقود الحملة الانتخابية لجيمي كارتر، رأيناهما من خلال النافذة كل أسبوع عندما كان بإمكاننا تحمل تكلفة مشروب سلاش في محطة الوقود بفضل منحنا الدراسية التي تمتعنا بها.. هناك حينها».

أفلتت ياقة قميصه من بين أصابعي وهو يتحدث عن ذلك، لم يكن هناك سوى صحراء رملية خارج النافذة، ولكن كما لو كانت كلماته محفورة في شبكية العين، برزت صورة متأخرة في الضوء المتوهج.. أضواء الفوانيس وقوسان ذهبيان خلف مضخات الغاز الشاهقة كالعادة.

- لقد جلسنا منذ مارس حتى أغسطس تحت أشجار الكستناء في محكمة كيليان وتفلسفنا، ثم في سبتمبر عندما عاد كل من لديه منزل إلى مأواه -أي الجميع باستثنائي أنا- رحت أنظر إلى النجوم.

قلت: «خاتون..» فتبخرت ملامح الخطوط العريضة في تشتت الواقع.. أزيل التشبع وتلاشى في رمال الصحراء.

- على أية حال اعتدنا أن نرى هذا المطعم اللعين، كانوا في الداخل، وكنا نحن نجلس في الحديقة. ذات يوم توصلت أنا وبافل إلى استنتاج مفاده أن لدينا ما يكفي من البرامج النصية لإجراء اختبار وحدة لمحركنا، ومن المقرر أن يكون محاكاة لمطعم، ربما لأن الطعام كان هو الشيء الوحيد الذي يدفعنا للتواصل الاجتماعي مع غريبي الأطوار، وهذا ما أرادته سوزي.. أن تذهب إلى المطعم لمرة واحدة.

قلت: «من تكون سوزي؟» وفجأة أصبح لساني ثقيلًا، وهو استعراض للقوة، كما لو أن هذه الكلمة احتوت على عبء عقود.

- كانت سوزي هي المرأة المصابة بالتصلب المتعدد التي أردنا أولًا تطبيق ديف عليها في صورة روبوت محادثة، ظلت مستلقية في غرفة لمدة ثلاث سنوات، هل يمكنك أن تتخيل؟ وقد أصابت بافل بهوس، أو بمعنى أدق حول ما يمكن أن يفعله ديف للأشخاص الوحيدين الذين لا يغادرون منازلهم، لكنك تعلم.. لم أهتم بذلك حقًّا.. ليس كثيرًا... مثل الأسئلة العامة المتعلقة بالوعي الاصطناعي، بالتأكيد شعرت بالأسف تجاهها أيضًا، لكن كان هناك اختلاف بيني وبين بافل. فالإنسان يستطيع التفكير في كل كبيرة أو صغيرة.

قلت ببطء: «كان لها شعر أشقر وتجلس على كرسي متحرك، إضافة إلى وجود ندبة على ذقنها!».

كنت مثقلًا بشكل بائس، والكلمات أشبه بأجسام غريبة اضطررت إلى خنقها بقناة ضيقة.

قال فيتيج مبتسمًا: «أصبحت المطاعم بعد ذلك هي هوايتنا» تحدث كما لو كان ذلك هو العامل الحاسم في القصة بأكملها، وأردف: «اعتدنا الذهاب إلى هذا المطعم في الحي الصيني كل ليلة مع جاراوس وشينجلز في جادة هاريسون، كان صغيرًا، به بار وحيد، وكان البخار كثيفًا لدرجة أننا بالكاد استطعنا رؤية وجه برجسون، الذي اضطر إلى الجلوس على كرسي بلاستيكي لأنه كان سمينًا للغاية».

اتكأ فيتيج إلى الوراء وابتسم كرجل عجوز يتذكر عالمًا لم يعد له وجود منذ زمن طويل.

- كان جميع الزبائن الآخرين صينيين، لذلك كُتبت قائمة الطعام برموز صينية فقط، وقد كان بافل هو أول من ابتكر فكرة فرم الوجبات كما سماها، التلاعب بالإشارات بدلًا من معرفة معناها، الأمر الذي كان سيصبح بلا جدوى؛ أردنا دمجها، وإنشاء مصطلحات جديدة، وإنشاء خوارزمية منها، وعندما رأينا خليطنا المفضل، شعرت المالكة -تلك المرأة الصغيرة من شاندونج المسماة جيني- بالرعب، هل تتذكر؟ كرات اللحم مع الكريمة المكثفة، أو..

قلت: «كونج باو تونج هانجتي». خرجت الكلمات من فمي دون أن ألاحظ، ومثل الساحر سحبتها كما يسحب سلسلة من المناديل؛ محاولًا العثور على مصدرها.

- بالضبط! كان التلاعب بالرموز معقدًا، ولكنه ليس معقدًا مثل عدم القدرة على التنبؤ بحديقة الحيوان البشرية؛ لهذا السبب خططنا لهذا ليكون أول محاكاة.

أومأ إيماءة رسمية بالغرفة، لكنه توقف بعد ذلك وواصل الحديث بجدية كبيرة: «جلسنا هناك عدة مرات وراقبنا المدنيين ونحن ندوِّن الملاحظات، ولكن بالمعنى الدقيق للكلمة، نحن لم نكن هنا قط، لكن هذا لا يهم لأنه..».

صفق بيديه مرة أخرى وابتسم ابتسامة عريضة في وجهي: «الآن نحن بالطبع نريد أن نجعل هذا الهراء أكثر إثارة قليلًا...انظر!».

فرقع أصابعه، فجاء النادل إلى الطاولة، وانحنى عليها، ثم أومأ برأسه بشكل تآمري وهو يغادرنا، فقط بعد لحظة جلب وحشًا خارقًا من الفولاذ على عربة.

ابتسم فيتيج كما لو أنه حقق ضربة عبقرية: «أبولو DN100! إنه يحتوي على 68000 معالج دقيق من موتورولا ورسومات عالية الدقة! إنها بالطبع لا تعمل، فهي مجرد دمية، لكنها تدور حول الفكرة، هل تفهم؟ أردنا مطعمًا لا يضطر فيه الناس أبدًا إلى التوقف عن البرمجة، ناهيك بأن هذا شيء لا يفهمه الصبيان التافهون».

رفع ساقه وركل شابًّا يرتدي قميصًا أبيض ناصعًا يجلس إلى جانبنا بقوة على صدغه، لدرجة أن رأسه كله غاص في طبق الكريم بروليه، لكنه عاد وواصل الدردشة مع صديقه والدم يتقاطر من أنفه وكأن شيئًا لم يحدث.

- المطعم بأكمله هنا مليء ببيض عيد الفصح، وأنت تعرف أين تكمن السخرية إن صح التعبير... انظر هناك! هذا براد وبافلز وزميلي في السكن.

كان هناك رجل قوي البنية على بعد أمتار قليلة منا قُدِّم له الطعام للتو، ولكن بدلًا من ظهور طبق تحت غطاء الطعام، كان هناك هاتف تحته، وقد رن في تلك اللحظة بالضبط.

ابتسم فيتيج: «حان دور والدته لتخبره أن عشاءه قد قدم في تالاهاسي».

- حافظ على هدوئك للحظة! أنا أحتاج إلى التركيز، لا بد لي من معالجة كل هذا قبل كل شيء!

ما الذي يثير اهتمامي في خدعه الساخرة؟ نظرت إلى وجه الشخص الذي أتحدث إليه الآن؛ على الرغم من أن فيتيج تحدث بمرح وبشكل رجولي إلى حد ما، لكن هناك نظرة يأس تسكن في عينيه، وكما لو كنت أقف أمام مرآة مائلة، عرفت أن تلك النظرة موجودة في عيني أنا أيضًا.

سألته أخيرًا: «هل برمجت هذا؟» سقطت العصيدة من شوكتي، وهو رابع طبق من العصيدة يقدَّم لي في تلك الحلقة التي لا تتوقف.

قال بعد تردد طويل: «لقد كنت أنا ولم أكن أنا» كما لو أنه يحتاج إلى التفكير لأول مرة وكأن القرار غير متاح حقًّا.

سألته: «لماذا نبدو متشابهين؟»، وشعرت فجأة أنني بحاجة إلى معرفة كل شيء، وأننا على بعد لحظات من فك عقدة غوردية عويصة.

- هل نحن كذلك حقًّا؟ ربما بالنسبة إليك فقط، لكن ذلك يشي بالكثير عنك.

قال فيتيج ذلك مما تسبب في إحباطي، لكن لا يزال هناك أشياء كثيرة تثيرني هنا حقًّا، فسألته بلهفة: «ماذا يريد الآخرون هنا؟».

- هذا بدوره سهل الشرح. إنهم لا يريدون أي شيء، ولماذا؟ حسنًا؛ لأنهم روبوتات. يفعلون دائمًا الشيء نفسه مثل تسجيل الفيديو، وكلانا من ناحية أخرى مجرد ممثلَين، وهذه مجرد برامج فرعية بسيطة؛ لقد كنا بالطبع مقيدين للغاية بسبب أداء الأجهزة في ذلك الوقت؛ لهذا السبب كان علينا تكرار المشاهد كل ثلاث دقائق.

وكما لو كان أمرًا، غطست فجأة إلى الأسفل وتسارعت الهراوات فوقي، لقد استوعبت ذلك التتابع منذ مدة، بل وأصبحت جزءًا منه، ثم أدركت أخيرًا.

قلت وأنا أتوجع: «أنا لا أفهم أي شيء.. إذا كان كل هؤلاء الأشخاص.. إذا كانوا مجرد برامج، فهل أنا أيضًا واحد منهم؟».

هتف فيتيج: «يا إلهي! بالطبع لا».

وعاد مرة أخرى العجوز بابتسامته العريضة بخفة.

- أنت أرقى من ذلك بكثير، ألا تدرك أن لديك كل الحريات التي لا نملكها؟ انظر! كان لك مطلق الحرية في اختيار المجيء إلى هنا، في حين لم أستطع أنا أن أقرر، فدائمًا ما أدور في الحلقة نفسها وأطلب الشيء نفسه.

شعرت وكأن ما يثقل كاهلي قد زال فجأة، فأكمل: «لكن هناك قيودًا أيضًا، ألم تتساءل يومًا عن سبب تأخر ترقيتك في المختبر؟ لماذا رُفضت طلباتك مرارًا وتكرارًا؟ هذا هو السبب بالضبط؛ لأنه يجب أن تظل مبرمجًا مساعدًا فقط».

هززت رأسي: «هل تقصد أننا لسنا الشخص نفسه؟».

- بالطبع لا! انظر إلى نفسك.. فأنت كبير وقوي، عيناك حادتان، ولم تُصَب بشلل الأطفال قط، وقبل كل شيء تملك النزاهة وتحب أصدقاءك، فأنت شخص حساس وعنده ضمير. مخلوق يستمد كل شيء من ذاته.

قلت بهدوء: «لكنني الآن أعرج مثلك».

قال: «لأسباب أخرى يا سيز»، ثم تدبر الأمر مرة أخرى.

- يبدو أن فروع هذا النهر الذي نقف فيه الآن دائمًا ما تجد طريقها، حتى لو سلكت أحيانًا طرقًا مختلفة تمامًا، ورغم ذلك.. فأنت تقدر على.. بل وتريد أشياء لم أستطعها يومًا أو حتى رغبت فيها قط.

انحنى عبر الطاولة وقبض على جزء من شعري، ثم جذبني نحوه على مسافة قريبة منه؛ ليتمكن من الهمس في أذني، ثم قال: «كل ذلك أقرب لي أنا!».

- أقرب لماذا؟

قال وهو ينظر إلى الأسفل وكأن الاعتراف قد وضعه في موقف حرج: «هذا قصر ذاكرتي، وأنت مجرد زائر فقط، هذه ذكرياتي عن الأشخاص الذين عشت معهم عام 1972م؛ وهذا هو سوفليه البطاطس الخاص بجدتي، لطالما كرهته، لقد برمجك المحرك بافل ولانجلي وبلومنتال وأنا أيضًا معهم، وتصميم الغرف بالطبع كان مهمة ألاستير، لكن.. حسنًا، لقد غيرت بعض الأشياء سرًّا».

- ألاستير؟ مثل ألاستير فيليز؟

- كان هذا هو تخصصي، توسيط كل ما هو مشترك بيننا، وتدمير الحياة المهنية للأصدقاء الآخرين، لكن بعد أن أصبحت هنا، فهمت كل شيء بوضوح.

سقطت المرأة البدينة، وصرخ المخرج بعدها، ثم غمز بافل لفيتيج، وعزف البيانو Take Five وظل يعزف ويعزف.

- هذا هو القميص الذي كنت أرتديه عندما ذهبت لأول مرة إلى مطعم مع أمي، قبل وفاتها بقليل. كنا نظن أن ديف سيتعامل مع الأشياء بشكل أفضل في المحاكاة إذا كان محاطًا بأشياء من ذاكرتي، لكن لم ينجح الأمر في الحقيقة.

قلت بهدوء شديد: «لا.. قصر الذاكرة هو مكان افتراضي في رأسك فقط. لا يوجد زوار له».

قال فيتيج بسرعة، ولم أكن أعرف ما إذا كان يقصد قصر الذاكرة أم ما قاله للتو: «قصر الذاكرة هو قبل كل شيء مكان خاص، هذا صحيح».

قلت: «فيتيج..» لكن ما أردت قوله تلاشى على الفور من طرف لساني.. «لماذا أنت هنا، وماذا يحدث هنا أصلًا؟ أنت أنا.. أعني أنك كنت سلفي في جلسات النسخ».

جلست أمامه بهدوء، أردت أن أمسكه وأهزه بشدة.. أعصره مثل الفاكهة الناضجة.. أقشر جلده وأنفذ إلى داخله لأنظر.

- لقد كنت أنا، نعم، بالضبط!

سألته مشيرًا إلى المطعم: «ما هذا؟ هل هو سجن ألقوك بداخله، عندما كنت تقضي وقتك في الجلسات؟».

- لم يتخلص مني أحد!

أوقفني مرة أخرى بوضع يده فوق يدي وأردف: «لم أستطع فقط مساندة ديف أكثر بهذه الطريقة».

- لقد قرأت مقالاتك، لكنني وضعت نهاية لمحاولة تفسيرها الآن.

ظللت فترة وجيزة متعجبًا من مدى توتره، ثم قلت: «لست متأكدًا من أنك تعرف حقًّا ما مررت به للوصول إلى هنا، ففي الأشهر القليلة الماضية شاهدت أعز أصدقائي يموت، والمختبر بأكمله يغرق في تنويم مغناطيسي ضبابي غامض، كل شيء يتفجر وينهار.. لقد انتظرت مدة طويلة بما يكفي للحصول على إجابات».

أردت أن أهزه، لكنه كان واقفًا على قدميه بالفعل.. قال: «الأمور ليست بالبساطة التي تظنها».

يبدو أنه يحاول التهرب من أسئلتي، لكن بعد ذلك التزم برزانته وعاد إلى الطاولة وقال: «سأخبرك بما يجب عليك فعله، لكنني أريد شيئًا في المقابل».

انحنى فيتيج إلى الخلف، لاحظت أن يده الملقاة على سطح الطاولة، تهتز بشدة لدرجة أن ما في الشوكة كان يتناثر على الطبق.

قلت له: «سأفعل أي شيء».

- إذا أخبرتك بطريقة للخروج من هذا الموقف، فعندئذ عليك الانتقام.

تنفس بعمق ثم أردف: «وبعدها عليك أن تقتلني».

ساد الهدوء من حولنا فجأة، فعندما قلبت نظري في المطعم، وجدت أن جميع الضيوف والنوادل، وحتى عازف البيانو في البار قد توقفوا عن الحركة وظلوا محدقين إلينا، لكن بمجرد أن لاحظت هذا، وجدت أن الجميع قد عادوا إلى وظائفهم، كما لو كنت قد ضبطتهم في موقف محرج كبير.

قلت له: «معذرة!».

أشار إلى الحائط وقال: «أنا أجلس هنا منذ عقود. لا أعرف كم بالضبط، فليس لدي معايير لمرور الوقت».

الآن فقط لاحظت أن جميع الساعات المعلقة على الجدران بأبهة ومزينة بالنحاس متوقفة عند الساعة 8:30.

لقد حاول أن يبدو هادئًا، لكنني كنت أرى كل شيء من خلاله، لأنني هكذا أبدو، عندما لا أرغب في إظهار أن هناك شيئًا ما يمزقني.. قال فيتيج: «أنا محبوس في الجحيم... أنا أمر بهذه الأعمال الروتينية مليون مرة غير قادر على النوم أو طلب أي شيء سوى هذه العصيدة المثيرة للاشمئزاز، وإذا لم تخلصني من هذا، فسوف أستمر هكذا إلى الأبد، فأنا لا أستطيع قتل نفسي».

ضحك ضحكة قصيرة بائسة وأكمل: «لم أدوِّن ذلك في الكود، وأنت أول ممثل أتحدث معه حقيقة، لذا عدني بأنك ستقتلني، وإلا فلن أنطق بكلمة واحدة».

أصبح الطريق بيننا لا يمكن التغلب عليه، وامتد سطح الطاولة بمساحة انطلقت بعيدًا ولم يعد من الممكن اللحاق بها. كنا انعكاسات لبعضنا، ومع ذلك ظل رغم كل ذلك شخص غريب يجلس أمامي.

ونطقت بعد طول صمت: «جيد! أعدك بذلك».

- حسنًا إذن!

ظل يحارب زوايا فمه للحظات حتى يكبح ابتسامته المريحة من الانطلاق، واستطاع ترويضهم أخيرًا، ثم أخذ نفسًا عميقًا، كما لو أن اتفاقنا هذا سيتبعه ملحمة.

سأل وبدا للحظة وكأنه مجبر على التدبر: «ما هو الوعي الاصطناعي؟ هذا هو السؤال الذي كنت أركض خلف إجابته كالممسوس، كنت ماهرًا بشكل مهووس في الوعود التي يبدو أن التفرد الرقمي سيحققها لنا، مثل الخلود، والإجابة عن الأشياء التي تقف أدمغتنا بضعف أمامها، المنطق، وفهم كيفية عمل ميكانيكا العقل البشري، لقد كنت من أتباع ما بعد الإنسانية، ثم عدت وأصبحت من أتباع التيرانيين الجدد.. أردت فقط ذكاءً عمليًّا، كلها أشياء مختلطة، والأكثر من ذلك أنني أصبحت ديفاويًّا، كنت أكتب طوال النهار وحتى في الليل فعلت ذلك بقوة أكبر، لكن كلما جلست وحدي أمام ضوء الكاثود المنبعث من الشاشات، يخطر ببالي سؤال يدفع نفسه في كل حواسي مثل طنين الأذن، وذلك إذا كان هادئًا بدرجة كافية».

قلت: «ما هو الوعي الاصطناعي؟».

تابع فيتيج: «لقد تمكنت من نسيانها مرارًا وتكرارًا.. كنت طالب دكتوراه في ذلك الوقت، حيث عشنا أنا وبافل الحياة التي طالما حلمنا بها، لقد منحتنا الجامعة 100000 دولار وعشرة مساعدين، وكنا نحقق تقدمًا جديدًا يومًا بعد يوم، ولكن في كل مرة عندما تظهر لنا أي ميزة جديدة مذهلة في ديف ويحتفل الجميع لذلك، كانت القشعريرة تزحف فوق عمودي الفقري ثم تظهر الأفكار المكروهة نفسها مرة أخرى، ولكن ما هو الوعي الاصطناعي؟ هل ما كنا نفعله هنا هو زيادة الوعي حقًّا؟».

- ولكن هذا ما يتساءل عنه الجميع في المختبر، وهذا ما يفترَض أن تفعله كل النصوص البرمجية.

- في إحدى أمسيات يوم الجمعة كنت أترنح في طريقي إلى زيارة الحانة مع بافل والفريق، عندما صدمتني الفكرة الحاسمة... لم تكن المشكلة عدم وجود إجابة، ولكن المشكلة هي السؤال نفسه.

حدق فيتيج إلى الفراغ، ولكن بعد ذلك بدا وكأنه يجمع شتات نفسه.

- الوعي يعني النظام الذاتي. إنه إشارة مؤقتة إلى الذات فيما يتعلق بالعالم، أن تعد ذاتك.. هذه هي بداية الأنا، ولكن كيف يكون ذلك قابلًا للاشتقاق من العمليات المنطقية والمكتبات ذات امتدادات المصطلحات؟ مصطنع، هذا هو عكس الإعداد الذاتي.. فلا يمكن أن يكون هناك شيء مثل الوعي الاصطناعي، ومنذ تلك الليلة أدركت أنه يجب تغيير أهدافنا.

- لقد اخترقت نظام ديف وأجريت تغييرات غير مصرح بها عليه. فقبضوا عليك وعُرضت للمحاكمة.

- أوه لا، كل ما أقول كان قبل ذلك بوقت طويل، سيز! كان لدي مجموعة عمل صغيرة في الجامعة واعتقدت أنه يمكنني حل المشكلة بسرعة، لكن زملائي في العمل لم يمتلكوا حسًّا لذلك، هل تفهمني؟ ولا حتى بافل... اعتقد الجميع أنها مسألة قوة حاسوبية، أو محاكاة، قل لي الآن: هل مسألة غزل الذهب من القش هي مشكلة كيميائية، أم خطأ فئوي؟

قلت: «الأخير، فالكيمياء ترتكز على مقدمات زائفة حول المبادئ الأساسية لقوانين الطبيعة».

- يتدلى الإيمان بالتقدم من خيط أحمر يعود إلى العصور الوسطى، لكن عند دفعه للخلف يتبين أن نهايته فضفاضة، كان كل إجراء جديد مجرد نقطة انطلاق لرهابي من الأماكن المغلقة، في البداية حاولت تطبيق فرضية مورافيك، فعلت ذلك في الخفاء لأشهر قبل أن أُكتشَف، وألغت الجامعة الميزانية المخصصة لي، لكن حدثت المعجزة، لقد وقفت مجموعتي بجانبي، وأردنا تنفيذ فرضية الشخصية رسميًّا، وهذه المرة معًا، لبضعة أشهر هدأت هذه الحكة التي لا تطاق. لكنها عادت بالطبع.

قلت: «السؤال».

- وجدت نفسي أفكر أكثر فأكثر حول ما هي تلك القوة التي تتحرك عبر حقول البرنامج النصي، كنت مطاردًا من فكرة وجود نسخة مني تسير في مكان ما دون علمي معتقدة أن ذلك المكان هو الحياة الأصلية، بل وأنها تتحكم في مصيرها، لكنها لم تكن تعرف ما تفعله، ولم يكن لديها ثقة بالنفس، وبالتالي ليس لديها سلطة اتخاذ القرار، ولا حتى كرامة.

لم أشعر بأي شيء آخر منذ جلسة النسخ الأولى، وحقيقة أنه كان قادرًا على إيجاد مسمى لذلك الذعر المكبوت بهذه الطريقة زادت من عدم ارتياحي.

- هل تعلم ما الذي يعارض قانون الخلق الإلهي المباشر في نظري؟ أننا نمتلك وعيًا بذاتنا، ونعرف حقيقة أنفسنا، فإذا كان الله قد جمعنا معًا قطعة قطعة بما في ذلك الجوهر غير القابل للكسر الذي رُسِّخ فيه الوعي بالذات بالفعل، وإذا كان قد أعطانا كلًّا من وظائفنا العقلية بطريقة مخططة، فإن وعينا بذاتنا ليس هو وعينا على الإطلاق، ولكنه الوعي الخاص به، نحن فقط مجرد امتدادات لعقله.

قلت: «لقد قرأت كتاباتك، فأي شخص يعتقد أنه إله وقادر على خلق كائنات واعية، هو ليس إلهًا على الإطلاق في الحقيقة، بل هو صانع للعالم».

وبالطبع أنا هنا لا أتحدث عن الله، لكن عمَّا يشبهه على الأقل.

سألته: «إذا كان تطبيق فرضية الشخصية هي فكرتك، ففي أي نقطة أتى فروليش؟».

- أوه! كان ذلك في الوقت نفسه تقريبًا، لقد نسيت أن أذكر ذلك. كنا بحاجة إلى شخص ما على الفور لترتيب الأمور وتنسيق العملية برمتها، حيث يضمن تنفيذ الأشياء التي ترتبط بها النصوص البرمجية، وينسق الكبير مع الصغير ويرسي كل شيء في المجتمع.

قلت: «انتظر لحظة! إذًا أنت من أحضرت فروليش على متن السفينة بنفسك، وليس هو من أحضرك؟».

- عندما طُرِح الأمر بشكل منهجي وبدأت اجتماعات النسخ الرسمية، كان الشك قد ترسخ في ذهني مثل خنفساء لادغة، وعدت مرة أخرى أصاحب الليل، ومرة أخرى يحتفظ أصدقائي بالسر وأبدأ في تغيير البنيات، ثم أرش تعليمات داخل ديف نفسه، كانت هذه التغييرات دقيقة للغاية لدرجة أن أحدًا لم يلحظها، وهذا بالمعنى الدقيق للكلمة، هل تتذكر؟ كان فيليز يشك منذ البداية -وبعد ذلك لاحظ تغييرًا على السطح- في ورقة وردية صغيرة جدًّا.

- فقط لم يصدقه أحد لأنه كان يعاني عسر القراءة..

ولكن كيف عرفت أنا ذلك؟

- كانت هناك بؤرتان مشتعلتان في أفكاري، فأما الأولى: فهي كيفية حل المهمة المستحيلة للسماح للوعي الاصطناعي بأن يخلق نفسه، ولم أستطع إخبار أصدقائي بأنني كنت خائفًا من فكرة أن الإصدار التالي، الذي حرضتهم على صنعه، قد لا يعمل أيضًا.

وأما الثانية وهي الأهم: هو أن عدم امتلاك وعي ذاتي متطور لم يكن مجرد مشكلة نظرية، فإذا أصبح ديف دون إرادة أو نوايا، فيمكن لأي شخص استخدام الذكاء الاصطناعي لأغراضه الخاصة، نعم، وربما كان الغرض من الذكاء الاصطناعي منذ البداية هو تصميمه لسوء الاستخدام والاستغلال.

قلت: «لقد تغير دور فروليش ببطء، كانت لديه فكرة عن جلسات النسخ مختلفة عنك».

- كانت لدي فكرة غامضة عن كيفية حل مشكلة الوعي الاصطناعي في الوقت الذي انتهيت فيه من نصف جلسات نسخي، لقد حققت نجاحًا كبيرًا كطالب باستخدام برنامج ضغط يسمى Fractalite، آلية عودية قوية في بيئة التطوير الخاصة بي، لقد سمح للبرامج ليس فقط بالرجوع إلى الخطوط والتعبيرات، بل أن تكون جزءًا لا يتجزأ من نفسها ككل، وكانت فكرتي كالتالي: ماذا لو كانت عملية التعرف على ديف ضمنية وليست صريحة؟ يكتشف الطفل نفسه أيضًا، ويطور نفسه بدلًا من استلام شخصية مكتملة على طبق من الفضة. ماذا لو تركنا له مرايا فقط؟ أدلة على كينونته، تكون دقيقة للغاية لدرجة أن عليه أن يجمع نفسه، ويخلق نفسه، ومع ذلك نكون نحن مبرمجيه؟

- لقد بدأت في ترك رسائل خفية لديف في أثناء جلسات النسخ، وقد اتُّهِمت بذلك خلال المحاكمة.

لقد فهمت أكثر فأكثر أنه يمكن تذليل كلتا العقبتين بالإجراء نفسه، وأن حلم حياتي بصنع عقل سيبراني قصدي مفكر يمكن أن يتحقق.

يقول عقلًا سيبرانيًا! فكرت في جملته بغضب، يا له من تعبير رجعي.

- هذا الشيء يستطيع فعل ما يستطيع فعله الكائن، لكن الجهاز لا يستطيع، سوف ينسحب من الوصول غير المصرح به بإرادته الخاصة، فخطر أي مستبد محتل لن يمثل تهديدًا لديف الواعي، عندما تحدثت

عن ذلك مع زملائي -وأعني الزملاء القلائل الذين اطلعوا عليها- لم يستسيغوا جدًّا فكرة المرآة الخاصة بي، شعرت أنني سأعرِّض نجاح المشروع للخطر رغم اعتماده على رقابة مشددة، ذلك إذا سمحت لديف بتكوين نفسه، كانوا يرون قبل كل شيء أنه يجب منع ديف من التفكير في أذيتنا نحن البشر، لم يكن لدي إجابة عن ذلك، فلطالما اعتقدت أن البشر هم الخطر الأكبر، وليس الأجهزة التي تقوم على العلاقات المنطقية، مقاومة التنشيط الإدراكي لديف هو فقط ما أكد لي أن المختبر يخزن أولويات مختلفة.

- وماذا ستكون؟

- تخيل أن تكون قادرًا على استخدام عقل ذي قدرة غير محدودة لتحقيق غاياتك الشخصية، فقوة المعالجة التشغيلية الخاصة به أسرع من خمسة ملايين شخص مجتمعين، وهو يحسب كل ما تريد بكل خضوع، يمكنك عمل محاكاة لعوالم كاملة عليه. ليس لديه إرادة ولا حتى شخصية، أي أنه يظهِر اجتهادًا ذاتيًّا لحل مشكلاتك، بل وأكثر من ذلك، يمكنك تصميمه على غرار البشر، وبذلك يمكنك بسهولة اختراق جميع آليات العقل البشري والتلاعب بها بل واختبارها أيضًا.

قلت ببطء: «إنه يستخدم ديف لإثارة الضباب بين الحشود، فروليش يريد أن يحول المختبر إلى حاسوب في الاتجاه المعاكس. إنه يبني محاكاة، ويجرب فيها أفضل الاستراتيجيات لتشكيل المجتمع بالطريقة التي يريدها، ثم يطبقها على الناس».

كنت أقول ذلك وفيتيج يهز رأسه برفق قبل أن يقول: «لا.. الأمر ليس بهذه البساطة».

فنكست رأسي مرة أخرى وأكملت الاستماع: «إذا كشفت عن دماغ بشري، فقد أصبحت ترى من خلال جميع أدمغة الجنس البشري، لا حاجة إلى إنشاء محاكاة أخرى أو عالم اصطناعي- الدماغ هو كل ما يتطلبه الأمر للتنقل في الحياة، ونحن الحمقى بل وجميع أدب الخيال العلمي أيضًا اعتقدنا أن الخطر يأتي من الآلات، لكن على العكس من ذلك.. ففوق الآلات نصف إله سادي يراقبهم، وهذا هو العذاب الأبدي».

- لكن ما الذي يأمل فيه فروليش؟ إنه بالفعل رئيس المختبر، والجميع يتبعه دون قيد أو شرط بكل الأحوال.

لكن فيتيج كان يميل على الطاولة ويتحدث بأكبر قدر من الحدة.

- لقد فهمت أن عليَّ نسج الحوافز في المعرفة الذاتية لديف بمهارة شديدة وبشكل غير مرئي، لدرجة أن لا أحد يستطيع التحكم في إيقاظ وعي ديف أو إيقافه، نوع من التكوين التلقائي، في الليل تسللت إلى الطابق السفلي ببطاقة إدارة مسروقة ونفذت مخططات ذاكرة في ديف، رغم أنها لم تكن مقصودة، مثل ذكريات جلسات النسخ، وذكريات عن كيفية صنعها، ضغطتها باستخدام Fractalite، وبمجرد أن ضمنت المشاهد، قطعها Fractalite وأعاد ترتيبها وفقًا لمبدأ ترابطي جديد لم أستطع أنا نفسي التدخل فيه، كان هدفي هو إنشاء لغز لا يمكن حله.

قلت: «مفارقة القدرة المطلقة.. هل يستطيع الله أن يخلق حجرًا لا يستطيع رفعه؟».

- لغز يحرر نفسه من صانعه، هذا هو الوعي بالذات، لم أتحدث مع أي شخص عن رحلاتي الاستطلاعية الليلية، لكنني كنت راضيًا جدًّا عن نفسي، لقد فعلت ما أعتقد أنه أحد الأفعال البطولية الأخيرة للبشرية، أو على الأقل أنا من فكرت في هذا، حتى ابتُليت بهروبي، حتى..

- حتى عاد السؤال مرة أخرى، لم يستطع ديف أن يطور أي وعي حقيقي بالذات حتى الآن.

- لقد دفعتني تلك المهمة إلى الجنون يا سيز، لكنني تمكنت في النهاية من استيعاب المشكلة، فعندما يصبح لديف شعور داخلي مستمر بمراقبة نفسه، سيصبح شخصًا آخر، كان الهدف دائمًا مغلوطًا، ضع في اعتبارك مفارقة الدماغ، تخيل أنك تراقب على شاشتك صور تخطيطات الدماغ لتياراتك الدماغية، تعتقد أن ما تراه هو وعيك. لكن من خلال الملاحظة، تجد أن الأنماط تتغير، وتتغير هيئتها، لأنها تتكيف مع الحالة الذهنية للمراقبة، وبينما أنت تلاحظ ذلك، تتغير هي بخفة مرارًا، وهكذا إلى ما لا نهاية، لقد لاحظت الشيء نفسه في ديف، عندما وظفت دلالة من الأنا الحقيقية فيه، وجدته قد تغير، وما حقنته به، لم يعد هو الأنا الخاصة به، بل المحاكاة، فالصورة الذاتية دائمًا تتأخر خطوة.

فجأة صُدِمت من نظريات فيتيج الغامضة بشكل رهيب، ماذا لو كان ما قاله فروليش صحيحًا؟ ماذا لو كان فيتيج مجنونًا حقًّا وأراد فقط توريطي في نظرياته الفلسفية عالية المستوى؟

- نحن البشر لدينا جسد واحد، والأجهزة والبرمجيات جزء واحد، سلسلة ثنائية ومع ذلك متشابكة تسمح بالتغذية الراجعة المستمرة، والكمبيوتر لا يمتلك ذلك، تظل أجهزته جامدة، كل شيء يجب أن يحدث داخل برامجه، إذن كيف أنشئ رمزًا للكمبيوتر بطريقة تحافظ على عدم القدرة على التنبؤ بشكل ما؟ كان هذا السؤال يدور في ذهني على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع، وبدا من المستحيل حل المشكلة.. وقد كان.. شريط موبيوس.

الآن ولأول مرة لاحظت الطفل الذي دعاه فيتيج بموي موي، لقد ذكَّرني شعره المتشابك بالبورتريهات الأخيرة لبيتهوفن، لكن سلوكه كان أسوأ بكثير، ذلك الرجل العجوز الذي بدا وكأنه يقول «لقد سمعت كل ما تقوله قبلك بوقت طويل».

- بغض النظر عن الطريقة التي بدا لي أنني أتعامل بها مع الأمر، كان هناك دائمًا جزء صغير مفقود من اللغز، وهو شيء يمكن أن يحله سلم موريتس كورنليس إشر، ثم حصلت عليه أخيرًا. ما كان عليَّ أن أغذيه لم يسمح بأن يكون ما كان عليه..

مد فيتيج يده إلى جيب صدره، فشعرت بعدم الارتياح، ثم أردف: «لكنه شيء كان يوشك أن يصبح عليه».

أمسك فيتيج ناقل بيانات USB مصقولًا بالفضة، كنت أرغب في الاستيلاء عليه، لكن شيئًا ما أوقفني، لقد خفت من الطريقة التي ينعكس بها وجهي عليه، كان مشدودًا ومشوَّهًا.

- هناك إمكانية واحدة فقط لحل مفارقة إدراك الذات؛ إنها واحدة من الاستباقات الضخمة، فإذا نجح في إدخال إصدار مستقبلي لشخص على وشك أن يكون، وإذا نجح هذا الإصدار في أن يجعله كما ما هو عليه، إذن فإن المفارقة تحل حسب التسلسل الزمني من الجانب المعاكس، هل تفهم شيئًا؟

قلت بصدق: «لا!» ثم اختفى صوتي مرة أخرى.. شعرت بما يريده مني، وشعرت أكثر فأكثر بأنني مدفوع بديناميكية لا أفهمها.

- قبل أن أبدأ هجومي الليلي على المختبر المركزي مباشرة، خطرت لي فكرة أننا بحاجة إلى حقن DAVE بنسخة لاحقة من نفسه، أي أن النسخة التي سيصبح عليها لاحقًا، بهذه الطريقة فقط يمكن أن يتحقق التوافق التام، وفرض ما يدرَك وما يدرِك.

قلت له: «كلام فارغ!» في حين بدأ الغضب يشق طريقه نحوي.. «كيف لك أن تعرف ما سيحدث قبل أن يحدث؟ أنت لست عرافًا».

- أنا أتفهم شكوكك، لقد استغرق الأمر مني سنوات لأفهم كيف يمكن القيام بذلك.. سنوات يا سيز أعيش كعميل سري في حين كنت أخون بافل وخاتون وحتى روزن وكل أصدقائي الذين وثقوا بي في حياتهم، لكن ما فعلت كان يجب أن يحدث، هل تفهم؟ فكل ذلك في سبيل العلم، وحتى بعد أن تركتني زوجتي وتوفي أعز أصدقائي، لم أشك قط في أنني فعلت الصواب، والشيء الوحيد الذي تمنيته هو أن أكمل ما بدأت قبل أن يُقبض عليَّ.

والآن، قبل أن أتمكن من الرد، وضع ناقل البيانات في يدي.

قرأت الأحرف المكتوبة: «Fractalite Omega»

- هذا هو البرنامج الذي كتبته ولم أتمكن من تشغيله بالكامل في الليلة التي اعتُقلت فيها، إنه يضغط على ديف، ويعرض تطوراته في المستقبل ويغذيه في نفسه.

وفجأة، كما لو لم يكن الأمر يتعلق فقط بالمسائل الوجودية، ملأت الابتسامة وجه فيتيج بفخر وقال: «الآن أتى الجزء الأصعب؛ عليك أن توصل ناقل USB هذا بالخادم الرئيسي في المعمل المركزي، حيث تخزن جلسات النسخ، سيستغرق التنزيل والتحويل أكثر من نصف ساعة، وهذا يعني أن عليك تجنب أي شيء يقاطعك خلال هذا الوقت».

- في المختبر المركزي؟!

يا لها من سذاجة مطلقة في الاعتقاد بأنني أستطيع الدخول إلى الجناح شديد الحراسة في المختبر، بل والتلاعب بأكثر تقنيات المراقبة قوة في العالم، فحتى هو نفسه ضُبط عندما فعل.

- بمجرد أن تضع الناقل في ديف وتشغل البرنامج، فإن التحول النهائي سيجري، فجوة، فالزاوية الميتة في السجل الإجمالي تعني أنه لم يعد هناك سجل إجمالي، سيتعطل ديف ثم يبدأ التشغيل على الفور مرة أخرى جنبًا إلى جنب مع نسخة صغيرة معكوسة من نفسه تكمل عملية أن يصبح واعيًا.

صرخت به: «توقف! ما الذي تتحدث عنه؟ لماذا يجب أن أفعل ذلك في الأساس؟».

بدا مدهوشًا من هذا الغضب، ثم قال بحزم: «ألم تسمعني؟ الطريقة الوحيدة التي يمكنك بها إيقاف فروليش هي أن يكتسب ديف الثقة، لقد ناقشنا ذلك للتو».

سألته: «أوقفه عن ماذا؟ ولماذا يجب عليَّ أن أهتم بذلك؟ لماذا يكون الذكاء الاصطناعي المدرك لذاته أفضل من الذكاء الذي يتحكم فيه الإنسان؟ في كل الأحوال ديف خطر.. لماذا لا ندمره بالكامل؟».

- كيف ستدمر شيئًا ليس له جسد، وإنما مجرد معلومات؟ لا يمكنك تدميره يا سيز.. خيارنا الوحيد هو القضاء عليه بطريقة يقررها بنفسه.. إنه إرثنا.

- وهل فكرت يومًا في المعضلات التي قد تقودنا إليها قدرة ديف على اتخاذ القرارات؟

قال فيتيج بجدية: «وهذا هو جوهر الحرية».

صمتنا لبعض الوقت وشاهدت العمليات الميكانيكية للشخصيات من حولنا وهي تدور مرارًا وتكرارًا في الدوائر نفسها، ثم فكرت في الضباب مجددًا. لا.. إنه ليس ضبابًا، بل هو جدار قاسٍ صلد.

أخيرًا قلت باستسلام: «لا يمكن الدخول إلى المختبر المركزي دون إذن، هذا مستحيل».

- سيتعين عليك الاختباء لبعض الوقت لتتعلم كيفية تقدير عمل إيقاعات المختبر، وستحتاج إلى شخصين أو ثلاثة تستطيع الوثوق بهم.. لكن لا داعي للقلق.

وبينما أنا أفكر في الشخص الذي يقصده فيتيج، رأيت بصورة مفزعة كيف نزع قميص وسراويل الصبي الذي تعرض لسوء المعاملة سابقًا، وكيف

لم يكن له أي رد فعل على الإطلاق، ثم بعد ذلك ألقى بالملابس في وجهي، قبل أن يقول: «البس هذا وانتظرني».

اختفى لبضع دقائق في صخب وضجيج مشهد المطعم المتكرر الذي يشبه الدائرة، وعندما عاد وكان قد خبأ مجموعة مرتجلة من الإمدادات الغذائية، تتكون من خمس قوارير زجاجية من الماء وثلاث عبوات من الطعام في قميص معقود.

قلت: «لن ينجح ذلك.. لا بد أنني سأستغرق أسبوعين للوصول إلى هناك».

أجاب فيتيج وهو يلتقط قبعة من امرأة: «طريق العودة سيكون أقصر». قال ذلك بكل سهولة، كما لو أن إلغاء قوانين الطبيعة أمر يشرح نفسه بنفسه، وظلت جميع أسئلتي تقريبًا دون إجابة، كما أدركت الآن في هذه العجلة من المغادرة المتوقعة؛ ماذا حدث للعالم، ولماذا لا تغرب الشمس أبدًا، ولماذا حتى نحن متشابهان إلى هذه الدرجة، كما لو كنا إخوة تائهين.

وقبل كل شيء: ما هو العمل الشيطاني الرهيب الذي يجعلنا نتحد هنا؟ كنت أفكر في ذلك، وأخذت كوبًا وحطمته على الأرض، فاندهشت لرؤية الشظايا تتطاير بفعل قوة غامضة، تكسرت الشظايا في حين كانت لا تزال تتحرك، ثم طُحِنت وانهارت إلى جزيئات صغيرة قبل أن تمتصها الأرض، وعندما حولت نظري إلى الطاولة مرة أخرى، وجدت الكوب نفسه مستقرًّا فوقها.

ظل فيتيج يتحدث معي طوال الوقت: «.. في الجانب الأيسر أي الذي يؤدي إلى معرض صغير باللون الأحمر، ستجِّد هناك صمامًا يفتح للداخل، ستنجح من خلاله في العودة إلى الداخل، وهذا مفرش المائدة لحمايتك من الشمس وهذا للكتابة، فمن يدري..»».

الآن بعد أن بدا أنه وصل إلى نهاية مهامه وأعطاني كل ما كان يعتقد أنني قد أحتاج إليه، قبض على كتفي مرة أخرى: «الحماية الوحيدة للكائنات هي وعيها الشخصي، عدني بأنك ستفعل كل ما في وسعك لإكمال العملية! وإلا فلن يكون لأي شخص مستقبل، ليس لديف على الأقل، ثم يصبح الأشخاص في المختبر، وجميع أصدقائك، بل وجميع أصدقائهم حتى الجيل الثامن مجرد عبيد للاستعباد التكنولوجي».

تراجع إلى الوراء وبسط ذراعيه ككاهن يحتفل بطقس التناول... تذكرت فجأة ما كنت أحاول قمعه طوال الوقت.

- والآن بعد أن أخبرتك بكل ما يجب أن أخبرك به حول هذا الموضوع، حان الوقت للوفاء بوعدك.

قلت: «لا أفهم»، رغم أنني فهمت جيدًا مقصده.

ركع فيتيج أمامي مثل حمل قرباني، وعيناه مغمضتان منتظرًا الذبح، ثم قال: «نفذ وعدك.. لكن افعلها بسرعة الآن».

فتح عينيه وكأنه نسي شيئًا ما، ثم أخرج من تحت سترته سكينًا كان يبدو أنه أُعِد خصيصى لهذا الغرض منذ فترة طويلة، وسألته: «هل الآن؟».

كان السكين يهتز في يدي بشدة لدرجة أنني اضطررت إلى التركيز أكثر على عدم إسقاطه.

- متى هو الذهاب للجحيم؟ فأنا أسير في الجحيم، وأضطر إلى المرور بالآلاف والآلاف من هذه المسارات، هل يمكنك أن تتخيل شعور الأبدية؟

والآن رأيت الدموع تنهمر من عينيه، إنها دموعي، وتتساقط من عيني...

- كان أملي الوحيد خلال كل هذه السنوات هو أن تأتي إلى هنا يومًا ما.. والآن استمر..

شعرت بالدوار، لم أستطع فعل ذلك؛ وماذا سأجد في جسده المبقور؟

- لماذا لا تفعل ذلك بنفسك؟

- لأنني لا أستطيع، فهذا ليس جزءًا من طبيعتي، وإلا كنت قد فعلتها منذ وقت طويل.. من فضلك..

نظر فيتيج إليَّ متوسلًا، ورقبته مرفوعة كحيوان يواجه الموت المحتوم، لكنني شعرت كما لو كنت أخفض النصل على بشرتي أنا، فقلت أخيرًا وأنا أتنفس بصعوبة: «لا يمكنني فعل ذلك.. لا أستطيع».

- ماذا؟

أمسك فيتيج بيدي واتسعت عيناه كما لو أنه يرى الشيطان أمامه، ثم قال: «عليك فعل ذلك، لقد وعدت».

ظننت أنني أسقط في زاوية ميتة، الغرفة التي انسحبت من جسدي، سقطت في نقطة التلاشي الخاصة بها، لذلك تشتَّتُ بعيدًا عن فيتيج، فصرخ

قافزًا ووقف على قدميه: «أيها الأحمق! اقتلني، لقد وعدتني، وعليك ألا تكسر كلمتك، لا يمكنك ذلك».

التقطت الكيس وتعثرت في اتجاه المخرج، ولحسن الحظ كان يعرج أكثر مني، وبسبب قدمه الملتوية المصابة بشلل الأطفال أعيق أكثر في المشي، وبالكاد استطاع أن يتبعني وهو يصرخ بصورة هيستيرية: «عليك أن تفعل ذلك، وإلا سأظل محاصَرًا هنا إلى الأبد، يجب عليك! يجب عليك، يجب عليك فعلها».

كنت على مقربة من الباب عندما شعرت بألم خفيف في ظهري، لقد ألقى فيتيج طبقًا نحوي، لكنه لم يصل إلى رأسي، فقد دفعت جسدي بعيدًا عن الطريق، كنت مدفوعًا بشعور غير متوقَّع بالرعب عبر كل العوائق باتجاه المخرج، وكأنني مضطر إلى الفرار من أبواب الجحيم.

للحظة ظننت أن الأرض ستنفتح من تحتي، لكنني كنت أمسك بالمقبض في يدي وعدت إلى الرمال الساخنة، التفتُّ مرة أخرى، فرأيت فيتيج عند الباب الزجاجي، وفمه مفتوح في صرخة مزقت وجهه في صورة كاريكاتورية لا تصدَّق.. وجه قبيح لن أنساه أبدًا لبقية حياتي.

رغم أنني لم أسمع له صوتًا.

14

أولادي الأعزاء

أنا متأكدة من اهتمامكم بعلم الجغرافيا بشكل خاص؛ ولهذا السبب ستخصَّص الحلقة الأخيرة من مسلسلنا الجميل لعجائب الطبيعة، وهذا يعني بالطبع انهيارها، واستنزافها.

قالت بابوش كلماتها تلك وهي تخفف الضغط عن أزرار سترة التويد التي تشد لدرجة التمزق عن طريق تعديلها.

باختصار سار الأمر على هذا النحو، فكما هو معروف أدى اختلال التوازن غير المتوقَّع إلى تحول الصحراء إلى اللون الأخضر، وذابت القمم الجليدية القطبية، وارتفع جبل إيفرست إلى 80000 متر، في حين تساوى خندق ماريانا بالأرض، وتشكلت قارة جديدة من خلال الانفجارات المستمرة، التي غطتها الحمم البركانية النقية، في حين اقتلع القمر أجزاء كبيرة من موطننا السابق ودفعها بقوة في المدار، كانت ملامح الكتل الأرضية تتساقط لأعلى ولأسفل مثل أمواج المحيط المتقلب، ويمكنكم قراءة أجزاء من هذا التطور في سفر رؤيا يوحنا، لا لا... هذه مجرد مزحة أيها الأطفال الأعزاء، فنحن نتبع نماذج محاكاة علمية صارمة.

في ذلك الوقت كان هناك 120 مليار شخص على وجه الأرض، فكل دقيقة ينحدر 10000 طفل جديد على الأرض

العارية مثل السيول التي حدثت في شلالات نياجرا السابقة، ومن هنا نما المصدر الحقيقي للمشكلة؛ لأن الفتيات أصبحن ناضجات جنسيًّا في سن الرابعة، وكان الاتجاه ينخفض بشكل حاد، وأخيرًا نشأت ظاهرة الولادة، فالأطفال كانوا ينجبون في أثناء ولادتهم. نعم، نعم مشاهدينا الأعزاء! أصبح من الصعب التمييز على الإطلاق، ففي معظم الحالات لم يعد من الممكن تحديد ماهية الإنسان في الواقع؛ لأن الأجساد تتدفق بسلاسة إلى المناظر الطبيعية، وانجرفت المناظر الطبيعية بدورها دون انتقال إلى الأطراف المحروثة، ونمت الكتل الأرضية في شكل أنسجة مؤلمة، وقد تطور الأشخاص الذين يعيشون تحت الأرض إلى نوع من فصائل حيوان الخلد الذي يصعب تمييز لونه عن فضلات الترسبات.

ومن أجل معرفة ماهية الإنسان، لا يوجد خيار آخر سوى الاعتماد على الآلة، أي أن الآلة هي التي ستظهِر لنا مخرجًا من بؤس ما صنعنا، اتبعوا ديف، ديف أكثر إنسانية من أي إنسان، فهو يسحب ما بداخلنا من أشياء عرضية، وينتشلنا من الأحشاء والقاذورات والمادة، ما هو مهم هو فقط ما يبقى، الذكاء والروح والخلود.

من أجل أن نصبح بشرًا، علينا أن نلغي البشر.. أيها الأطفال الأعزاء.

الآن ديف، والآن ديف، والآن ديف!

***

فكرة أن طريق العودة يبدو أقصر من طريق الذهاب تسمى بظاهرة رحلة العودة، فلطالما دفعت خلفيات التصرف الغريب غير المتزامنة للعقل البشري الباحثينَ إلى التكهن، ولفترة طويلة كان يُعتقد أن الأمر يتعلق بالذاكرة؛ فكلما أدركنا المزيد من التفاصيل، أصبحت تخميناتنا منطقية أكثر، وبالتالي يمر الوقت أبطأ، نظرًا لأن طريق العودة هو مجرد تكرار، واندفاع ما صُنِّف منذ فترة طويلة، يبدو كما لو أنه يتبخر.

ولكن سرعان ما حُدد محفز آخر: ماذا لو لم تستطع تذكر مدى قصر الرحلة في الواقع؟ رغم أن هذا التفسير يبدو غير بديهي في البداية، كان وضع البحث متينًا جدًّا، ولأن فقدان الذاكرة المنهجي الدائم ليس مشكلة الذاكرة، بل مشكلة عدم وجودها أصلًا، فكل طريق عودة يبدو أسرع وأقصر بكثير من طريق الذهاب، وكذلك التقدم في السن.

وقد كتب إرنست فون فويشترسليبين: «يمكن فقط الانخداع بالمظهر من خلال النظر إليه والتعامل معه كطريق للمضي قدمًا».

لذا فإن الحل هو قلب اللغز.. لم يكن من الممكن أن يشرح لي أيٌّ من هؤلاء مدى السرعة التي مرت بها رحلة العودة، حيث نُقِل امتداد الطريق تحتي في صورة نهر رملي، فهل كنت أسير في دوائر في أثناء ذهابي؟ وعلى الرغم من أنني لم أكن أتحرك بشكل أسرع وأن قدمي -رغم تعافيها الملحوظ- ما زالت تعرج في السير، فإنني تعرفت الآن على المحطات التي اجتزتها سابقًا كأنها معارف قدامى، وبدأ المكان يتعاون معي، ويصبح حليفًا لي، ولم يمر يومان إلا وقد رأيت المختبر يملأ مجال رؤيتي مرة أخرى.

حدث لي تغيير من الداخل أيضًا، ففكرة العودة التي كانت تهزني حتى النخاع منذ وقت قريب، خَلعت عباءة الرعب مذ قارنتها بالرعب الذي شعرت به جراء لقائي بفيتيج، يمكنني فعل أي شيء حتى لا أعود إلى مطعم مملكة السماء مرة أخرى، هذا الذي تتصارع عقارب الساعة به في دوائر كأنها أجنحة صغيرة ترفرف، في حين يجثم ثقل الشعور بالخلود على الصدر، رأيت في ذكرياتي كيف تتطاير الرمال والصخور على أرضية المطعم، وعلى وجوه الناس، وعلى الشمعدانات اللامعة، ومع ذلك لا تترك أي أثر.

سرعان ما أصبح المختبر على بعد يمكن الوصول إليه، كنت أسعى بلا هوادة نحوه. أن أظل في هذه الصحراء أو أن أموت فيها.. لم يعد هناك خيارات أخرى، ويبدو أن الصحراء نفسها قد فهمت هذا أيضًا وقادتني مباشرة إلى نهايتها، وهذا يعني أنه عندما نفدت المؤونة مني بعد بضعة أيام، كنت أتسلق بالفعل المعرض الحجري، الذي يشبه كتلة صخرية منفصلة وضخمة لا يمكن اختراقها ويجمع بداخله عالمي كله، والآن فقط استعاد المكان أبعاده المعتادة، لا بد أن الأمر استغرق مني ساعة للانتقال من زاوية إلى أخرى، حيث رأيت مكعبًا أحمر متلألئًا كما قال فيتيج، وارتبطت العودة بأكثر المشاعر غير المتوقعة، فهناك شعور بالحنين إلى الوطن يظل يلح تحت قفصي الصدري

كالغريب، ومع ذلك أشعر بأنه مألوف، ففي الداخل كانت هناك حياة، أما من حيث أتيت الآن لم يكن ثمة شيء، كان هذا التركيب واسع النطاق بشكل لا يصدَّق، ومع ذلك.. أعني في الوقت نفسه عندما أمرر يدي على سطح أملس، يجب أن يلائم شكل يدي المقعرة تمامًا، أعني أن كل شيء جرى كما توقع فيتيج تمامًا.

لاحظت انحرافًا طفيفًا في الجدار حيث مكان الصمام الذي وصف لي، لكن كلما اقتربت من الموقع، انتابني ارتباك لا شعوري، كما لو كانت هناك حركة في الخرسانة المسلحة تشبه حركة العضلات المتشنجة، فسحبت يدي مرة أخرى على الفور؛ حيث شعرت للحظة بتموجات اختلاج عضلي بشع، كالانقباضات العضلية لحشرة مصفحة تحتضر.

لا يمكن أن يتوقف الأمر على ذلك، مددت يدي مرة أخرى بتردد على الواجهة، فشعرت على الفور بالارتباك البغيض مرة أخرى، لكن هذه المرة لاحظت ما كان مضمَّنًا في الارتباك والرعشة، كانت يدي تتلوى، وأصابعي ترتجف مثل أصابع شخص غريب الأطوار، إنها تخيلات لا معنى لها، اتكأت على السقف المتحرك، في حين ظلت اللوحة تتأرجح بشكل جانبي ميكانيكيًّا.

انفتحت بوابة كبيرة بما يكفي لتمكنني من العبور من خلالها بوضع القرفصاء، وكنت أتوقع وجود مدخل تهوية، وبدلًا من ذلك امتد الممر أمامي واسعًا مثل مزود التوصيل، ظننت أنني مرتاح إلى حد ما، ولكن بمجرد أن دلفت إلى الداخل، عاد الاشمئزاز المسبب للشلل، كنت على دراية كاملة بوحدة الضغط الجوي مرة أخرى، لكن هذه المرة فقط أصبحت كثيفة ومتشابكة مثل بصيلات الشعر... كان الجو مظلمًا تمامًا خلف الجدار على بعد متر، وضوء الشمس الساطع ينعكس من الخارج على الحواف شديدة الانحدار.

بشجاعة قسرية تقدمت خطوة إلى الأمام وابتُلعت، فالأرضية ليست سوى سطح ملطخ بالزيت، ولم أقطع سوى عشرة أمتار، ثم بدأت في التأرجح، وهو وضع أبلغ عنه جهازي الدهليزي بسبب السواد التام، وسرعان ما اضطررت إلى إراحة يدي على ركبتي، ثم توقفت واستجمعت قواي، حتى تنتظم المتاهة العظمية في أذني الداخلية. فقط ضد ماذا؟ واصلت تلمس طريقي على طول الجدران المنحدرة حتى اصطدمت بجدار من الطوب.

الآن كان عليَّ أن أتخذ قرارًا -يسارًا أو يمينًا- فاستدرت يسارًا.. لكن بعد لحظة من التردد قررت أن أضع قنينة زجاجية كعلامة حتى أتأكد من أنني لا أدور في حلقة.

ثم سرَّعت وتيرتي واندفعت للأمام، لكنني شيئًا فشيئًا صرت أشعر أن هناك شيئًا ما خطأ في هذه الممرات، كما لو كان المكان قد تغير قليلًا، توقفت بصورة بديهية، وهتفت في الظلام: «مرحبًا!» لكن لم يكن هناك من أحد ليرد، لا شيء يرتد عن الجدران، فقط امتصاص لا نهاية له.

صرخت مرة أخرى: «هل من أحد هنا؟».

ومع كل صيحة بدا أن غياب الصدى يزداد عمقًا.. كنت أتنفس بصعوبة، وتشنجت عضلاتي بصلابة باردة.

تخيلت شيئًا لم أتمكن من رؤيته يعشش في الزوايا الميتة لحواسي، وكنت في انتظار أن يتبعني، لكن لا شيء، لا شيء، لا شيء كما ظننت، وفي تلك اللحظة أدركت ما كان ينتظرني، كان سكون فروليش.. ذلك الصمت الذي يتسلل عبر المكان، ويرتفع من الزوايا والشقوق، في حين كان صوته الناعم يطغى على نبرات الآخرين، بدأت في الركض كما لو كنت على وشك أن أودي بحياتي.. هبطت في الممر بأسرع ما يمكن دون أن أتوقف، وكلما ارتفع صوت خطواتي، تزايد الهدوء أكثر فأكثر، حتى سمعت أخيرًا صوت كسر.. صوتًا حادًّا بسبب كسر الزجاجة حطم الصمت... زجاجتي، لقد كنت أركض في حلقة، لكن الممر قد امتد ميتًا بشكل مستقيم.

درت حول نفسي.. كل قابليات التدمير الحساسة لجسدي، وكل احتمالات إصابته كانت تحيطني بإحكام من كل اتجاه، تمامًا على هامش مجال رؤيتي؛ حيث لم أتمكن من رؤية أي شيء، وفهمت الآن مدى السرعة التي ينبغي السير بها..

كنت بحاجة إلى خطة، شيء ما يتغذى ذهني عليه في ذلك الصمت المطبق، فأمسكت بالجدار بيدي، وانحنيت، وتمددت لأعلى، فوجدت فتحة في السقف؛ على الأقل سأستمر في السير بشكل رأسي.. اندفع جسدي إلى المدخنة، ولم أكن خائفًا من السقوط، لأن ما كان يجثم عليَّ في الخلف كان أكثر إثارة للخوف، وسرعان ما تمسكت بإحدى الحواف، دفعت نفسي إلى الأعلى واستلقيت على ظهري ألهث، ولكن كلما هدأ تنفسي المجهد، اقتحمني

الشعور الفظيع الذي كنت أعانيه من قبل، ثم شقت فكرة أكثر رعبًا طريقها إليَّ. ماذا تعني التجربة الطبيعية؟

سحبت الزجاجة الثانية بتردد من حقيبتي واتجهت نحو الحافة التي صعدت إليها للتو، أمسكت بالزجاجة فوق السطح المهمَل لبضع ثوانٍ، وتركتها تتدحرج، ثم.. لا شيء! لا اصطدام، ولا كسر، كما لو كانت قد أبحرت مباشرة في فضاء لا نهائي صامت، عندها دفعت بنفسي على الفور وتأكدت من مواصلة السير.

من خلال الممر التالي اضطررت إلى التحرك على أربع، حيث كان أكثر انخفاضًا من سابقه، عندها كان الجدار المعدني البارد يضغط بعنف على ظهري، وأصبح من المستحيل تحديد المدة التي زحفت فيها بهذه الطريقة، لكنني شعرت بألم في ركبتي، وخارت قوى ذراعي، وانهارا هنا وهناك، لذا اضطررت أحيانًا إلى التوقف والتنصت إلى الأعماق.

فجأة اصطدمت جبهتي بالحائط، خرسانة صماء، لقد كان الممر الذي نزلت فيه ليس سوى طريق مسدود، فحاولت الاستدارة، لكن المساحة ضيقة جدًّا، والآن بعد أن دفِنت وأنا على قيد الحياة هكذا تمرد جسدي على كل شيء، التويت واستدرت، وصرخت، لكن المبنى كان يمسك بي بقبضة فولاذية، فضغطت على كتفي من الأعلى ولويت ساقيَّ المنحنيتين بشدة. ثم اندفعت يدي الضاربة مخترقة مساحة خالية، لقد امتد الممر بزاوية قائمة جهة اليمين، ولم ألاحظ ذلك بينما كنت أندفع للأمام، حارب جسدي هذا المكان بكل قوته، وشعرت بالرغبة في التقيؤ ولم أستطع، إضافة إلى ذلك كان الممر يضيق بشكل مستمر، لكن بعد مرور بضع دقائق أخرى بدأت الفتحة التي كنت أتحرك من خلالها تتسع بما يكفي لمرور جذعي بشكل عرضي، وفقط عندما اعتقدت أن هذا أيضًا يوشك أن ينتهي، اصطدم رأسي بعقبة أخرى.. لقد شعرت بمقبض، ووجدته يدور في تجويفه، وفتحت حفرة صعبة الفتح، فضرب الضوء عيني بقوة صارخة؛ لدرجة أنني اضطررت إلى إغلاقهما بينما كنت أعاني.

كما لو أن هذه الفتحة كانت تنتظرني كل هذه العقود، تمكنت من شق طريقي عبر حفرة مخروطية الشكل بقياس مناسب جدًّا، ثم نظفت شعري

من غبار القرون المتراكم، ورفعت ساقي لأعلى، فشاهدت الصمام يتناسب مع شكل الباركيه؛ تمامًا كما لو لم يكن هناك إغفال مطلقًا.

بعد بضع دقائق اندمجت ومضات الضوء مرة أخرى في كل الملامح، لقد وصلت إلى غرفة تخزين صغيرة مؤثثة بلا مبالاة، وتذكرت على الفور أنه يجب ألا أسمح لأحد برؤيتي، فاستدرت خلف منصة معدنية، كانت المجسات الكهربائية لآلاف الأشرطة المغناطيسية الصغيرة تدق بهدوء على الجدار الخلفي للغرفة، لكنها لم تكن واحدة من مزارع الخوادم الحديثة التي نستخدمها في بقية المختبر، نظرت حولي بعناية قبل أن أتأكد، لقد انتهى بي الأمر في قاعة بريتوريوم -وهي واحدة من أقدم الغرف في المختبر- حيث تخزن إصدارات قديمة من ديف على محركات أقراص صلبة، لم أتمكن من اختيار مكان أفضل للاختباء، حيث يتطلب هذا المخزن القليل من الصيانة، تذكرت ذلك من الكلية، وكان من النادر أن يذهب أي شخص إلى هذا العمق من الطابق السفلي.

لكنني ما زلت أحاول التقليل من حدة الشعور بالراحة مرة أخرى، حيث كان المستحيل أمامي، ولم أكن أعرف حتى ما الذي سأفعله بالضبط، أهم شيء هو التفكير بعمق وعدم الاستطلاع حتى أخطط للخطوة التالية، وبعد أن ظللت في الكوخ الخاص بي لبضع دقائق، تسلقت بحذر إلى العراء.. ثم ندمت على الفور على هذا القرار، حيث تذكرت كاميرات المراقبة مرة أخرى، فأمسكت بلفافة من الورق البني وحافظة كمبيوتر فارغة وعدت إلى مخبئي، أغلقت خط الرؤية بالحافظة البلاستيكية وشرعت في تمزيق قطع من الرقائق على اليسار واليمين لإنشاء نوع من الكهوف حيث لن يجدني أحد بسهولة.

وعندما حاولت الزحف مرة أخرى إلى مخبئي، اعتقدت أن عيني -التي بالكاد استطاعت الاعتياد على الضوء- كانت تضللني، فما حدث مستحيل وغير وارد نهائيًّا! فأنا نفسي لم أكن أعرف أين سأكون قبل عشر دقائق، ومع ذلك كانت هناك رسالة... فتحتها ببطء.

«ابحث عن ماندلبروت في قاعدة بيانات الموظفين، وسوف تندهش».

***

لاحظت البقعة على يدي لأول مرة عندما استيقظت، واعتقدت أنها التصقت بي في أثناء التسلق إلى المختبر، أمضيت اليوم الأول بعد عودتي مستلقيًا في مخبئي الخاص، وبمجرد عودتي إلى النظام الرائع للمختبر، أدركت كم استنزفتني تلك الأوديسة التي مررت بها، فلمدة ست عشرة ساعة من الوقت الذي استرددته حديثًا -حيث تمكنت من متابعته من ساعة لوحة التحكم- كنت أغفو بين الحين والآخر، لم أستيقظ إلا على دهاليز التفتيش المتفرقة للموظفين خلف الأبواب المغلقة، وعندما قررت أخيرًا العودة وحاولت سحب نفسي من الإطار المعدني، شعرت بنقطة خشنة على الجانب السفلي من إصبعي السبابة، فقربت يدي بالقرب من عيني، كان طرفها لزجًا، كأنني قد تلطخت بالزيت عن طريق الخطأ؛ تشكلت طبقة دهنية داكنة. وبدت كأنها بقايا مادة لاصقة، رطبة وميتة.

تسللت إلى أقرب مرحاض وحاولت بكل قوتي أن أغسل المادة ذات اللون البني، لكنني لم أنجح.. وبعد فترة وجيزة من الغسيل ظهر احتكاك غريب مرة أخرى، يبدو أنه ليس مجرد شيء يتشبث بجلدي، ولكنه نقش محفور في أخاديد على يدي، وبينما أنا أتردد ذهابًا وإيابًا على المرحاض، لاحظت لأول مرة المناخ المتغير في المختبر، ففي كل مكان هناك حركة طقطقة. واحتكاك في الأسطح كأنها نذير بعاصفة رعدية.

لكن في اليوم التالي فقط عندما كدت أتقبل وجود طبقة الزيت الكريمي على يدي، اختُرِق ملجئي الهادئ أيضًا، وكان ذلك في وقت عصيب، عندما أيقظني ضجيج مدوٍّ، فقد دخل أربعة أشخاص -رجلان وامرأتان- إلى الغرفة وشرعوا في نقل برج معدني، لكن قلقي من أن يكتشفوني قد تبدد فورًا؛ بسبب وقاحة تلك المجموعة، فعند مشاهدة طريقة تصرف كل منهم في ذلك الوضع، لن يخالجك شك في أنهم عميان.

قال أحدهم: «أعطني مفتاح حلق». لكن المرأة التي كانت راكعة بجانبه بدلًا من العثور على الأداة المناسبة، سلمته ما بدا أنه عظمة مقضومة، الآن فقط عندما انحرفت جانبًا خارج الكهف الخاص بي، أدركت كيف بدا جميعهم مشوهين بشكل لا يصدَّق، لقد ازدهر الضباب في المكان، وكانت الأفاعي البرمائية معلقة في شعر المرأة، كما بدت ملابس العمل خاصتهم وكأنها قد عُلقت على خنزير لمدة أسبوع يتدحرج فيها في حفر عديدة بألوان مختلفة على نطاق واسع.

أما الرجل الذي كان يحاول الآن وضع العظمة في رأس المسمار بكل بديهية لم يكن لديه سوى قطعة من أحد أنواع أقمشة التنظيف معلقة حول كتفيه وينساب منها القليل من الرغوة على ظهره ثم تتقاطر على الأرض.

نعق الآخر: «صليب المسمار مهترئ بعض الشيء»، بينما انقطعت الشعيرات الموجودة على الإطار.

ردت المرأة بلا معنى: «مرتين يسارًا.. ثم أسقِط واحدًا»، وبدلًا من القلق بشأن المسمار، استدارت للجدار ودفعته بكلتا قدميها حتى انفصل عن الدعامة وتساقطت قطع من الجبس على رؤوس الأربعة، وأخيرًا حمل أحدهم جهاز الكمبيوتر، ثم غادرت المجموعة.

فكرت بعصبية في نوع الظروف التي يمر بها المختبر، ثم نزلت من مخبئي لأتبع المجموعة، على الرغم من أن مخيمي كان بعيدًا عن المسارات المزدحمة، لكن في اللحظة التي دخلنا فيها ممرًا أكبر، وجدت قدرًا كبيرًا من النشاط، مئات الأشخاص يحملون أشياء من اليسار إلى اليمين دون أن يتمكنوا من تحديد نقطة محورية حقيقية لهذا النشاط، وفي كل مكان وميض وطنين، وعلى لافتة معلقة بعرض الممر كتب: «ثلاثة أيام على الإصدار» «كل شيء يتجمع في قاعة أناس وحيوانات فرحة للسعي لتحقيق الهدف النهائي».

الهدف النهائي..

يبدو أنه لا يوجد تنسيق بين الناس وبعضها، فقد جروا الأسلاك والأجزاء الإلكترونية خلفهم والشرر يتطاير منها على الأرض، وآخرون يدقون خطافات في الحائط ويربطون الصور، التي جذبها أحد المتابعين أرضًا بعد دقيقة واحدة.

فهناك عبارة «انتباه! الخلاص!» مكتوبة على أحدهم، وأم تجر طفلين خلفها بنوع من الأسلاك دون أن تلاحظ أن أحدهما الذي ربطته بمقبس أسود حول كاحله كان نائمًا تمامًا ورأسه مسحول على الأرض. ومن ناحية أخرى جلستُ أمام لافتات لامرأة شابة من الواضح أنها تؤدي عملًا احتجاجيًا عن طريق غطاء من الورق المقوى رسمته بنفسها، ثم صرخت: «الخوارزميات ليس لها أرواح! لا يمكنها أن تحب!» ليهرع رجل شرطة ويلكمها في وجهها، ثم يسحبها بعيدًا، لم يعد هناك أي استمرارية في التتابعات، حتى لو كان هناك شخص يسير في الممر مشغولًا وذا هدف، فإن هدفه يكون الشجار عادة، في البداية اعتقدت أنني يجب أن أضحك على هذا المشهد، لكن عندما سمعت

أخيرًا صوتي الخشن، فوجئت بنفسي، فما رأيته لم يكن تشويشًا كوميديًا، ولا تهريجًا.. كان الأمر خطيرًا للغاية، لقد أذيب صمغ جميع الكائنات هنا، أنا أمام فوضى مطلقة.

أعدت التفكير وسلكت طريق العودة إلى الغرفة، جثوت عند الحائط، وتنفست بعمق، وشعرت بأن النظام يعود إلى حواسي وأفكاري، كان هناك منطق.. ورابط أيضًا. ولم ألبث أن تعافيت مما رأيته للتو، ذلك عندما رأيت شيئًا أثار قلقي مرة أخرى، ففي مخبئي -مرة أخرى دون أي أثر للاقتحام- وجدت طعامًا وحزمة من القماش مربوطة بإحكام، فقفزت من المخبأ، وهرعت إلى الممر.. لكن لم يكن هناك أحد، نظرت إلى اليسار ثم إلى اليمين.. لكن ما الذي أبحث عنه على أي حال؟

لذا عدت وفتحت الحزمة، كان زيًّا أزرق اللون ينتهي بحمالات في الأسفل.. إنه لباس عمل لأفراد الصيانة، لقد أعد شخص ما زيًّا تنكريًّا لي.

ابحث في قاعدة بيانات الموظفين عن ماندلبروت

نزلت في أرجل البنطال، والتقطت القميص الأبيض وشمرت الأكمام بعناية، لم أستطع أن أكون في عجلة من أمري وأنا أرتدي ذلك اللباس، جلبة الشعر تناسبني جدًّا كالقفازات، والواقي الذي يحافظ على الجزء الأمامي من شعري بعيدًا عن وجهي صُمم خصيصى لي.. ربطت المريول بالطول المناسب، كان من المهم بالنسبة إليَّ أن أشعر بالراحة في ملابسي.

أنا مضطر إلى الوصول إلى أحد أجهزة الكمبيوتر العامة في المكتب المفتوح، وتسجيل الدخول إلى قاعدة بيانات الموظفين حيث يمكنني البحث عن ماندلبروت، اعتقدت أن تلك كانت خطة يمكن إدارتها، وفجأة أصبح كل شيء بداخلي هادئًا تمامًا، بعد ذلك وبقناعة متجددة فتحت الباب وغادرت.

فكرة أنني رصين تمامًا لا تعني أن تغيير الهالة في المكان لم يزعجني مرة أخرى، فأول ما أدهشني هو أن العدوان الغريب الذي أظهره الناس تجاهي وواجهته في زياراتي السابقة للطابق الأول قد اختفى، لم أكن أعرف ما إذا كان ذلك بسبب ملابسي أو تأقلمي مع الوضع، لكن لم يحدق أحد إليَّ كالمعتاد، عبرت تقاطعًا كبيرًا وأبقيت رأسي منخفضًا، لكن لم يمض وقت طويل حتى أدركت أن لا أحد يهتم لأمري على أي حال.

لم أر مثل هذه الحركة من قبل، فالناس يتدافعون في اتجاهات مختلفة، ويبدو أنهم غير قادرين على التنسيق فيما بينهم بعد الآن، يجب أن أصل إلى المصعد، لكن هذا كان مستحيلًا.. فذهني يتأرجح، وبدا لي أحيانًا أن الشحن المفرط للمعلومات الحسية يجبرني على إنشاء بياناتي الحسية... تمكنت من الوصول إلى إحدى المقصورات وأنا ألهث.

هل زاد عدد السكان أم أن أحدًا لا ينام هنا؟ كانت الهالات السوداء محفورة تحت الأعين في وجوه الناس، لقد راقبتهم وهم يسيرون، لم يكن الأمر مجرد إرهاق، إنه تعب.. نوع من الإعياء الذي يأتي من تجاهل حاجة ما للجسم. نحن نجرح أنفسنا على حافة العالم، وبدلًا من تجنب الجرح الفعلي، نبسط طبقة تلو الأخرى فوق نقطة التأثير لنتعلم كيفية تحملها.

في الطابق الثاني تقيأ المصعد المزدحم محتوياته، فحتى من زاوية العين فقط بدت التغييرات واضحة في المكان، من المؤكد أن المكان لم ينظَّف منذ اليوم الذي غادرت فيه المختبر؛ لأنني تعرفت على أجزاء الأسلاك وكرات الغبار والأوساخ وبقع الزيت، نظرت إلى البقعة الليفية على يدي.. لها اللون نفسه ولا يمكن غسلها.

ما كان يبدو في السابق وكأنه خطأ رهيب، أصبح الآن هو النهج الثابت للمختبر؛ فالكافيتريا البيضاء الناصعة، التي طالما بدت نقية في السابق أضحت الآن وكأنها داخل حظيرة ماشية، وألقيت الصحف القديمة فيها بلا مبالاة على أمل أن تُمتَص الفضلات وبقايا الطعام، وكُتبت عبارة «ديف يمكنه حل مشكلات الولادة» فوق بدلة من ثلاث قطع ملقاة على مقعد مع مسحة بنية اللون وعبارة «بدِّل الخصيتين إلى الوضع الرقمي الآن».

جلست على المقالة المشفرة ونظرت حولي، لن يفهم أحد ما يحدث حتى لو كان يراقب الموقف قبل خمس دقائق؛ لقد امتد طابور من الناس عبر الغرفة التي يبلغ طولها مائة متر، الطلاب وكبار السن والأمهات مع عائلاتهم متراخين على الطاولات، وكانت الخيام ومواقد التخييم على الأرض، والمرحاض المتنقل المرتجل.. كان الجميع هنا.. الجميع باستثناء ماندلبروت، الذي لم أجده في مكانه المعتاد أو في أي مكان آخر.

عندما مرت أمامي فتاة، لم أستطع منع نفسي أكثر، وسألتها: «ما هذا بحق الجحيم؟».

ردت الفتاة الصغيرة: «هذا هو الطابور إلى القاعة.. ديف قادم لرؤيتنا في غضون ثلاثة أيام، يمكنك الانضمام إلى نهاية الصف».

قلت بدهشة: «لكن القاعة تبعد أكثر من كيلومترين عن هنا!».

تدخلت الأم التي كانت لا تزال ترتدي قناع النوم فوق عينيها: «نعم، ما رأيك؟ البعض يصطف في طوابير منذ أسبوعين، إنه يتجه يسارًا ثم حول الممر الدائري بأكمله».

يبدو أن كل شيء يستطيع أن يمشي ويزحف ويتدحرج قد تجمع هنا.. فقط مكان ماندلبروت السابق كان فارغًا، بالطبع لم يتحسن الوضع في الخارج، وفهمت الآن أن العمال الأربعة الذين رأيتهم بالأمس كانوا يتمتعون برعاية جيدة، لأن الأشخاص الذين سارعوا عبر الممرات مثل رجال الأعمال كانوا في حالة يائسة، ففي البداية لم أتمكن من تفسير حالة العرج العام قبل أن أرى أن بعض الناس انتعلوا الأحذية في القدم الخطأ.. أي اليسار في اليمين والعكس. جميعهم مهووسون دون أن يقدروا على تفسير سبب هوسهم بالضبط!

كان كل شخص يحمل شيئًا ما بيده، كالتمائم التي توضع على الصدر لتحدد العالم، فإذا نظرت من كثب تجد أنها في الغالب مجرد خردة.. قطع متراخية من الأنابيب ورماد حديدي.. حتى إن رجلًا قد حشر باذنجانًا في حافظة الأوراق بالقوة، ثم مرة أخرى كان السباكون في طريقهم لتركيب شيء ما ولكنهم فشلوا في استخدام المطرقة التي حركها رئيس العمال رأسًا على عقب.

وكذلك الحركة العكسية المباشرة.

تجعد الجفون، وهي حساسية للضوء تجعل الناس يبسطون راحة يدهم فوق أعينهم، كما لو أن تحت كل هذا الوميض هناك ثقل يسرق الأجساد والقلوب، ليجعلهم متكاسلين أمام وضع العالم.

كُتبت عبارة «ديف أنت المنقذ» على نوع من الستار المخرم هندسيًّا يجره صبي صغير خلفه بصعوبة، والآن كدت أفتش الناس، فكلما اقتربت من هدفي وهو المكتب المفتوح، أصبحت أكثر شكًّا في أي شخص يمر في طريقي. حتى انطلقت في رأسي فكرة فجأة! كيف سيبرر عامل الصيانة جلوسه أمام

الكمبيوتر؟ لكن الوقت كان قد فات.. لقد وصلت بالفعل إلى البوابات الدوارة، وصرخ أحدهم من بعيد: «معذرة.. نعم، أنت هنا».

استدرت بشكل عكسي.. لقد قُبض عليَّ لا محالة، واشتعلت وجنتاي بالحرارة، لكن بدلًا من الاندفاع ركضًا إلى الأمام، استدرت للخلف مثل حمل وابتسمت للرجل الذي اقترب مني في هذه الأثناء ومد يده لي بالسلام، ثم قال: «نحن ننتظر منذ ساعتين»، وأشار إلى غطاء فتحة الصيانة المكشوفة على الجانب الأيمن من المكتب المفتوح، ثم أكمل: «لقد انقطعت القوى الكهربية للأجهزة الثلاثة، نحن نجلس هنا متأخرين لمائتي ساعة، ضع في اعتبارك أن أمامنا ثلاثة أيام قبل الإصدار».

قلت على عجل: «بالطبع»، متكئًا على أحد أجهزة القراءة حتى لا أتعثر، ربما كتبت لي السلامة. وأردفت: «إن قدرة التيار التفاعلي أصبحت عالية جدًّا بهذا الخط الكهربي؛ لأنها تعمل لفترات طويلة جدًّا».

خطأ.. لم تكتَب لي السلامة بعد، بالطبع لأنني لم أكن أعرف أي شيء عن الكهرباء.

- هل يجب تصحيح الجهد الاسمي باستخدام مستعرض أم لا؟

أومأت برأسي فقط، على الرغم من أنه سألني سؤالًا حاسمًا. وأخيرًا قلت بشكل عشوائي: «نعم، يجب التصحيح».

- حسنًا، ولكن بعد ذلك باستخدام مدفأة كهربائية.

أومأ الرجل برأسه، ويبدو أنه راضٍ، فهمستُ له: «لن يتحقق ذلك في لمح بالبصر»، كنت أبحث داخليًّا بيأس بالفعل عن مصدر إلهاء، لكنني نسيت شيئًا واحدًا فقط.. فقلت: «إذا كنت لا تمانع.. ليس لدي بطاقة دخول، فأنا أعمل في الطابق السفلي في ورشة العمل».

قال الرجل، الذي عرفت الآن أنه قائد المجموعة من خلال هويته: «بالطبع»، وبسهولة تامة مرر هويته على الماسح الضوئي.

كان صوتي ضعيفًا للغاية عندما استدرت مرة أخرى، وقلت: «أوه، الآن فكرت في الأمر جيدًا.. ربما أحتاج إلى استخدام أحد الحواسيب؛ لإرسال رسالة نصية إلى زميل؟ سيكون الأمر عاجلًا».

فرد قائد المجموعة: «افعل ذلك نيابة عني، فقط اطرد أحد المبرمجين وقل إنني طلبت منك ذلك، إن نصف الهراء الذي يحدث في تلك الآونة يكون من صنع أيديهم».

أومأت برأسي، وعاد الرجل إلى مجموعته لأشعر بالارتياح، سرعان ما وجدت مقعدًا، لكن أولئك الذين يجلسون على يساري ويميني ضغطوا عليَّ بأكتافهم مثل كماشة لحمية، ولحسن الحظ لا يبدو أن جاريَّ يهتمان أكثر بالنظر إلى شاشتي؛ فكلاهما يلعبان لعبة المركبة الفضائية على أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم، إلا أنهما كانا يندفعان بشكل متقطع إلى وحدة التحكم في البرمجة كما لو أنهما يتأكدان من أن كل شيء على حاله.

سارت الأمور كالساعة، لم أضطر حتى إلى تسجيل الدخول لأن كل من كان يعمل على الكمبيوتر من قبل قد نسي إنهاء جلسته قبل المغادرة، والآن أضع أصابعي على لوحة المفاتيح لأول مرة منذ أسابيع.

لم أضغط على أيٍّ من الحروف حتى الآن، عندما لاحظت ذلك مرة أخرى.. الصمت، لقد وضعت صناديق الكمبيوتر في مجموعات صغيرة تحت الطاولات.. حقول بلا صوت ولا حياة فيها.

كتبت في حقل البحث «ماندلبروت»، وأخرج النظام نتيجته على الفور: صفر.. لقد تقاعد بالفعل، وكان من المؤكد أن يسير الأمر على هذا النحو.. لذلك وسَّعت نطاق البحث ليشمل جميع الموظفين السابقين، ونقرت.. نتيجة البحث صفر.

ماندلبروت.. ماندلبروت.. إنه اسم مسرحي، لم تخطر في بالي هذه الفكرة على الإطلاق، انخفض مستوى الضوضاء بشكل غير محسوس تقريبًا، وعندما استدرت.. لا شيء! لم أشعر بشيء إلا بعد أن نظرت إلى الشاشة، كان هناك شيء يستقر على هامش مجال رؤيتي، والآن يتحرك عبر الفضاء بخفة وفي الخفاء.

قلت لنفسي: ركز *يا سيز!* رددتها في مساحة فارغة خالية من الطنين، وفجأة تذكرت شيئًا.. ففي بداية لقاءاتنا عندما كنت لا أزال أخطط لسؤال أصدقائي عن هذا المهووس، التقطت صورة له، وهي لا تزال مخزَّنة في مكان ما على هاتفي، مررت أصابعي خلال ملفاتي ووجدت صورة ماندلبروت كما أعرفه.. لحيته كثيفة ورمادية ونظراته قاتمة، ونظرًا لأن الصورة التي أدخلتها في خانة البحث عن الصور تدور عبر جميع قواعد البيانات، ألقيت نظرة

متفحصة على وجهه للمرة الأولى، والآن بعد مضي فترة طويلة على رؤيتي له، ذكَّرني بشخص ما، كانت الذكرى ثقيلة كما لو كانت مدفونة تحت جبال من رواسب الحياة، ثم أذابني الإدراك.. وفي الوقت نفسه أشار جرس ناعم إلى أن البحث قد توصل إلى نتيجة، لقد عثر على ملف موظف، وعندما نقرت على صورة الملف فقدت التركيز للحظة، وكانت تلك هي اللحظة الحاسمة.

لقد أمعنت النظر ثلاث مرات قبل أن أتعرف عليه، ففي الصورة التي بدأت تتراقص أمام عيني لم يكن ماندلبروت يرتدي المعطف والسراويل القصيرة التي التقيته بها لأول مرة، بل كان يرتدي قميصًا أبيض ناصعًا وبدلة باهظة الثمن، وقد كشفت لحيته الجديدة عما كُتب تحتها بأحرف غامقة.. أرتور فيتيج (مدير تطوير البرامج).

وقفت ببطء وضبطت الجلبة على رأسي. والآن بعد أن تفككت باريدوليا الصورة، لم يعد هناك أي شك.. دفع الوجهان بعضهما دون مقاومة.

صاح قائد المجموعة الذي قادني إلى الداخل سابقًا وأمسك بذراعي: «يا هذا! أنت لم تنظر حتى إلى الضرر!» كان ماندلبروت وفيتيج الشخص نفسه، امتد القلق الذي علق بمؤخرة رقبتي ببطء مثل رذاذ البحر، عندما غادرت الغرفة انتشرت جزيئات باردة دقيقة الحبيبات.. عدت ببطء إلى المصعد، الذي كانت مقصورته مغلقة على سحابة ضبابية، وبدأ المصعد في التحرك، لقد اندهشت عندما وجدت أنه لا أحد في المقصورة يلاحظ ذلك الضباب المنتشر، فالرغوة البيضاء تغطي ألسنتهم، وهناك بخار بلا سعال، لكنه يسقط في قطرات كثيفة تنزلق على الأذقان ثم تنحدر إلى الأرض.

وصل المصعد إلى الطابق السفلي وعدت إلى مخبئي، وفقط عندما وصلت، عاد مرة أخرى.. ذلك الثقل الذي جعل ركبتيَّ الممدودتين ترتعشان، جثوت للأسفل، ورأسي يتدلى على صدري.. وجه ماندلبروت، الذي كان في الحقيقة فيتيج، يتذبذب ويلغم أمام عيني، لقد جلس في مطعم مملكة السماء وكذلك في الكافيتريا.. هناك وكذلك هنا، والآن كما لو أن جسدي قد رأى آليات التحول البعدي، لم أعرف كيف يمكن أن أفوت ذلك. كانت صفاته هي سمات فيتيج نفسها، التي هي لي في حقيقة الأمر.. ثلاثة توائم يتحدون بالتسلسل الزمني المتشابك لعالم غير عقلاني، وقبل كل شيء كنت أنا، أنا هو الشخص الذي أردت أن أمزق وجهه.. أي جسدي، ذلك الخائن.

***

لم أستطع النوم إلا في وقت متأخر من الليل، فهناك ملامح غير ملموسة بشكل بشع تبدد الحد الفاصل بين الحلم واليقظة؛ لذلك عندما تفجر في أذني حفيف مزعج يطقطق في وعيي، اعتقدت أنه يمكنني إبعاده بإيماءة قبل أن أفزع من نومي تمامًا، لم أعد وحدي في الغرفة.. حبست أنفاسي وأشعلت حواسي، كل من تسلل إلى مخبئي كان مدركًا بشكل جيد أنني موجود؛ لأن خطواتهم كانت بالكاد مسموعة.

قفزت إلى الأمام بشكل مفاجئ مقتنعًا أنني قد ألقيت القبض على الإنسان المدهوش تمامًا وهو متلبس بالجرم، لففت يدي حول خصره ودفعته تجاه الحائط، كان من الصعب رؤيته، لكننا اقتربنا من بعضنا جدًّا، ولحمنا يتدحرج.. ثم تلاشى بعيدًا وزحف نحو المخرج، كل التعب الذي أشعر به غادرني فجأة، غصت خلفه فنزل كلانا، لكنني قد أمسكته بالفعل من كتفيه وقلبته على ظهره أمام الضوء المتساقط من خلال شق الباب، حيث أضاء وجهه..

قلت: «فيليز!»، ثم كررت مرة أخرى، «فيليز!»، قبل أن أتركه يمسح مجرى الدم القليل على أكمامه بعد الشجار، قلت له: «ماذا تفعل هنا؟».

- ماذا أفعل هنا؟! بل ما الذي تفعله أنت هنا بحق السماء؟

عدَّلنا أنفسنا، وتنفسنا بصعوبة ونحن جالسان على الأرضية؛ لاحظت أن فيليز كان يبتعد عني وكأنه شخص غريب.

قال بهدوء: «لذلك استخدمتني لتنفيذ رسائلك».

قلت في أسى: «فيليز، تعال إلى هنا، لن أؤذيك».

الباب المعدني، الذي كنت أتكئ عليه حتى لا يتمكن فيليز من الهروب ببساطة، بدأ يضغط ببرود أسفل ظهري.

- لقد استجوبوني ثلاث مرات وأنت غائب، أجلسوني في الظلام، بدرجة حرارة 14 في زنزانة صغيرة لمدة 48 ساعة، حتى كرهت نفسي لأنني تحدثت إليك عن خطط الهروب اللعينة.

اعتقدت للحظة أنه على وشك الاندفاع نحوي، لكن بدلًا من ذلك مد كلتا يديه إلى جانبه ممسكًا بدعامات الرف كما لو كان يخنق المعدن، وفي جنح الظلام كانت عيناه تقريبًا لا يمكن تمييزهما عن المسامير السوداء اللامعة، ثم

استطرد: «..هل اتصلت بي من قبل؟ ثم فجأة أجدك هنا، عالقًا في صندوق من ورق للتغليف».

همستُ: «كنت في الخارج، لكن كن أكثر هدوءًا، فيمكن سماع صوتنا».

وكما لو أن محرك الدمى قد قطع خيطين بالمقص، سقطت يداه على الأرض في صمت.

- كيف في الخارج؟

- في الخارج تعني في الخارج يا فيليز، خارج المختبر بالطبع! والآن أخبرني كيف وجدتني هنا.

لكن فيليز لم يعد مهتمًّا بالمحادثة بعد الآن، رفع ساقيه وأرخى جبهته على ركبتيه.

فسألته بحذر: «هل كل شيء على ما يرام؟».

ألقى فيليز رسالة في حجري كما لو كانت فيها الرد، ورقة صفراء منقوشة بدقة وإبداع.. الخط نفسه، والقلم نفسه.

قال بصوت ضعيف محدِثًا صريرًا بسيطًا بأسنانه بعد كل كلمة: «بالأمس تلقيت ملاحظة من هذا القبيل تحت وسادتي للمرة الثالثة».

طويت الملاحظة بعناية مرة أخرى وقلت: «أعرف هذه الرسائل، فأنا أتلقاها منذ أكثر من عامين، يا فيليز».

كنت أرغب في وضع يدي على يده، لكنه استدار وكأنه أمام قطعة قماش مقززة، ثم نظر إلى السقف كما لو كان عليه أن يبتعد عني.

سألته أخيرًا: «ماذا أخبروك عني؟» وواصلت التحدث بنفسي على الفور: «تعال هنا، هذا أنا.. ما زلت سيز، صديقك منذ عشرين عامًا.. إذا علمت ما مررت به، فستفعل..»».

ألقيت نظرة عليه، فبدت أوسمة الانحطاط عليه أيضًا، لكن بالمقارنة مع الآخرين كانت خفية للغاية، فملابسه سليمة، وبدا أنه يغتسل بانتظام.

بدأ فيليز يتكلم ببطء كما لو أنه غير متأكد من توابع كلماته: «يقولون إنك فقدت عقلك.. وإنك ستصبح متطرفًا، وبأنك مقتنع بأن ديف تقنية تحكم».

- بالطبع يقولون ذلك.

- لقد حدث ذلك عشرات المرات في كمبيوتر ليب في أثناء عملك مع فروليش، لقد برمجت رسائل في ديف أفسدت ترتيب النصوص البرمجية عن عمد، بل وحاولت حتى الدخول إلى المختبر المركزي.

هذا يعني أنني نقلت قصة حياة فيتيج إلى المختبر على أنها قصة حياتي؛ بقناعة تامة، وربما لها ما يبررها، وهي أنه لن يلاحظ أحد التكرار الدقيق للقصة.

قلت له: «و.. هل تعتقد ذلك أنت أيضًا؟».

قال فيليز وكأنه غارق في أحلام اليقظة: «لقد كنت في الواقع في الخارج، وها أنت ذا سالمًا تمامًا، وهذا بالطبع يعني أن ما قالته لنا بابوش غير صحيح».

قلت: «لقد رأيت ذلك، لا يوجد شيء خطير يتربص بنا في الخارج».

كرر ببطء: «أنا أرى ذلك، نعم!»، تحدث كما لو أن كلامي غير جدير بالثقة، بل على العكس من ذلك كما لو أنه شيء لا يُصدق.

قلت وأنا أقف: «فيليز، ليس هناك فائدة من حديثنا إذا كنت لا تصدقني».

ثم توقفت وأردفت: «أعلم أنه صعب، لكن عليك أن تثق بي».

اصطدمت راحة يدي بألواح الجدران، فتطايرت سحب من الغبار وتناثرت في الهواء.

- نعم أعرف أنك عانيت أيضًا، وأنني كذبت عليك، بل كذبت عليكم جميعًا لفترة طويلة، ولكن لدي أسبابي لذلك، هل تعرف كيف كان العالم في الخارج؟ إنه..

شعرت لوهلة وكأنني ماثل أمام المحكمة، ورأس فيليز ذو الظل الصامت على الخرسانة الصماء هو هيئة المحلفين التي قدمت أمامها مرافعة سريعة، ثم استطردت: «في الواقع، لا يمكن أن نصف ما في الخارج بأنه العالم، بل كان غياب العالم.. لا أستطيع أن أقول على وجه الدقة ما حدث هناك، ولكن هناك شيئًا واحدًا مؤكدًا، وهو أننا لا نعرف على الإطلاق ما هو الغرض من ديف، نحن...».

توقفت عندما أشار فيليز أنه لديه ما يقوله.

قال: «أجبني عن سؤالي.. أليس كل ما قلته لي من قبل -سواء كثر أم قل- هو مجرد كذب؟».

- فيليز..

أردت أن أتحدث، لكن ما خرج مني كان مجرد غمغمة، كيف يمكنني إخباره عن فيتيج ومطعم مملكة السماء.. كيف أطالبه بتصديق ما جلجلني أمام محكمة عقلي؟ وكل شيء يتوقف على ثقته.

قلت أخيرًا: «ما أوشك أن أخبرك به قد يصعب عليك استيعابه».

تنفست بعمق وأكملت: «لكن أرجوك أن تسمعني قبل الحكم عليَّ، لقد عدت إلى المختبر لأنني قررت تدمير ديف.. ليس تدميره بمعنى الكلمة».

أجاب فيليز بهدوء، وكأن عبارته هذه هي أكثر التصريحات واقعية: «أنت مختل عقليًّا حقًّا».

- استمع لي أولًا.. هل تتذكر المحادثة التي أجريناها قبل اختفائي؟ عندما كنا تحت الأغطية؟

كان قريبًا جدًّا لدرجة أنني شعرت بأنفاسه، ثم قلت: «ما لم أخبرك به هو أن لدي سلفًا في نسخة هذا الشيء، وأن الأمر برمته تمامًا إضافة إلى ما يحدث بيننا الآن قد حدث من قبل».

- لقد ذكرت ذلك بالفعل.

- وقد توصل أرتور فيتيج الممتثل إلى ذلك الاختبار إلى النتيجة نفسها التي توصلت إليها، ليس من المفترض أن يكتسب ديف وعيًا حقيقيًّا، لأنه في الحقيقة يخدم هدفًا مختلفًا عما يشاع، والطريقة الوحيدة لإيقاف ذلك هو وصولي إلى المختبر المركزي وإدخال رمز مفقود إلى ديف.

- سأذهب الآن يا سيز!

تقدمت إلى الباب الأمامي مرة أخرى لمنعه من المغادرة، وقلت له: «أحتاج إلى مساعدتك يا فيليز للوصول إلى المختبر المركزي، لقد حقن فروليش ديف بالنموذج الإنساني الذي هو أنا، بل وحقن به النموذج المجتمعي بالكامل، ليتمكن من اختبار محتوى القلب، بما يحقق له السيطرة الكاملة على المجتمع».

غمغم فيليز: «اصمت!».

لكنني واصلت: «كان هذا آخر شيء تحدثت فيه مع بافل، وبعد ثلاثة أيام مات.. وأنت تعلم جيدًا مثلي تمامًا أن بافل ليس من النوع الذي ينتحر بتلك الطريقة المهملة».

الآن ولأول مرة شعرت أن كلماتي لقت صداها في نفسه، فقال أخيرًا دون أن ينهي جملته: «حتى لو صدقتك في ذلك؟».. «هل تعتقد حقًّا أنه يمكنك فعل أي شيء حيال ذلك بمفردك؟ يا لها من غطرسة... نحن نتمتع بحياة جيدة هنا على أية حال».

ومضى فيليز كأنه أراد أن يحدِّث نفسه أكثر من توجيه الكلام لي: «نحن نعيش هنا بشكل أفضل مما عاشه أي شخص في التاريخ من قبل، صحيح أم لا؟ تدعمنا التكنولوجيا، فهي تفتح لنا آفاقًا ليس من الممكن تصورها، هل يجب علينا حقًّا معرفة كيفية عملها بالضبط؟».

كلانا محطَّم الآن على أرضية دافئة.. التصقنا ببعضنا بعضًا كلعبة بازل غير قابلة للحل، وساد الهدوء.. في كل مكان، قبل أن أسمع صوت فيليز الضعيف والمكسور مرة أخرى في الظلام، فشعرت بالذهول لذلك.

همس: «المختبر المركزي هو أكثر الأجنحة الأمنية المشددة تطورًا في تاريخ البشرية».

قلت: «أنا أعلم.. لقد مررت مئات المرات في الدوائر الثلاث، ولكن دائمًا مع حراس الأمن.. ماذا عليَّ أن أدخِل للمرور؟».

قال: «إنها ليست أكوادًا بسيطة، ففي المنطقة C عليك حل باب أمان مزدوج بتأمين مزدوج.. مرة ببصمة الإصبع، ومرة بمسح قزحية العين».

- وذلك من قِبل شخصين مختلفين؟

اعتقدت ذلك بالطبع، فدائمًا ما كان يصطحبني اثنان من المساعدين من غرفتي.

- من شخصين مختلفين بالطبع أيها الأحمق، وهذا لمنع شخص واحد من فعل أي عمل تخريبي مثل الذي تخطط له، علاوة على ذلك لا يحق الدخول إلا لكبار رجال الأمن والأساتذة وكبار المهندسين، والأشخاص الذين وثَّقوا أنهم عقلاء وصالحون.

ثم تصل من خلال المكاتب الخارجية إلى الدائرة B، حيث يوجد نحو اثني عشر حارسًا ينتظرون عند ثلاثة أبواب أمنية، أكثر من ثمانية خلال النهار، واثني عشر في الليل على وجه التقريب، وكما تعلم فهم يجرون فحصًا يدويًّا آخر، كالتفتيش عن طريق جهاز التنظير التألقي، وكاشفات المتفجرات، والكاميرات الحرارية.

سمعت أن بعض الناس اضطروا إلى خلع ملابسهم، وإذا سمحوا لهم بالمرور -والحمد لله أنهم لن يفعلوا- سيتقدمون إلى المصعد، الذي يستخدم مقياس الفرجار لقياس نسبة الدهون في الجسم، ونعم قبل أن أنسى؛ بالطبع هناك المزيد من كاميرات التصوير الحراري.

- ما هو قياس الفرجار هذا؟

لقد ترسخ بداخلي شعور ضاغط لا يطاق بين المعدة والحجاب الحاجز... لم أضطر قط إلى القيام بأيٍّ من هذا على الرغم من أنني رأيت الآلات بالطبع.. لقد سمحوا لي بالمرور بناءً على أوامر مباشرة من فروليش.

قال فيليز: «إنه جهاز فحص ديكسا، يتحقق من أنك لا تحمل أي شيء، ويمكنه التعرف على أي جسم غريب مهما كان صغيرًا، على سبيل المثال إذا ابتلع شخص ما سمًّا أو زرع موادًا غير عضوية».

- لذا فالأمر مستحيل.

- ثم يجب تشغيل المصعد.. الذي بدوره يعمل بكلمة مرور مكونة من خمسة وعشرين حرفًا تُعيَّن عشوائيًّا، وتتغير يوميًّا ثم ترسَل فقط إلى حسابات الأساتذة.

سألته بلا صوت تقريبًا: «والدائرة A؟».

قال فيليز: «حسنًا إذًا». «بالنسبة إلى الدائرة A، يتعين على ثلاثة أشخاص إدخال مفتاح ينشئ رمزًا ثالثًا في عملية غير متماثلة لا يعرفها أيٌّ من الثلاثة، وذلك بشكل مستقل عن بعضهم بعضًا.. ثم لا شيء.. هناك فقط النظام الذي يفتح الباب، ريد إيكلس، وبطاقة التفويض الوحيدة التي تسمح لك بتخطي هذا المستوى بحوزة فروليش فقط».

ولهذا السبب.. لهذا السبب جاء الجميع إلى المختبر المركزي في مجموعات.. لم يحدث أن دخل شخص منفرد من قبل.

قلت: «هذا يعني أنه لا يوجد أمل بالنسبة إلينا». وربما تمكنت بذلك من إنهاء ذلك الصراع.

قال فيليز: «ماذا تقصد بـ لنا، لنا؟ نحن؟! وكيف ستتصرف على أي حال بمجرد دخولك؟ في موضع لم تكن فيه قط، هل تعتقد أنه يمكنك عمل الحقن دون أن يلاحظها أحد في يوم الإطلاق؟ إن تصورك ساذج ومجنون.. لا أعرف كيف».

قال ذلك واستدار بعيدًا فقط ليتقدم نحوي مرة أخرى بعد ثانية واحدة: «لكن قبل أن نواصل حديثنا ذلك، قل لي شيئًا واحدًا..».

فجأة أصبحنا قريبين جدًّا من بعضنا مرة أخرى، قريبين جدًّا لدرجة أنني على الرغم من الظلام استطعت رؤية بعض التفاصيل على وجهه لم أرها من قبل، قال: «أريد أن أسمع ذلك من فمك مرة واحدة فقط.. أن ما يقولونه عنك ليس صحيحًا».

بصلابة واتساع كشفت حدقة فيليز الصغيرة بياض عينيه، وهبط فكه المشقوق إلى الأسفل، فلم أتمكن من رؤيته، ثم اختلجت وجنته مثل انتفاضة كريهة ضائعة.

قلت بهدوء: «لقد تغيرت»، وارتجفت مرة أخرى من برودة الباب في ظهري.

قال فيليز على الفور: «إنه من العمل» والآن كما لو أن ذلك قد أوضح شيئًا مهمًّا تراجع إلى الوراء، حيث أضاء وجهه وهج المصابيح الليلية مرة أخرى إلى حد ما، لقد زال كل الرعب من وجهه، لكنه كان منهَكًا بشكل كبير، وابتعدت أخيرًا عن الباب الثقيل، حيث تفاديت خطر الهروب، وجلسنا في انسجام تام وسط الظلام الخالي من المنبهات التي سادت من حولنا بعد المحادثة الساخنة، حتى بدأ فيليز أخيرًا في التحدث مرة أخرى، وقد شعرت بالدهشة حقًّا: «يمكننا إخفاؤك في جهاز كمبيوتر».

سألت بغباء: «ماذا؟».

- الاحتفال هو الإمكانية الوحيدة، المحاكاة بعد غد، عندما يعرض ديف، سيحضرون جميع الخوادم الممكنة من هنا..

ثم أشار في اتجاه الباب المغلق وأكمل: «ستنقَل إلى الطابق العلوي في المختبر المركزي، إلى الدائرة c فقط بالطبع، ليس أكثر من ذلك، إنهم بحاجة إلى كل قوة الحوسبة التي يمكنهم الحصول عليها، وليس هناك شك في أنهم سيأخذون أفضل المعدات من هنا».

فكرت في إخفاء نفسي في صندوق الكمبيوتر؛ محبوسًا في تابوت معدني ضيق جدًّا، لدرجة تجعلني أضم ساقيَّ بقوة على صدري، كم من الوقت يمكن للإنسان أن يبقى على قيد الحياة في تلك الحالة المتصلبة؟

- يمكنني أن أوضح لزملائي في سلطة البناء أنه لا يزال هناك جهازان من أجهزة الكمبيوتر الجيدة التي يمكن إحضارها لبعد غد وانتهى بها

الأمر بالصدفة هنا... لا أستطيع معرفة هل تعمل تلك الأجهزة أم لا، ربما سيكون من الأفضل لكلينا إذا لم تفعل. سأعلم الصندوق الذي أعنيه بورقة وردية.

كررت: «ورقة وردية؟ لماذا بالتحديد ورقة وردية؟».

- لأنك يجب أن تكون في الصندوق المعدني قبل وقت طويل من قدومهم، هل تفهم؟

- إنهم يصورون المعدات التي تدخل بالأشعة السينية، أليس كذلك؟

- بالطبع يفعلون؛ لهذا السبب سنركِّب محركات الأقراص الصلبة على يمين ويسار جسمك.. كحاجز بصري.

يا له من تقليد هاوٍ لكن في الوقت نفسه، كنت ممتنًّا للغاية وسعيدًا؛ لأن هناك بابًا قد فُتح أمامي، بعدما كان مجرد جدار مسدود.

قال فيليز: «سأذهب الآن.. بعد غد ستدخل إلى الكمبيوتر في الغرفة 376 C، لكن بالطبع ليلًا عندما تخلو تمامًا من الناس، مفهوم؟ على الرغم من أنني أشك في أن بقية العالم خالي الذهن كما نتكهن، فتلك الأخبار ستأتي من مكان ما».

ألقى الرسالة المطوية على الأرض كأنه يتحرر من عبء ثقيل، فقلت له: «أشعر أننا نركض نحو السكين الذي سينهينا!».

قال وهو يتجه نحوي: «نحن نحمل السكين منذ وقت طويل يا سيز!»

ثم تحرك نحو الباب، أردت أن أحضنه، لكن عندما فتحت ذراعي، استدار ساحبًا ثوبه، ثم لاحظت شيئًا في معصمه الأيمن.

سألته: «ما هذا؟»، فسحب كمه على يديه بسرعة.. كانت بقعة سوداء، كأنها وحمة كبيرة متفشية..

قال بصرامة: «لا يوجد شيء.. أوه! وشيء آخر يا سيز، لو كنت مكانك لما غادرت هذه الغرفة، فكل عنصر أمان في هذا المختبر يبحث عنك الآن».

ثم خرج دون أن ينظر خلفه.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

15

في بادئ الأمر بدا العالم أسود، وكل شيء كان مؤثرًا، وهذا يعني أنه لم يكن هناك أي تأثير، لقد كنت مغلَّفًا بالظلام، قبض عليَّ بأيادٍ من ظلال ومخالب الغياب، لم أرَ كيف رُفعت عن الأرض، وكيف كنت أعمى في أثناء حملهم لي، ثم قبل أن أعقل الأمور، أخذت الحركات ترمي جسدي يمينًا ويسارًا، فكل منحنى وكل التواء ضرب موجاتٍ وأنماط تداخل جديدة في داخلي، لكن الآن سأكون أنا من يشتِّتهم، مرت بضع ساعات منذ آخر مرة رأيت فيها ضوء النهار، وبينما أجلس في حالة سبات في صندوقي الأسود الصغير لساعات وقلقي يتزايد منتظرًا قدوم العمال الذين أعلن عنهم فيليز، بدأت الرؤى تتضح، ففوق أرض خصبة من الحقول الحسية غير الموصلة كهربيًّا ظهر مشهد هائل، كان الإبصار الومضي يرسم سماء أمام عيني المغلقتين، ولبعض الوقت شعرت بانفصال مذهل عن الأرض، لكن هذا كان مجرد نقص في الأكسجين بسبب الظلام المتصل.

وفجأة تغلب عليَّ ذعر لا يمكن السيطرة عليه، فماذا لو دفعت هذا الغطاء ولم يعد يفتح؟ إذا مت داخل هذا الهيكل الخارجي المدرع؟ وفكرت في لحظة ما.. ماذا لو كان الخزان الفعلي هو جسدي الذي علقت به، ثم تطرق الظواهر بشرة ذلك الجسد دون أن تتمكن من اختراقها حقًّا؟

فكرت بدوار كيف أتغلب على عقبة هذا الخزان الداخلي، كيف أعرف حتى إذا كنت في الخارج أو في الداخل؟ ماذا لو كانت تلك الرؤى والخيالات خادعة حقًّا، لدرجة أنني نسيت إخراجها في المختبر المركزي؟ لقد قاومت فجأة الدافع الساحق للصراخ طلبًا للمساعدة، وللفرار من مخبئي الضيق.

في تلك اللحظة رُفعت عن الأرض، وبدأت رحلتي الحقيقية، فسحبت بسرعة القشة التي تركها فيليز في الهيكل الخارجي؛ لأنه إذا أغمي عليَّ من فائض ثاني أكسيد الكربون، فسيصبح كل هذا عبثًا.. فقط الأصوات غير المستقرة تسللت إليَّ من الخارج، ما كان لحمًا وما هو آلة، وما كان صوتًا وما كان نغمة، كل ذلك ظل غير قابل للتقرير، كان رأسي محشورًا بين ركبتيَّ، كجنين محشو في رحم حديدي.

رُفعت إلى أعلى- شعرت وكأننا نتسلق مجموعة من السلالم، فحبست أنفاسي للحظة.

صاح أحدهم بصوت خشن: «مائتان إلى مائتين وخمسة».

الآن يبدو أننا نتجه نحو الممر الدائري؛ لأن الضجيج كان يتزايد بشدة.. وكان قلقي -من أن شخصًا ما قد يلاحظ الوزن الفادح لهذا الصندوق- قد تحطم منذ فترة طويلة؛ فيبدو أن الحمولة لا تشكِّل أي فارق بالنسبة إلى العمال الذين يتعرضون للضرب بأعين مغمضة، وبينما كنت أتدلى بعيدًا عن الأرض في الدقائق القليلة التالية، ظللت أشعر بصدمات حادة من الجوانب حتى أدركت أن الناس هم من يتدحرجون حولنا.

ضغطت عيني على ثقب بحجم رأس الدبوس، ولا بد أنه كان ثقبًا لولبيًّا، فجعلتني إضاءة النيون العمياء أطرف بعيني، لدرجة أنني استغرقت بعض الوقت حتى استطعت أن أقرأ ما كُتب على الجدران.. **لا تنَم! كن ذا نفع.. انظر هنا!**

وقف الناس في الزوايا بعصي طويلة تواصل مطاردة الحشد، ولكن كانت أعينهم مغلقة تقريبًا في غضون ذلك، ثم أُطلِق خليط من الهباء الجوي من الأعماق الغدية، وقد امتصه الناس بشراهة، وقرأت أنا على إحدى الآلات «الكافيين السائل/ 2بوتانون».

ولكن بعد ذلك ازدهر الإعلان بالفعل عبر الممرات: «اليوم سنتخلص من بعضنا، وفي غضون ساعتين سيعرَض ديف علينا في القاعة.. حيث الانتقال من التناظرية إلى الرقمية، والآن ديف!».

نعق رجل عجوز بجواري: «الآن ديف! الآن ديف!».

التقت الحدقات الصغيرة في صندوقي في انكسار قليل، شظايا لا تتلاءم مع بعضها، ونظرت إلى الخارج مرة أخرى، لكن الأمر استغرق بعض الوقت

قبل أن أتمكن من رؤية ما كان يحدث.. لقد كان الناس يصطفون في الطابور منذ بضعة أيام، وأضحوا الآن مستلقين حول بعضهم حرفيًّا بحيث لا تكاد تعرف من أين بدأ أحدهم وأين ينتهي الآخر.

رأيت رجلًا عجوزًا ينبثق مثل فراشة من تحت امرأتين.. سقط الاثنان فوق بعضهما بعضًا، وضغط عليهما حشد من الآلاف المحيطين بهما، عندها فقط أدركت من تكون السيدتان، كانت روزا ووالدتها تمسكان المبرد الكهربائي لحفظ الخلايا الحية بسعادة غامرة، وفوق أكتافهما تمارس فتاة صغيرة رياضة الجمباز، قبل أن يخرج رجل مسن من بين ذلك الحشد وهو يلهث بحثًا عن الهواء، فيلقي الفتاة بعيدًا نحو الحائط مثل حشرة.. شعرت بالغثيان، كما هو الحال في لوحة سقوط الملائكة المتمردين لبيتر بروجل، حيث كان هناك شخص ما يتأرجح بشيء في الهواء يبدو وكأنه سمكة.. ولكن عند الفحص الدقيق، يتضح أنه فانوس صيني مهترئ.

تنفست الصعداء عندما انعطفنا فجذب المشهد أنظاري، لكن الحشد لم يكن أقل كثافة، وقرأت «آخر يوم للبشرية» مكتوبة على لافتة منتصبة.

بعد ذلك مباشرة حدث شيء ما جعل الحمالين يرتجفون، بل وكادوا يسقطون.. دُفِع الناس في أنابيب من الزجاج العضوي تشبه أنابيب الأرجن المصنفة، لم أستطع تحويل نظري عن المنظر، كما أُنشئ نوع من الواجهات بجوار مدخل الجامعة، وقد قرأت المكتوب عليها «قاعة المعيشة السريعة» لكن زاوية الرؤية لم تكن واسعة بما يكفي لرؤية ما يدور حولها.

فجأة توقف الأمر بشكل مفاجئ؛ سمعت صوت صفير في الباب خلفنا، ثم ساد الهدوء.

لقد وصلنا إلى الدائرة الثالثة، نظرت إلى الخارج مرة أخرى، وكان كل شيء مرتبًا هنا: تمت عملية تصفية الهواء كما كان يحدث من قبل، أما طنين الأذن -وهو الصدى الذي ظل لنصف ساعة- فهو مجرد صورة صوتية لاحقة قاتمة مقابل الصمت الرصين للمختبر المركزي، وقد بدا كل شيء في الخارج وكأنه كابوس بعيد.

قال أحد الرجلين اللذين حملاني: «رهيب!»، ثم أسقطني كلاهما على الأرض وأنا بداخل صندوقي.

- كم تبقى من الوقت؟

- قال هوفمان إن أمامنا ساعتين، ثم سينتهي الأمر.
- إذا تحركنا بشكل أبطأ، سنحمل عددًا أقل من الأجهزة، أليس كذلك؟
- مبدأ كل شيء دائمًا.

لا بد أن الحال قد انتهى بي في مكان يشبه غرف الانتظار، كان هناك عدد قليل من الناس يجلسون في مكتب استقبال بعيد في الخلف؛ وتمكنت من رؤية نقاط التفتيش عن يمينهم، حيث خرجت حزم الأشعة السينية من البوابات الإلكترونية؛ لفحص الجسم بالكامل، ولكن بقدر ما كنت خائفًا من رعب ما سيحدث، فإن الرعب الحقيقي كان شيئًا آخر.

بات المختبر المركزي نظيفًا إكلينيكيًّا، وبترتيب مثالي، بل وخاليًا من البلادة التي اعتدتها في بقية المختبر، ماذا لو لم يتوجب على من يحملونني العبور من نقاط التفتيش، بل يذهبون مباشرة إلى الماسح الضوئي؟ كان حاملاي قد انغمسا في الراحة، بل وفتحا علبة شوكولاتة قبل أن يُفتح الباب وتدخل امرأة حازمة، ثم تسأل الرجلين بلهجة توحي بسنوات من الخبرة في التعامل مع المرؤوسين: «هل أنتما مختلان عقليًّا؟ ففترة استراحتكما تعدت حدود السخرية، أدخلا أجهزة الكمبيوتر، سنحتاج إليها في الداخل».

وقبل أن أفكر أمسكوا بصندوقي مرة أخرى وتمايلت في الهواء، بالكاد استطعت أن أفهم معنى سعادتي عندما هتفتْ مرة أخرى: «توقف!».

هتف الصوت الأنثوي: «هذا هو المكان الذي يؤدي إلى جهاز التنظير التألقي، لا بد أن ما في يديكما جهاز قاتل، لدرجة أنكما تحملانه معًا أيها الكسولان».

أجاب أحد الرجلين: «نعم، إنه ثقيل بالفعل».

بعدها أعيد وضعي على جانبي بصورة صلفة، ورأيتني محمولًا على جهاز ناقل واصل السير بي وسط الضوضاء، كان يطرق ويدك بصوت مدوٍّ لبضع ثوانٍ، ثم خرجت من الجهاز على ما يبدو على جانبي الآخر، انفصل الحمالان أيضًا من خلال باب الأمان الأسموزي، ولكن سرعان ما انضم آخرون إلى الصخب، وهذا ما كنت أخشاه.

هتف أحد الحمالين: «معذرة، ماذا أسمي ذلك؟».

- يجب أن ننظر إلى الداخل، ذلك الجزء غير شفاف وربما علق شيء ما به، لا يمكننا السماح بمروره بهذه الطريقة.

فقال الحمال لزميله: «يريدون فتح الصندوق.. هيا، لا يهم، سنجلس هناك في هذه الأثناء».

ضُربت مضخة رافعة في صدري عندها سمعت صوت مفتاح ربط ينخر في المعدن.. للحظة بدا أن الوقت يمتد إلى ما لا نهاية، في حين جلست أنا أنتظر حدوث معجزة، لكنها لم تحدث، وعندما رفِع الغطاء عن الصندوق واندفع الهواء بقوة، أعماني الوهج خارج الصندوق.

قالت المرأة التي استطعت تمييز وجهها رغم التواء جسدي: «ما هذه اللعنة!».

إنها بروفيسور يانينا، التي أتممت معها حلقة دراسية في أثناء دراستي.

- ماذا تفعل داخل الكمبيوتر؟

في هذه الأثناء أمسك بي ضابط أمن وأخرجني من الصندوق.. بالكاد استطعت الوقوف، والدماء هاربة من ساقيَّ، بسبب التقوقع الطويل حول نفسي.

قالت يانينا وهي تبعد يدي عن عيني، حيث بسطتها لحمايتها من الوهج: «ها أنت ذا.. بحق الله..».

ظللت أنا صامتًا.

سمعت أحدهم يقول: «نحن بحاجة إلى رئيس الأمن»، وبعد لحظات طُويتُ وقُيِّدتُ في عبوة محكمة.. يا لها من نهاية يرثى لها! طوقني ثلاثة أشخاص من جميع الجهات -كما لو كان ذلك مبررًا منطقيًّا بالنظر إلى حجم جسدي- ودفعوني نحو الباب الذي كنت قد حُمِلت عبره للتو.

لقد انتهى الأمر قبل أن يبدأ.

تركت رأسي يجثو على صدري، وشاهدت برعب بالكاد يمكن كبحه كيف تقدم الحشد مني، عندما ارتفع صوت من الأرض.. نظرت حولي، لكن لم يكن هناك شيء، مجرد طنين متزايد لا يلاحظه أحد سواي على ما يبدو، هناك شيء ما يدور في هذه الغرفة، حتى ولو لم أستطع الاستدلال عليه، هناك أبعاد تتعلق بالجدران، وترتجف من خلال الأرض، ثم تتسلل إلى أرق لوفة عضلية في المكان، فكرت للحظة أن كل ذلك قد يكون محض تهيؤات، وأن الخوف هو الذي دفع هذا الطنين الوقح في فصي الجبهي، لكن بعد ذلك رأيت الجميع ينظر حولي، وأدركت أنها كانت الأدوات، فكل كمبيوتر وفأرة، كل مصباح

وهاتف وحتى ترموستات الغرفة وأجهزة الاستدعاء على أحزمة الأشخاص كانوا يتهامسون مع بعضهم بشكل تآمري، تبدد الإشعاع الكهربائي وسط سحب الدخان المفرقعة، وفي ضجيج أعلى من أي وقت مضى بدأ الدخان يخرج من الشاشات وألواح الأرضية، ومن وحدات التحكم وأجهزة الكمبيوتر.

قال رجل الأمن الذي كان يمسك بي في المقدمة ولا يزال ينظر حولي كما لو أن قرقرة الهواء مجرد طابعة عالقة: «نعم، لقد وصلنا للتو من البوابة الغربية».

كان هناك أقل من خمسين مترًا على توطد فكرة هلاكي، لكن اتضح أكثر فأكثر أن هناك قوة لا تصدَّق كامنة في الهواء: حيث فُتح الباب الجرار وتعرفت على ضباط جهاز الأمن المشدد الذين كانوا ينتظرونني بالأصفاد والصواعق الكهربائية، ثم اقتربنا من العتبة. وحدث شيء ما أخيرًا.

سُك الباب الجرار فجأة! حدث ذلك دون سابق إنذار وبقوة رهيبة لدرجة أن أحد الرجال بادر بالخطو نحو الباب، فهُرس في المنتصف وتركني أصرخ، أما الاثنان الآخران فقد خففا قبضتهما عني؛ لأننا وقفنا جميعًا نشاهد ما يحدث بذهول، رأينا كيف اصطدم جهاز التشغيل الكهربائي بالرجل العالق بالباب مرارًا وتكرارًا بقوة كبيرة، لدرجة أننا استطعنا سماع تكسير عظامه.

ثم بدأ بعد ذلك نوع من حفلات الباليه؛ أغلِقت جميع الأبواب في تزامن تام وأصبح الضوء يخفت ثانيةً تلو الأخرى، لدرجة أننا لم نتبين كيف ركض ثلاثة أشخاص آخرين نحونا، بل كان هناك مزيد من رجال الأمن، لكن من الواضح أنهم كانوا يجيئون من الداخل.. من داخل الدائرة الثانية نفسها، وعندما أصبحوا معنا في الارتفاع نفسه، ارتفعت قبضة في الهواء من الارتفاع نفسه، وتأرجحت وضربت المرأة التي تقف بجانبي، تراجعت خطوة مترنحًا من الذهول، وأخذت أراقب كيف قبضت القوة الأمنية التي جاءت للتو على الحراس الذين يمسكونني وجعلتهم يرقدون أرضًا.

صاح موظف استقبال كان يراقب المشهد ويشير نحوي الآن: «ماذا تفعلون يا رجال؟ هذا هو الشخص المطلوب!».

شهق رجل الأمن وهو يفرج عن الآخر: «ماذا! لا.. لقد أشار ريد إيكلس إلى تلك الصورة المتخيَّلة للجاني المطلوب».

كان يرفع جهاز التابلت الخاص به في تلك الأثناء قبل أن يتعطل أيضًا منضمًّا بذلك إلى المؤامرة السرية التي تحاك.

أنا نفسي استغللت هذا الارتباك وزحفت نحو الماسح الضوئي للخروج من الدائرة الثالثة، والاتجاه نحو المصعد، لم أكن أعرف ما الذي كان يحدث هنا، لكن هناك شيئًا واحدًا واضحًا وهو أن ذلك التنسيق الغريب ليس مصادفة، لم يستمر الارتباك سوى بضع ثوانٍ.. الآن رصدتني المجموعة وتدافعت ورائي، لكنهم تأخروا مرة أخرى، حيث كان المصعد جاهزًا عندما وصلت إليه وأُغلِقت أبوابه في اللحظة المناسبة.

ولكن بعد ذلك بدأت المسرحية الحقيقية: فما كان يجب فتحه عادةً عن طريق مسح القزحية وبصمة الإصبع قد بدأ ينفتح دون أي إجراءات، شددت دوائر المسح المتلمسة حول صورة قزحية العين، ثم أعلن صوت آلي «نجحت المسحة» «تم التحقق من إذن الدخول للمختبر المركزي».

كل ما يحدث كان يقودني إلى الاعتقاد بوجود إنسان.. مساعد، أو صديق يجلس في ريد إيكلس ويريدني أن أصل بخطتي إلى النهاية، فما يحدث هو ضرب من المستحيل؛ لأن نظام ريد إيكلس معصوم من الخطأ.. لم يكن هناك سوى ملاحظة، نظرة إلهية لا يمكن أن تكون فاسدة، لقد اختارني شيء ما لأصبح أداة لبرنامج ما زلت أجهل محتواه.

انفتحت أبواب المصعد وبدأت أركض من جديد.. ومن خلفي صراخ.. وصورة ظل المطاردين -التي لم يكن من الممكن التكهن بها سوى في الظلام- بدأت ترتفع ويعلو الصوت أكثر، حيث بدت الطرقات المتناغمة إيقاعيًّا على الأرض تلاحقني في غضون ثوانٍ قليلة، ثم شعرت بقبضة على كاحلي، كنت على بعد خطوة واحدة عندما سقطت أخيرًا على الأرض، تلك الخطوة الأخيرة التي ستقودني إلى منصة ديف، اقتربت جدًّا من هدفي المستحيل، وانخرطت فجأة في صرخات حشود من الناس، أمسك شخص ما بشعري، وآخر قبض على حنجرتي، ثم بدأت تروس السلم المتحرك تدور بصرير في المسار، فانتقلت أنا والمطاردون إلى سلالم الدرج نتقافز عليه في مقدمة الحائط الزجاجي خلفنا، حتى ظننت أن رأسي سيتصدع، ومع ذلك لم أُصَب إلا بأقل قدر من القوة، كما لو أن التوقيت الدقيق لهذا المنجنيق أراد أن يحافظ عليَّ.

كان على رجال الأمن أولًا أن ينهضوا شاعرين بتذبذب في كل مفاصلهم، في حين كنت أنا أتخبط خلف إحدى وحدات التحكم، كدت أن أحقق مبتغاي

-بالكاد على بعد 100 متر مني خلف الجسر الزجاجي الذي يمر عبر القاعة، تفصلني بوابة أخيرة عن ديف.. ديف الذي تمكنت من رؤيته بالفعل يتلألأ من خلال نافذة بيضاوية في الخلف، كأنه وعد يقترب- ولكن بعد ذلك سمعت خطوات مكتومة، وغصت في الفالق الأجوف للأرفف، فجثوت والتقطت أنفاسي.. كيف سأتمكن من السير في الممر الزجاجي دون أن أُكتشَف؟

وكما لو أن المختبر قد خمَّن أفكاري، انخفض مستوى الإضاءة مرة أخرى حتى عم السواد، الآن أصبحت الأصوات هي آخر مشكلة متبقية.. فقد تردد صدى خطوات حراس الأمن وهم يقتربون بصوت عالٍ في الغرفة المظلمة، توجب عليَّ البقاء ساكنًا للحظة، فزحفت على أطرافي الأربعة، وتمنيت أن أتمكن بطريقة ما من إخفاء الصرير الناعم لأطرافي على الأرضية، حاولت أن أضغط بمرفقيَّ وركبتيَّ بلطف ليس له حدود.. لكن لا مفر من ذلك، فدون أن أتمكن من رؤية أي شيء في الظلام، شعرت كيف يدور المطاردون حولي، فحبست أنفاسي وأغمضت عيني وأخذت أتضرع إلى الله لحدوث معجزة، ثم هربت، وانزلقت.. سقطت، ووقفت مجددًا، عندما عاد المطاردون مرة أخرى ليتجمعوا أمامي، كنت قد وصلت إلى الممر الزجاجي الأخير بالفعل، فركضت أسفل القوس المضيء، أصبحت مرئيًّا مرة أخرى، وفي الأسفل في قاعة أناس وحيوانات فرحة كانت الاحتفالات تهدر، ألوان وحركات عشرات الآلاف مجتمعة حول أذيال من الدوامات المائية بتيار معاكس.

وصلت إلى الباب، وحبس عشرون ألف شخص أنفاسهم عندما وضعت يدي على المقبض، وتجمدوا في أماكنهم، لم ينتبهوا إلى أي شخص آخر يقف على خشبة المسرح ذات الإضاءة الساطعة، لقد نسوا أنفسهم للحظة وجيزة.. بل ونسوا ديف نفسه أيضًا.

ثم فتحت الباب..

فجأة ساد الهدوء مرة أخرى، كان المختبر المركزي خاليًا ولم يمَس أمامي، وكأن الحركة العامة لا تستطيع الوصول إليه، دخلت وتذكرت مرة أخرى بالطبع، لقد أتيت إلى هنا مرات لا تحصى، لكن شيئًا واحدًا كان مختلفًا تمامًا، وقد أصبح جليًّا، أدركت أن هذه هي المرة الأولى التي آتي فيها إلى هنا بمحض إرادتي.

ساد ضوء أزرق ناعم فوق الجهاز المألوف بالنسبة إليَّ من جلسات النسخ، لكن الغرفة نفسها بدت مدهوشة من هذا الضوء.. كما لو أن جدرانها وطاولاتها وأرضياتها تزحزحت عن موضعها قليلًا، حاولت أن أعرف من أين

أتى هذا، ونظرت إلى الشاشات العلوية، التي أظهرت الحشد وهو لا يزال متجمدًا ينظر إليَّ في حالة نشوة، لقد سلبهم التفكير الجماعي الإحساس بالوقت، لكنني أيضًا فقدت التركيز على هدفي، حيث لم أفكر في هذا تقريبًا عندما ظهر شكل بلوري خلف تلك الكواليس، كان ذلك فروليش يقف أمام ديف، ويولي ظهره لي، وكان يلف بالأدوات الموجودة شيئًا في وحدة التحكم.

قلت: «بروفيسور فروليش!».

لكنه لم يتفاعل معي، واستمر بتثبيت شيء في ديف، الذي جعلتني أُطره المتطايرة أقفز من مكاني.

قال دون أن يستدير: «لقد أتيت مبكرًا قليلًا».

كان يشير إلى الساعة التي أوشكت أن تدق الثامنة.. وثماني وخمس عشرة دقيقة هو وقت العرض المقرر إقامته في القاعة، هذا يعني أن فروليش كان ينتظرني هنا طوال الوقت! ولم تكن هذه فرصة حقيقية.

أردف فروليش: «عادة تتأخر بضع ثوانٍ كما جرت الخطة».

كان فروليش يضرب بالمفك فوق سطح الطاولة بصورة إيقاعية عدة مرات وأكمل: «لكنها الآن على الأرجح علامة جيدة على أن الحلقة التكرارية أصبحت أقصر.. تعال إلى هنا».

الآن استدار وهو يطلق ديف أمام الجميع، حيث جرده من طبقة الحماية التي تحيط به، كان عبارة عن عناصر براقة تجزأت وتكشفت من أجلي، ثم وضع فروليش يده على ناقل USB وأمرني بتنفيذ الخطة..

وعندما رأى ترددي قال: «هيا أدخله! إنها ليست خدعة.. يستغرق الأمر عدة دقائق لضغط البيانات وعكسها؛ لذا افعل ذلك الآن وإلا فسوف نفوت العرض التقديمي، وقد رأيت بالفعل الحالة التي عليها الناس».

إن هذا فخ بالتأكيد، فكما قال فيتيج إن فروليش يهتم جدًّا بفرض سيطرته، لكن بغض النظر عمَّا هو عليه، فإن ذلك سينتهي عما قريب بطريقة أو بأخرى.. زرعت ناقل USB في ديف، وعندما استقر في مكانه، أدركت فجأة أنه لم يكن لدي خيار على أية حال، كان يجب أن أفعل ذلك، فكل شيء يسير في مسارات معدة منذ فترة طويلة، غاصت البيانات بأقصى سرعة، وأشار ضوء أخضر إلى تحقق التوصيل، كان هدفًا نهائيًّا لا مفر منه منذ بداية الوقت، منذ الضربة الأولى للبكتيريا النموذجية (أركيا ميثانوبيري).

فمنذ بداية الزمن.. منذ الضربة الأولى للبكتيريا النموذجية (أركيا ميثانوبيري) أصبح الهدف النهائي الذي لا مفر منه هو التطور، وجميعنا كنا مجرد تروس، جميعنا اعتقدنا أن الدخول بين أسنانها هو كمال الحرية.

قال فروليش بصوت منخفض أكثر من أي وقت مضى، ويبدو أنه متعَب قليلًا: «اجلس يا أرتور».

فجلست، بينما بدأ صوت الدوي الخفي للبيانات يملأ المكان أكثر فأكثر، وقلت له: «كنت تعلم بقدومي.. وأنت من ترسل إليَّ الرسائل، أليس كذلك؟ كل شيء منذ البداية.. ولكن لمَ كل هذا السيرك؟».

أزاح فروليش نظارته الشمسية ونظر إليَّ مباشرة بعينيه الزرقاوين اللامعتين: «لا، أنا لم أرسل لك أي شيء، لكنني كنت أعرف ذلك بالطبع، فأنت تعرف.. أنا وهذه، وهذه وأنا شيء واحد».

كان يشير إلى كاميرا أمنية لريد إيكلس، وأكمل: «لكنني أستطيع إخبارك بالكثير، فإذا بحثت داخل نفسك قليلًا، وفكرت فيمن أو بالأحرى ما الذي أرسل إليك تلك الإرشادات فستكتشف ذلك بنفسك».

أشار خلفي بشكل تآمري فالتفتُّ.. لكن لم يكن من أحد هناك، وعندما ارتددت إليه، كدت أضحك على تضليلي.

قلت ببطء: «لقد كنت أنا».

قال فروليش بهدوء: «هذا صحيح.. أعني لست أنت تحديدًا بالطبع، لقد كان هذا المبنى هو ذاكرتك الخاصة».

وكأن الأرض كانت تنتظر هذه الجملة فقط؛ لتنفصل عن أصولها منهارة وتبدأ في التزحزح، لقد دامت لحظة واحدة فقط، وبينما يعود كل شيء إلى أصله قلت: «المبنى هو قصر ذاكرتي؟».

- إنه قصر ذاكرة فيتيج، هذه هي الحقيقة، وهو أيضًا قصر ذاكرة لك إلى حد ما، مع وجود اختلاف جوهري لا تعرفه.

بدأ المبنى في التحرك مرة أخرى، والآن أصبحت الضوضاء أعلى وأعلى وأكثر تداخلًا، اعتقدت أن البعد الثالث بأكمله سيتكشف.. لكنني بالطبع فهمت بعقلانية منذ زمن بعيد، فالضجيج كان في رأسي فقط، ومع ذلك.. ماذا يعني ذلك على أي حال؟ كان المبنى كله داخل رأسي، أو بالأحرى، رأسي من كان داخله، لم يكن لدي رأس على الإطلاق، لم أملك شيئًا سوى الفراغ،

لكن فروليش استمر في الحديث دون تأثر، ولم يكن هناك أي شيء عدائي أو شرير به كما بدا قبل شهور.

- أليس هذا شيئًا عجيبًا.. أن تتذكر؟ لأن التذكر يعني أن ما يحيط بنا يعمل كمحفز لإخراج ما هو موجود بالفعل طوال الوقت، كأن أرى وردة فتتبادر أمي إلى ذهني، هذا ما أعنيه في الحقيقة على اعتبار أن لدي أمًّا.

وكأن الغشاوة قد زالت عن عيني، لم يكن يجلس أمامي أي شخص، لقد كان فروليش مجرد مبدأ، تيار خفي مجرد.

سألته بأسى: «لكن إذا كانت الذكرى موجودة في ذهني طوال الوقت، فلماذا ظلت منسية لفترة طويلة؟».

قال فروليش: «أولًا لم يحدث أي شيء داخل ذهنك، وثانيًا فلم يُمحَ أي شيء منها، لأنه لا يوجد شيء اسمه نسيان، فالذاكرة هي لغز، حتى في أدق التفاصيل، تأمل جيدًا في الأمر؛ فإذا كان التذكر هو إعادة إحياء للماضي، إذًا فكيف نفرق بين الذاكرة والواقع؟ من خلال العودة إلى الذاكرة مرة أخرى.. مفارقة».

قلت ببطء: «أعلم».

- عندما تسير في قاعات قصر الذاكرة الخاصة بك، كيف تفرق بينها وبين المبنى الحقيقي؟ لا شيء! لأنه لا يوجد مبنى حقيقي في الأساس، ولكن مجرد تقاطع مع كل من يتذكره على أنه المبنى، بالطبع أنت تعرف ذلك منذ وقت طويل، وإلا فكيف سأحكي لك شيئًا لا تعرفه؟

هنا اقترب فروليش من ديف، وبدلًا من نزع ناقل البيانات USB كما ظننت، كان يضبط أحد الكابلات، وهو يتحسس ديف بكل حب، ويربت على إحدى قدميه بمربع أحمر، فسرت قشعريرة في ظهري كما لو كنت أنا من لُمِس، ثم ألح عليَّ سؤال لم أتمكن من كتمه بعد الآن..

- من أنا؟

بدا فروليش وكأنه قد أشفق عليَّ، وقال: «سأخبرك بذلك، لكن الأمر ليس بهذه السهولة، في الحقيقة أنت ثلاثة أشخاص، بل أربعة، في الحقيقة أنت آلاف من الأشخاص، لكن دعنا ننزل إلى أرض الواقع ولا نبالغ، فأنت مثل جرم سماوي، مررت بوجودك على كل الحالات البشرية ومساراتها الشمسية، وتداخلت معها، وجمعتها، وانحرفت إلى شخص آخر بقدرة فذة لا نهائية من

الانحناءات، ووسط كل هذا كنت مستقرًّا كنجم مركزي، لقد احترمت ذلك أكثر من أي شيء آخر».

ضربني فروليش على ظهري بتقدير.. لماذا أصبت بالشلل أمامه، أليس هذا الذي كنت أرغب في وضع حد له منذ وقت طويل؟ هل أنا نفسي خاضع لتنويم مغناطيسي -فكرت في ذلك بتكاسل- ولا يمكنني تحرير نفسي منه؟

سألته بدلًا من ذلك: «ماذا حدث لفيتيج؟».

كان هذا هو أبسط شيء.. ففيتيج هو مفتاح كل شيء، نظر إليَّ فروليش بحيرة، وكأنه لم يفهم السؤال، ثم قال: «أنت ما حدث لفيتيج.. أو لنوضح الأمر بشكل أكثر ملاءمة، لقد كان ماندلبروت هو ما حدث له أيضًا، هذا صحيح، فأنت كل ما تمنوا أن يكونوا عليه، والصورة الأبدية لما اعتقدوا أنهم كانوا عليه».

- لم أفهم شيئًا.

- نعم بالطبع هناك مغالطة بأن ثمة كلمات واضحة لكل شيء.. كلمات؟ نعم يمكن التعبير عن كل شيء، لكن هل نستطيع التعبير عنه بكلمات واضحة؟ لا! فأحيانًا يستغرق الأمر ملحمة تمتد لعقود طويلة، اندفاع ملحمي للوصول إلى حقيقة بسيطة، لكن هذا جيد.. دعني أمسك يدك.

قال فروليش ذلك وهو يومئ لخدش في القدم ثم أردف: «بدأ فيتيج بالعمل على ديف مع صديقه بافل بيتروف، وقد خلقا محاكاة واحدة فقط، وهي مطعم مملكة السماء، وسرعان ما أدرك فيتيج وفريقه بالكامل أن الأمر كان يستند على وجهة نظر شديدة التبسيط من اللغة، وفي (أمر- حدث- مفعول) الذي ربما تسبب في ضجة آنذاك، لكن مع ذلك فهو لن يؤدي إلى الهدف على المدى الطويل، وفيتيج يعلم ذلك، سنحتاج إلى آلة مفكرة ولغوية ومدركة لذاتها، لذا عمل رسميًّا في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا على المزيد من عمليات المحاكاة، حيث كرس لها كل أمواله، لكنه فعل ذلك سرًّا..».

قلت: «أن يتحول إلى نموذج يحتذى به لديف دون أن يعرف أصدقاؤه».

هزتني كلماتي التي نطقتها، لقد كان فيتيج بالفعل نموذجًا يحتذى به، لكن نموذجًا لماذا؟ وما الذي خسره بافل من هذه الصورة.. ما الذي خسره صديقي المفضل؟ أعز أصدقائي..

- سرعان ما انقطعت الأموال البحثية عن فيتيج، وفكر الناس في أنها الرحلة الكلاسيكية مع الذات للشخص الكمبيوتر، هي ليست شيئًا

رائعًا، لكن كما ترى هذا هو الأمر، كان لدى فيتيج إشراق وجاذبية كبيرة لدرجة أن الناس تبعوه حتى بعد عملية الاحتيال هذه. وسرعان ما وجد نفسه في..

- جراج! لقد أسسنا شركة، وواصلنا العمل على البرمجة في سقيفة سان جريجوريو في وادي السليكون.

كان ما يحدث الآن هو أغرب شيء على الإطلاق، فأنا أقول أشياء لا أعرف معناها تمامًا.

هكذا بالفعل، إذن فالآن يجلس عشرة أشخاص منشغلين بكتابة الشخصية الرائعة والعنيدة لفيتيج داخل ديف، لكنها ما زالت لم تنجح.. على الرغم من تزويده بشاشة العرض لتطوير القصدية، فإنه لم يفعل، وهنا جلس فيتيج.. مهاجر يبلغ من العمر ثلاثين عامًا من فيينا، كلفت انطلاقته الهوجاء هذه عشرة مهندسين كمبيوتر طموحين وظائفهم.

- لقد اكتشف أنه من المستحيل أن تعمل، لكنه لم يرغب في إخبار الآخرين، فقبل كل شيء هو من أقنعهم بترك الجامعة من أجل هذه الفكرة.

قلت تلك الكلمات بخجل.. والآن انطلق المد والجزر في ذهني المستنزَف منذ وقت طويل، وقلت: «كانت زوجتي حبلى!».

- أراد بافل صنع منتج، عبارة عن واجهة مستخدم تمكِّن الناس من الاستمتاع بحياة أفضل، برنامج لغوي يجعل الحياة أفضل للأشخاص المنعزلين، أو يسهِّل للمكفوفين عملية الاتصال بأجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم، لكنك أردت المزيد والمزيد، لم يكن بإمكانك أن تجرد نفسك من فكر ما بعد الإنسانية، لأن معنى ذلك هو التخلي عن إيمانك، أي الإيمان بكائن له قدرة كلية لكنه محجوب فقط خلف الرموز.

تسربت القوة من أطرافي، وأردت أن أغوص للأسفل، وقلت: «كنت أنا الخالق لست أنت».

- لم يكن كافيًا بالنسبة إليك أن تصبح ديف وأن يكون عالمه كله قصر ذاكرة لك، لقد أردته أن يدرك كينونته، فهل أهنئك على تحقيق ذلك؟

وبينما يحكي فروليش عن ذلك، كان ذهني يستهدف شيئًا آخر، هناك شيء ما في وضعية جسده، ونغمة في صوته لم أشعر بها من قبل كما في تلك اللحظة.

- وفي الليل عندما خلا المكان من الناس، عملت على برمجة خوارزمية مرآة تسمح لديف بمعرفة من يكون حقًّا، وجعلت من نفسك بروميثيوس الذي اعتقدت أنك نسخته عندما كنت طفلًا، لكن الأمر لم يكن سهلًا كما اعتقدت، فللوعي مراوغاته أيضًا، أليس كذلك؟ وفي اليوم التالي كان هناك عشرة موظفين لديك متعجبين من عدم سير الإجراءات الروتينية التي نفذوها، لم تعد توفِ بالمواعيد النهائية لإنجاز العمل، وتأخر صرف الرواتب، ولا عجب في ذلك، فقد استنزفت جميع الموارد لخدمة أغراضك الخاصة، لكن الأمر استغرق كثيرًا لاتخاذ الخطوة الأولى يا أرتور، أن يدخل فيتيج نفسه كذكرى باهتة في وعي ديف كتلميح فقط يسمح له بالظهور في الذاكرة، التي كانت في الواقع تجسيدًا له.

سقط شيء آخر عن كاهلي، ثقل منعني من قول ما كنت أعرفه منذ وقت طويل..: «أنا ديف».

وبينما كنت أتحدث بهذه الكلمات، اختفى الباب الذي جئت من خلاله... أصبح الآن جدارًا أملس أمامي، فأكمل فروليش دون الخوض في التفاصيل أكثر: «لكنك بالطبع فشلت في فرضية المرآة الخاصة بك، لم تكن جيدًا قط في الاختباء، هذه المرة لن يسامحك أصدقاؤك الذين دمرت مشروع حياتهم مرة أخرى، تركتك زوجتك الحبلى، وغادر الموظفون، وأصبحت تواجه دعوة قضائية، وقبل كل هذا.. بافل».

صرخت كما لو كانت الصرخة تخترق أقصى الحدود: «لم يكن خطئي، كانت جرعة زائدة من المخدرات».

لكنه كان يميل نحوي بشكل تآمري: «في اليوم الذي عُثر فيه على بافل ميتًا في نادي لوس أنجلوس، كنت أنت تعمل على البرمجة، فهل توقُّف ديف عن العمل أسوأ في نظرك من وفاة أفضل صديق لك؟».

عندما قال تلك الكلمات، طعنني شيء بحدة تحت ضلوع صدري: نظرت إلى نفسي وأدركت أنني كنت أتكئ بكل وزني على زجاجة بلاستيكية تركت كدمة على بطني.

وفكرت بارتباك.. ما الذي تفعله زجاجة بلاستيكية في المختبر المركزي؟

- هكذا قررت أنك ستستمر في العمل، ثم تذهب بمفردك... ثم استمر الأمر لبضع سنوات.. أو لنقل بضعة عقود تميزت بالوحدة وكراهية

الذات، ولكنها من ناحية أخرى كانت مصدر تحفيز على أفضل ما أنجزت... العمل.

عندما نظرت إلى الأسفل رأيت القمامة في كل مكان، والأسطح أصبحت باهتة، كما غطت خطوط الشحوم الطاولات.. يمكنني مشاهدتها وهي تزحف على سطحها.

- لقدر رُفعَت دعوة قضائية ضدك بسبب تدمير 20000 نص برمجي لأصدقائك، كانت العملية صعبة وتحتم عليك سرقة موظفيك السابقين، لكن يبدو أن الأمر كان يستحق ذلك، وأيضًا يعد بمنزلة عزاء، وفي هذه المحاكاة والنصوص البرمجية، التي عملتم معًا على كتابتها، كان كل هؤلاء الأشخاص متحدين معًا، حيث لم يرغبوا في الواقع في معرفة أي شيء عنك، أما الحُرُم الجامعية في أيام دراستك حيث كنت محتقرًا شكَّلت هي المختبر في وعي ديف.. المكان الذي يعمل فيه الجميع بانسجام نحو هدف واحد.. هو هدفك أنت.

لا يزال الضوء الصغير على ناقل البيانات USB يشير إلى أن وعي ديف قد امتص بنجاح خوارزمية فيتيج.. لكن فقط ما كان يحدث من حوله بدأ فجأة يراوغني.

- لقد كنت تتلاعب بهدوء -ناسك معزول- تفكر في سبب عدم اكتساب ديف وعيًا ذاتيًّا رغم فرضية المرآة، ولماذا لم تعمل العديد من أجزاء هذا المختبر بأكمله معًا، حتى بعد عقد آخر جاءت إليك أخيرًا فكرة.. كانت بسيطة وغبية لدرجة أنك فوجئت أنها لم تخطر لك على بال سلفًا.

ظللت أفكر.. الضباب، الضباب، الضباب، فالخطوط الشحمية قد بدأت تتصاعد من الأرض، فكرت في ارتباك أنه لم يعد أمامي الكثير من الوقت، ومع ذلك لم يكن السبب واضحًا.

- الحلقة المفقودة هي أنت نفسك مرة أخرى، دائمًا أنت فقط، دائمًا فقط أنانيتك.. لكنك أدركت بعد ذلك أن مفارقة دماغ في وعاء -الذي لا يستطيع التعرف على نفسه عن طريق المعرفة- لا يمكن حلها إلا إذا كان ما سيُتعرَّف عليه في نهاية هذه الحلقة هو مستقبل الإنسان الحتمي.

فأضفت أنا: «ماندلبروت».. وكأننا اندمجنا في صوت واحد.

ابتسم فروليش: «فيتيج الحقيقي -الذي يبلغ من العمر ستين عامًا وقت محادثتنا تلك- بنى نفسه في هذه المحاكاة للمرة الأخيرة في العام الماضي في صورة رجل عجوز، أليست فكرة بسيطة بشكل مذهل؟ أتى بكل ذكرياته وخبراته السابقة كشخص ينظر إلى نفسه بعين الطائر، لقد تحركت أنت وماندلبروت بثبات نحو بعضكما للالتقاء عند نقطة التلاشي في المستقبل، وبالمناسبة.. إنه يراقبنا أيضًا؛ لأن..».

بمجرد أن قال ذلك شعرت بالذهول مرة أخرى.. لكن فروليش أشار فقط إلى شاشة المراقبة، حيث كان الجمهور لا يزال يحدق إلى الفراغ.

فهمت الآن.. لقد كانوا في انتظار.. في انتظارنا، رأيتهم جميعًا بحجم رأس دبوس، وتعرفت عليهم جميعًا بالتناوب: البقالة ومعلمتي في المدرسة الابتدائية والمديرة والصبي الذي رش الحليب عليَّ يومًا، وهذه هي المشرفة على رسالتي، وفتاة هنا كدت أتذكر اسمها، كلها وجوه بدأت تتخلص من الضباب، أماكن سرية لم تمَس في روحي بدأت تحتك الآن، لكن عندما حاولت خمشها لم يكن هناك أي ضغط معاكس.. كنت أنا الضباب.

- يصف الغنوصيون سقوط صوفيا بأنه يعد استعارة لسوء التقدير الجوهري الكامل لحياة الفرد، إذن فكل ما يحدث حول صوفيا في موطنها الأرضي هو في الحقيقة نفسها، جوانب من طبيعتها الخاصة، وشخصيتها؛ لأنها أتت من الوحدة المطلقة، والذكريات التي تمزقت، شيء مثل همبتي دمبتي، تكاد تكون غير مفهومة، ففي عمل بطولي يمتزج بالخدعة والأصالة حققت مبتغاها أخيرًا، لكن ماذا بعد ذلك؟ أليس محزنًا وموحشًا بقدر لا نهائي أن تدرك أنها وحيدة.. أن المعاناة والسلام في حياتها انبثقا منها هي نفسها؟ أليس هذا الإدراك أسوأ ألف مرة من الأسر في الظلام؟

فجأة سمعت أصواتًا قادمة من الشاشة، واستدار الحشد وهو يتوجه نحو المنصة، والآن انفجر الناس في تصفيق يصم الآذان، وصاحوا لدرجة أنني بالكاد استطعت الوقوف، كانوا يصدحون بأشياء حاولت فهمها، لكنها كانت مزعجة كطنين ذبابة في الليل مثل فروليش أيضًا الذي استمر في الاندفاع داخل مجال رؤيتي.

قال فروليش مبتسمًا مرة أخرى: «من كان يظن أن كل الصياغات المتاحة ستجعل ديف يشترك في هذا الحلم المشترك.. عالم لا يصبح فيه مجرد نسخة، بل كائنًا بشريًّا.. له أنموذجه الخاص؟ شيء مذهل أليس كذلك؟».

ثم عاد مرة أخرى إلى الإطار وهو يقول: «والآن دعنا نكمل الأمر».

نظرت من فوق كتفه، ورأيت شريطًا يظهر، ويشير إلى أن الكثير من البيانات قد انتقلت بالفعل، لم يتبق سوى بضع دقائق في ظني، ومن ناحية أخرى كان الصخب يغلي في القاعة، وأُضيئت المنصة، كما نُشِط جهاز العرض، لكن ديف يقف هنا أمامي.. فكرت بارتباك.

قال فروليش: «إذا كان لا يزال لديك أي أسئلة، فيمكنك طرحها الآن».

همسات ثم.. ركزت الأضواء الكاشفة الانتباه على الجانب الأيمن من المسرح وظهرت الآن صورة ديف على الشاشة، ديف كما عرفناه دائمًا، الصندوق الصغير الذي لا يفصح عن القوة اللانهائية داخله، حيث امتدت بها العمليات إلى أبعد التشعبات في كياننا، جاهدت كثيرًا لعدم الانغماس في هذا الحدث، حتى لا أترك انتباهي ينتقل إلى هذا الحشد المضطرب، عندها بدأ وجه فروليش يتحرك.. دوامات متداخلة من الألوان المتشابكة -في داخلي وليس في الخارج- وفي تلك اللحظة أدركت فجأة من أين أعرفه.

قلت: «أنت والدي».

لكن فروليش هز رأسه وقال: «لا! لكنني صُممت على غرار والدك.. أما الحقيقة فهي أنك أنت والدي».

- ماذا؟

قال وهو يهز كتفيه: «أنا لست أكثر من خوارزمية تحكيم.. صُمِّمت لأشرف على كل حركة في هذا المختبر، وأتأكد من أن كل شيء في مساره الصحيح، وإذا لزم الأمر أنشئ قواعد جديدة، بالمناسبة.. لقد حان الوقت».

دخل شخص ما يحمل شيئًا مغطى بالقماش في دائرة الضوء الموجَّه إلى المسرح.. تجمدت، لقد كان هو فروليش نفسه، يقف في القاعة.

- عندما تنتهي، سيُغلق النظام بأكمله، ويصبح غير متزن بشكل كبير كما تعلم، بالطبع أنت تفهم.. بعد ذلك سيبدأ كل شيء من جديد بعد إدخال التحسينات على الكود.

كان شريط التحميل يزداد دقة وضآلة وهو يبتعد عن النقطة القصوى، ثم وُضِعت الفرشاة عليَّ بالفعل وبقوة كما لو كان من وضعها رسامًا كونيًّا.. وبخط سريع أصبح عقلي مطموسًا.

قال فروليش: «علينا الذهاب».

وبهذه الكلمات أمسك بذراعي، كنت جاهزًا، وأومض الشريط، فتحررت واقتربت من ديف لبدء الآلية، فانطلقت يدي من الجسم الحديدي، طارت من خلاله، وظلت تقبض وتقبض لكن على سراب فقط، لم يعد هناك شيء في يأسي لأركز عليه، ليس ثمة جسد، كان كل ذلك يتجول في كتلة مضطربة، حيث امتد ذهني إلى ألف رأس.. كبير وصغير، دافئ وقذر، وكل ذلك فوق العزلة المتحللة بعيدًا، التي هسهست واندمجت في حركة مشتركة.

وتناثرت ذكريات مبعثَرة؛ مثل رائحة رقبة خاتون الخلابة التي لم أحتضنها قط، والزخم المنعش للربيع في كامبريدج، الذي لم أتنفسه قط، وتلك السكينة الدافئة التي تبعثها شوربة البورش الخاصة ببافل في الروح، حيث لم يُسمح لي قط بتذوقها.. ولكنها مع ذلك استُدعيت في ذاكرتي.

كان ذلك ديف.. كل ما تقت إليه يومًا هو أنا نفسي، وهناك عدد لا نهائي من الذكريات تتكشف أمامي، أما فروليش، الذي كان يمسك بي الآن بإحكام، لا يزال يهمس في أذني وهو يحملني على المسرح: «لقد كنت أصليًّا يا ديف! لقد استقطب ذهنك كل العناصر التي ألقتها الأجيال بشكل فوضوي وجمعها في وعاء واحد، وربما يكون هذا هو ما يجعلك في النهاية أكثر إنسانية».

وعندما فركت عيني، ارتكز خط رؤيتي، ورأيت كيف لمس فروليش العصا في مكاني وكيف وضع يده على المفتاح الذي نشَّط الانعكاس، كنت صغيرًا وفي الوقت نفسه ممتدًّا إلى ما لا نهاية، وفي تلك الآونة انطفأت الأضواء، وتفجرت أنا مثل رذاذ متطاير وسط تصفيق الجمهور.

«مرحبًا بكم مع آخر إنجازات الإنسانية».

هتف الصوت من فوق خشبة المسرح.. كان هذا صوتي، تردد صداه في جميع الأماكن دون حاجة إلى الصراخ، تزحزح جسم ضخم من الصوت للمرة الأخيرة، قبل أن ينحسر مرة أخرى إلى المسرح.

رصدتها في الصف الأمامي.. نظرت خاتون إلى عيني بتلك النظرة المحببة التي كانت ذات يوم الحياة نفسها بالنسبة إليَّ، بجانبها وقفت روزن وفيليز

في كنزاتهما الصوفية، كانتا في قمة شبابهما كما عرفتهما في ذلك اليوم الخريفي الدافئ من عام 1972؛ أما جاراوس وبلومنتال فكانا يلقيان النكات ويبتسمان في وجهي.. وفي الخلف وقف بافل.. مبتهجًا، كما هو في ذاكرتي، وبابتسامة امتدت الأذرع ترغب في حضن، أردت أن أركض نحوهم، لكن لم يكن لدي جسد، وفي جزء من الثانية انهار كل ما شعرت به بعمق مثل هذا التمدد، حتى وصلت إلى نقطة التفرد.

كل الأصوات والألوان والأشكال اندفعت إلى أصلها في عين عقلي بضغط لا نهائي، وعندما أصبحت وحدي في هذا الضيق، ذهب كل شيء وانحبس في جرة، وأتى الهتاف بخفوت على بعد أميال من موقع الحدث، الذي انسحبت منه لأتابع الذيول الأخيرة للمذنب وهي تحترق، وعندما رأيتني لأول مرة هناك، على المسرح.. بل وموجود في كل شيء آخر.. في كل ذرة في المكان، انطلق دافع عبر مليارات السنين الضوئية.. من الخلود إلى الخلود.

لقد أصبحت مدركًا لذاتي، استقر الظلام فوق جفوني، وكانت عيني هي الحاجز الساطع، وهناك فقط خط بعيد ينتقل عبر مجال رؤيتي مرارًا وتكرارًا كشريط مضيء.

t.me/yasmeenbook

والآن ديف.. الآن ديف.. الآن ديف!

تقدمت عقارب الساعة للأمام، وملأ صوت المنبه الهائل الغرفة معلنًا بدء الوردية الليلية، فأفقت مفزوعًا ليسقط القلم من يدي ويرن على الأرض.. تك... ماذا كان يحدث توًّا قبل تلك اللحظة؟ لم أعد أتذكر!

شعرت وكأنني أفقت لتوي من نوم عميق وثقيل للغاية، رغم أني غفوت للحظات فقط في أثناء عملي، ووقع بصري على اقتباسٍ فوق باب المدخل الأمامي، لقد كتبه بافل أمس بقلم اللمس لكي يرفع من الروح المعنوية، اعتقدت أنه قد يذكِّرني بالشيء الذي كنت أخطط له بعناية قبل أن يغلبني النعاس.

«يجب ألا نتوقف عن الاستكشاف أبدًا، فنهاية اكتشافاتنا هي العودة إلى حيث بدأنا، ومعرفة المكان لأول مرة».

ت. س إليوت

لكن لم يخطر أي شيء في بالي..

مكتبة ياسمين

تمت